مفاهيم اسلامية

مقالات وفتاوى

للشيخ يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م

الجُزء الأوّل

الإلٰهيّات

UNIV. LEIDEN BIBL.

تقديم

بقلم فضيلة الدكتور : الحسيني هاشم

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فقد بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم — رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين وأنزل عليه كتابه المبين شفاء لما فى الصدور وهدى وبشرى للمؤمنين فاستجاب لدعوته أصحاب العقول النيرة والفطرة السليمة وجاهدوا تحت لوائه مخلصين حتى نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وأظهر دينه على الدين كله .

وقد واجهت الدعوة الإسلامية على مدى العصور والأزمان حروبا فكرية متلاحقة أراد بها خصوم الإسلام أن يطفئوا نور الله بأفواههم (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

ومن رحمة الله بعبادة أن قيض للإسلام فى كل زمان رجالا دافعوا عن دينه بكل ما يملكون من قوة شرعوا فى أقلامهم وألسنتهم فى الدفاع عن الإسلام : نشروا حضارته ، وأظهروا أصالته ، وكشفوا عن نوره المبين ، وبسطوا أحكامه ومسائله فى وضوح ويقين .

ومن هؤلاء عالمنا الجليل الشيخ يوسف نصر الدجوى ، أحد أكابر علماء القرن الرابع عشر الهجرى ، وقد نشأ فى بلدة « دجوة » من أعمال القليوبية ، وحفظ القرآن مبكرا ، ثم التحق بالجامع الأزهر وارتشف رحيق العلم من شفاه أعلامه الممتازين ، حتى صار متبحرا فى مختلف العلوم الدينية والعربية وساعده على ما أكرمه الله به من بصيرة نيرة وعقل وقاد ، وحصل على الشهادة العالمية ، وأظهر جدارة ممتازة فى شتى علومه المقررة .

ثم تولى التدريس بالأزهر وكان لعامه الغزير وفهمه الناضج وأسلوبه البليغ أثر عظيم فى اجتذاب الطلاب إلى درسه والالتفاف حوله ، حتى ارتفع ذكره وانتشر مجده خارج محيط الأزهر ، حيث كتب فى الصحف اليومية والمجلات الدينية بأسلوب عصرى رفيع وفهم لما استحدث من العلوم والمعارف وتطبيق الآيات الكونية على ما صح منها .

واستمر مجد هذا العالم المجاهد فى صعود حتى اختير عضوا بارزا فى هيئة كبار العلماء فى الأزهر الشريف وأصبحت له شهرة واسعة فى العالم الإسلامى جعلت داره بعزبة النخل كعبة للوافدين من العلماء وطلاب المعرفة .

ولقد كان شيخنا الدجوى عليه رحمة الله واسع الفكر فى الفقة الإسلامى فكانت له فيه فتاوى عظيمة يحتاج إليها المسلمون فى كل زمان ، وبخاصة فى عصرنا الحاضر . حيث تناول فيه معاملات البنوك ، وحكمة تعدد الزوجات ، والأولياء ، والحسد والرقية منه ، وهل للحسد تأثير فى المحسود ؟ وبعض مشكلات الرضاعة والأيمان التى لا يعتبرها الشرع ، والقراءة للأموات ، إلى غير ذلك من الفتاوى الفياضة النافعة والمقالات الممتعة فى شتى المجالات .

وكان لمقالاته وفتاويه ورسائله دوى عظيم فى الأوساط الإسلامية والعلمية وتتلقاها الأمة بالقبول الحسن .

ولقد رأى مجمع البحوث الإسلامية ، فى هذه الآونة من تاريخ مصرنا العزيزة ، وفى مواجهة التيارات الفكرية المختلفة — أن يقدم هذا الكنز الثمين للأمة المحمدية لكى تنتفع بنفائسه ، فقرر أن يطبع هذه الفتاوى والمقالات التى نشرت متناثرة فى الصحف والمجلات ، إسهاما منه فى توضيح الكثير من المفاهيم الإسلامية .

ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل عباده المؤمنين وأن يثيب هذا العالم على هذا العطاء الجزيل .

إنه نعم المولى وولى التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ يوسف الدجوى

بقلم الشيخ محمد زاهد الكوثرى (١)

انتقل إلى رحمة الله سبحانه ذلك العلامة الأوحد والنحرير المفرد الشيخ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن أحمد بن نصر الدجوى ، عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف .

وأم الجماعة فى الصلاة عليه فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى مسجد الأميرة فريال فى عزبة النخل .

وحملت جنازته على الأكتاف فى جماعة كبيرة جداً من علماء الأزهر وغيرهم من عارفى قدره العظيم إلى مدفنه فى (مقبرة ، عين شمس) .

وأودع مقره الأخير بعد العصر من نهار الأربعاء خامس صفر الخير من سنة ١٣٦٥ هـ . عن ثمان وسبعين سنة قضاها فى الأعمال الصالحة ونشر العلوم النافعة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجهاد فى سبيله بقلمه ولسانه .

(١) الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكوثرى المتوفى فى تاسع عشر ذى القعدة الحرام من سنة احدى وسبعين وثلاثمائة وألف . ودفن بشارع الفخر الرازى أمام مسجد الكحلاوى قريباً من قبر أبى العباس الطوسى المشهور عند العوام بالتونسى .

وكان رحمه الله آية فى الذكاء وسرعة الخاطر وجودة البيان وقوة الذاكرة وسعة العلم ،يحضر حلقات دروسه فى (الأزهر الشريف) مئات تناهز الألف من العلماء وطلبة العلوم ،ويصغون إصغاء كلياً إلى بيانه الساحر وإلقائه الجذاب ، وينهلون من هذا المنهل العذب .

وكان هو مفسر الأزهر ومحدثه وفيلسوفه وكاتبه وخطيبه بحق بين أهل طبقته من العلما .

وكان موضع ثقة الجماهير من الشعوب الإسلامية فى شتّى الأقطار ، اعترافاً منهم بسعة علمه وعظم إخلاصه وبالغ ورعه ، تتوارد إليه استفتاءات من شتّى الأقطار والجهات .

وكان سمحاً كريماً يتهلل وجهه سروراً عندما يتمكن من قضاء حاجة من يرجع إليه فى أمر ما ،وكان عطفه على الغرباء مما لا يتصور المزيد عليه ، وذلك مما هو مذخور له فى آخرته .

وله مؤلفات ممتعة سارت بها الركبان إلى شتى البلدان ، ومقالاته النافعة فى شتّى المواضيع لم تزل تنشر فى الجرائد والمجلات العربية إلى آخر لحظة من إيام حياته رحمه الله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولد الأستاذ – رضى الله عنه – فى (دجوة) من أعمال قليوب بمصر سنة ١٢٨٧ هـ . من أب عربى من بنى حبيب ، وأم من سلالة سيدنا الحسن السبط – رضى الله عنه – .

ولما أصيب بفقد البصر فىصغره بسبب مرض الجدرى أخذت أمه تبكى وتتألم فقال لها والدها –من كبار الصالحين فى زمانه – لا تحزنى إن

الله سبحانه سيعوضه عن بصره ببصيرة نافذة تجعله عالماً كبيراً ، يرجع إليه فى حل المشكلات ، فعدت أمه هذه الكلمة كلمة تسلية مجردة ، لكن الله – سبحانه – حقق ما قاله أبوها فيه حتى أصبح هذا الطفل – فيمابعد – عالماً عالمياً مشهوراً فى الآفاق .

وحفظ القرآن الكريم فى بلده ثم أرسله والده شيخ العرب أحمد ابن نصر إلى (الأزهر الشريف) فتلقى العلوم من كبار أساتذته من سنة ١٣٠١ هـ . إلى سنة ١٣١٧ هـ . حتّى دخل فى امتحان العالمية فى شهر صفر من سنة ١٣١٧ هـ . فحاز شهادة العالمية بتفوق عظيم ، وأعجب به ممتحنوه من كبار أهل العلم ، حتى قصد منزله الشيخ راضى الحنفى المشهور بالبراعة فى العلوم إذ ذاك مع نوع من الترفع عن أهل طبقته، وهنأه بهذا التوفيق ودعا له بكل خير ، وعد هذا منقبة عظيمة له بين أترابه وفاتحة خير لوجوه التوفيق فى سبيل العلم ، إلى أن أصبح نجماً متألقاً فى سماء جماعة كبار العلماء .

وله شيوخ أجلاء فى العلوم ، ومن أعاظم شيوخه الشيخ هارون بن عبد الرازق البنجاوى المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ . عن ٨٧ سنة وهو عمدته – والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ . عن سن عالية ، والشيخ محمد بن سالم طموم المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ . والشيخ أحمد فائد الزرقانى ، والشيخ رزق بن صقر البرقاوى، والشيخ داود، والشيخ سلم البشرى شيخ الجامع الأزهر وهؤلاء من السادات المالكية ومن كبار شيوخه أيضا الشيخ محمد البحيرى ، والشيخ عطية العدوى الشافعيان .

وكان شيخه فى لوم القراءة هو القارئ المشهور الشيخ حسن الجريسى الكبير ، وسنده فى علوم القراءة معروف !

وأما هارون والرفاعى وطموم والزرقانى فقد أخذوا عن الشيخ أحمد منة الله الشباسى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ . عن الأمير الكبير المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ . وأما رزق والبشرى وداود فقد أخذوا عن الشيخ محمد الصفتى المالكى المتوفى سنة ١٢٩٤ هـ . وهو عن الأمير الكبير — أيضاً — ، وأما البحيرى والعدوى فقد أخذا عن إبراهيم السقا الشافعى المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ . عن الأمير الصغير المتوفى سنة ١٢٤٨ عن والده الأمير الكبير ، وإلى الأمير الكبير منتهى أسانيد هؤلاء الشيوخ الأعلام ، وللشيخ أحمد منة الله ثبت مطبوع مع ترجمة عبد القادر الرافعى ، يسوق فيه سنده بطريق البهى ، على أغلاط مطبعية كثيرة فيه ، والشيخ طموم أخذ — أيضاً — عن الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوى صاحب رموز الأحاديث وشرحه المتوفى سنة ١٣١١ هـ . وهو أخذ عن السيد أحمد بن سليمان الأروادى المتوفى سنة ١٢٧٥ هـ . وعن مصطفى المبلط المتوفى سنة ١٣٨٤ هـ . فالأروادى أخذ عن ابن عابدين وحامد العطار وعبد الرحمن الكزبرى والشهاب الصاوى ، وللأربعة أثبات معروفة ، والمبلط له ثبت ، أخذ عن الأمير الكبير والشنوانى تلميذى على الصعيدى . والشنوانى أخذ أيضاً عن مرتضى الزبيدى ، وأسانيد هؤلاء وأثباتهم معروفة جامعة لأثبات من تقدمهم ، حشرنا الله — سبحانه — وإياهم تحت لواء حبيبه المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ونفعنا بعلومهم ! ....

وقد تلقيت من الأستاذ الدجوى رحمه الله (موطأ الإمام مالك) من رواية يحيى الليثى فى مجالس آخرها فى اليوم الثانى والعشرين من صفر سنة ١٣٦١ هـ . بقراءتى عليه لجميعه إلا بعض مواضع يسيرة منه فإنه ناوبنى فيها الشيخ على الخصوصى فى بعض المجالس .

فأجازنى به وبجميع ماله من الروايات إجازة عامة . وساق سنده فى الموطأ عن أحمد منة الله عن الأمير الكبير بسنده بطريق السقاط ، ورجال هذا السند كلهم من (المالكية) من الأستاذ الدجوى إلى الإمام مالك رضى الله عنه .

كلمة مجلة الأزهر

عن الشيخ يوسف الدجوى (١)

فوجىء المسلمون يوم الأربعاء ٥ من صفر سنة ١٣٦٥ بنبأ وفاة العلامة الشيخ يوسف الدجوى ، فكان لوفاته أثر عميق فى القلوب ، قل أن يشاهد مثله لغيره فى هذا العهد الحديث . فقد كان – رحمه الله – واحداً من بقية الأعلام الأزهريين الذين مثلوا مجد الأزهر القديم ، وحفظوا تقاليده المتوارثة كابراً عن كابر ، بحيث يتعذر ملء الفراغ الذى تركه أمداً غير قصير .

كان الأستاذ الدجوى من العلماء الراسخين فى العلوم التى تدرس فى الأزهر ، أخذها عن أئمتها مثل الشيخ هرون عبد الرزاق والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى والشيخ محمد طموم ، والشيخ أحمد فايد الزرقانى ، والشيخ رزق البرقامى ، والشيخ سليم البشرى ، والشيخ محمد البحيرى العدوى ، وكلهم من أقطاب الجامعة الأزهرية الذين صانوا رسالتها إلى هذا العصر الحديث (٢) .

(١) كلمة نشرتها مجلة الأزهر بمناسبة وفاة الشيخ يوسف الدجوى .

(٢) اعتمدنا فى إيراد هذه الأسماء وفى سنى ميلاده وتخرجه على ماكتبه عنه فضيلة الأستاذ محمد زاهد الكوثرى .

ولد الأستاذ الدجوى فى قرية دجوة التابعة لمركز قليوب فى سنة (١٢٨٧) من أب عربى ، وأدخله والده الأزهر فى سنة (١٣٠١) ونال شهادة العالمية فى سنة (١٣١٧) بنجاح عظيم كان مدعاة لأن يزوره فى داره الشيخ راضى الحنفى من كبار العلماء وهنأه على ما أصاب من توفيق . وما فعل ذلك إلا من شدة إعجابه به ، وإكباره لشأنه ، وتوقعه له حياة علمية تشرف الأزهر والأزهريين. وقد صدق حدسه فإن الأستاذ الدجوى لم يلبث أن ظهرت مواهبه ، وتجلت خصائصه ، فصار مرجعاً للمستهدين والمستفتين فى جميع البلاد الإسلامية .

ولما أسست المشيخة الأزهرية (مجلة الأزهر) كان أول من وقع اختيارها عليهم ليحرروها الأستاذ الدجوى – رحمه الله – فكتب فيها البحوث الممتعة فى الدين والتفسير والحكمة ، وبقى على موافاتها ببحوثه إلى عهده الأخير .

ومن مميزات الفقيد – رضى الله عنه – أنه يأنس إلى البحوث النفسية الحديثة فى أوروبا ويراها خير أداة لكسر شوكة الماديين ، وقد اعتمد فى كتاباته على ما حققوه منها ، وكان لا يخشى فى مجاهرته بذلك لومة لائم .

وقد ترجم له قلم ترجمة مجلة الأزهر كتابة القيم (رسائل السلام) إلى اللغة الانجليزية ،فطبعت المشيخة الأزهرية منه عشرة آلاف نسخة

نشرنا كثيراً منها لمن لا يستطيعون فهم العربية ولا نزال نبعث منها للأجانب الراغبين .

الله نرجو أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يعوض المسلمين فيه خيراً وأن يجعل من جهاده وإخلاصه وسيرته الطيبة ، خير مثال للصالحين ، ومنارة هدى للسالكين .

مقالات الشيخ يوسف الدجوى

قسم الإلهيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمانُ بالله

علم الطبيعة برىء مما نسبوه اليه وافتروه عليه

(١)

ادلة وجود الله :

منينا فى هذه العصور – التى يجدر بنا أن نسميها عصور الزور والإثم والفجور – بقوم ينسبون إلى العلم ما يتبرأ منه العلم ، فيعارضون كل شيء جاءت به الديانات بحجة أن العلم يأباه .

وقد وثق بهم كثير من الناس لما بهرهم من آثار ذلك العلم المادى التى تسبى الأنظار وتدهش الأفكار ، فظنوا أن كل ما يقولون من جنس هذه المنظورات ، وأن لهم من التجديد فى المعقولات ما لهم من التجديد فى المخترعات .

ولكن فاتهم أن هؤلاء المتفيهقين المتحاملين على الأديان إنما برزوا فى المحسوسات لا فى المعقولات ، وفى علوم الطبيعة لا فيما وراء الطبيعة ، ولما لم يمكنهم أن يكذبوا على علم الطبيعة فى المحسوس كذبوا عليه فى المعقول ، فكانوا كالمدلس الذى لا ضمير له أو لا منطق له ، فهو يخلط الحق بالباطل والصحيح بالعاطل ، فخانوا العلم وغشوا الناس جهلاً بالدين وبغضاً فيه وتحاملاً عليه .

---

(١) مجلة الأزهر – العدد الأول – المجلد الأول – المحرم سنة ١٣٤٩

مع ملاحظة أنهم ليسوا أهل منطق ولا استدلال ، وليس لديهم غير ذلك التمويه الباطل ، وتلك الثرثرة الفارغة التى ليس فيها ظل من برهان ولا أثارة من علم ، وكثيراً ما يشتبه عليهم القياس الفاسد بالقياس الصحيح ، والتخمين باليقين ، والاستحسان بالبرهان ، وكثيراً ما تكون المسائل هناك فى محل الفرض أو الأخذ والرد فيحسبونها علماً ، وهى فى أول مرحلة من مراحل البحث العلمى .

وطالما تناقضوا « والمبطل لا بد أن يتناقض » فبينما هم يقررون أنهم متمسكون بالمحسوس ولا يقولون بغير ما وقع عليه العيان ، إذ تراهم يخبطون خبط عشواء فى ظلمات الأوهام ، متخطين تلك الحدود التى رسموها لأنفسهم إلى حضيض الخيال والتظنن والتخرص ، على أن الملحدين عندنا أجهل وأقل من أن يقال إن لهم شيئاً يتقدم به العلم المحسوس أو المعقول ، وأصغر من أن يكون لهم فيه ظن أو استحسان ، وإنما هم أذيال لأولئك الماديين المتعصبين الجاهليين ، كالمنافق الغمر الذى يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فهؤلاء لا يعدون من رجال العلم ، وإنما يعدون من صبية ملاحدة الغرب الذين يصفقون لهم كلما سمعوا شيئاً من الترهات أو الخرافات « والمصفق يصم الآذان ولا يعرف البرهان » .

ولنسق إليك بيان علم الطبيعة وحدوده التى يقف عندها ولا يخرج عنها لتعلم أن هؤلاء كما مرقوا من الدين مرقوا من العلم وكما برئوا من

الصدق برئوا من المنطق ، وكما قتلوا ضمائرهم أرادوا أن يقتلوا الحق أيضاً فنقول :

إن علم الطبيعة علم تعرف به علاقات الأشياء بعضها ببعض ، ولا بحث له عما وراء ذلك . فإذا سألته عن حقيقة الأشياء أو عن أوائلها ومصيرها أجابك : ذلك خارج من حدودى وليس من اختصاصى .

فالطبيعى إنما يبحث عن الطبيعة وظواهرها بعد وجودها وتحققها ، لا قبل وجودها وظهور مقتضياتها ، كما لا بحث له عمن أوجدها ولا لماذا أوجدت فيها تلك الظواهر ، ولا كيف أودعت فيها تلك الخواص .

فعلم الطبيعة يعرفنا مثلاً أن جزءاً من الأوكسجين وجزأين من الأيدروجين تكون ماء ، ولكن كيف كون هذان العنصران ماء مع أن الأوكسجين عنصر محرق ، متى لقيه شىء قابل للالتهاب التهب ، والأيدروجين عنصر لا يعيش فيه الحيوان ، وكذا الأزوت الداخل فى تركيب الهواء بنسبة ٧٩٪ فكيف كونا ماء أو هواء تكون به الحياة وأحدهما محرق والآخر مميت .

إذا سألته هذا السؤال أجابك أنه عاجز عن تعليل ذلك ، وإن هو إلا علم تجربة فقط ، فما أدت إليه التجربة العملية جعله قانوناً من قوانينه ، وإن كان لا يعرف لماذا كان ولا كيف كان ، فضلاً عن أن يعرف أول الأشياء وآخرها أو كنهها وحقيقتها .

ولديك هذا الغذاء : تعرف من أحواله أنه يهضم فى الفم هضماً أول ، ثم يهضم فى المعدة هضماً ثانياً ، وتعرف أن فى المعدة عصارة تساعد على الهضم ، ثم يخرج منها إلى الأمعاء الدقاق فيهضم فيها هضماً ثالثاً ، ويساعد على ذلك العصارة البنكرياسية التى أوجد لها الحكيم العليم تلك الغدّة التى تفرزها ، ويساعد عليها أيضاً الصفراء التى تفرزها الكبد ، إلى آخر ما هو معروف . ولكن كيف تمثل ذلك الغذاء عيناً وفماً ويداً ورجلاً ومخاً مدركاً إلخ .

أو تقول : كيف تمثلت تلك الأصناف التى تأكلها من البقول والخضراوات والفواكه . . . إلخ إنسانا سميعا بصيرا عالما متكلماً؟ إذا قلت للطبيعى : كيف صارت هذه الأشياء إنساناً ؟ ولو حدثنا أحد بذلك ما صدقناه لولا أننا نرى الأمر عيانا فى كل وقت ، أو قلت له : كيف انقلب هذا التراب زرعاً وزيتونا ونخيلاً وأعناباً وثمرات مختلفة الأشكال والطعوم والألوان ؟ .

لو سألته مثل هذه الأسئلة لأجابك : إنى لا أعرف لذلك سراً ولا أفهم له معنى ، ولكنى أقرر لك ما أثبتته المشاهدة وأوصلتنى إليه التجربة ، فأما ما وراء ذلك فليس من علمى ولا هو داخل تحت اختصاصى .

ولذلك قال سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الكبير : « ليس الغرض من تعلم علم الطبيعة معرفة هذه الظواهر التى يعرفها تلامذة المدارس ، وإنما الغرض الأسمى أن نقف على ذلك السر الباهر من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » . وقال باكون وهو أستاذ أساتذة علم

الطبيعة : « من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ومن شربه عبا أوصله إلى الخالق » .

وفى (سبيل السعادة[1]) نقلاً عن (مجلة الحياة) هذه العبارة الطريفة : « جاء فى أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه الجملة :

« ليست الفكرة الواحدة إلا اتحاداً يشبه اتحاد حمض الفسفوريك ، والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذى هو فى تركيب المخ » فرد عليها العلامة الطبيعى الشهير كاميل فلامريون قائلاً : « من أخبركم بذلك يا حضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع أن الأمر بخلاف ذلك لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباء منثوراً ، على أنى لا أدرى أى الأمرين يستحق أن نتعجب منه أكثر ، أمن الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم أم من سخافة ادعاءاتهم ، إن (نيوتن) كان يقول : « يظهرلى » و (ديكارت) كان يقول : « إنى أستنزل حلمكم فى هذه الفروض » ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت . نحن ننكر . هذا موجود هذا غير موجود . العلم قد حكم . العلم قد أقر . العلم قد أدحض .

مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى ، إلى أن قال : « إنكم تتجاسرون أن تعزوا إلى العلم هذا العبء الثقيل ، ولئن سمعكم العلم أيها السادة — ويجب أن يسمعكم لأنكم من أبنائه — لضحك استهزاء من غروركم ، إنكم تقولون : العلم يثبت . العلم ينفى . العلم

(١) مؤلف من مؤلفات الشيخ الدجوى — عليه رضوان الله — وقد طبع أكثر من مرة .

يأمر . العلم ينهى . وبذلك فأنتم تضعون على شفتى هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة ، وتدخلون إلى فؤاده هزة الكبر والعجب » اهـ كلامه .

فأنت ترى مكان تلك الطنطنة الفارغة أمام الفلسفة الصحيحة والعلوم الحقة التى يعرفها (كاميل فلامريون وأمثاله) . وقال البحاثة الكبير (توماس كارليل) فى هؤلاء المتشدقين الذين ضغطوا على وجدانهم حتى قتلوه وعلى عقولهم حتى أزهقوها ثم دفنوها فى مقبرة المحسوسات .

قال : إنهم يحصرون هذا الكون وما به من شتى المناظر والأشكال والأصوات والحركات العديمة العدد ، والنجوم والغيوم والقفار والبحار فى اسم مركب من بضعة أحرف (طبيعة) فيطوون جلاله العظيم فى أثناء لفظ حقير . إن للكون لروعة فى القلب أى روعة وموقعاً أى موقع لو ظهر عارياً من تلك الحجب التى غطت جماله ورونقه .

إلى أن قال : « أما ظاهر الكون فقد عرف العالم عنه شيئاً ، وأما الباطن فهو سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كماوى ، إنما أولى بالمرء فى هذا المقام الإذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيميائه » .

إلى أن قال : « صنع العلماء فى أسرار الكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على موجه المتلاطم كريشة فى مهب الريح » .

إلى أن قال : « إن هذا الكون على رغم العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات » ثم قال : « أليس أقصى ما نستطيع أن نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة وأنه شىء ونحن شىء آخر فهذا كل ما يمكننا معرفته ، الكون شىء ونحن شىء غيره : قوة فى قوة ، فحيثما ألقيت البصر ألفيت قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية » . ثم يقول : لا أخال أنه يجتمع الإلحاد والتفكير فى هذه القوى الفعالة الذاتية المحدقة بنا والتى لا تكل ولا تنى ولا تفتر ولا نعرف لها أولًا ولا آخرًا ولا مبدأً ولا نهاية . (فقتضى على الملحدين أنهم غير مفكرين) إلى أن قال : ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فى الحوانيت . إلى آخر ما قال .

وقال العلامة الطبيعى الانجليزى (ميلين ادوارد) : يجب أن يدهش الإنسان حينما يرى أن أمام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج المصادفة ، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة وأثراً لتلك الطبيعة التى تكون مادة الخشب ومادة الأحجار ، وأن إلهامات النمل بل أسمى مدركات القوة الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الكيميائية ، إن هذه الفروض الباطلة أو بالأحرى هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد أدحضها العلم الصحيح إدحاضا ، فإن الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها أبدا ؛ وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية

الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية.

ثم نقول لهم بعد ذلك على سبيل التنازل : هل عدم الدليل يدل على عدم المدلول ، وهل عدم العلم بالشىء يوجب العلم بعدم الشىء ، أما كنا نجهل الميكروبات والكهرباء ومكثنا على ذلك ألوف السنين ، فهل نستنتج من ذلك عدمهما فى الواقع ، وكذلك الراديوم مثلا لم يعرف إلا منذ عهد قريب ، فهل كان معدوماً قبل أن تستكشفه تلك السيدة التى أبرزته إلى عالم الظهور ، وأى فرق إذن بينكم وبين زنوج أفريقية المتوحشين الذين ينكرون مرقم الخطاب الجوى : (التلغراف اللاسلكى) مثلاً لعدم علمهم به وتصورهم إياه ، اللهم إنا نرفع الصوت عالياً بأنكم فى إنكار الأشياء حتى تروها بأعينكم مثل أولئك الزنوج لا فرق بينكم وبينهم ، فإن حجتكم هى حجتهم ، وما تستندون إليه عين ما يستندون إليه ، وكان ينبغى أن تربأوا بأنفسكم عن تلك المخجلات وترتفعوا بها عن ذلك المستوى الذى فيه أولئك الهمجيون المتوحشون ، بل نقول لهم أكثر من هذا ولا نخشى فى الحق لومة لائم : إن الوقوف مع الحس وعدم تخطيه إنما هو شأن البهائم التى لا تعرف غير المحسوس ولا يمكنها أن ترتقى إلى ما فوقه ، فهذه فلسفة بهيمية لا إنسانية .

ثم نقول بعد ذلك : إن العلم الذى يستندون إليه كثيراً ما ينقض اليوم ما قرره بالأمس ، فقل لى بعيشك أى ثقة تبقى لهذا العلم بعد ذلك ، وأى علم هو ذلك الذى يوجب هذا التبجح وتلك الكبرياء التى

جعلتهم يحكمون على السموات والأرض ويخرجون على الله ورسوله وينفون جازمين ويثبتون موقنين ، وكلما عرتهم مشكلة فى الكون حلوها بعبارة فارغة لا معنى لها عند من لا يقدسهم ولا يهابهم . وما أجدرنا أن نقول لمن يتفلسف ذلك التفلسف الفارغ الذى عرفت قيمته ما قال بعض الفضلاء :

يا من تفلسف كى يؤيد كفره   مع أنه لم يدر كنه وجوده

خسرتْ بسوق الفضل صفقةُ جاهل   تخذ العلوم ذريعة لجحوده

ولنذكر لك بعد هذا شيئاً من الأدلة الواضحة القريبة التى يطرب بها أهل الوجدان ويشهد لها أرباب صناعة البرهان ، فنقول :

أدلة واضحة

كان ينبغى ألا يختلف الناس فى هذه العقيدة لأن دلالة الأثر على المؤثر ، والنظام على المنظم ، والفعل المحكم على الحكيم بدهية بل قالوا : إن ذلك مما يدركه الحيوان فضلاً عن الإنسان ، فإنك إذا ضربت الحمار مثلاً التفت ليرى من ضربه ، لأنه مركوز فى فطرته أن الأثر لا يكون بلا مؤثر والفعل لا يكون بلا فاعل . فإذا رأيت كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم تشك فى أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير إلى الأوقات أيقنت أن لها صانعاً رتب أجزاءها وأعدها لتلك الغاية .

وما مثل من ينكر الخالق وهو أظهر من الشمس – لأن وجود الأثر فى نظر العقول ليس أقوى ولا أجلى من وجود المؤثر – إلا كمن رأى خزان أسوان بالقطر المصرى أو برج إيفل بفرنسا فقال : إن ذلك على فخامته

وضخامته لا يحتاج إلى مهندس ولا صانع ، أو كمن رأى كتاباً بديعاً فى مبانيه بليغاً فى معانيه وفيه من الفلسفة العالية والأفكار السياسية ما يفوق أفكار أفلاطون وفلسفة أرسطو ومن الأدب الرائع والشعر البارع ما يسمو على شعر المتنبي وأدب أبي العلاء، فلما نظر فيه عبس وبسر وفكر وقدر ثم قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت فى صندوق كان معها شيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية فعملت حروف الطباعة فى الأوراق عملها فوجد ذلك الكتاب على ماترون ؛ فهل ترى صاحب تلك الفلسفة بالجنون .

وإذا كنت لا تسلم أن ساعة توجد بلا صانع وأن باخرة توجد بلا مهندس ، بل لا تسلم أن كلمة صغيرة توجد بلا كاتب . فكيف تسلم أن هذا الكون العظيم الذى يبهر العقول ويحير الألباب قد وجد بلا موجد ونظم بلا منظم وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار إلى أنواع لا يحصيها العد ولا يأتى عليها الحصر ، قد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم وينوعها إلى مالا يحصى من الأنواع ، ويمتعها بما شاء من الخصائص المختلفة والمزايا المتباينة والصفات المتقابلة ، علماً منه بما يترتب على ذلك من الغايات وماله من جليل الثمرات ، ثم يحفظها بما أودع فيها وما هيأ لها ، وما أوجد بينها وبين غيرها من العلاقات والروابط التى ربطت العالم العلوى بالعالم السفلى ، وجعلتهما جميعاً يؤلفان نظاماً واحداً يرمى إلى غاية واحدة .

فكأن العوالم كلها فى ترابطها وتضامنها – أو نقول فى تجاذبها وتضافرها على مقصد واحد – تؤلف بيتاً أحكمه بانيه . فلست ترى شيئاً صغيراً أو كبيراً إلا لغرض سام وحكمة جليلة ، أو كأنها جسم واحد قد تعاونت أعضاؤه وتضافرت أجزاؤه ، وإذا نظرت إلى كل جزء من أجزائه بهرك ما فيه من حكم وأسرار وما نيط به من منافع وآثار فإذا نظرت إلى ما بين تلك الأجزاء من العلاقات وما فيها من الدقائق الخفيات والمناسبات المدهشات ، ورأيتها متآخذة يمسك كل منها بحجزة الآخر ، وهى مسوقة للسير الدائم لا تفتر ولا تنى ولا تعرف الهدوء ولا السكون ، علمت أن لها مدبراً دبرها ، ومقدراً قدرها ، وحكيماً سيرها ، وقيوماً يكلؤها بعينه التى لا تنام ، وقدرته التى لا ترام .

وقد قال بعض الفلاسفة : يكفينى من الدلالة على الله وجود الأنثى بجانب الذكر ، فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود المرأة فأوجدتها وغايرت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومتعتها بما يجذب الرجل إليها من صفات الجمال حتى فى صوتها ، ومنحتها ما يحتاج إليه طفلها الصغير .

هذا معنى ما قال ، وهو يشبه ما قال أفلاطون : « يكفينا ما فى العين من التدبير الذى جعلها فى مكان من الحجاج ، وجعل لها الحاجب ليقيها من العرق أن يتساقط فيها ، والهدب ليقيها الغبار ولا يمنعها الضوء » .

وقد قال (فولتير) وهو من أكبر الفرنسيين : من قال إن طبقات العين العجيبة التى تدل كل واحدة منها على حكمة سامية قد وجدت بالمصادفة كان مصاباً بأفظع أنواع الجنون التى تلم بنوع الإنسان .

وقال بعض فلاسفة اليونان لرجل يقول : إنى معجب بفلان المصور الذى يخرج لنا تلك الصور البديعة ، قال له ذلك الفيلسوف (وأظنه أفلاطون) : من الذى يستحق الإعجاب أكثر ؟ من يصور صورة لا روح فيها أم من يصور صورة فيها روح .

وإن شئت بعد ذلك فانظر إلى الإنسان وما فيه من العجائب ، فنظرك فيه يكفيك . (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[1] ولسنا ننهج بك نهج الفلاسفة الذين يقولون : إن كل شىء ممكن وكل ممكن لا شىء له من ذاته ، فلا بد من مرجح يرجح وجوده على عدمه ، ويعطيه مقداره الخاص به ، الذى كان يجوز أن يكون أصغر منه أو أكبر ، ويمنحه كل الصفات القائمة به ، التى تجوز عليه هى ومقابلاتها ، حيث إن الجميع جائز عليه ، فلابد من مرجح يجعله متمتعاً بتلك الصفات المخصوصة دون غيرها ، وواقفاً عند ذلك الحد منها دون ما فوقه وما دونه .

ولكن نسلك بك طريقا أوضح ومهيعا أوسع ونريك الأمر فصلا . ودقائق الصنع واضحة جلية حتى تكون لمس اليد ورأى العين فنقول قبل كل شىء : إن المادة ليس فيها حياة ولا إدراك ، ومن البدهى أن فاقد الشىء لا يعطيه ، فلا يمكنها أن تعطى عبدها ما ليس عندها ، وقد أحسوا ذلك فاعترفوا بأنهم عاجزون عن تعليل الحياة بالتعاليل الطبيعية ؛

(١) سورة الذاريات ، من الآية ٢١

أما المكابرون منهم فيقولون : إنها فلتة من فلتات الطبيعة ، ولا ندرى ما معنى ذلك وكيف يعقلونه ، وهل فلتة الطبيعة تجوز أن يوجد معلول بلا علة ، ومسبب بلا سبب ، اللهم إن ذلك غير معقول ، فالحياة وحدها كافية فى إفحامهم فضلا عن الإدراك السامى والعلم الواسع اللذين لا يملكهما المادة لنفسها ، على أن المادة وخصائصها لا يعقل أن تكون إلا من غيرها لا منها (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)[1] على أن المادة لا يظهر عنها إلا مقتضاها ، أما اجتماعها مع غيرها ، واتفاقها هى وسواها على أن توجد أشياء مرتبة وأموراً مدبرة منظمة تشتمل على حِكَم كبيرة وترمى إلى غايات بعيدة فمما لا يعقل فيها بوجه من الوجوه ، وهل يعقل أن العناصر التى تتألف منها اليد والرجل والمعدة والأمعاء والقلب والكبد والمخ أرسل بعضها إلى بعض من أجل أن تجتمع ، ثم توزع العمل فيؤلف بعضها قلباً وبعضها كبداً وبعضها عيناً وبعضها فى المرأة رحماً الخ .. وهل علمت بيضة الصقر أنه يتغذى باللحوم فهيأته لذلك ، بخلاف بيضة العصفور والدجاجة مثلا .

فإذا قلنا : إن المادة تفعل مقتضاها على حسب ما أودع الله فيها من الخصائص ، فهل يمكنها أن تنتج كائناً حياً سميعاً بصيراً ؟ وهل يمكنها أن تدبر الأشياء تدبيراً حكيماً بحيث يكون فى موضعه اللائق به ولغايته المقصودة منه ؟ وإذا كان لها سلطان على نفسها وظواهر من ذاتها فكيف يكون لها السلطان على غيرها حتى تأتى به معها وتنوطه بعمل خاص لغرض خاص ، اللهم إن ذلك غير معقول ولا مفهوم .

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

فهل علمت المادة أنه لابد لك من عين تبصر بها ، وأنه لابد لها من طبقات مختلفة فى الشكل والتركيب ، وأنه لابد لها من صيانها لما فيها من مزيد الرقة واللطافة فجعلتها فى حَجاج العين ، وحاطتها بتلك العظام الصلبة وهذا الغطاء الذى يشتمل على الجفن والهُدب وعلى ذلك الحاجب الأعلى ، إلى آخر مالا يمكننا شرحه ولا الخوض فيه .

وماذا يكون الحال لو كانت هذه العين فى الرِّجل أو تحت الإبط مثلا .

ثم نقول : هل علمت الطبيعة أنه لابد لك من أكل وشرب ، فصنعت لك الفم وجعلت فيه الأسنان والأضراس مشكلة بأشكال مختلفة لحكم جليلة ، ثم جعلت له غطاءً من الشفتين والأشداق ، ثم علمت أن الغذاء لا يمكنك بلعه إلا بسائل تسيغه به ، فخلقت لك الريق وركبته من تلك العناصر التى تفيد فى هضم الطعام . ثم جعلت لك منفذين : منفذاً للنفس ومنفذاً للطعام والشراب ، ثم احتاطت فجعلت لك غطاءً يغطى به مجرى النفس عند البلع خوفاً من أن تدخله اللقمة فتموت ، ثم جعلت لك ذلك اللسان الذى لا تحصى عجائبه ولا تعد فوائده ، ثم جعلت لك معدة مركبة تركيباً خاصاً لكى تفرز تلك العصارة المعدية . ثم جعلت لك أمعاء يتم فيها الهضم الثالث ، ودبرت لذلك تدبيراً حكيماً فأعانتها بالعصارة البنكرياسية وبالصفراء التى تفرزها الكبد ثم ترسلها إليها عند الحاجة ، ثم خلقت لك الكُلى التى تفرز البول وهيأت له السبيل .

فقل لى بعيشك : كيف يكون الحال إذا لم يدبر للغذاء سبيل الخروج كما دبر له سبيل الدخول ، وكيف يكون الحال إذا لم توجد فيك تلك المفاصل وماذا كنت تصنع عند القيام أو الرقاد أو الجلوس ، وإلى أى حد من المشقة والضيق كنت تصل إذا لم يخلق لك ذلك الأنف الذى تتنفس منه وتستنشق منه الهواء صافياً خالياً من التراب والغبار بواسطة ما أودع الله فيه من تلك المصفاة العجيبة البديعة .

وماذا كنت صانعاً لو خلقت بلا يدين أو خلقت اليد بلا مفاصل تمكنها من الحركات المختلفة إلى الجهات المختلفة ، أو خلقت اليد بلا كف ولا أصابع ، أو خلقت الأصابع بلا أنامل ولا أظافر ، إلى آخر ما يطول الكلام فيه ، ولا نستطيع أن نصل إلى باطنه وخوافيه غير أن نقول بالإجمال : إن الذى وضع فيك الرئتين لإصلاح الدم ، ووضع فيك القلب بشكله المخصوص وتقسيمه إلى : الأذين الأيمن ، والأذين الأيسر ، والبطين الأيمن ، والبطين الأيسر ، وما دبر لذلك من تلك المجارى التى تحمل الدم الصالح المسماة بالشرايين ، وهاتيك المجارى الأخرى التى تحمل الدم الفاسد المسماة بالأوردة ، وأوجد تلك الصمامات المختلفة ، إلى آخر ما أدهش علماء الفزيولوجيا ، إن الذى فعل ذلك وأضعافه وأضعاف أضعافه لجدير أن يعرف ولا ينكر ، ويشكر ولا يكفر .

إن الطبيعة لا يمكنها التفنن فى العمل ، ولا أن تلاحظ المقاصد والغايات فتدبرها تدبيرا وتقدر وسائلها تقديرا ، ولكننا نرى فى

الإنسانى من الأشكال والألوان والصنائع والتدبيرات أفانين وأعاجيب ، الجسم فنجد نصفه الأعلى يغاير نصفه الاسفل ، ورأسه يغاير بدنه ، وكل عضو فيه يباين الآخر .

وما من عظم صغير أو كبير ولا عصب ولا وريد ولا شريان إلا قد وجد لحكمة كبرى ، ولو زاد عن مقداره الذى هو عليه أو نقص عنه أو تغير موضعه لاختل نظام الجسم ، حتى الشرايين الشعرية التى هى كالشعر أو أدق منه بكثير كل واحد منها لحكمة كبرى ، ولو زال عن محله أو زاد عن مقداره لفسدت الصحة واختل مزاج البدن .

ولتعلم أن الأشياء الطبيعية لا يعجز عنها الإنسان بعد ما عرك ظواهر الطبيعة ومقتضياتها وتحليل المادة وعناصرها وقوانين المزج والاتحاد ، وأحكام الجوامد والسوائل والغازات ، ولذلك تراهم يخترعون لنا من الالات على مقتضى تلك الظواهر ما نشاهده كل يوم ، ولكن ليس فى إمكان الطبيعة أن تنظم وتدبر ، ولا فى إمكان الطبيعيين – وقد عرفوا عناصر الأحياء – أن يوجدوا لنا إنساناً أو عضواً حياً مع أن الأمر لو كان طبيعياً لم يتوقف إلا على عناصره التى يعرونها ويمكنهم أن يركبوه تركيباً طبيعياً على مقتضى قوانينهم .

ومن نظر فى مقدار حبة خردل من الجسم الإنسانى كفته فى الدلالة على الله ، فإن فى تلك الذرة الصغيرة من جسمك عصباً للحس وعصباً للحركة ومجرى للدم الشريانى ومجرى آخر للدم الوريدى ، إلى غير ذلك مما لا يحصره العد ولا يأتى عليه القول .

وبالجملة إن أنكر الطبيعيون ما فى الإنسان من الأعمال المدهشة والأسرار الغريبة التى أثبتت فى كل ذراته بحيث لو أخذنا منها شرياناً شعرياً لتعطلت وظيفته ، لو أنكروا ذلك كانوا مجانين وكذبهم علماء الفزيولوجيا تكذيباً مخجلا ، وإن اعترفوا بأن كل شىء فيه لحكمة لا فرق بين ما دقّ منه وما جلّ كما يقرره العلماء وكما هو مشاهد ، ثم نسبوا ذلك لتلك المادة الصماء العمياء كانوا أشد جنوناً من المجاذين وأفظع جهلا من الحيوان الأعجم ، فأين يذهبون .

ولعلنا ننظر نظرة أخرى فى بقية العوالم وما اشتملت عليه من الحكم والأسرار فى أنفسها وما وضع بينها من العلاقات والروابط وما نيط بها على وجه التضافر والمعاونة من الغايات والمقاصد إن شاء الله .

الإيمان بالله، ومناقشة الطبيعيين (١)

(٢)

عجبا للطبيعيين يبحثون لكل شيء يحدث فى الوجود عن سبب ولو كان صغيراً وحقيراً ، فإذا وصلوا إلى سبب الأسباب ومالايعقل شيء إلا به أنكروه . وقد قال بعض الفلاسفة : « إن إنكار السبب الأول للأشياء بمنزلة عدم الأسباب بالكلية ، فليس بمعقول أن الحلقة من السلسلة تحتاج إلى مايمسكها من الحلقات الأخرى ، والسلسلة كلها لاتحتاج إلى ممسك » .

وقال آخر : لايمكننا أن نعقل شيئاً ولا أن نعرف سراً فى هذا الوجود مالم نعترف بوجود الخالق ، وإلا تعذر علينا تعليل الأشياء تعليلاً مفهوما .

ثم نقول : من تأمل فى الحكم المودعة فى تركيب المركبات خصوصاً الحيوان والإنسان ومانيط بكل جزء من أجزائها وكيف تعاونت الأجزاء كلها على مقصود واحد ، ثم نظر بعد ذلك فى ارتباط مجموع العالم بعضه ببعض وما أودع فيه من غريب الصنع ودقيق الحكمة ، حتى إنك لاتجد ذرة فى جسم الإنسان أو فى جسم العالم كله إلا لحكمة سامية ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

---

(١) مجلة الأزهر — العدد الثانى — المجلد الأول — صفر سنة ١٣٤٩

من تأمل هذا كله بهره ذلك العلم الذى وسع كل شئ ، وأتقن كل شئ ، ودبر كل شئ ، وحفظ كل شئ ، وقام على كل شئ . وما تسابق العلماء فى ميدان البحث ولا تبريزهم فى مجال العلم إلا لاستطلاع هذه الحكم ، واستكشاف تلك الأسرار التى أبان علم التشريح منها شيئاً كثيراً أو قليلا . وكذلك علم الفلك وكل العلوم التى تدور حول ذلك المحور ، وتشييد صرح عظمة الله — تعالى — كما قال بعض الفلاسفة ، ومتسع ما قال .

وما هذه الكتب المتراكمة فى علم النبات والحيوان والإنسان والمعادن والأرض والسماء والنجوم والأفلاك ، وكل ما كتب فيه العالم من أوله إلى آخره إلا نقطة صغيرة من علم الله — تعالى — الذى دبر هذا العالم ، لأنها تفصيل لبعض ما أودعه من الأسرار فى أرضه وسمائه ولسنا فى الوجود إلا شيئا ضئيلا . ولعل ماعند غيرنا من العوالم يفوق ما عندنا أضعافاً مضاعفة . فليست أرضنا هذه إلا كحبة رمل صغيرة فى جانب غيرها من العوالم .

وقال العلامة الشهير (هرشل) : « كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية ، فعلماء طبقات الأرض والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده » .

ثم لو فرضنا أنهم عرفوا نواميس هذه الأرض كلها — مع أن ذلك محال — لما كان ينبغى لهم أن يتبجحوا هذا التبجح ، فإن الأرض بجانب غيرها من العوالم ليست إلا شيئاً ضئيلاً جداً كما قلنا .

ولعل فيها مالم يصلوا إلى معرفته ولم يحلموا بشيء من نواميسه .

هذا ولنقل لهم بعد ذلك : هل حافظتم على مبدئكم ومقتضى مذهبكم فلم تقولوا إلا بالمحسوس عند ماقلتم ببقاء القوة والمادة وأنها لاتزيد ولا تنقص ولا تفنى ؟ فهل سبرتم العالم كله ووزنتم ما فيه من مادة وقوة فعرفتم مقدارها حتى قلتم بذلك ؟

لايستطيع أحد منكم أن يدعى هذا ، وهل وصلتم من الوسائل والآلات إلى حد لا يمكن الزيادة عليه حتى قلتم بعدم فناء المادة .

ألم يبلغكم ماقرره (جوستاف لوبون) وغيره : (إن المادة تفنى) وسواء أصح هذا الرأى أم لم يصح فقد قلتم بغير المحسوس ، وعارضه هذا العلامة بالمحسوس الذى قام عليه البرهان الحسى عنده . فقد رجعتم من العيان إلى البرهان ، وكل نظرية لايشهد لها العيان بوقوعها تحت الحس وامتحانها بالتجربة فليست عندكم من العلم فى شيء .

وهذا مايتبجحون به ، ولكنهم يضطرون إلى نقضه فى مسائل كثيرة كما سمعت وكما تسمع . فإن قولهم ، إن دقائق المادة تتجاذب وتتدافع لايمكنهم أن يثبتوه ثبوتاً علميا ، بل يكاد يعجز العقل عن إدراكه والتسليم به . فإننا لانعقل كيف أن دقيقة من دقائق المادة تجذب أخرى فى حين أنها تدفعها ، ومع ذلك هم قائلون به من غير أن يعلموه أو يفهموه . فأين أساسهم الذى أسسوه .

وما اعتراضهم بعد ذلك على أصحاب الإيمان وأرباب البرهان . وما قيمة قولهم : إننا لا نؤمن إلا بما رأينا ، ولا نرضى لأنفسنا أن نقول بالخرافات أو الخيالات .

«لا يا حضرات الفلاسفة» إننا ندعوكم أن تقولوا بما توجبه العقول ويقوم عليه البرهان كما هو شأن أنواع الإنسان . ولذلك نراكم تلجئون إلى النظر والاستدلال فى كثير من المسائل ، لأنكم من نوع الإنسان الذى فطر على ذلك على كل حال .

ثم نقول لكم بعد ذلك : ماذا استكشفتم من النواميس حتى تحكموا على السماء والأرض وعلى المنظور وغير المنظور . لم تكشفوا إلا بضعة نواميس قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فليست هذه الأرض فى جانب العوالم إلا كحجرة صغيرة للحيوانات الدنيا فى جانب قصر كبير . وقد حيركم ما أودع فيها من الأسرار والخواص . وما جهلتموه منها أكثر مما علمتموه باعتراف المنصفين منكم ، ثم نقول : إنكم ما أخذتم علمكم إلا عن الحواس وهى فى خداجها وخداعها على مابينه العلماء . فما هذا التبجح الذى لا أساس له ياإخواننا فى الإنسانية .

ولست أدرى كيف ينكرون ماوراء الحس ويتبجحون بأنهم لايقولون إلا بالمحسوس ، وقد تركوا لغيرهم الخرافات والأوهام ، ساخرين منهم هازئين بهم ، مع أننا نراهم أثبتوا الأثير وبنوا عليه كثيراً من قواعدهم ، ولم يروه ولا أحسوا به . فإن قالوا : أثبتناه بالأدلة الكثيرة فقد نقضوا أصلهم ورجعوا إلى الاستدلال ، وأى فرق إذاً بينهم وبين من يستدل على الله بآثاره وباهر أنواره وعلى الروح بظواهرها التى يستحيل لدى العقل الصحيح أن تكون أثراً لذبذبات المادة أو شعاعاً لفسفور المخ ، إلى آخر مايتخيلون . وهل هذا إلا عدول عن المعقول المقبول إلى التخيلات الفرغة والتعليلات السقيمة ،

فضلاً عن كونهم هدموا بذلك ما أصلوه من القول بالمحسوس ومجافاة غير المحسوس .

على أنه يمكننا أن نطعن على الحس أكثر مما طعنوا على العقل فنقول :

إن إدراك هذا العالم المحسوس الخارج عنا إنما هو بوساطة الحس ، فلو فقدنا البصر لم يكن للمبصرات وجود عندنا ، ولو فقدنا السمع لم يكن للمسموعات وجود كذلك إلى آخره . فالذى يصلنا بالعالم الخارجى إنما هو حواسنا ، فهل الحس مأمون ؟ (اللهم لا) . وقد بينوا ذلك فى كتب الفلسفة القديمة وذكروا : أن هناك فرقة لاتقول بشهادة الحس الذى يغلط كثيراً ، فإننا نرى حبة العنب مثلاً فى الماء كبيرة ، ونرى مافى البر يجرى إذا كنا فى البحر ، وها هو ذا كوكبنا الأرضى يسير بنا أسرع من كل سريع عندنا ولانحس به ، ونتوهمه ثابتا ساكناً .

فما الذى يؤمننا أن نكون مخطئين فيما نحس به ، وها هى ذى الألوان تستند إلى ذبذبات معينة فى الأثير حتى تتصل بأبصارنا ، ويتغير الحكم لدينا بقلة عدد الذبذبات وكثرتها ، وكذلك الأصوات فى سمعنا على ماقرروه ، فكيف نحكم على الأشياء بأنها فى الواقع على ماهى عليه عندنا والحواس على ماسمعت ، على أننا لو تنزلنا وقبلنا أحكام الحواس على علاتها وكثرة مايكون فيها من الخطأ ، فما الذى يؤمننا بعد ذلك أن تكون هناك أشياء لاتدرك إلا بحالة أخرى لم تخلق

فينا . وقد أثبت بعضهم للنحل حاسة ليست فى الإنسان ، وكذلك لغير النحل كالحمام والكلاب ، وقد ذكروا أن القطاط ترى فى الظلام إلى آخره ، وعلى كل حال فالإبصار لا يكون إلا على حد محدود من الذبذبات فى الأثير ولا يمكن فيما دون ذلك ، وكذلك السمع . ومما لاشك فيه أن الحيوانات مختلفة فى ذلك اختلافاً كثيراً ، فأى ثقة بالحس حتى ترتبوا عليه ذلك كله ؟

أفلا يجوز أن تكون الأشياء فى الواقع على غير ما أدركناه بحسنا . اللهم إن ذلك جائز وواقع . فيجب إذاً أن يكون التعويل على العقل لاعلى الحس ، والثقة بالبرهان لا بالعيان . وإن رأيتم أن ذلك إفراط (فليس دواء الإفراط إلا الإفراط) والعقل أولى أن يكون ذا السلطان ومرجع الإنسان .

ويعجبنى قول العلامة (كروزيار) فى هذا المقام : إذا كنت لا أقول إلا بالمحسوس فكيف يمكننى أن أعرف أن صديقى الذى يماشينى يجوز شيئاً أدعوه العقل ، إنى لاأستطيع أن أراه أو أحس به أو أتناوله بتجربة أتخذ مجهر الطبيب أو مشرط الجراح أو مجهزات الكيماوى أداة لها ، فلو كان معتقدى فى عقل صاحبى يعود إلى مقدار ما أستطيع أن أعرف منه علمياً (أى بالحس) لم أستطع أن أعتقد بوجوده مطلقاً ، مع أن مفخرة العلم الحاضر ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس ، فإذاً وجود العقل فى صاحبى كوجود (واجب الوجود) كلاهما اعتقاد إلزامى لا نستطيع أن نعرفه من طريق الحس ، وفى الوقت نفسه نحن ملزمون بالاعتقاد به .

ثم قال : كيف ندرك أن العقل متفوق على المادة وأن العواطف العقليه أزكى طبيعة من العواطف الحسية ، كيف ندرك أن الشجاعة وكرامة الأخلاق وتضحية النفس أصفى طبيعة من حب الملاذ والخشونة وأشرف من الحسيات بضروبها وأن خلايا المخ هى التى تنشىء من نشاطها وحركتها تلك الانفعالات . ولكن نعرف من جهة أخرى وبقدر مايسمح لنا به العلم الطبعى أن هذه الخلايا متشابهة فى المرتبة والقدر ، فكيف وقع الفرق فى المرتبة بين الانفعالات المتشاكلة . ولولا هذا الاعتقاد لأصبحت العلوم والمجادلات الأدبية برمتها سخرية وتضليلا ، وهناك تتعطل المصالح العظمى فى حياة الإنسان ، ويبطل التفريق بين درجات الفضيلة والرذيلة والمدح والذم والتشرف والإسفاف ، وتصبح هذه الأشياء غير واقعية ولا حقيقية ، وهو ماينافى العقل ويصادم البديهة . انتهى كلام هذا المفكر الكبير .

ثم نقول لهم بعد ذلك : هل يعقل أنكم تطلبون لكل شىء سبباً ثم لا تطلبون للكون كله سببا ؟ ثم نكرر ماقلناه ببسط وتوسع : هل يعقل أن كل حلقة من حلقات العالم تحتاج إلى حلقة تمسكها أو تنشأ عنها أو تعتمد عليها أو قل ماشئت ، ولا تحتاج السلسلة كلها إلى ممسك يمسكها ومبدإ تعتمد عليه . وهل إذا وجدنا مدفعاً كبيراً ذا صنع دقيق ، ولمقذوفاته الأثر الكبير ، وقد عرفنا سر صنعته وترتيب أجزائه واتصال حلقاته إلى أن يترتب عليه أثره فى الوجود ، فهل يغنينا ذلك عن الفاعل الذى صنعه ، والعقل الذى دبره والإرادة التى أرادته ؟!

اللهم إن الأمر جلىّ واضح حتى على مقتضى قوانينهم التى تطلب لكل شئ سبباً وتبحث لكل معلول عن علة . ولا أدرى كيف يبحثون فى الأشياء الجزئية عن عللها ثم لايبحثون للمجموع عن علته ، ثم نقول من وجه آخر : إذا عرفت أطوار البذر ودرجات نموه حتى يثمر ، فهل يُعَدّ ذلك معرفة للبذرة نفسها ولما أُودع فيها من السر الذى أوجب هذا النمو وذلك الإثمار . على أن معرفتهم للأشياء التى يدعونها ليست ناشئة إلا عن رؤيتهم تواليها وحدوث بعضها عقب بعض ، فما الذى أدراهم أن الحلقة السابقة هى الفاعلة فى الحلقة اللاحقة ، بل ما الذى أدراهم أنها سبب حقيقى فى حدوث مابعدها ، وهم لم يشاهدوا إلا وجود هذا عقب ذاك لاغير .

وهل هذا يفيد السببية الحقيقية أو يقتضى الفاعلية المؤثرة أم ذلك ظن وتخمين لاشهود عيان كما يزعمون ، وقد ينطقون بالصواب فى بعض الأحيان من حيث يشعرون أو لايشعرون ، فيقولون سنة الكون فإذن الأسباب هى السنن والسببية هى العادة الجارية بحدوث هذا عقب ذاك ، أما التأثير أو الفاعلية أوالسببية الحقيقية فأمر وراء ذلك . فإن القوانين التى تضعها والخطط التى ترسمها والأعمال التى ترتبها على نظام خاص ، لاتدل على تأثير بعضها فى بعض ، ولا إيجاد بعضها لبعض ، وإنما هى قوانين اقتضتها إرادة المقنن ، وأنظمة استدعتها حكمة المنظم ، فهذا هو كل ماتعطينا المشاهدة التى ظلموها فنسبوا إليها ماهى بريئة منه ، على أننا نستطيع أن نقول : إنهم لم يعرفوا حقيقة

شيء على الإطلاق ، وإنما هى ظواهر يعرفونها عند ظهورها ، أما مهايا الأشياء فلم يصلوا إليها ولم يعثروا عليها .

أما كلمة قوة ومادة التى يعتبرونها من الأوليات الضرورية وأنها كذلك من حيث ظاهراتها المحسوسة ، فلا تؤدى إلى العقل – كما قال بعض المحققين – إلا معانى خفية غامضة مجملة لا تفيد شيئاً من معرفة الماهية والحقيقة . ويكفى أن ما يذكرونه فى أمثال ذلك لا يخرج عن كونه جنساً عالياً أو عرضاً عاماً ، وقد ذكر المنطقيون أن التعريف بالجنس لا يفيد ، وأن التعريف بالخاصة رسم ناقص ، والرسم لا يبين الكنه ولا يشرح الحقيقة . وكذلك الحياة والإدراك والتذكر والتخيل لا يمكنهم أن يعللوه تعليلاً مادياً فضلاً عن أن يعرفوا الحقيقة والماهية .

ومن أظهر الأشياء أن المادة التى حللوها كل التحليل وقلبوها على كل وجه وفعلوا بها الأفاعيل (أو فعلت بهم الأفاعيل) لم يعرفوا حقيقتها حتى الآن ، فبعد أن قالوا : إنها جواهر فردية ، واستمروا على ذلك قروناً كثيرة رجعوا فأثبتوا مذهب الالكترونات وما فيه من تخمين أو يقين . وأثبتوا ذلك الدوران السريع الذى يوجب دوران الدماغ فى تلك المنظومات التى تشبه المنظومات الشمسية على ما يقولون ولا داعى للتوسع ولعلك رأيته وقرأته .

ومن أغرب ما قالوه فيها وهو من أحدث الآراء : إنها الحركة وليت شعرى هل الحركة تقوم بغير متحرك وهل العرض يقوم بنفسه .

ولكن مالنا ولهذا ، وإنما نريد أن نقول : إنهم عجزوا عن إدراك حقائق الأشياء حتى المادة التى عبدوها ولم يعرفوا شيئاً سواها ، وهكذا شأنهم فى كل أدوارهم يتبجحون من غير علم ، ويحسبون أنهم على شيء وما هم على شيء . فقد قالوا : انتصرت المادة وارتفع لواؤها عندما استكشف (غليليو) دوران الأرض ، وقالوا مثل ذلك عندما كشف (نيوتن) الجاذبية . وقالوا مثل ذلك عندما قال (دوران) بالنشوء والارتقاء . وقالوا ذلك عندما وضع (لا بلاس) قاعدة نظام العالم على ما يزعم .

وقد جاءهم (اينشتين) أخيرا فهدم لهم نظرياتهم الأولى وأتاهم بشيء جديد إذ تم هدم كل قواعدهم ومقرراتهم . وهكذا لا يزالون يتبجحون تبجح الأطفال عندما يظفرون بشيء ضئيل ، ويصفقون تصفيق الجهال للشيء العليل والنزر القليل . وقد كانوا يظنون فى كل دور من تلك الأدوار أنهم أكملوا ما لديهم من نقص وسددوا ما فى مذاهبهم من فراغ ،ثم تبين لهم أن النقص لازم لهم ، والاستدراك قضاءٌ عليهم ، ولا يزالون كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولا يفوتنا أن ننصح لهم أن الوقوف مع الحس هو شأن الحيوان لا الإنسان ، والنظر إلى الأسباب الأخيرة دون المسبب الأول يشبه مايقع من الحيوانات التى تعرف سائسها الذى يقدم إليها ماتأكله دون ربها ، أو الحيوانات التى إذا ضربت بالحجر عضته لا عتقادها أنه هو الذى ضربها ، أو الحيوانات الدنيا التى ترى المداد يسود القرطاس ، فتعتقد أنه من القلم لكونها لا ترى الكاتب لقصر نظرها.

ومع هذا فربما كان الماديون معذورين بقصرهم أنفسهم على دراسة المادة التى وجدوا البارئ قد وضع فيها من الأسرار ما يدهش العقول ويحير الأفكار ، وجعل لها نواميس ثابتة ، فلم تقو أبصارهم على استطلاع شمس الألوهية من وراء تلك الحجب فقالوا ما قالوا ، ولو نزلوا من عروش كبريائهم إلى الإنصاف وحسن التفاهم لعلموا أن مادرسوه لا يخرج عن كونه سنناً وقوانين وضعها الخالق فى خليقته ، وأنظمة أبدعها الحكيم بحكمته ، وليس لذلك كله شىء من الفاعلية بل هو أدل على القابلية من الفاعلية ، وكان يجب أن يكونوا أكثر الناس إيماناً لأن من عرف سر الصنعة كان أعلم بالصانع ، فكان يلزم من علمهم بذلك النظام العجيب أن تكون معرفتهم بالحكيم الذى أتقنه بحكمته التى تدهش الألباب ، وقدرته التى لا حد لها ، أعظم من معرفة غيرهم وإيمانهم أشد وأثبت ولكن الإنسان هو الإنسان .

كلمة انصاف عن الدينيين والطبيعيين

رأينا أن نختم مقالنا هذا بكلمة إنصاف تقرب بين الفريقين وتشرح وجهة النظرين ، ولعلها تزيل ما بينهما من خلاف أو تقلل ما مرنوا عليه من اعتساف فنقول :

يظهر أن المتدينين أنكروا الأسباب الظاهرية التى تستند إليها مسبباتها دفاعاً عما يعتقدون من التوحيد فيما يظنون ، فصادموا المحسوس وجنوا بذلك جناية كبرى على الدين ولكن تطرف الطبيعيون أيضاً عندما كشفوا الأسباب الموجبة للمسببات على مقتضى السنن

التى وضعها الله فى العالم . فقالوا : ليس هناك تدخل لغير هذه الأسباب فى إيجاد شىء من الأشياء ولا إيجاد أنفسها .

ولكن لو عرف الطبيعيون أن هذا قانون وضعه الله فى العالم لأنه حكيم فتأبى حكمته أن يكون العالم فوضى بلا قانون ولا نظام ، واعترف لهم أهل الدين بذلك كما يفعل مفكروهم وفلاسفتهم ، وعرف الطبيعيون أن هذه النواميس ليست مؤثرة ولا فاعلة وعلمهم نفسه لا يثبت التأثير ولا يدل على الفاعلية وإنما وظيفة العلم الطبعى أن يبين العلاقات والترتب والنظام والارتباط بين الأشياء .

وليس عندهم ما يدل على السببية الحقيقية كما قلنا ، ولذلك يعبر كثير منهم بالسنن ، وهى كلمة لا تفيد غير القانون والنظام ، بل هم معترفون أنها ليست سببية حقيقية . ومصرحون بأن العلم الطبعى لا يدل على ذلك ، لو عرفوا ذلك كله وعرفوا بعد هذا أن ما استكشفوا ليس إلا نزرا يسيرا لا يقام له وزن ، بجانب هذا الكون العظيم ، ثم ضموا إلى ذلك تلك الحقيقة الناصعة التى لا مراء فيها : وهى أن الكون بعد كل تنزل محتاج فى مجموعه ووحدة نظامه وأصل وجوده إلى علة ، ولا يمكن أن يكون كل جزء فيه محتاجاً إلى علة ومجموعه غير محتاج إليها .

وليس فى قدرة العالم الطبعى الذى يبحث عن علل الجزئيات المعينة والحلقات المتوالية أن يستكشف علة المجموع فى أصل وجوده ولا أن يعرف كيف تمت له هذه الوحدة ولا ما هو الأصل الذى أعطاه

ذلك النظام بوساطة علمه الطبعي بل نقول : لايمكنه أن يعرف كيف اختص كل جزء فيه بخاصته المعينة ، ولا لماذا وقفت العناصر الأصلية عند ذلك الحد الذى وصلت إليه من نحو ثمانين عنصراً على مايقولون ، ولا لماذا كان بعضها فى هذا الوجود أكثر من بعض (كالاكسوجين) مثلا مع (الراديوم) أو غيره من العناصر العزيزة الوجود ، لو عرف الطبعيون ذلك وعرف الدينيون أن الاعتراف بالأسباب والمسببات والقوانين والأنظمة لا تمس الألوهية بشىء ، بل على العكس من ذلك تثبت حكمة الله وعلمه الذى لايتناهى . لو تم ذلك لما كان هناك نزاع بين الفريقين ولتم الصلح بينهما ، ولست أظن أن هناك نزاعاً بين المحققين من الدينيين والراسخين من الطبعيين .

ولكن ماذا نصنع وقد جمد كل فريق على ما أداه إليه علمه الناقص ونظره القاصر . فكان شراً مستطيراً على نفسه وعلى الناس .

وقد علمنا الله تعالى أن هناك قوماً من أرباب الجهل المركب ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وقد قال : (كل حِزبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فرحُون)(1) وقال : (إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَة)(2) وبعد : (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)(3) .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥٣
(٢) سورة يونس ، الآية ٩٦ — ٩٧
(٣) سورة الكهف ، الآية ١٧

الدين ضرورى للعمران(1)

وأكبر مقومات الإنسان من حيث هو إنسان

خلق الله الإنسان مركباً من شيئين : روح وجسد ، ولكل منهما مطالب لا يتم أمره ولا يصفو عيشه ولا تحصل راحته ولا بغيته التى هى من خصائص ذاته ومقتضى طبيعته إلا بها ، فإذا فرط فى مطالب البدن عاش ذليلا عليلاً ، وأسرع إليه الضرر من كل جانب ، ولم يمكنه أن يقاوم السنن الكونية التى تصرع كل من يغالبها ويخرج على أحكامها ، وإذا أهمل مطالب الروح عاش عيشة البهائم ولم يكن له من الإنسانية نصيب ، اللهم إلا فى صورته الظاهرية ، وتخاطيطه الجسمية ، بل نقول : إن عيشة أسوأ من عيش البهائم لأن البهائم ليس فيها ذلك الشعور المغروس فى طبيعة الإنسان الذى يريه الآلام صنوفاً وألواناً ولا ذلك الخيال الذى لايقف عند حد ، ولا ينتهى إلى غاية ولا تلك الشهوات التى تبعد مراميها وتتسع نواحيها ، ولا ضروب ذلك الانزعاج الذى يحصل مما يكون أو لا يكون ، وليس فيها النظر إلى المستقبل الذى فعل بنا الأفاعيل ولا تلك العواطف التى قد تهلك صاحبها فى سبيل ماتعصبوا إليه ، ولديك مصارع العشاق وأخبار من ماتوا شهداء فى

(١) مجلة الأزهر — العدد الثالث — المجلد الأول — ربيع الأول ١٣٤٩

سبيل الفضائل ، أو قتلوا مجرمين فى سبيل الرذائل ، مما لا نطيل القول فيه .

فأين هذا من الحيوان الذى يكون هادىء البال حتى يفجأه ما يفجؤه من الحوادث الوقتية التى ينتهى الألم بانتهائها ، من غير أن يحسب لها حساباً قبل هجومها عليه ، ولا يعتريه أسف الذكرى بعد مفارقتها ، فإذا لم ينظر الإنسان فى المنهاج الذى يضعه لنفسه من الجهة الروحية والمطالب النفسية ؛ حتى يقفها على الصراط المستقيم ويهذبها بما يقيم أودها ويزيل اعوجاجها ، كان شرا من البهائم ، وأحط من كل ذى روح ، — هذا حاله فى نفسه .

أما حاله بالنسبة إلى المجتمع العام : فهو وبال عليه فإنه لايلقى منه المجتمع إلا صنوف البلاء وأنواع الشقاء ، فإن الرجل العارى من مكارم الأخلاق الذى لم تهذب عواطفه ، ولم تصف معارفه ، فأصبح يتخبط فى دياجير الظلمات ، وأنواع الشرور والآفات ، هو وحش ضار يفتك بكل من قدر عليه ، وهو عقرب يلدغ كل من يلتصق به أو يقترب منه ، وهو بعد ذلك شيطان متفنن ، فى ضروب الشر وفنون الاحتيال ، لا يعرف إلا نفسه المجرمة وشهوته الفاجرة ونزعته الحمقاء ولو هلكت الأمة وخرب العالم ، فهو من نفسه فى شقاء شديد . أصبح مضطرب الأحوال مختل الخيال مرتبكًا كل الارتباك بين إنسانيته وحيوانيته .

أما المجتمع فقد فقده ، أو نقول بعبارة أصح : قد اعتاض منه ثعبانًا ينفث السم ، ووحشًا أقسى قلبًا من وحوش الفلاة ، وأكبر

روغانًا من الثعلب ، وأعظم شرهًا من الخنزير ، وجدير به أن يكون كذلك ، فانه لا يؤمن بالجزاء على ما اقترف ولا بالحساب على ما جنى ، فهو لا يرغب فى جنة ولا يخاف من نار ، وكأن العالم فى نظره لعبة لاعب ، لا يكون الفوز فيها إلا لمن كان أكثر تهويشًا وأحذق شعوذة ؛ ولا حياة فى نظره غير هذه الحياة .

وهؤلاء هم الذين خاطبهم الله بقوله : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(١) وينبههم فى الآيات الكثيرة على خطئهم فيما ظنوا ، بمثل قوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)(٢) فهذا ما يعانيه فى نفسه ، وما يعانى المجتمع منه فى الدنيا. أما ما أعدّ له الله فى الآخرة فهو أشد وأخزى .

ولكن تعال ننظر فى حال المؤمن المتدين وإلى مايعود على الناس منه فصور لنفسك رجلًا مؤمنًا حق الإيمان بقوله تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)(٣) وبقوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)(٤) ، (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ)(٥) ، (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥
(٢) سورة ص ، الآية ٢٧
(٣) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٣٥
(٥) سورة الانبياء ، الآية ٤٧

إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[١] وبقوله عز وجل : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[٢] ، (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)[٣] .

فانظر كيف تكون مراقبته لله – تعالى – وخوفه من الله ، وهو يعتقد أن الله يعلم السر وأخفى ، وأنه مسئول عن كل أحواله ومجزى بجميع أعماله . هل يمكنه أن يكون مع هذا الاعتقاد منتهكًا للحرمات مغتصبًا للأموال ، أو يكون سارقًا ، أو قاتلًا ، أو خداعًا ، أو غشاشًا ، أو مزوّرًا . . . إلخ .

ثم تراه بعد ذلك قد نظر فيما جاء عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وجده يحث على مكارم الأخلاق وينهى عن مساويها ، وجده يأمر بالرحمة لكل أحد حيث يقول : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ . ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » .

ثم لم يقتصر على رحمة الإنسان العاقل بل أوجب الرحمة والشفقة على كل ذى روح ، وإن شئت فانظر إلى قوله عليه السلام : « دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ

(١) سورة يونس ، الآية ٦١
(٢) سورة ، الآية ١٦
(٣) سورة ، ق ، الآية ١٨

خَشَاشِ الْأَرْضِ » وقوله : « لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ » . إلى غير ذلك .

ثم نظر فوجده يحث على المحبة بين المؤمنين جميعًا ، علمًا منه – عليه السلام – أن المحبة وسول السلام والوئام ، وماحية الخصام والانقسام ، ومبعث الهناءة والصفاء . فأمرهم أن يكونوا إخوانًا فقال : « لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا » . وجعل البغضاء هى الحالقة ، ونهى عن التفرق والتهاجر بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور ، حتى حرم الخصام فوق ثلاثة أيام .

ونهى عن الإيذاء بكل أنواعه حتى جعل غيبتك لأخيك من أكبر الكبائر ، وشبهها بما تشمئز له كل نفس ، وينفر منه كل إنسان ، وقال الله فى الكتاب العزيز : « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا »[١] . وقد نهى قبل ذلك عن أن تظن السوء بأخيك ، كى يطهر نفسك ولسانك وظاهرك وباطنك فتكون خيرًا محضًا للناس ، لا تضمر لهم حقدًا ولا تسوءهم بكلمة حتى فى مغيبهم فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »[٢] .

يريد بذلك أن يجعلهم متحابين متآزرين حتى يكون بينهم التعاون والتآزر ، لا التهاجر والتفاجر والتخاصم والتشاتم . وهل نجد شيئًا أبلغ فى التآزر الذى يريد الدين أن يجعله بين أبنائه من قوله – صلى الله

(١) سورة الحجران ، الآية ٢
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٢

عليه وسلم — : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَالْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » ويقول : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ويقول : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » ويقول : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ويقول فى التحذير من إيذاء بعضهم بعضًا : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » ويقول : « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » ويقول فى الترغيب فى عمل الخير بكل أنواعه ، والترغيب فيما يعود على الناس بالمنفعة صغيرة كانت أو كبيرة : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِى دَلْوِ أَخِيكَ أَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » ويقول : « إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » وقد جعلها شعبة من شعب الإيمان فى الحديث الآخر .

فتراه قد حث كل إنسان على فعل الخير ، وعرفه أنه قادر عليه مهما كان أمره حتى جعل الكلمة الطيبة صدقة ، وأن تعين الأخرق الذى لا يحسن العمل صدقة ، وأن تساعد الرجل فى الحمل على دابته صدقة ، وأخيرًا جعل الكف عن الشر صدقة .

فطلب من كل إنسان أن يعمل الخير ما استطاع وبين أن كلاً مستطيع ، وقد ورد فى بعض الآثار أن كل مسلم على ثغر من ثغور الاسلام .

أما تحذيره من الظلم فحدث عنه ولا حرج ، حتى عرفنا أن كثيرًا من العقوبات يؤجل للاخرة ولكن عقوبة الظلم معجلة فى الدنيا ، مع

ما ادخر له فى الآخرة ، وأخبرنا أن الله يحاسب على الفتيل والنقير ، وأن من أخذ شيئًا ظلمًا فإنما اقتطع قطعة من نار ، وقد حذر الحكام أن يجوروا فى حكمهم بما لا يمكن الزيادة عليه ، حتى قال — صلى الله عليه وسلم — فيما ورد عنه : « مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُجَاءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ فَلَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ » . وانظر هل تجد أبلغ وأروع من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)(١) . وقوله فى الآية الأخرى : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)(٢) فإذا كان هذا شأنهم مع أعدائهم الذين يبغضونهم فى الله ولله ، فكيف يكون حالهم مع غيرهم ؟ ومن ذلك القبيل قوله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)(٣) .

وعلى الجملة فإننا نعجب كيف لا يظهر نور الإسلام فى هذا العصر ، عصر العرفان ويقظة العقول .

ونذكر هنا قول اللورد « هدلى » الإنكليزى الذى اختار الإسلام دينًا بعد أن وقف على ما فيه من خير وسعادة وتعاليم تروق العقول وتبهج الأرواح :

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٥

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨ أى لا يحملكم بغضكم لقوم أن تقعوا فى جريمة الظلم .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ ، أى اذا كان بينك وبين قوم عهد وتبينت من حالهم فيه خيانة العهد فأنذرهم بطرح العهد الذى بينك وبينهم حتى تكونوا على سواء فى الحل من اختراق ذلك العهد .

« إنى أعجب من الذين يبحثون عن أحسن مأكل ومشرب وملبس ومسكن ولا يبحثون عن أحسن دين فى الوجود » — إنى أعجب كما يعجب أو فوق ما يعجب للأوربيين كيف يستكشفون ما كان غامضًا من أسرار المادة التى أدهشوا بها العالم ، ولا يستكشفون أسرار هذا الدين وهى أعظم من كل ما استكشفوه ، حتى يعرفوا ما انطوى عليه من الحكمة العلمية والعملية التى تفوق حكمة أفلاطون وأرسطو ، وكان لها من الأثر ما لم يكن لهما ، ولا لغيرهما من كبار الحكماء ، ويجدون فيه من البلسم الشافى للأدواء كلها ما يعجز عنه عصبة الأمم ومؤتمرات السلام ، ومن وسائل المحبة والوئام ما يستأصل الشيوعية التى تهدد مدنيتهم ، وستقضى على كيانهم وتأتى على بنيانهم شاءوا أم أبوا ، كما أنذرهم بذلك كثير من عقلائهم إن لم يصلحوا مدنيتهم الفاسقة ، ولا غرو فهى لا تدور إلا على محور واحد ، يرجع كل شىء عندهم إليه ، وهو المادة التى أخذت كل عقولهم ، واستولت على جميع مشاعرهم وإحساسهم ، فملأوا الدنيا من أجلها شرًا وشقاء ، وضرًا وبلاء ، بحجة أنهم يريدون أن ينقذوا الإنسانية المعذبة « وما عذبها غيرهم ولا قضى عليها سواهم » ، ولو كانوا صادقين لرحبنا بهم وما نقمنا عليهم وقلنا : إن الطبيب يفعل بالمريض ما يؤلم لكن بقصد أن يداويه ، والأب يضرب ابنه لكن لقصد أن يربيه ، أما أولئك الماديون فكاذبون فيما يدعون ، غشاشون مموّهون فيما يقولون ، فليسوا يريدون من الأمم إلا ما يريده رب الماشية من الماشية ، ورب الضيعة من الضيعة ، وقد أفسدوا علينا معشر الشرقيين — لا سامحهم الله — آدابنا وأخلاقنا

وعقائدنا وجميع فضائلنا ، إلا قليلًا من عقلائنا يجاهدون فى ذلك السبيل ، عسى الله أن ينصرهم ويكثر سوادهم بمنه وكرمه .

على أن كثيرًا من الأوربيين قد شهدوا للإسلام ونبىّ الإسلام أكبر شهادة كاللورد « هدلى » المتقدم و « لامرتين » الذى نقلنا شهادته فى العدد الأول . ومثل « توماس كارليل » والدكتور « موريس » و « كاين تيلر » وغيرهم :

ولو حسن التفاهم بين الناس وحل الإنصاف محل الاعتساف واهتم العالم بغذاء أرواحهم ، كما اهتدوا بغذاء أبدانهم ، لدخل الناس فى دين الله أفواجًا طوعًا ورغبة .

فالإسلام — وحقك — هو بغية الأرواح وطلبة الأشباح ومهبط السكينة ومستقر الطمأنينة وضالة العقول وخلاصة المعقول والمنقول وأمنية القلوب ورأس كل مطلوب ، وهل للناس مطلب غير أن يسعدوا فى ظاهرهم وباطنهم ودنياهم وأخراهم سعادة تدفع عنهم شرور الحياة ومكارهها ، ثم تفيض عليهم من أنواع السرور وشرح الصدور وبهجة الأسرار وصفاء الأنوار مالا يعلمه إلا الله تعالى ، ثم تسلمهم بعد ذلك إلى نعيم لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال ، وملك ليس فيه عناء ولا له انقضاء .

ثم هو فوق هذا يدعو إلى الديمقراطية الحقة والمساواة الصحيحة ، فلا يرى فضلًا لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وقد أمر الناس بالتواضع فى أنفسهم وخشية الله من قلوبهم ، وأن يشارك غنيهم فقيرهم بالعشر

أو نحوه فيما أعطاه الله – تعالى – حتى يطهر نفوس الأغنياء من البخل وقلوب الفقراء من الحقد عليهم ، فيتم بينهم المحبة والوئام ، أوصى الجار بالجار حتى قال : « وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ . فَقَالُوا : مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » . وقال : « مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُه جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ » .

أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا فرق فى ذلك بين أمير ومأمور ورئيس ومرؤوس ، وقال جل شأنه فى حق قوم أصابتهم اللعنة : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)[1] فكيف تكون مكارم الأخلاق فى مثل هذه الأمة لو أخذت بتعاليم دينها ، وهل يكون لانتهاك الحرمات وارتكاب المحرمات وخرق سياج الآداب سبيل إلى أمة يكون بعضها رقيبًا على بعض ، وقد سيطر عليها الدين الذى يجعلها خير أمة أخرجت للناس سيطرة تستولى على نفوسها ، ولا تفارقها فى خلوتها وجلوتها ، به أوجب أن تكون لها العزة والرفعة ، حتى أوجب عليها الهجرة من أرض الذل ضنًا بكرامتها ، واستبقاء لعظيم شرفها ، حتى قال : « المؤمن لا يذل نفسه » وقال الله فى وصفهم : (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[2] وقال : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[3] . إلى آخر مالا يسعنا إلا التلميح به والإشارة إليه .

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٩
(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤
(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨

نعم هذه قواعده المتينة وقوانينه الرفيعة ، وإن أمره فوق هذا ، إنه لما رأى الإنسان كثيرًا ما تلعب به الأهواء وتغلب عليه الشهوات ، وكان يمكنه أن يحافظ على ظاهر تلك القوانين ولا تقوم عليه حجة بعد المحافظة على أشباح هذه الرسوم ، مع ما له من القصد السيء فيما يأتى ويذر ، فيكون ظالمًا يلبس ثياب العادلين ، ومتدنسًا يتسم بسيما المتطهرين .

لما علم ذلك علمنا أن المحافظة على تلك الرسوم الظاهرة لا قيمة لها فى نظر الدين ، فقال فى الحديث : « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » وقال : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » . وقد قال تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) وقال : (وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ)[1] .

وعلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الأشياء تتشابه فأمرنا بالاحتياط عند ذلك فقال : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » وقال : « الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ » وقال تعالى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[2] ، (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)[3] .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٥
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧
(٣) سورة طه ، الآية ٧

فأنت ترى وقد وضح الصبح لذى عينين أن الإسلام لا يريد من أبنائه إلا الحق الصراح ، الذى لا يعتريه ريب ، والعدل الكامل الذى لا يشوبه ظلم ، ولا تبنى أموره إلا على المصالح الحقيقية والحقائق الواقعية ، فما أدرى كيف صُمَّت آذانهم عن سماع ندائه العالى وعميت أبصارهم عن رؤية شمسه المشرقة .

ولنختم هذه الكلمة بمحادثة وجيزة جرت بينى وبين بعض العظماء تناسب هذا الموضوع :

قال : إن الأُمة لا يزعها عن الشر إلا أحد أمرين : الدين والفلسفة . وحيث إن الأُمة لا تستطيع الفلسفة ، ولا يمكنها أن تكون من ذويها فلا بد لها من الدين . فقلت له : أشكرك على أن أحللت الدين ذلك المحل وأنصفته ذلك الإنصاف ، ولكن يسمح لى معالى الباشا أن أقول :

إن هناك فروقاً كثيرة بين الدين والفلسفة ، فالفلسفة تستمد من نظريات العقول التى تصيب وتخطىء ، وأمامنا السوفسطائية التى تجافى فلسفتهم الحقائق على خط مستقيم ، وكثيراً مايكون هناك نزعات خفية توحى للفيلسوف فلسفته من حيث يشعر أو لايشعر .

والإنسان أسير نزعاته وشهواته محصور فى الناحية التى تسيره فيها نزعته الخاصة أو شهوته الخفية ، وأمامنا فلسفة « أبيقور » وأتباعه تلك الفلسفة التى لاترى الخير إلا فى الملاذ الحسية ، وتقول : إن ماوراء ذلك وهم أو خيال ، وقد يؤثر زخرفها الخلاب الموافق لأهواء النفوس وشهوات الطبيعة فى كثير من أطفال العقول وأسراء الشهوات

فيرون كل شىء مباحا ، وإن الأموال والأبضاع حق مشاع بين الناس ، وإن من الظلم استئثار بعض الناس بشىء ، فيجب فى شرعة الطبيعة أن لايكون هناك استئثار بملك أو زوجة ، وألا يكون هناك تحريم لأُخت ولا بنت ولا أم ، وأن من استطاع الوصول إلى الاستمتاع بشىء من ذلك كله حل له أن يتمتع به ، لأنه استرداد لحقه المغتصب ، إلى آخر تلك الفلسفة ومزخرفاتها .

أما الدين فيستولى على النفوس من كل جهاتها فيقف بها عند ماحد لها من الحدود ، ثم يحاول أن تكون فاضلة كاملة حتى تؤثر على نفسها ولو كان بها خصاصة . وترى فى ذلك كل سعادتها وهناءتها ، وللقلوب سعادة لايحس بها ذوو الأموال ولا أرباب المناصب .

على حين أن فلسفة « أبيقور » تقول هازئة بهذه التعاليم : « ماهى الفضائل ، وماهى الرذائل ، وماهى السعادة ، وماهى الشقاوة ، وما هو النقص ، وماهو الكمال ، ماهذه إلا ألفاظ فارغة وخيالات باطلة » و بهذه الفلسفة لاتلقن أبناءها إلا الزور والفجور ، ولا تغذيهم إلا بجراثيم الأوبئة الفتاكة المهلكة والأفكار المربكة ، ولكن المتدين يقول مايقول الله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] ، (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)[2] إلى آخر ماجاء بالكتاب والسنة ، وهو كثير .

(١) سورة يونس ، الآية ٧ ، ٨ (٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٤

فأنت ترى المتدين فاضلاً خيِّراً كاملا ، وترى ذلك الفيلسوف جاهلاً ضالاً شريراً ، فالفلسفة غير مأمونة ولا مقدسة ، لأنها من نتائج الأفكار البشرية ، بل ضررها أقرب من نفعها . بخلاف الدين الذى هو تنزيل من رب العالمين .

وبالجملة فالإسلام عظيم أمره ، كبير شأنه ، ولكن ضيعه أمراؤه ، وفرط فيه علماؤه ، منذ زمان بعيد ، ولنقف هنا اليوم ولنا إلى الموضوع عودة بعد عودة بعد عودة إن شاء الله .

سوانح ومقتبسات (١)

ليس الشأن أن تتكلم فى كل علم : إنما الشأن أن تكون راسخاً فيه تعرف غثه من سمينه : كثيراً من الناس يتلقف فقرات من العلم من غير أن يعرف حقيقتها فيرددها ويطنطن بها ولا يعرف ما فيها ، فهو أشبه شيء بما ورد فى الحديث فى شأن المنافق حين يسأل حيث يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

وقد أصبح المتعلمون عندنا يقدسون كل مايسمعونه عن أوربة بلا بحث ولا تمحيص ، ويعتقدون أنهم أصبحوا علماء ، وقد يكون ذلك محل نزاع كبير عندهم . ولكنهم كالأطفال الذين إذا سمعوا شيئاً لم يخالجهم فيه شك ، ولم يعترهم فيه حيرة ، خصوصاً إذا كان ذلك من آبائهم أو أساتذتهم ، وليس الفضل فى تلك الوثبات الحمقاء فإنها ضارة لا نافعة ، وإنما الفضل فى البحث والتمحيص بحيث يحيط بأطراف المسائل ، ويقارن بينها وبين ماجاء فى الديانات مقارنة صحيحة .

أما هؤلاء فلا يعرفون ماقيل فى تلك المسائل العقلية نفياً وإثباتاً ، ولا ما كان لها من مراحل البحث العلمى ، ولا ما وصلت إليه من درجة الظن أو اليقين أو الشك أو التخمين ، كما لاعلم لهم بما قيل فى تلك

(١) مجلة الأزهر – العدد الرابع – المجلد الأول – ربيع الآخر ١٣٤٩

المسائل الدينية ، وما قرره العلماء فيها ، وما كان لهم من أنظار وأفكار وتأويل وتعليل ، وقد كان يجب أن يعرفوا أولاً أهي من القطعيات أم من غيرها ، وهي مما جاء في الكتاب المجيد ، والسنة الصحيحة ، أم من عمل الاجتهاد الذي هو معترك الأنظار ومزدحم الأفكار ، فإن هذا القسم قد يدخله وهم كثير ، شأن البشر في كل أبحاثهم وأفكارهم .

قيل لابد للناس من فلسفة أو دين ، ولكن هناك فرق كبير بينهما ، فإن الفلاسفة يستمدون من أفكارهم التي تختلف ونزعاتهم التي تتضارب وتتناقض ، ومنهم من اقتضت فلسفته الإكباب على الشهوات .

وفرق بين الرسول الذي يفزع إلى الله ، والفيلسوف الذي يفزع إلى فكره وعقله .

الفلسفة تدخل في كل شيء ، حقا كان أو باطلا ، لأن مدارها على قوة الخيال ، وفصاحة اللسان ، وحسن الأسلوب ، والقدرة على التلاعب بالكلمات ، والتفنن في العبارات ، وليس مدارها على كون الشيء حقاً ولا كون الدعوى صادقة ، ولذلك السفسطائيون المعروفون . ولكل فلسفة قوم يعتنقونها ، وأذواق تقبلها وعقول تصطبغ بها .

إن الله قد أوجد العالم على نظام محكم ليدل على حكمته ، وقد يخرق هذا النظام المشاهد أو يتصرف في نواميسه ليدل على قدرته ، ولكن الماديين إذا رأوا إتقان النظام ، قالوا إن العالم سائر على سنن لاتتبدل ، فلا حاجة إلى إله . كأن القوانين تغني عن المقنن ، وكأن النظام يغني عن المنظم ، أو وضع الخواص في الأشياء يغني عن الواضع ،

وإذا رأوا مالايدركون سره ، قالوا إن ذلك فوضى لاتليق بالحكيم ، فماذا يريد هؤلاء الذين لاينفعهم نظام ولاغيره ، ولكن إذا فسدت معدة الإنسان وجد كل شيء مراً ، وفي بعض الكتب أن الطاهر يجعل كل شيء طاهراً ، والدنس يجعل كل شيء دنسا ، والمريض الذي اختل مزاجه لاينفع معه شيء .

العالم لانهاية له وهو منظم غاية النظام ، ففيه قوة لاحد لعملها وحكمتها وقدرتها ، والمادة وجه من وجوهها ، وأثر من آثارها ، لاسبب في أصل وجودها ، إن وراء العالم المادي عالماً خفيا ، هو عالم الإدراكات والرغبات والانفعالات والعواطف ، ولا يدركون كنهه ، ولايمكن أن يعلل بتعليل مادي ، وأصول علم النفس الآن ليست أقل من أصول علم الطبيعة .

الإسلام يعطي الأرواح الأمان والاطمئنان ، وقد جعل تحيته السلام ، وكلما لاقيت رجلاً بدأته بالسلام فرد عليك السلام . فشعار المسلمين السلام وأمته جديرة أن تسمى أمة السلام .

وأما عصبيته للحق فمن أكبر فضائله ، ولو صدق الأوربيون المستعمرون المتعصبون في أنهم أنصار الإنسانية المعذبة ، ومنقذوها مما هي فيه ورافعوها إلى ذرى السعادة ، لقابلنا مايفعلون في الناس بالاستحسان والابتهاج ، ولكنها وسيلة من وسائل الاستعمار أيضا ، وما كان ذلك إلا لأمة الإسلام حينما كانوا متمسكين بمبادئه ، عاملين بتعاليمه التي أصبحوا بها ملوك الشرق والغرب في أقل من قرن ، يقيمون موازين العدل ، ولايخشون في الله لومة لائم .

قال الفيلسوف تولستوى : ولعل المبادئ العظيمة السامية الشماء التى تضمنها القرآن فى بسط قوة الله وحبه وعظمته ورحمته لامثيل لها ولا ضريب فى أى دين آخر من الأديان ، تراها تتدفق فى آيات من أبلغ آيات البيان وأشدها إثارة للأرواح وهزة للنفوس ، ثم لا تزال الروحانية تعمل عملها فى الحياة وفيضها ونورها ، مبادئ لا ينتهى الإنسان منها .

ولا تجد فى دين الإسلام كله من أوله إلى آخره أثرا من آثار الاستبداد الفكرى والسفسطة التى تراها فى تلك النظريات ، ولا من السفسطة واللجاج والحاجة والترثرة ، بل لا يزال هذا الدين ينعش الأرواح ، وينادى الضمير العميق فى الإنسان ، ويناجى الفؤاد والوجدان ، ويمشى مع الصوت الخارج من حبة القلب الصادر من سويداء الروح ، ولا يقبل إلا منطق القلوب ، وعقل الغريزة والفطرة .

الكلام على الإسلام يجب أن يكون فى مقامين : مقام النظر فى أصول الإسلام وتعاليمه ، وسيرة من جاء به ، ومقام رد الشبه عنه وما يخالج بعض العقول الصغيرة مما لا يدركون له سرا ، ولا يفقهون له تأويلا . ولابد من هذا ، فإن الناس مختلفون اختلافاً كبيرا فى الاستعداد وفى التربية والنزعات والأهواء ، حسبما أحاط بهم من الأوساط المختلفة والبيئات المتنوعة ، وهم بعد ذلك فى معلوماتهم متفاوتون تفاوتاً لا يعلمه إلا الله ، فمحال أن يتفقوا . ولو فرضنا أنك ذكرت ما يفكر فيه كبار الرجال وما يرمون إليه من مرام بعيدة وأنظار سديدة للأطفال ، وأعطيتهم الحرية فيما يقولون وفيما ينتقدون

لذهبوا مذاهب شتى ، ولاعترتهم شكوك وأوهام تناسب حالهم وخيالهم .

فهكذا الجهلاء مع العلماء ، والسفهاء مع الحكماء ، لأنهم لايعرفون لهم قدرا ، ولا لما يقولون معنى ، فإذا انضم إلى ذلك تبجح وعناد مع تقديس الجهلاء أنفسهم كانت الطامة الكبرى والداهية الدهياء ، ومن جهل شيئاً عاداه ، وما أصدق قول الله — تعالى — وأصابه لكبد الحقيقة : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)(١) .

لايجوز أن يكون العالم بلا إله بالأدلة القطعية ، ولا يجوز أن يكون له إله ثم يهمل خلقه ، فلا يرسل إليهم من يرشدهم إلى طريق السعادة ، ولايجوز أن يترك من يكذب عليه بلا انتقام ، كما فى القرآن وغيره من كتب الأنبياء ، وقد قال الله فى كتابه العزيز (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)(٢) . ينكرون الشياطين وقد آمنت بهم أوربه عندما شاع استحضار الأرواح ، ويطلبون السفور وهم يئنون منه هناك ، ولكننا عتدنا أن نهزأ بكل ما ورثناه عن أسلافنا ، فاجتهدنا فى هدم كل معتقداتهم وعلومهم .

أريد فى هذه السوانح أن ألفت نظرك إلى شىء بديع جدا فى الإسلام لاتكاد تجده فى غيره خدمة للحقيقة ، وتحقيقاً للحق ، لا طعناً

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة الحاقة ، الآية ٤٤-٤٦

ولا تعصبا ، وقد أصبح البحث والتمحيص شهوة من شهوات العصر الحاضر ، والوقوف على الحقائق كما هى نزعة من نزعات العقول العصرية ، فتحليل الأشياء تحليلاً علمياً ، حتى المسائل الأدبية والتاريخية الآن ، هو فوق كل شىء ومقدم على كل شىء ، وبهذه الأبحاث الحرة التى لا يقصد منها إلا خدمة العلم كان للإسلام شهادات كثيرة من منصفى الأوربيين وفلاسفتهم ، وقد كانوا يشوهونه غاية التشويه فى القرون الوسطى فنقول :

إن الإسلام لا يعرف الإفراط ولا التفريط ، ولا غرو فهو الصراط المستقيم الذى هدانا الله إليه ، ولا يكون مستقيماً إلا إذا سلك الجادة والتزم الوسط ، فتراه لم يجئ بالزهد البالغ الذى يترتب عليه خراب الدنيا وذل المؤمنين به ، مما هو منافر للطباع البشرية تمام المنافرة ، وموجب لسقوط الأمة واستذلالها ، فلم يقل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ولم يقل : « لا يدخل الغنى ملكوت الله » مما لا ينبغى أن يستعمل إلا دواء وقتياً لمرض خاص فى وقت خاص.

ثم لا تجده مع هذا يذكر الدنيا مرغباً فيها ، لافتاً الأنظار إليها بجعلها جزاء على الأعمال كما فى الشريعة اليهودية « وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً »[1] .

وكذلك لا تجده حتم القصاص كالتوراة ، ولا العفو كالإنجيل ، لأنه يعلم أن الطباع فى ذلك تختلف اختلافاً كبيرا ، فمن الناس من لا يشفيه إلا القصاص ، ومنهم من كرمت نفسه فيسمح بالعفو ابتغاء

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٧

وجه الله تعالى ، ومنهم من تسمح نفسه بالعفو فى نظير شىء يأخذه من الجانى ، فجاءت الشريعة الإسلامية بذلك كله ، بعد أن رغبت فى العفو كثيرا .

وكذلك تجد الشريعة الموسوية أمرت بقتل النساء والاطفال فى بعض الأمم ، وجاءت الشريعة الإسلامية بتحريم ذلك . وترى الديانة المسيحية بجانب هذا لا جهاد فيها ، فأكبر مخالفيها على وجه الأرض اليوم هم المدعون لاتباعها المجتهدون فى التبشير بها .

تجد الإسلام يحث على التوكل ويجعله لازماً للإيمان فيقول :

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[1] وبجانب هذا يقول : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ)[2] ويقول : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ)[3] ويقول : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[4] ويأمرهم ألا يكونوا عالة على الناس وهو القائل : (كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)[5] يريد أن يجعلهم معطين لا آخذين .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٣
(٢) سورة الملك ، الآية ١٥
(٣) سورة الجمعة ، الآية ١٠
(٤) سورة القصص ، الآية ٧٧
(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٤١

وهو القائل : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السفْلَى » . ويقول فى حفظ الجماعة الإسلامية ودرء الشرور عنها ورد عادية أعدائها : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)[١] ثم يأمرهم أن يحتفظوا بفضيلة الاعتدال فى جميع الأحوال ويطلب منهم ألا يأسوا على ما فاتهم ولايفرحوا بما آتاهم ، يريد أن يجعلهم رجالاً عظماء ، لا يطيشون عند ورود نعمة أو حلول نقمة .

يقول : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[٢] ولايدعها حتى يتلافاها بقوله : (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً)[٣] . (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[٤] ويقول : (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً)[٥] ثم يقول فى الجزاء : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ)[٦] دلالة على طريق العدل . ثم يدل على طريق الفضل فيقول : (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)[٧] ومثل ذلك قوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ)[٨] إلى آخر مايرشدك إليه بحثك الصادق وذهنك الثاقب .

يرمون الإسلام بأنه دين التأخر والجمود ، وأنه لايمكننا أن نجارى الأمم الراقية فى ميادين الحياة ، ونحن متمسكون به حريصون

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠
(٢) سورة الكهف ، الآية ٤٦
(٣) سورة الكهف ، الآية ٤٦
(٤) سورة القصص ، الآية ٦٠
(٥) سورة محمد ، الآية ٤
(٦) سورة النحل ، الآية ١٢٦
(٧) سورة النحل ، الآية ١٢٦
(٨) سورة الشورى ، الآية ٤٠

عليه ، يريدون أن يجعلونا ماديين نخدم الأجسام والأوهام ، وأن نقتل الوجدان ولا نصغى إلى البرهان ، وأن نخنق أنفاس الأرواح ، ونحصر جهودنا كلها فى مطالب الأشباح .

على أنى وأبيك لاأعرف لذلك معنى ولا أذوق له سرا ، فإن الدين يوجب علينا أن نكون أرقى الأمم ، وأن لانحتاج إلى غيرنا ، حتى إنه جعل الصنائع كلها مهما تجددت بتجدد العصور من فروض الكفاية التى تأثم الأمة جميعها بترك أصغرها وأحقرها ، فلا يبيح لنا الدين أن نجهل صنع إبرة نحتاج إليها فكيف بالمدفع أو الطيارة . . . . الخ .

فما أدرى كيف يفهمون أن الدين أخرهم ، وما تأخروا إلا بترك أوامر الدين وتعاليمه ، وإنا ننادى بأعلى صوت : إن المسلمين اليوم كلهم آثمون بهذا التكاسل الذى يحرمه الدين تحريما باتًّا وينهى عنه نهياً بليغا ، وهم محتاجون بعد هذا إلى أن يكونوا مخلصين فيما يعملون ، قد طهرت نفوسهم من الأثرة والأنانية والتشاحن والتكالب على حطام الدنيا الذى تجاوزوا به حده ، ولم يعرفوا أنه وسيلة لاغاية ، وأن مقاصد الإنسانية أسمى من ذلك وأكبر مما هنالك .

ومعلوم أنه لايمكن الاعتدال فى طلب الدنيا ، ولا الإخلاص الصحيح ولامحبة الفضائل واجتناب الرذائل إلا بالخوف من سلطان الله ، والرغبة فيما عند الله ، فإذا خضت غمار الدنيا وأنت متسلح بسلاح الدين ، وراقبت الله تعالى فيما تفعل وما تترك ، حفظت من مكايد الشيطان وآثار الطغيان ، وإذا كنت أعزل من هذا السلاح تخطفتك الشياطين ،

وضللت فى تلك الميادين فارتكبت الموبقات ، ووقعت فى الهلكات ، فكنت شراً مستطيراً على نفسك وعلى أبناء جنسك .

فالناس فى الحقيقة فى حاجة إلى الدين لإصلاح الدنيا قبل الآخرة ، وأجدنى مسوقاً إلى أن أقول :إنه لايمكن الانسان أن يعيش فى راحة بال ، وصفاء حال ، ولا أن يشعر بلذة إنسانية حقيقية ، إلا إذا كان ذا دين قويم ، وقلب سليم ، فإنه يجد من النور وشرح الصدور ، ومن برد اليقين ، ونفحات رب العالمين ، مايفوق نعيم الملوك والسلاطين ؛ فإن نعيمهم جسمانى لاروحانى ، وبهيمى لا إنسانى ، على أن قلوبهم دائما فى قلق واضطراب ، وخوف ووجل ، مما يتوقعون أو يتوهمون ؛ لأنهم لايتغذون إلا من زقوم المادة وهى « شجرة الهموم والغموم » .

ومحال أن يكون للشىء غير ظواهره الطبيعية ولوازمه الخلقية ، فالسعادة لا تجىء من هذه الناحية ،وإنما تجىء من ناحية أخرى يعرفها المؤمنون ، وقد رسخ فيها الروحانيون ، وأما أهل الدنيا فلا أثر لذلك إلا فى ظواهرهم لاغير :

لاتغترر بنعيمهم فجسومهم فى جنة وقلوبهم فى نار

الدين ضرورى للعمران (١)

الفرق بين المؤمن وغيره

قلنا : إن الإنسان مركب من جزء علوى سماوى ، وجزء مادى أرضى ، وأنه لابد له بمقتضى هذا الجزء أن يتغلغل فى المحسوسات ، ويوغل فى وادى اللذائذ الجثمانيات ، ولا شىء عليه فى هذا ، بل بذلك تحصل سعادته وتتم راحته ، وقد اعتنت الشريعة بذلك أتم اعتناء ولكن رسمت له قواعد ، وحددت له حدودا .

غير أن المؤمن لايتفانى فى تلك المطالب البدنية ، ولا يتهالك عليها ، بل يراعى حدود الله فيها ، وبذلك يصفو عيشه وتتم راحته .

وأما غير المؤمن : فيعدو وراء الأوهام ، وينخدع بأضغاث الأحلام ، ويغره لمعان السراب فيحسبه من لذيذ الشراب ، فيشقى شقاء لاسعادة فيه ، ويكد كداً لاراحة معه . قد عظم فيه الشره ، فهو يطلب أن يستأثر بكل شىء ، فتراه يثب وثوب الوحوش على إخوانه وبنى نوعه ، يفترسهم افتراس الذئب الضارى نائية الغنم ، ويستلب منهم مااستطاع إليه سبيلا ، حتى يكون له من رفعة الحياة ووفرة المال وضروب اللذات ماليس لأحد سواه فى بلده أو قطره أو الدنيا كلها ، على حسب ماتسمح به درجته وتوصله إليه قدرته ، وهو الذى فى نفسه من التكالب الحيوانى

(١) مجلة الأزهر — العدد الخامس — المجلد الأول — جمادى الأولى سنة ١٣٤٩

على جمع المال ، والحرص على قتل غيره لينفرد بالحياة ، ومارکب فيه من ذلك الشره الذى لايتناهى ، حتى لايساويه أحد ، ولا يدانيه إنسان ، فيكون وحيد دهره ، وفريد عصره على مايزعمه شيطانه «ولو أنصف لعرف أنه وحش إخوانه ومفترس أقرانه » .

كل ذلك الذى يدور بنفسه ويطلبه على موجب شرهه وجهله ، هو بعينه فى نفس كل واحد من بنى نوعه بمقتضى الغريزة البشرية ، فلا يلبث أن يقوم فى وجهه قومة الأسد فى وجه من يريد أشباله ، فلا يزالان يتصارعان حتى يصرع أحدهما الآخر بفضل غلبة الأهواء ، وعدم معرفة حقيقة السعادة والشقاء ، وإذن تنحل الروابط الإنسانية ، بل علاقات القرابة الأبوية ، كما شاهدنا ونشاهد ، فتتفكك أجزاء الأمة ، ويكاد ينهار بناء المجتمع الإنسانى ، لولا لطف الله تعالى به ، ووجود الكاملين فيه .

ولا غرو فالإنسان مجبول على محبة الدنيا وعلى الإفراط فيها كما قال تعالى : (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[1] وقال : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)[2] وقوة المحبة غير المعتدلة ينشأ عنها : التحاقد ، فالتحاسد ، فالتدابر ، فالتنازع ، فالتقاتل . «نتائج طبيعية يستلزم بعضها بعضا » وهذه حقيقة ملموسة تراها بين الدول والأفراد . وناهيك بالحرب

(١) سورة الفجر ، الآية ٢٠

(٢) سورة القيامة ، الآية ٢٠

الكبرى وماتفعله دول الاستعمار ، وماتراه من عمل المرابين ومحبى الأثرة فى كل أمة ودولة .

ولذا كان غرس مكارم الأخلاق التى تقف النفوس عند حدها ، وترسم لها طريق السعادة الحقيقية ، وتنفخ فيها روح الإنسانية ، ويرشد إليها الدين ، ويعلو بها عن الصفات البهيمية ،من أول الضروريات التى يتوقف عليها صلاح الكون وبقاء النوع الإنسانى ، حتى لايذهب فريسة الشره وضحية الأطماع . لافرق بين الأفراد وبين الأمم فى ذلك .

المؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها إلى سعادته الباقية ، وليسير على راحلتها إلى محل قراره ، فهى فى نظره لاتتجاوز رتبة الوسائل التى تراد لغيرها ، ولا ترتفع إلى درجة المقاصد التى تراد لذاتها وإن كان لابد منها .

وقد أثمر هذا النظر للمؤمنين أن يتمتعوا بقلوبهم وتمام حريتهم إذ لم تستعبدهم الدنيا بمحبتها كما استعبدت أبناءها المتعشقين لها المتهالكين عليها ، ولم تأخذ من قلوبهم إلا كما تأخذ الوسيلة من قلوب ذوى العقول السليمة ، ومن أجل ذلك قل فيهم الخصام ، وتم بينهم الوئام ، ولا تظن ــ أيدك الله ــ أنا نرى أن المؤمن لا يتوسع فى الدنيا ولايكون بعيد النظر فيها ، فإنه هو العاقل الحكيم بحكمة دينه وتعليم سيده ، الذى جعل له العزة وأوجب أن تكون أمته خير الأمم . وقد بسطنا ذلك فى مقال آخر .

والمؤمن من أرفع الناس همة ، وعلى قدر همة الرجل تكثر واجباته وتكبر مروءته فتعظم أثقاله ، وهو الذى لايزال لسان حاله يقول :

أريد بسطة كف أستعين بها   على قضاء حقوق للعلا قِبَلى

ولكنه يعمل كل ما يعمله فيها لله على سنن الاعتدال ، غير غافل عن مقصده الذى يريده ، فيتوسل بكل شيء فيها إلى فعل الخير واكتساب الأجر .

سوانح ومقتبسات (١)

أرجو من حضرات القراء أن يطلبوا من هذه السوانح الفوائد لا المناسبات :

١ – لا نعترض على علماء الطبيعة فيما يرون وما يقولون فإن حرية الرأى أساس تقدم العلم ، فإذا ضغطنا على حرية الرأى فقد وقفنا عقبة فى سبيل تقدمه ، كما كان يفعله القسوس فى القرون الوسطى . ولكن نحب منهم أن يخلصوا للعلم أيضاً ، فلا يوهمونا أن الظنى قطعى والتخمينى يقينى ، نحب منهم دائماً أن يضعوا نصب أعينهم أن العلم متغير متبدل ، وأن عقل الإنسان قاصر والكون كبير وأسرار الوجود لا نهاية لها ، فإذا لم يخلطوا التخمين باليقين ، ولم تغلب عليهم الأثرة والتبجح بما اكتشفوا ، ووقفوا عند حد العلم الصحيح ، ولم يصادموا كل شيء بمقتضى ذلك الاكتشاف الناقص الذى أكملوه من نزعاتهم وأهوائهم وأوهامهم وخيالهم ، لو فعلوا ذلك لرحبنا به كل الترحيب ، ولزال كثير مما بيننا وبينهم ، ولكن النفوس الإنسانية مجبولة على التبجح فهى فى عملها بمنزلة المجهر الذى يكبر الأشياء إلى أكثر من ألف ضعف من حجمها الحقيقى .

---

(١) مجلة الأزهر – العدد السابع – المجلد الأول – رجب ١٣٤٩

٢ – إننا نجلهم كل الإجلال على بحوثهم واكتشافاتهم ولكن نحب منهم أن يعرفوا أن هذه البحوث ليست إلا معرفة سلسلة الموجودات ، وترتب بعضها على بعض ، أو نقول : حدوث بعضها عقيب بعض ، أو قل أنت : نشوء بعضها من بعض ، ولكن نعجب لهم كيف لا يمتلئون عجباً ودهشاً من ذلك النظام الذى لا يعرفون له سراً غير أنهم شاهدوه ، فكان المعقول أن يمتلئوا بعظمة ذلك الفاعل المستتر الذى حيرت آثاره العقول والأفكار ، وإنا نجلهم أن نشبههم بالأطفال الذين يرون الأشياء فى هذا الكون فيعللونها تعاليل لا توافق الحقيقة ، غير مفرقين بين مقارنة الشىء للشىء ، وسببية الشىء للشىء ، أو نقول بين السببية والفاعلية ، أو نقول بين الفاعلية والقابلية ، ولعلهم يفيقون من سكرة الظفر بهذه المكتشفات فيرجعون إلى العقل والمنطق .

٣ – إنهم عرفوا عناصر الأشياء ومقاديرها ، فهل يمكنهم أن يصنعوا لنا تفاحة أو رمانة أو نحو ذلك بناءً على ما عرفوا فى كيميائهم من قوانين المزج والاتحاد فضلاً عن إنسان حى أو حيوان حى .

٤ – إنه يمكنهم أن يحللوا الخلية ، ولكن لا يمكنهم بعد تحليلها أن يعيدوها حية كما كانت ، أليس ذلك وحده دليلاً على أن الأمر ليس راجعاً إلى ألفة العناصر ولا مقاديرها ؟ بل إلى سر يجهلونه تمام الجهل حتى فى أصغر الأشياء .

٥ – إن المادى الملحد لا ينتظر منه غير الإلحاد والقول بالمادة ، فإنه لم يقرأ إلا كتبها ، ولم يطرق سمعه فى تربيته الخاصة وأدوار

حياته الطويلة إلا التنويه بها والحديث عنها ، فنفسه ممتلئة بها فارغة من كل ما سواها ، فهو سكر بمحبتها مخمور بآثارها ، وماذا تريد من السكران الذى انحصر فى موضوع واحد حتى تخلل ذلك الموضوع أجزاء نفسه ؟ وماذا تنتظر من الذى حصر نظره فى اتجاه واحد ؟ هل يمكنه أن يعرف غيره وهو لم يتجه إليه ؟ والإنسان محصور فيما وضع نفسه فيه ، والعالم كبير جداً ، والعلم لا آخر له ، فتكفى ناحية ضئيلة من نواحى العلم أن تأخذ الإنسان كله حتى لا تدع منه شيئاً لغيرها ، والإنسان ليس موجوداً إلا فى جزء صغير من العالم ، وهو ما وجه نفسه إليه وقصر بحثه عليه ، وإن كان يظن أنه موجود فى العالم كله .

٦ – لننظر أى الفريقين أهدى سبيلا ؟ فريق المؤمنين الذى أرجع الحياة إلى أصل حى ، والإرادة إلى أصل مريد ، والعلم إلى أصل عالم ، والنظام المحكم إلى منظم حكيم ، أم فريق الماديين الذين خالفوا فى ذلك كله بدائه العقول وصرائح البراهين ؟ فبلغوا من الأوهام حداً لم يبلغه الفلاسفة الأقدمون الذين يرمونهم بالخيالات والخرافات ويفتخرون عليهم كبراً وتبجحاً بأنهم خلصوا من الوهم ، وبرئوا من الخيال غير شاعرين أنهم وقعوا فيما هو أفظع منه .

٧ – وصل التخرص فى حقيقة المادة والتظنن فيها إلى حد أن قالوا : إنها مؤلفة من مجموعات كثيرة كالمجموعات الشمسيه ، وإنما الذى يرينا أنها جامدة وصلبة هو سرعة سيرها ، فلا نحس بحركتها مثل الأرض التى تسير بنا سيراً حثيثاً ولا نحس بسرعتها .

ألا نقول لهم : إن ذلك مصادم للحس والبديهة « والحس مقدس عندكم ، والبديهة مقدسة عند جميع العقلاء » ولكن نقول لهم : ما الدليل على ما زعمتم ؛ أليس من الجائز أو الواقع أنها لا تصير كذلك إلا إذا وصلت إلى حد الغازية أو المتكهرب ؟ وذلك لا يكون إلا بعد تحليلها ودخولها فى أدوار كثيرة ، فما الذى جعلكم تحكمون أنها متحركة بتلك الحركات الزوبعية السريعة غاية السرعة فى حال جمودها وصلابتها ، أليس كل دور من الأدوار له حكم من الأحكام ؟ ومن الغلط أن نعطى الجامدات أحكام السائلات ، أو السائلات أحكام الغازات ، إلى آخر ما تعرفون ولا تجهلون .

ولكنهم اعتادوا أن يتهجموا على الأحكام تخرصاً وجراءة ، ناسين ما جعلوه قاعدتهم من إبعاد العلم عن التخرص والتخمين . وطالما سلقوا السابقين الأولين بألسنة حداد ، لتورطهم فى التخرص وفرض الفروض من غير أن يقوم عليها الدليل الحسى .

فهذا آخر رأى لهم فى المادة بعد ما تخلص العقل البشرى من الخرافات والأوهام ، وبنى العلم على أساس صحيح من الحس والمشاهدة على ما يقولون .

وأغرب من هذا وذاك ، القول بأن أصل المادة الحركة ، أو القوة ، كأن العرض يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى جوهر يقوم به .

قال بعض الفضلاء : الواقع أن القوة التى لهجوا بها ما هى إلا كلمة تقال للدلالة على آثار تقع فى العالم المادى لا يمكن فهمها إلا بها ، فإذا ثارت عاصفة قيل تحرك الهواء بقوة ، وإذا سقط حجر على

الأرض قيل انجذب إليها بقوة ، ولكن ما هى القوة مجردة عن هواء وحجر ؟ لا ندرى ولا أحد فى العالم يدرى . فكلمة القوة التى جعلها العلماء المعاصرون لنا مبدءًا ومعاداً لجميع الكائنات المحسوسة لا تساوى أكثر من كلمة « الجوهر الفرد » وستخول تلك ما خولت هذه من السلطان المطلق ، ثم يعتريها السقوط إلى الحضيض فتخلفها كلمة أخرى أصلح منها ، مسايرة للعلم فى الدرجة التى يكون عليها إذ ذاك ، ثم لا تكون تلك هى الكلمة النهائية .

بل لا ينفك الإنسان ينتقل من مدركات ومصطلحات حتى يبلغ الغاية مما أعد لبلوغه من العلم ، ولا ندرك إن كان يتم له هذا العلم المطلق فى عالمه هذا بحواسه القاصرة هذه ، أم فى عالم آخر حيث تنطلق روحه من القيود المادية .

فيجب على طالب الحقيقة المطلقة أن يحترس من الكلمات الفارغة وإن سايرت أهواءه الراهنة ، فرب انخداع بنظرية لا أساس لها يقف بصاحبه عشرات السنين فى دائرة معينة من الخيال ، ويقف بأمم برمتها عشرات القرون فى حالة محدودة من الضلال .

وقد كان الطبيعيون إلى ما قبل مائة وخمسين عاماً يفكون جميع المعميات الوجودية بالعناصر الأربعة : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب وقد اتضح اليوم بالتجربة أنها مركبة . وماذا يدريهم أن العناصر التى زعموها بسيطة وأوصلوها إلى نحو الثمانين مركبة ؟ وأن قصور آلاتهم عن تحليلها هو الذى جعلها بسيطة فى نظرهم ، وإلا فالبسيط على

الإطلاق إنما هو الأثير الذى أثبتوه وقالوا : إن كل شىء يرجع إليه ، وقد كانوا يحللون بالجوهر الفرد الذى لايقبل الانقسام ولا التلاشى كل المعضلات الطبيعية ، وقد ثبت بالعلم أنه قابل للانحلال والفناء .

فلا يصح والأمر على ما سمعت أن يعول الباحث عن الحق الصراح فى الطبيعيات إلا على ما يحس به وتمكنه منه تجربته بوسائله الذاتية ، فأحسن موقف يقفونه أمام مسألة المادة هو : أن يعترفوا بأن أصلها مجهول ، وأن كل ما يقال فيه لا يخرج عن دائرة الظنون والآراء .

ويحسن بنا هنا أن نبلغك أن الرأى الذائع فى معاهد التعليم من أن المادة لا تفنى قد أدحضه العلامة « جورج بوهن » والعلامة الكبير « جستاف لوبون » .

٩ — يحاول الإنسان أن يعلل كل شىء وهو لا يستطيع أن يعلله إلا برده إلى العلل التى يعرفها ، وهو لم يعرف إلا قليلاً جداً من هذا الوجود . على أنه لا يستطيع أن يعلل شيئاً تعليلاً حقيقياً ، ولكنه كما قال بعض فلاسفة أوربة ، يشاهد بعض الأشياء مشاهدة متكررة فيظن أنها مفهومة ومعقولة ، وأن غيرها ليس مفهوماً ولا معقولاً ، لكونه لم يشاهده أو شاهده على سبيل الندرة ، والحقيقة أنه لا يعرف عنه هذا ولا ذاك .

قال الدكتور فرانبار : ليس لأى عقل مهما كانت درجة اتساعه أن يضع حدوداً للممكن وغير الممكن ، لأن الممكن لا ينتهى إلى حد كالمكان والزمان ، ونحن وإن كنا قد حددناه فى نظرياتنا فهو يتعداه

كل لحظة ويسخر من ضيق عقلنا ، ألم تعلمنا التجربة أن ما يظهر لنا مستحيلاً اليوم قد يكون بديهة الغد ؟ هكذا كان الحال حيال اكتشاف أمريكة ، وبارود المدافع ، ودورة الدم ، والكهرباء الجلوانية ، والبوصلة وآلة الطباعة ، ومانعة الصواعق ، والطيارات والتلقيح والعلاجات المقطرة إلخ . . إلخ . .

أما ما يقوله لنا العقل فهو : أنه لا يوجد خطأ محض إلا فى الأمرين المتناقضين ، ولا حق محض إلا فيما هو بديهى ، وعلى ذلك يمكن الإنسان أن يقول : إنه من المستحيل أن يرى مثلثاً بغير ثلاثة أضلاع لأن ذلك تناقض ، ولكنه لا يستطيع أن يقول يستحيل أن رجلا يمكنه أن يقرأ من قفاه وأن آخر يسمع من فم معدته « كما يقول علماء الأرواح » وثالثاً يرى عن بعد مائة ألف فرسخ ، ورابعاً ينبىء عن الغيب كما يقولون ، وخامساً لا يشعر بالألم ، وسادساً يشخص داءه وأدواء سواه ، وسابعاً يلهم بوصف العلاجات .

« لا » لايستطيع أحد أن يقول بدون أن يحط من كرامة العقل بأن هذه الحوادث بديهية الاستحالة ، لأنه ليس لأحد الحق ولا القدرة على أن يقول للممكن « إنك لن تصل إلى هذا المدى » .

وفى الواقع أن هذه الظواهر الخارقة للعادة جداً ليست أكثر إدهاشاً ولا عجبا ولا استقصاء على التعليل من الظواهر التى نشاهدها كل يوم .

أليس كل شىء فى الطبيعة غامضاً وعجيباً ، ولكن يوجد عجائب تجرى فى الطرقات وأخرى قليلة الشيوع ، فيخيل للإنسان أنه قد

فهم الأولى دون الثانية ، لأنه لا يراها إلا نادراً ، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يعلل هذه ولا تلك فهو يشاهدها وكفى .

٩ – يقول الماديون إنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس ولا يقولون إلا بالمشاهد ، فهل عرفوا أن الناس كانوا غير متدينين ، فلما خافوا من أفاعيل الطبيعة : حرها ، وبردها ، وظلمتها ، ورعودها وعواصفها وسحبها ، وبرقها ، وأمطارها ، اخترعوا ما وراء الطبيعة ، وقالوا بالقوة الغيبية ، واخترعوا الجن والشياطين والأرواح ، إلى غير ذلك ، فهل هذا هو شأن الأمانة فى العلم ، أو شرف الثبات على المبدأ يا حضرات المتبجحين ؟

١٠ – لابد من تكرار الفوائد فى العبارات المختلفة والأساليب المتنوعة ، ثم لابد من مذاكرتك ذلك كله المرة بعد المرة ؛ حتى تنتفع به وتصل إلى لبابه ويدخل فى شغاف قلبك ، فإن الإنسان مجبول على الغفلة والنسيان ، وقلما يصل إلى لب الحقائق فيما يقرؤه إلا إذا عاوده مراراً كثيرة ، وقلما ينتفع به إلا إذا امتزج بنفسه وكاد يكون علماً حضورياً لديه ، ولذلك تكرر القصص والأمثال كثيراً فى القرآن لتلك الحكمة ، وقد كتبنا فى موضوعات كثيرة ثم نراها غريبة لدينا عندما تقرأ علينا بعد ردح من الزمان ، وسبب ذلك الغفلة والنسيان وهما غريزتان فى نوع الإنسان .

١١ – نريد من الطبيعيين أن يقولوا فيما وصلوا إليه من القطعيات : إنه قطعى ، وفيما هو فى محل البحث والافتراض إنه فرضى ، وفيما جهلوه رأساً إنهم جاهلون به لم يصلوا إلى حقيقته ولا سره ؟ وبهذا يكونون قد أخلصوا للعلم ولأنفسهم وللناس جميعاً .

١٢ – إنهم يقولون إن المادة قوة أو هى راجعة فى آخر أمرها إليها ، وقد رجعوا عن الرأى القديم فيها ، أفلا يرى القارئ الكريم أنهم قالوا بالمجردات من حيث لا يشعرون ؟ بل زادوا علينا بأن كل شئ من الماديات هو فى حقيقة أمره قوة تقمصت هذه الصور وتلك الأشكال ، فما فرارهم بعد ذلك من القول بما وراء المادة ، وقد أكثروا الدوران ثم رجعوا إليه .

١٣ – العلم ومباحثه البرهانية لا يصبر عليه إلا من ارتاض بضاعة المنطق والبرهان ، ومن النفوس نفوس هينة رقيقة ، لا يمكنها الصبر على ذلك ، فلا يغذيها أو لا يدخل جوفها ولا يروق عينها إلا الروايات والفكاهات ، فليت شعرى من أى قبيل أنت ، وبماذا كنت تشتغل فى سالف أوقاتك ، وأيام تربيتك الأولى ! ! !

١٤ – من ضعف الإنسان أن الشبهات التافهة تنحرف به عن الصواب ، ومتى انحرف عن الحق ولو قيد شعرة وقع فى الباطل ، وقد تكون هناك فروق دقيقة يضل فى ثناياها كثير من الناظرين ، ولا يهتدى إليها إلا الراسخون المبرزون .

١٥ – إن المقلدين كثيراً ما يحملون مذاهب متبوعيهم ما لم يقولوا به ، لا فرق بين أهل الدين وغيرهم . وهذا « بخنز وشبلى شميل » ينسبان المادية والدهرية وإنكار الألوهية لمذهب « دارون » استنباطا وإجتهادا ، والمذهب برئ من ذلك ، « ودارون » نفسه معترف بالألوهية ، لأن المذهب مقصور على البحث فى نشوء بعض العضويات

من بعض ، بعيد عن البحث فى الأَصل الذى تستمد منه حياتها ووجودها .

١٦ – الماديون فروا من تأليه الإله الحكيم الذى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]) إلى تأليه المادة التى لاتسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئاً ، وهم يعيبون المتدينين بالجمود ، ولو انصفوا لعرفوا أنهم هم الجامدون المتحجرون الذين خلعت عليهم المادة كثافتها وجمودها

١٧ – إننا فى عصر ثورة فكرية وانقلابات خطيرة ، وفى الثورات يختلط الحابل بالنابل ، والحق بالباطل ، ويرتفع الجاهل فوق العالم ، والخامل فوق النابه ، والصغير فوق الكبير ، والحقير فوق الخطير ، ولا يكاد يسلم من ذلك إلا شذاذ من الناس كانوا من الرفعة وكبر النفوس بحيث لا تؤثر فيهم تلك الضوضاء ، ولا تطغى عليهم هاتيك الغوغاء . فهذه ظاهرة تلزم كل انقلاب ، والفوز المؤقت فى الانقلابات للأَصاغر لاللأَكابر ، والجاهل لاللفاضل ، وللخامل الذى ليس له من وسائل الظهور إلا تلك الوسيلة الشاذة ، ولا من الفرص والظروف إلا تلك الفرصة التى قلما تسنح له وذلك الظرف الذى لا يحسن العمل فى غيره ولكن الباطل كان زهوقا .

١٨ – تأْثير الشهوات يغطى العقل ، فإن الإنسان متى كان متأثرا كان مقهوراً مغلوباً تحت سلطان المؤثر فيه لأَنه إذ ذاك منفعل لا فاعل.

ولنقتصر اليوم على هذا حرصاً على نشاطك واستجماماً لنفسك ، فلعل ذلك أشهى إليك وأَسهل عليك .

---

(١) سورة الشورى ، الآية ١١

فى وحدة الخالق[1]
وجود الله عز وجل

إن كل شئ فى الوجود يدل على الله ويرشد إليه ، لافرق بين الصغير والكبير ، والعظيم والحقير ، ولا بين المحسوسات وغير المحسوسات ، فإنك فى إدراكك وتخيلك وتوهمك وتذكرك وتفكرك وتصورك وعواطفك وميولك ، وما أُودع فيك من الأَسرار الجثمانية والروحانية التى تظهر فيك آثارها وتخفى عليك أَسرارها ، أعجب من كل عجيب وأغرب من كل غريب ، وإذا نظرت إلى أى شىء فى هذا الكون وجدت له ناموساً لايتعداه ، وطريقاً لا يخرج عنه ، ولذلك يقول الله تعالى : (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)[2] فما فى التفاح مثلا من العناصر ومقاديرها له وزن مخصوص به يصير التفاح تفاحا ، ولا تقبل بذرته عندما تزرع من عناصر الأَرض والماء والهواء إلا تلك العناصر لا سواها ، ثم لا تقبل منها غير هذه المقادير المخصوصة على نسب معينة محدودة ، ولا ندرى ما السر فى هذه البذرة التى تكون بجانب بذرة أُخرى فلا تأْخذ كل منهما إلا ما يناسبها ، وتطرح ما سواه وهى مختلطة به ذائبة فيه ، ولا تتعدى تلك المقادير التى تكون كلا منهما ، وهكذا فى كل شىء .

---

(١) مجلة الإسلام – السنة الثانية – العدد الرابع – المحرم – سنة ١٣٥٢

(٢) سورة الحجر ، الآية ١٩

ولعل هذا هو الميزان الذى حفظت به السموات والأرض وما فيهما (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)[1] .

وما وراء ذلك من إيجاد العلاقات بين الأشياء التى جعلت لها نظاما عجيبا فيما بينها ، تنتفع به السفليات من العلويات ، وتتعاون فيه العوالم كلها على نظام عجيب وأسلوب غريب ، لهو أكبر وأعظم من نظام كل شيء فى خاصة نفسه ، وإن كان الكل موزونا بميزان لا ينخرم (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)[2] فما أوسع ذلك العلم وما أبهر تلك القدرة وما أقصر علمنا وأقل اعتبارنا (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)[3] ، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[4] . (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)[5] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)[6] .

وماذا نعدد من الآيات وكل ما فى الوجود آية لو تأملت فيها ، ووصلت إلى خوافيها ، وإن كان الوصول إلى كنه الأشياء ليس من خصائص العقول البشرية . ولا متناول قدرتهم ، فإننا لا نعرف الأشياء إلا بوجودها وما لم يوجد فلا نعرفه .

(١) سورة الرعد ، الآية ٨
(٢) سورة فاطر ، الآية ٤١
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥
(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٩
(٥) سورة فصلت ، الآية ٣٧
(٦) سورة الروم ، الآية ٢٥

وبعد وجوده إنما يعرف منه إنيته وشخصه ، لا ماهيته وحقيقته ، وإن كنا ننتزعها انتزاعا عقليا بعد الوجود ، وأما ما هو فى طى الخفاء فلا يمكننا أن نحس منه بشيء ما دام فى طى العدم لأن العقول البشرية لا مجال لها فى العلم بشيء من الأشياء إلا بعد وجوده ، وهى بعد ذلك لا تعلم كيف وجد ولا ما هو سر العلاقات بين أجزائه التى كونته ، ولكن هكذا رأته فعرفته .

ويعجبنى قول ذلك الفيلسوف : « إن هوية الأشياء عبارة عن ارتباطها بموجدها وإشراق نوره عليها فإنك إذا قطعت النظر عن موجدها لم يكن لها هوية ولا وجود » .

يريد أن الممكن يجوز وجوده وعدمه ويستحيل أن يبرز إلى الوجود بلا موجد يوجده ، فإذا نظر إليه فى نفسه كان فانيا معدوما ، ولا يمكننا أن نعقل المعلول بلا علة أو المفعول بلا فاعل .

ولهذا قلنا إن كل شيء يدل عليه ويوصل إليه :

وفى كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

وقلنا : إن من الناس من رأى وجوده تعالى أظهر من كل شيء فقال : (متى غاب حتى يستدل عليه) وعلى كل حال فالكون كله ألسنة ناطقة وبراهين صادقة .

ولكن تأخذ الأنظار منه   على قدر القرائح والفهوم

فى وحدة الخالق (١)

بدهى لعبت به الأوهام

إنا نريد فى مقالنا هذا أن نلمح إلى إثبات وجود الله تعالى بالبراهين الملموسة « إن صح أن يقام على البدهى برهان » . وإنا لفى حاجة شديدة إلى ذلك إذ إنه المحور الذى يدور عليه فلك السعادة ، والمحيط الذى تنتهى إليه خطوط الدائرة لمكارم الأخلاق ، ومتى لم تكن بذور تلك العقيدة ثابتة فى أعماق النفوس ، كان الإنسان إلى الشر أقرب منه إلى الخير ، بل لا تكاد تكون له فضيلة أو يصدر عنه فعل حميد ، إذ لا يعتقد جزاءً ولا حساباً ، فلا غرو أن لا يألُوَ جهداً فى تحصيل ملاذه التى لا يعرف غيرها ، وشهواته التى لا يرجو السعادة فى شىء سواها ، ولو بادت الأمم وهلكت الشعوب ، بخلاف المؤمن الموحد الذى يعتقد أن الله يعلم ما فى الضمير ، ويحاسب على الفتيل والنقير ، تاليا فى غدواته وروحاته قوله تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)(٢) .

وقد انتشر الآن بين كثير من شبابنا مذهب الماديين وتعاليم الإلحاديين ، ولولا ما أودع فى النفوس من نور إلّهى ، يريد الله به حفظ كيان الأمة الإسلامية ، وبقية خير فيها ، لذهبت تلك التعاليم بوحدتها ، وفرقت بين أبنائها ، وجعلت كل فرد منها لا يطلب إلا سعادته

(١) مجلة الإسلام – السنة الثانية – العدد الأول – المحرم – سنة ١٣٥٢

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٥

الشخصية ، وسعادته فيما يزعم ليست إلا بالتكالب على لذائذه الوقتية وشهواته الحيوانية ، فتراه وحشاً قد فقدت إنسانيته كما يقول بعض الحكماء ؛ يفترس الأقران ويقتل الإخوان ، لا يبالى ماذا صنع من المنكرات ، ولا ماذا ارتكب من المحظورات ، وإن وجود هؤلاء بين الأمم لهو الداء العضال ، إذ بهم تذهب وحدتها وتنعدم جامعتها ، وإن تطهير الأمم منهم قبل تفاقم شرهم وانتشار عدواهم لأوجب من تطهيرها من ميكروبات السل وجراثيم الكوليرا . وما كان أغنانا عن الرد عليهم فى هذه العجالة بما أودع فى الفطر الإنسانية من نور ساطع وبرهان قاطع ووجدان يتملك النفوس ويحيط بجميع المشاعر ، شأن كل علم ذاتى للنفس .

وما وجود النهلستيين « العدميين » والكمونستيين « الاشتراكيين » والسيالستيين « الفوضويين » إلا نتيجة من نتائج العقيدة السيئة ، وثمرة مرة من ثمرات شجرتها الملعونة ، ولكن الإنسان مظهر المتضادات ، ومجمع العجائب والغرائب ، فطالما طوحت به الأوهام فى أودية الضلال ، حتى أنسته واضحات المنقول وأوليات المعقول . بل أنسته نفسه وكل ما فيها من أصول الخير وجماع الفضائل (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)(١) . (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)(٢) . وما أصدق ذلك القول وما أصابه لكبد الحقيقة ، وما أشد انفعال النفس به ، وما أعرف كل واقف على آراء الناس ونزعاتهم بذلك القول : « الجنون فنون » .

(١) سورة الحشر ، الآية ١٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣

وليت شعرى ماذا يكون دهشك وإلى أى حد يصل عجبك إذا سمعت أن من عقلاء النوع الإنسانى من ينكر حقائق الأشياء ، ويقول إنها غير ثابتة ، ولا حقيقة لشيء البتة حتى نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا ، أو تسمع فريقًا آخر يقول : إن الأشياء لا حقائق لها ولكنها على ما يظن الناس ، فإن حسبت النار ماء والماء نارًا ، كان الأمر على ما حسبت « وهم العندية » ، أو تسمع أن رؤية البصر للمبصرات ليست طريقا من طرق اليقين ، أو تسمع أن قوما آخرين قد وقفوا عند حد الحيطة والتثبت ، فلم يكونوا مع هؤلاء ، فشكوا فى كل شيء حتى فى شكهم ، فجوابهم عن كل ما يسألون عنه لا أدرى وهم « اللاأدرية » .

ولنقدم لك بين يدى الكلام مع أولئك الماديين شيئا من أحوال الإنسان وما منى به من ذلك الاختلاف فنقول :

قد قرر علماء المنطق أن العلوم النظرية يجب أن تنتهى إلى الضروريات التى تعرف بأنفسها ، لا تحتاج فى بيانها إلى سواها وإلا لزم الدور أو التسلسل .

وأن البدهى هو ما لا يختلف فيه العقلاء ، ومع هذا فإننا نجدهم قد ملأوا الكتب بالخلاف فى البديهيات ، التى لا يمكنك أن تصدق أن فيها خلافًا قبل أن تطلع على تلك الحرب العوان التى قامت بينهم فى مثل « العلم » ما هو ؟ وهل هو عين المعلوم أم غير المعلوم ؟ وإذا كان عين المعلوم لزم أن يقال : إن الذهن مكيفة تصير كل معلوم يحل فيها كيفا ،

ولو كان ذلك المعلوم جبلًا راسيًا أو بحرًا داويًا ، إلى آخر ما تعجب له كل العجب « لو قدر لك أن تطلع عليه » .

والعلم هو البين بنفسه المبين لغيره حتى عند البله والصبيان ، ومثل ما أطالوا به فى مسألة « الوجود » فمن قائل إنه لا يعرف لكونه ضروريًّا لا يحتاج إلى تعريف، ومن قائل إنه لا يعرف لكونه فى غاية الخفاء فلا يمكن تحديده ، ثم اختلفوا بعد ذلك أهو عين الموجود أم غير الموجود ؟ فى أدلة للفريقين لا يسهل عليك أن تتخلص من ظلمات أوهامها ، وغياهب ليل خيالها إلا بعد جهد جهيد .

ولولا ما نريد من إيضاح المقام والبعد عن خفيات المعانى الاصطلاحية والكلمات اللغوية لأوردنا لك من أدلتهم ما يغنيك عن أعجب الألعاب ويلهيك عن أعظم المصاب ، ولا بد أن تكون قد اشتقت لاستطلاع سر ذلك والوقوف عليه .

فاعلم أن كل شيء متى عدل به عن سننه ووزن بغير ميزانه كان الضلال فيه أقرب من الهدى ، وقد أودع فى الفطر الإنسانية بل والحيوانية من العلوم ما لا تحتاج معه إلى دليل يقام عليه ، بل تجعله الدليل على غيره ، وبذلك استقام أمر الحيوان فى نظام حياته وكل حاجاته .

وقد علمت أن العلماء قد جعلوا تلك العلوم الضرورية هى الحاكمة فى صحة ما نكتسبه من العلوم النظرية ، ولكن لحكمة ما أودع فى الإنسان غريزة الفكر كيلا يقف عند حد كالحيوان ، وقد كان ينبغى

أن تسير تلك الغريزة فى طريقها من بيداء العلوم النظرية المجهولة ، ولا تتعرض لذلك الحرم المقدس الذى من دخله كان آمنًا ، وهو حرم الفطرة الذى يجمع من العلوم ما لم يتول تعليمه غير العليم الحكيم ، ولكن لشره تلك الغريزة الفكرية وانتكاسها فى أكثر الناس أخذت تبحث عن كل شيء وتطلب ما ليس لها ، فتراها تطلب لكل شيء تعليلا يقع تحت سلطانها الضعيف فتريد له اكتناها تصل إليهُ بقوتها التى لم تخلق له . تراها تطلب ذلك التعليل حتى فى العلل التى هى علل بمقتضى حقائقها فتطلب للعل عللا ، لأنها لا تعرف مقتضيات حقائق الأشياء ولا تشعر بها إلا بواسطة آثارها ، وما وراء ذلك فليس من علومها على الحقيقة ،فهى تهوى ذلك الاكتناه ولو لم يكن من اختصاصها. ولو رجعت إلى الفطرة لأغنتها عن ذلك العناء ، ولكنها أرادت أن تستبد بالأمر كله فى تلك المملكة الإنسانية فلا تقبل رأيًا لغيرها ، ولا تسمع صوتًا يرتفع لسواها ، فعملت على إغلاق ذلك الباب السماوى المعصوم ، فجعلت بينها وبينه سدًّا منيعًا من الظلمات التى طال عليها الأمد ، فأظلمت منها جهات ذلك الحرم المقدس ، ومات فيه كل إحساس كان حيًّا من ذلك النور الذى كان يهبط عليه من سماء الوحى الإلهى ، فلا غرو أن يضل ذلك الفكر الذى سار إلى غير غايته التى خلق لها ، فهو يضل تارة ببعد المطلوب عن متناول قوته ، وتعاظمه عن الخضوع لسلطان إدراكه كما يتعاظم الهواءُ عن رؤية الأبصار ، وتارة لشدة قربه من النفس ومزيد التصاقه بها فكان كالمبصر الذى

يحاول أن يرى ما التصق به فلا يستطيع لذلك وصولا ولا يجد إليه سبيلا ، فهو يجهله لامحالة ، وإن كان أقرب الأشياء إليه .

وإذا لم يثق الإنسان بما فطر عليه ويحس به أشد الإحساس من نفسه فبأى شيء يثق ؟ وعلى أى شيء يعتمد ؟ ويلزمه إذا كان لا يعول إلا على ما يقام عليه البرهان الفكرى أن يشك فى الشمس التى يشاهدها بعينى رأسه وفى قراءته الان فى تلك المجلة ، وفى يقظته وقت القراءة ، لأنه يمكن المشكك أن يقول له يجوز أن يكون كل ذلك من أضغاث الأحلام حتى كلامى معك ومناقشتى إياك ؛ لأن ذلك كله مما يجوز أن يراه النائم فى منامه ، هذا ، وإنك توقن كل الإيقان بما تلوناه عليك عندما ترى الآراء المتباينة والأفكار المتضاربة بين المتقدمين والمتأخرين مثل الخلاف فى أن النظر يفيد العلم ولهذا خلق ، أولا يفيد لكثرة ما ترى من خطأ الأفكار وضلال العقول ، وكالخلاف فى أن الحس يفيد العلم وهو أقوى طرقه ، أو لا يفيده لأن من فى السفينة يرى الشاطيء يجرى ، وكذا حبة العنب مثلا فى الماء تراها أكبر من حجمها الحقيقى ، ولأننا نرى الأشياء البعيدة صغيرة جدًّا وهى من أكبر المخلوقات كالنجوم مثلا ، إلى آخر ما قالوه .

وإذا نظرت فى حال المتأخرين لم تجده أهون ويلًا ولا أخف جهلًا ، تراهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ويثبتون فى مكان ما نفوه فى مكان آخر ويرجعون عن قواعدهم التى قرروها إلى غيرها .

وقد قال أحد وزراء خارجية إنجلترا فيما رأيته منذ زمان : « إذا تركنا المقررات القديمة واتبعنا الفوضى العلمية الجديدة ، فلا بد أن

نخرج من الموضوعات كلها وليس فى يدنا من العلم شئ؛ لكثرة ما نجد من المضاربات والمناقضات ، ومزيد ما نراه كل يوم من العقد والحل ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء وهو النور ، كما اختلف المتقدمون فيه قديماً . أعرض هو أم جوهر ؟ وما حقيقته ؟ فى كلام يطول شرحه . كما احتدم بينهم الجدال فى أصل المادة وأول العالم ما هو ؟ مثل ما وقع بين الأقدمين من الكلام فى الهيولى .

وأكثر ما نراه لهؤلاء وهؤلاء إنما هى خيالات وتخمينات لم يقم عليها دليل ، ولا أيدها برهان .

وقد كنت فى بدء أمرى أتجشم الصعوبات فى انتحال الحجج الواقعة بين العلماء وأحسب أن ذلك يرتكز على أنظار سامية اغترارًا بعظمة قائليها وكنت أجد لتلك الشبه وهاتيك التشكيكات وخزًا شديدًا فى نفسى .

فلا أزال أعالجها حتى أطهرها من تلك الشبه وأرجعها إلى الاطمئنان وبرد الإيقان . ثم علمت والحمد لله أن الإنسان أقوى المخلوقات على الإطلاق وأضعفها على الإطلاق . وأنه مظهر المتضادات ومجمع العجائب والغرائب ، فصرت لا أعجب لمتناقضات الأفكار ، ولا متباينات الآراء ، وأصبحت ولا قيمة لشىء من ذلك عندى مهما كان قائله ، لعلمى أنه الإنسان .

وقد رأينا أن نثبت هنا كلمة جليلة لها مناسبة تامة بهذا الموضوع لأحد فلاسفة فرنسا « كاميل فلامريون » — على ما ذكره الأستاذ

الفاضل فريد بك وجدى قال ذلك الفيلسوف : إن من الضلال التصديق بكل ما يقال ، ويساويه فى الضلال عدم الاعتقاد بشىء أصلا ؛ ولا يجوز لنا أن نسلم بشىء حتى يقوم عليه الدليل . ولكن يجب علينا الاعتراف بما تؤيده الحجة بكل إخلاص ، ولنعترف مع هذا بأنه توجد أمزجة هى من الاستعصاء عن قبول المسائل الخاصة التى تشغلنا هنا(١) بحيث لا نصدق بشىء منها رغمًا عن قيام جميع الأدلة التى يتخيلها العقل . وأننا كثيرًا ما نصادف فيما حولنا رجالا لا يصلحون لأن يقتنعوا بهذه الحوادث ، على الرغم من المشاهدات البالغة الحد الأقصى فى الوضوح ، على أنهم رجال عظام فى مسائل أخرى متعلمون محبوبون محبون للإنسانية ، ولكن بصائرهم مخلوقة على حال لا يستطيعون معها أن يروا ما هو أمامهم على خط مستقيم « الصيادون يؤكدون أن الأرانب على هذه الحال » فأمام أعينهم منشور زجاجى موضوع حيال الشبكية يحير الأشعة الساقطة عليها بضع درجات ويعكسها عكسات مختلفة على حسب أشكال تلك العيون .

ليس هذا خطؤهم فهم ليسوا يريدون عدم الاعتراف بوجود الشمس فى خط نصف النهار ولكنهم لا يستطيعون ذلك .

تعترضهم فى ذلك أساليب مختلفة من التربية وغيرها ؛ فبعضهم منقاد انقيادًا أعمى للتصديق بتعاليم لم يقم عليها دليل ، وهم مرتاحون إليها مقتنعون بها ؛ وبعضهم مصاب بعدم التصديق وهو ليس أقل عمى

---

(١) يريد إثبات وجود الروح وخلودها .

من سابقه ، وقد جاء فى المثل العربى « لا تفيد العينان من كان مخه أعمى » .

إن هؤلاء المنكرين مصرون على إنكارهم ويهزؤون بكل شىء ولا يتخيلون أننا نضحك من تخيلاتهم العلمية المزعومة ، وأن منهم من يخلط الجد بالهزل على أحسن ما يكون ، ومنهم متكلمون دقيقون يتخيلون أنهم يطوفون طريقًا سلطانيًا بأتومبيلاتهم الفخمة بينما هم محمولون على عجلات مملوءة بالهواء ، يكفى حصاة واحدة لأن تفرغ منها ذلك الهواء المضغوط .

البعث (١)

نكتب اليوم فى البعث ، وهو من أصعب ما جاءت به الشرائع السماوية ، حتى أن كثيرًا من الناس ليعده من الخرافات أو المحال . ولنتقدم قبل ذلك كلمة وجيزة عن الإنسان فنقول :

مقدمة :

الإنسان من أعجب الكائنات وأغرب المخلوقات ، جمع بين المتضادات ، واستعد لأكبر السعادات وأعظم الشقاوات ، لأن فيه قابلية لا تحد ، وجهات ضعف وقوة لا تعد : أما قوته فأنت غنى عنها وممتلىء منها . وأما ضعفه : فمن وجوه كثيرة ، فمنها أنه متى ألف شيئًا إلفًا تامًا ، واعتاده اعتيادًا متكررًا ، لم يكد يقبل غيره ، أو يصدق بشىء سواه ، ولو كان من أوضح الواضحات أو أول المبرهنات ، فإنه لا يستمد إلا من مألوفه ، ولا يرجع إلا إلى معروفه ، وما عدا ذلك فهو عنده خيال أو محال ، ثم يأخذ وهمه فى الاستدلال عليه . ولكل قوم أدلة يقتنعون بها ويعتمدون عليها لأنها تناسب حالهم ، وتروق خيالهم ، وإن كانت من عمل الشيطان وعلى نقيض البرهان . ومن ذلك ما قاله المشركون فى رد التوحيد :

(١) مجلة الأزهر العدد الثانى — المجلد الاول — صفر سنة ١٣٤٩

(أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[1] وفى رد النبوة : (أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)[2] :

ومن ضعف الإنسان أنه إذا نظر فى موضوع فقلما ينظر فيه إلا من بعض نواحيه ، ثم يكون الباقى عنده فى عالم المجهول أو غير المعقول ، لأن البصيرة كالبصر متى اشتغل برؤية شىء حجب عن غيره ، وإن كان أقرب الأشياء إليه وأدناها منه . وكيف تنظره البصيرة وهى لم تتوجه إليه ولم تلتفت له ، ومادامت تجهله فهى تنكره ولاتكاد تتصوره . ومن جهل شيئًا عاداه . وقد قال الله تعالى فى مثل هؤلاء : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ)[3] وهو بعد ذلك مستعد للتقليد فى أى شىء من الأشياء ولو كان من أجهل الجهل وأبطل الباطل بمقتضى تلك القابلية التى لاحد لها ، فإنه يتأثر بكل شىء يراه أو يحس به أو يتلقاه من أبيه أو أستاذه أو رجل كبير فى نفسه ، خصوصًا ما مرن عليه بين بيئة مردت على الجهل والتقليد ، أو يقرأ فى كتاب من الكتب أو جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات مادام لايقرأ مايعارضه .

وقد قالوا قديما : «من يسمع يخل» والنفس الإنسانية مستعدة لكل ماينقش فيها ، خيراً كان أو شراً ، والغذاء المعنوى بمنزلة الغذاء الحسى ، لابد أن يؤثر أثره فى صاحبة ضاراً كان أو نافعاً ، حتى إذا

(١) سورة ص ، الآية ٥

(٢) سورة القمر ، الآية ٢٤–٢٥

(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩

تمكنت تلك النقوش من النفس ، وأصبحت راسخة فيها تعسر زوالها وربما تعذر ، وكأنها صارت جزءًا من تكوينها وعنصراً من عناصرها .

ومعروف أن الشئ إذا صبغ بأى صبغ وتمكن منه ذلك لم يقبل صبغاً آخر إلا بتحليل كبير وعناء كثير . فمثل هذا الرجل لايبتغى غير ماعنده بديلاً ولايجد إلى ذوق الحقائق سبيلا ، لأنه لايرى له أثراً فى وجدانه ، ولايقع له على ظل فى زوايا قلبه. والإنسان ليس إلا قلبه . والقلب ليس إلا تلك المعلومات التى غذيته بها ، ولا النفس إلا تلك النقوش التى نقشتها فيها وصبغتها بها . ولذلك يقول الله فى حق هذا الفريق : (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)[1] وهؤلاء يرون تقليد الآباء من أول الواجبات ، وقولهم من أكبر الأدلة .

وقد قلنا : إن لكل قوم أدلة تناسب طفولتهم وتوافق جهالتهم ، وهؤلاء هم الذين يقولون :

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)[2] .

وعزيز علىّ أن أقول : إن آباء أكثر الناس الآن هم الأوربيون ، وأساتذتهم هم الماديون والملحدون ، وذلك بفضل التعليم المدنى وجهلنا بكل شىء عندنا حتى أوليات ديننا وتاريخ أسلافنا .

(١) سورة يس ، الآية ٨–٩

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٢٢

ولنرجع إلى ماكنا فيه فنقول :

ومن أكبر الضعف أنه يظن الشبهة الباطلة دليلاً ساطعاً ، والحجة الداحضة برهاناً نيراً ، والإنسان مستعد أن يتسفل إلى أسفل الدرجات ، أو يترقى إلى أعلى الدرجات . ولقد وصل من الجهل إلى حد أنه كان يعمل الصنم بيده ثم يعبده ، بل إلى حد أنه كان يعمله من عجوة ثم يأكله ، ومن أظهر وجوه ضعفه وأعمقها فى نوعه ؛ تأثير الشهوات التى تختلف ضروبها وتتنوع مراميها ، حتى تقتل عقله وتميت إحساسه ، أو تفسد إنسانيته فتجعله غير إنسان . ومن أظهر وجوه الضعف فيه أننا نرى بعض أفراده من أقوى الأقوياء ، ثم نراه من أضعف الضعفاء ، وقد يكون فيلسوفاً سارت الركبان بحديث نظرياته ، ثم لا يلبث أن يتهوس فى بعض البديهيات ويتخبط فى أوائل الضروريات . وعندى أن من أكبر ضعفه جهله بضعفه ، ولو عرف ضعفه ولم يجهل جهله ؛ لكان ذلك أدنى إلى قوته وأقرب إلى سلامته .

وقد تؤمن بهذا كله عندما ترى أن لكل ضال ومبطل وشرير وجاهل يجد له من هذا النوع أتباعاً يقولون بترهاته ويدينون بخرافاته ، وليس المدار فى وجود من يتبعك ، ويقول بقولك ، ويترسم جميع خطواتك فى هذا العالم ، مهما كان قولك وعملك ، ونحلتك ونزعتك إلا أن تتقن وسائل دعوتك ، فإن نوع الإنسان مستعد لصنوف الهذيان وجميع الألوان ، وقابل لضروب الحق والبهتان ، وسبيل الكفر والإيمان ، وأنواع السفسطة والبرهان. وبعد فالإنسان هو الإنسان ؛ وما أحكم قول المتنبى :

وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمى أنه بعض الأنام

أو نقول :

غلب المين منذ كان على الخلـ   ـق وماتت بغيظها الحكماء

ولنقتصر من هذه المقدمة على هذا .

(المقصود) :

إنى أعجب ولا أخفى عليك ممن ينكر البعث ، وهو فيما أراه من أوضح الواضحات ، فإن البعث ليس إلا خلقاً جديداً ، ليس بينه وبين الخلق الأول الذى نشاهده كل وقت وكل ساعة ، أدنى فرق يصح أن يكون شبهة للمنكر أو تكأة للمرتاب .

وقد قال المعلم الثانى أبو نصر الفارابى وهو من أكبر فلاسفة العالم : « كنت أشتهى أن يطلع أرسطاليس على ذلك القياس الجلى » الذى يشير إليه قوله تعالى : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)[1]

أما القياس الذى أشار إليه فهو أن الله أنشأ الخلق أول مرة ، وكل من أنشأ شيئاً كان قادراً على إعادته . هذا هو القياس . بل نقول إن الإعادة أسهل فى العقول من البدء ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)[2] وهذا مسلم يعرفه كل أحد من نفسه ، فإن العمل كلما تكرر كان أخف وأهون ؛ وما نشأ ذلك التوقف إلا من جهل الإنسان الذى قاس قدرة الله التى لا تحد ، على قدرته التى لا قدر لها ، فوجد أنه لا يستطيع أن يحيى

(١) سورة يس ، الآية ٧٩
(٢) سورة الروم ، الآية ٢٧

الموتى « فالله كذلك » فهو جاهل بالله من جهة وواقف عند حسه من جهة أخرى ، فلا يصدق إلا بما رآه ببصره (وهو لم ير البعث) وهذا هو شأن البهائم التى لاتصدق إلا بالمحسوس . على أن ذلك محسوس لكل أحد .

ولكن الإنسان مستعد بجهله أن ينكر المحسوس ولا يفكر فى المشاهد ، فإن القادر على أن يخلق من النطفة ، وهى فضلة من الفضلات إنساناً عاقلاً مفكراً مدبراً فصيحاً بليغاً مخترعاً متفنناً عالماً فيلسوفاً ، إلى آخره . كيف يعجزه أن يعيد أجزاءه إلى ما كانت عليه ثم ينفخ فيها الروح مرة أخرى ، ولعلها مهيأة للخلق وأقرب إليه مما كانت ، وهل هناك إلا أنك رأيت الرجل يخلق من النطفة ولم تر ذلك فى الأموات .

ويعجبنى قول بعض الفلاسفة الإسلاميين : « لو حدثنا أحد أن رجلاً سميعاً بصيراً خرج من قطرة ماء لم نصدقه ولهزئنا به وقلنا إنه يهزأ بنا ، ولكنا رأينا ذلك ووجدنا فيه ومنه فصدقناه وصرنا لانفكر فيه ، وكل شىء تكررت رؤيته لم يكن له وقع فى النفوس ، فالشمس أكبر آية ، وكذا الكواكب البديعة الأشكال العزيزة المثال ، لا نلتفت إليها لكثرة رؤيتنا إياها وإلفنا لها . وقد كنا نحدق فى الطيارات يوم ظهورها لدينا ، وقد أصبحنا لا ننظر إليها ولا نهتم بها ، وكنا نستهجن السفور أيام انتصار العادات الشرقية الإسلامية على العادات الغربية الأوربية ، فأصبحنا لا نمتعض من التهتك ولا ننفعل له ولا ننكر

عليه ، وها نحن أولاء يدهمنا الليل بظلمته الحالكة كل يوم مرة فلا تهتز له أعصابنا اهتزازها لكسوف الشمس ولو جزئيا .

فهكذا شأن الإنسان وعلى هذا جبل ، وقد قال الله فى تقرير هذا الدليل : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)[١] . ثم إذا نظرت فى هذا التراب وجدته ينقلب تفاحا ورماناً وموزاً ولوزاً ووردا ، إلى آخره . وتشاهد ذلك فى كل عام من الأعوام ، بل فى كل فصل من الفصول ، وكل يوم من الأيام ، فما الذى تستنكره بعد ذلك .

أليس جهل الإنسان كبيراً حيث لايعرف قدرة ربه التى لا تحد ، ولا يستعمل عقله وفكره ، ولا يلتفت إلى نفسه وأبناء جنسه ولا إلى مزروعاته وجميع محيطاته ، ويصادم المعقول والمحسوس ، على أنه إذا لم ير شيئاً من ذلك لم يصح له أن ينكر البعث ، فإنه لا يدرى من نواميس الوجود إلا أقلها ، ولم ينل من بحر العلم إلا قطرات يسيرة شرق بها ، أو نقول تبجح بسببها ، فزادته جهلا على جهله ، وكان مصيبة على الدين وعلى العلم وعلى نفسه وعلى أبناء جنسه إلا من وصل من الفلسفة إلى لبها ، ومن الحقائق إلى صميمها وقليل ماهم .

وإنى لا أدرى كيف ينكرون البعث الآن ، وقد قرروا أن العالم كله يرجع إلى شىء واحد فى أصله هو الأثير أو الكهرباء أو ما إلى ذلك ،

---

(١) سورة القيامة الآيات ٣٦–٤٠

ثم تغير هذه التغيرات واستحال تلك الاستحالات حتى صار إلى تلك الأجناس التى لايحصيها عد ، ثم تنوعت إلى تلك الأنواع التى لايحيط بها علم ، فما معنى إنكار البعث بعد ذلك ، وليس هو إلا شيئاً مما هنالك . ولكن لاعجب فالإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومحل المتضادات والمتناقضات ، على أننا نسائلهم هل ينكرون الإنسان الأول ، أو الحيوان الأول « على مذهب درون » فإن أنكروه وقالوا إنه ذاهب إلى غير نهاية « وهم لا يقولون ذلك » أبطلنا قولهم هذا بأنه يلزم عليه التسلسل المحال الذى لا يقولون به أيضاً ، وإن اعترفوا « ولابد أن يعترفوا » بأنه خلق من الأرض وهو من أحدث المخلوقات عندهم ، فقد قامت عليهم الحجة ولزمهم العجز وأحاط بهم الإفحام ، فإن هذا هو إخراج الحى من الميت الذى لم يشم رائحة الحياة أصلا .

وليس البعث إلا هذا أو أقرب منه ، ولا يمكنهم التفصّى عن ذلك مهما حرفوا أو خرفوا . ولهذا كله ترى القرآن يعجب من إنكارهم البعث إشارة إلى أنه فى غاية الجلاء ونهاية الوضوح فيقول : (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) [1] ويقول للنبى : (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) [2] فكانوا يعجبون منه ويستهزئون به ، وكان يعجب من إنكارهم واستهزائهم ، حتى قال لهم : (كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ

(١) سورة الرعد ، الآية ٥
(٢) سورة الصافات ، الآية ١٢

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) [1] وأنت تعلم أنه لايبعد استحالة الحجارة إلى الحى ، فإنك تراها تستحيل ، ثم يزرع فيها ، ثم تنقلب نباتاً حياً ، ثم ينقلب النبات نطفاً ، ثم تنقلب النطف حيواناً وإنساناً . أليس ذلك كله إخراجاً للحى من الميت ، وقدرة الله بعد ذلك لا يحيط بها محيط .

وما أبدع ما قال الله تعالى فى الاستدلال على البعث : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) إلى أن قال : (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) ثم قال فى آخر هذه الآيات مشيراً إلى دليل آخر : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) [2] . ثم ذكر النتيجة بعد تلك الأدلة الواضحات فقال : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ) [3] ولا بأس أن نتلو عليك الآية التى بعد هذه : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) [4] وقد قال الله قبل ذلك وهو العليم بخلقه : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) [5] إلى آخر ما جاء فى القرآن من الآيات البينات والحجج الواضحات .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٥٠-٥١
(٢) سورة الحج ، الآية ٥
(٣) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧
(٤) سورة الحج ، الآية ٨ وجزء الآية ٩
(٥) سورة الحج الآية ٣

وعلى كل حال فمن تأمل وجد أمر البعث واضحاً جلياً للغاية ، فإنه لا فرق بين الخلق الأول والخلق الثانى كما قلنا . ونحن نشاهد هذا الخلق كل وقت وساعة : فكلما رأيت طفلا رأيت خلقاً جديدا . وإذا رأيت عصفورا فى روض رأيت خلقاً جديداً . وكلما رأيت نباتاً فى حقل فقد رأيت خلقاً جديدا . فى بيتك وفى سوقك وفى حقلك وفى نفسك وفى البر وفى البحر وفى الارض وفى الجو ، كلما ألقيت ببصرك رأيت دلائل البعث تحيط بك من كل جانب .

ومن الغريب أن بعض أهل الجاهلية — وأظنه عبد المطلب — كان يرى البعث حتماً ويستدل عليه عقلاً فيقول : إن هذه الدار ممتلئة ظلماً وجوراً فلابد من دار يقام فيها العدل ويقتص فيها من الظالم للمظلوم ، وهذا هو مقتضى قواعد المعتزلة الذين وسموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، فلا يجوزون عدم البعث عقلاً ، ولعلنا نجد فى كتاب الله تعالى ما يشير إلى ذلك مثل قوله تعالى : (أَمْ نَجْعَلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)[1] فإن عدم التسوية بينهما فى الآخرة لا فى الدنيا .

فقد تجد حظ الفجار فى هذه الدار أعظم من حظ المتقين فيها . ويشير أيضاً قوله تعالى : (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ)[2] ويقول : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

---

(١) سورة ص ، الآية ٢٨

(٢) سورة يونس ، الآية ٤

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)[1] .

ولك أن تقول : لو تساوى الظالم والمظلوم والصالح والطالح مع ما كان بينهما من الفرق العظيم فى الدنيا ، لكان ذلك قادحاً فى عدل الله تعالى ، لكن ذلك لا يجوز ، فلابد أن يذيق الظالم كأس النكال على ما كان منه ، وتقر عين المظلوم على عظم صبره . وإذاً يهون علينا ما نلاقيه فى هذه الحياة انتظاراً لما فى تلك الحياة . (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)[2] (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)[3] عن ذلك العبث (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)[4] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)[5]

ولك أن تقول : لو لم يكن هناك بعث لكان الإنسان أخس من الحيوان الذى لا يحزن ولا يخاف ولا يترقب الحوادث .

ومن الأدلة الطريفة قول بعضهم : إن الإنسان يحس من نفسه بعدم النهاية فى شعوره وفى مطالبه وفى شوقه إلى عالم لا يتناهى ، وكلما وصل إلى شىء طلب غيره لأنه يجده غير محقق لما تتوق إليه نفسه من صفاء لا غاية له وملك لا يعتريه زوال ، وسعادة ليس فيها شقاء ،

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ٢١

(٢) سورة القيامة ، الآية ٣٦

(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ١١٥-١١٦

(٤) سورة ص ، الآية ٢٧

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ١٦

ونعيم كنعيم أهل الجنة ، فهو يحس بأنه مستعد لهذا ، ولكنه يطلبه من هذا العالم جهلاً منه ، فإن هذا الشعور لم يخلق فيه عبثاً ولا جزافا ، فليس من سنة الله العبث أو الجزاف . وأيضاً فكل شيء فى الوجود خلق لغاية ، ولو لم يكن للإنسان غاية أخرى غير ما فى هذه الحياة لكان وجوده عبثاً ، فإن غيره فى هذه الأرض مخلوق لأجله ، فلابد أن يكون هو مخلوقاً لغاية سامية ، فإنه لم يحصّل هنا إلا الهموم والأحزان ، وهو متخبط فى هذه الحياة لا يعيش فيها عيشاً صالحاً بوجه ما إلا بالتعلة أو الأمل أو الخيال . ولهذا يقول القائل :

طُبعتْ على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

أما الظلم هاهنا ورفعة الجاهل وانحطاط الفاضل ووضع الأمور فى غير موضعها فحدث عنه ولا حرج ، حتى مع أرقى القوانين وأعظم الدساتير فإنهم يؤولونها على ماشاءوا ويطبقونها على ما أرادوا :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى صار ظلماً منظما

« وإن شئت فسمه ظلماً قانونياً أو دستوريا » .

هذا ، والقرآن يذكر فى هذا الموضوع الذى نحن فيه أدلة واضحة للغاية فيقول : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[١] . ويقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى

(١) سورة يس ، الآيتان ٨١-٨٢

الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[١] ويقول : (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)[٢] . ويقول : (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)[٣] .

وإنى أستلفت نظرك إلى ما فى هذه الآية الشريفة مما يملؤك روعة ، فبعد أن قاس الإعادة على البدء ـ وهو قياس أولوى كما عرفت ـ قال : (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) كأنه أراد أن يقف النفوس عند حدها ويقلل من هواجسها ، أو يقضى على وساوسها التى تجول فى تلك الشبه ؛ ولعلك رأيتها أو سمعت بها فقال لهم : دعوا عنكم تلك الوساوس وهاتيك الهواجس ، فإنه بكل خلق عليم .

وكيفية خلقه وجميع أفعاله لا يحيط بها محيط (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ)[٤] .

وإنى أكرر عجبى البالغ من إنكار أولئك الماديين الذين يقولون إن أصل الأشياء هو الأثير قد استحال استحالات كثيرة حتى كون المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، فكيف ينكرون البعث بعد

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٩
(٢) سورة غافر ، الآية ٥٧
(٣) سورة يس ، الآيات ٧٧ – ٧٩
(٤) سورة النحل الآية ٧٤

اعترافهم بهذا وبعد كثرة ما يشاهدونه الان من استحالات المادة التى لا تقف عند حد والتى تأتى بالمتباينات والمتناقضات .

أما مارأيت من الشبه التى تذكر فى بعض الكتب – وقد أشرنا إليها – فلا نريد أن نزج بك فى ظلماتها ، أو نعرضك لآفاتها ، أو نعرض عليك ما فيها من خيال وخبال ، ولكن نقول لك : إن الإنسان على الحقيقة هو الروح الحافظة لشخصيتها فى أى ثوب تلبسه ، وأى مظهر تظهر به ، والجسم الإنسانى له شيء أصلى بمنزلة البذر الصغير للأشجار الكبيرة .

تلك البذرة الأُولى هى ما كان عند نفخ الروح أو تلك الذرة التى وجدت يوم (أَلَستُ بِربِّكُم)(١) أو نحو ذلك . ولعلك ممن يكتفى بإيجاز الإشارة عن إطناب العبارة ، ولا يمكننا أن نتوسع أكثر من هذا فلا نحمل البيئة فوق ما تطيق ولا الظرف أكثر مما يسمح به .

ولنختم مقالنا هذا بما يروى عن بعض العلماء أنه جاءه ملحد ينكر البعث فلم يطل معه الجدال ولا أكثر له القيل والقال ، بل عدل عن كل ذلك وجاء من ناحية أُخرى لعلها أعظم أثراً فى وجدانه وأقرب سبيلاً إلى إيمانه فقال : إذ كان عدم البعث حقا نجوت أنا وأنت وإلا نجوت أنا وهلكت أنت ، ومن ذلك قول القائل :

قال المنجم والطبيب كلاهما لاتبعث الأموات قلت إليكما
إنصح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٢

فنحن إذاً أعقل منهم على كل حال ، وهذا على سبيل التنزل أو المداعبة ، وإلا فالبراهين واضحة لا يمارى فيها إلا من قال الله فيهم : (أَفَرَأَيْتَ مَنَ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سمعه وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)(١) .

(٣) سورة الجاثيه الآية ٢٣

حرية الإنسان [1]

تكليفه – القضاء والقدر

(١)

نكتب اليوم فى القضاء والقدر ، وهو من أعوص المسائل سرًّا وأبعدها غورا ، وقد اضطربت فيه الأفهام ، وزلت فيه الأقدام ، وأكثر فى خوض عبابه المسلمون والمسيحيون ، وإن كانوا يرموننا الآن بالتأخر والجمود والتكاسل والتواكل ، من جراء ما نعتقده من القضاء والقدر ، ونسوا أن تلك العقيدة عندهم كما هى عندنا ، بل يجب أن تكون فى كل دين من الأديان لأنها حق لا مرية فيه ، وليس ذلك منافياً للحرية الإنسانية . كما سيتضح لك أجلى اتضاح ، ولقد كان يكفى لإدحاض ما رموا به المسلمين نظرة واحدة لما كان عليه النبى – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه الذين أتوا من جلائل الأعمال ما غير وجه البسيطة وقلب نظام العالم .

هذا ما أرشدنا إليه عمله مما امتلأ به التاريخ ، وقد عضده الكتاب والسنة ، ولكن الأمر كما يذكرون هم عن سيدنا المسيح – عليه السلام – : « إن الإنسان يرى القذى فى عين أخيه ولا يرى الخشبة فى عين نفسه » .

على أن ذلك جهل بحقيقة القضاء والقدر عندنا وعندهم كما ستقف عليه .

(١) مجلة الأزهر – العدد الرابع – المجلد الأول – ربيع الآخر سنة ١٣٤٩

ولنجتهد فى توضيح ذلك حتى نجعله على طرف الثمام وإن كان من معترك الأفهام ومزالق الأوهام ، ولعل ذلك هو ميزة المجلات العلمية فى هذا العصر ، توضح الخفى وتقرب البعيد ، وتطلع الجمهور على ما كان لا يتحدث به إلا بين الخاصة وسط المعاهد العلمية أو المعابد الدينية ، معرضين عن الاصطلاحات المذهبية والعبارات الفنية مااستطعنا إلى ذلك سبيلا ، فنقول :

من البدهى أننا نختار الفعل على الترك ، والترك على الفعل ، فنرجح ما شئنا متمتعين بالحرية ، وقد كان يجب أن يكون هذا كافياً فى الجزم بحريتنا واختيارنا ، وقد تعلم أن كل ما يعارض البدهى أو المحسوس يجب ألا يلتفت إليه ، ويكفى فى سقوطه مصادمته للبديهة ، حتى إننا لو عرفنا أن هناك دواعى تدعو إلى ذلك الفعل لم نشك فى أن لنا تدخلاً فى الفعل بالتفكير والترجيح بعد الموازنة والتروى .

فإذن لنا شىء فى العمل لا محالة وإن كنا نعتقد أن ما يسره الله كان ومالا فلا ، وإذا كانت الأسباب الجمادية لها تدخل فى الأشياء كما قال تعالى فى حق الماء : (يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرعَ والزَّيتُونَ والنَّخِيلَ والأَعنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) [1] فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به فى الآية الأخرى .

فكيف لا يكون لنا تدخلاً فيما يكون منا ، هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار ، الذى يستطيع أن يقلب الأسباب الآلية

(١) سورة النحل ، الآية ١١

ويسيرها فى أى طريق شاء وهو أعظم منها ، فإنها مسخرة له وهو مليكها فكيف لا يعطى ما أعطيته من الأحكام وهو أقوى الأسباب وأعظمها ، ولماذا لا يجعلون من الأسباب التى يتوقف عليها الفعل نظر الإنسان وإرادته واختياره وترجيحه ، هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل فى الفعل ما ليس للعاقل المختار ، اللهم إن ذلك غير معقول ، فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار ما للعبد من ذلك ، وهو غير ضرورى للعلم الإنسانى بل غير ممكن ، فإن اكتناه الأشياء كما هى غير مستطاع للإنسان ولا داخل فى متناول قدرته ، فهذا الغذاء الذى هو من أظهر الأشياء لا نعرف من أمره إلا الظواهر التى « لا تسمن ولا تغنى من جوع » أما كيفية انقلابه أعضاء مختلفة فلا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها ، وكذلك ما تنبت الأرض من أوضح الواضحات من حيث أطواره المعروفة ، ولكن كيف تكون هذا النبات من التراب وكيف استحال التراب أزهاراً بهية ، وأثماراً شهية ، فذلك مما لا سبيل إلى الوصول إليه وهكذا الأشياء كلها .

وما يجب أن يلتفت إليه أن كل شىء نستطيع البحث فيه إلى حد محدود ، فإذا تجاوزنا ذلك الحد استغلق علينا وانسدت أبواب الفهم فيه ، فأخذنا نضرب فى متاهات الخيال ونخبط فى مهامه من الظنون والأوهام ، فتضاربت الأقوال وتناقضت الآراء .

ولعلك رأيتهم كيف تخبطوا فى الوجود وهو أظهر الأشياء عندما تعمقوا فيه ، وكذا العلم والنور . . إلخ . ما رأيت ، ولو عرفنا هذه الحقيقة فلم نجاوز قدرنا ولم نتعد طورنا لزال هذا العناء وذهب ذلك

الشقاء ، وهى حقيقة يجب أن تقرر ونكرر حتى تملأ الرءوس وتثبت فى النفوس .

ومن العجيب أنهم أطالوا القول فى هذه المسألة « مسألة أفعال العباد » منجدين ومتهمين ، مشرقين ومغربين ، فكانت من أعوص المسائل بين الفرق الإسلامية والمسيحية .

ولو تأملوا لعرفوا أنه لا فرق بينها وبين غيرها ، فكل شىء عويص إذا أردنا أن نقف على كنهه وحقيقته ، فما بالنا نتجاوز قدرنا ثم نكثر من الصراخ والضوضاء .

وبعد : فالقول بكون الإنسان مجبراً لا مختارا قول بإسقاط كل تبعة وكل مزية ، وجراءة على التسوية بين الخبيث والطيب . وهو أمر يناقض العلم اليقينى ، وينافى البدهيات الأولية ؛ ويعجبنى قول من قال : كيف تزعم أنك جبرى مع أنك تجرى لإحضار الطبيب لمريضك ، وتدافع عن وطنك ، وتستدعى رجال المطافىء لإطفاء حريق بيتك ، وتعمل على وقف النار التى بدأت تشب من شرارة أصابت أوراقك فى حجرة عملك ، وأن لديك عقلاً وأنك لتنتفع به فيما تريد ، ولا سبيل إلى إنكار ذلك .

فالأشياء تقع بأسبابها ومنها الإرادة الإنسانية ، فهى بعض الأسباب العاملة فى سير الحوادث فى هذا الوجود .

ثم نقول : يوجد أعمال كبيرة لكبار الرجال ، فمن الذى يستطيع أن نقول : إنهم لا فضل لهم فى إحداثها أو ليس لهم تدخل فيها ،

وبعبارة أخرى ليسوا من أسبابها ، أو هم أعظم أسبابها من حيث كونهم رجالاً ذوى عزيمة صادقة ، وإرادة قوية وأفكار حرة ، لا من حيث كونهم آلات مسخرة لا تستحق حمداً ولا شكراً ، ولا تستطيع أى سفسطة أن تزيل منا ذلك الاعتقاد الذى يتملك كل نفس وكل عقل ، حتى نفوس الأطفال وعقول الجهال ، فإن كل واحد منا يعتقد اعتقاداً لا يدافع ، أن له أثراً أو تسبباً فى كثير من الأشياء ، فنحن نعمل ونعتقد أننا فاعلون لا منفعلون ، ونعتقد أننا نبنى بأيدينا صرح المستقبل فى الدنيا والآخرة ، وإن كان ذلك على حد محدود وعلى قدر ما وهبنا الله تعالى ، فكيف يصح أن يقال : إننا كمية مهملة فى الوجود ، مع أننا أكبر عوامله التى تعطيه الرواء والبهاء ؟ ؟ .

والنتيجة لهذا كله أن للإنسان تأثيراً فى وجود الأشياء ، فإنه حلقة كبيرة من حلقات سلسلة الوجود بل هو أهم حلقاتها ، ولكنه غير مستقل استقلالاً تاماً فى المسألة ، فيجب أن يكون عليه من المسئولية بقدر ما له من الأثر فى ذلك الفعل ، والتدخل فيه ، حتى إذا صار مكرهاً أو ملجأ كان غير مسئول بالمرة ، فليس العبد مجبراً ولا آلة صماء ، كما يحس بذلك إحساساً لا يعارض ، عندما يعرض له أمر خطير ، بل عند ما يسعى لرزقه وجاهه ووظيفته وشهادته .

ومن العجب أنه فى أموره الدنيوية يكون معتزليا متطرفا . وفى أموره الدينية يكون جبريا متطرفا ، اتباعا لما تهوى الأنفس (وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى)(١) .

(١) سورة النجم ، الآية ٢٣

ومع كوننا نقول : إنه غير مجبر نقول — أيضاً — : إنه لا غنى له عن الله — تعالى — ، فإن علمه قاصر وقدرته قاصرة ، ولا سلطان له على الأمور الخارجية ، ولا على تتميم الموجبات لما يريد ، ولا منع الموانع عما يريد . فمن الموانع التى يجوز أن تحدث ما لا يدخل تحت علمه وقدرته . وأنت تعرف أنك حر ها هنا ، ولكن كونك حراً لا يقتضى أن تكون غير مقيد بالقوانين ولا خاضع للدساتير ، إلى آخر ما تعلم ولا تجهل .

فالأشياء ، يجب أن توضع فى مراكزها ولا تتعدى حدودها ، فإن الاستقلال التام يستتبع القدرة القاهرة والعلم المحيط ، وذلك ليس إلا لله تعالى .

لسنا ننكر أن هناك أسباباً خارجية تؤثر فى مجرى الحوادث ، ولكن أنت من الأسباب أيضاً ، ولك عملك الخاص فى دائرتك الخاصة عندما يجىء دورك .

وقد رأيت بعضهم يشبه الإنسان فى هذه الحياة براكب فى سفينة قضى عليه أن يركبها وأن يسير فيها ، فليس مختاراً فى ركوبها ولا فى السير فيها ، ولا هو طليق يذهب حيث شاء ويسير حيث أراد ، ولكن له مع ذلك حرية تامة فيما يفعله فى تلك الدائرة المحدودة ، فيتصرف فى شئونه الخاصة كما يشاء : يذهب ويجىء فيها كما يريد ، بشرط ألا يتعدى مقدم السفينة . ولعل هذا معنى قول سلفنا الصالح : « لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين » .

ثم إننا نرى أن الأفعال كلها قد أسندت إلى العباد فى كتاب الله تعالى ، ولذلك كلفوا ، وما كان الله يكلفهم ما هو خارج عن استطاعتهم ومتناول قدرتهم (لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)[1] فقد منحك الله القدرة والإرادة فجعلك قادراً مريداً ، ولو شاء لجعلك عاجزاً مهقورا ، ثم وكل إليك تصريف تلك الإرادة بمحض اختيارك إلى أحد الجانبين من الفعل والترك ، والترجيح شأن من شئون الإرادة الذاتية ، والتصرف أمر اعتبارى يرجع إليك الفصل فيه ، حتى إنك قد ترجح المرجوح تقديماً للشهوة على النظر العقلى أو تمتعاً بلذة الحرية التى تجدها من نفسك .

ومع ذلك ما لنا والتعمق والتحديد بعد ما أريناك أن تحديد الأشياء على ما هى عليه مختص بالله تعالى وإلا تساوى علمك وعلمه ، وأين العبد من المعبود ، وأين المحدود من غير المحدود ، وهذا جار فى كل شىء لا فى خصوص أفعال العباد .

ويعجبنى قول بعضهم : إننا نعرف أننا أحرار فى حركاتنا وسكناتنا وذلك محسوس لدينا لا يمكن أن نشك فيه ، كما نعلم بالبرهان العقلى أن الأمور راجعة إلى الله تعالى ، وهو مالك زمامها ، وصاحب التصرف فيها على ما تقتضيه الإلهية (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)[2] وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلنؤمن بهاتين الحلقتين الأولى والأخيرة ، ولندع ما بينهما من الحلقات .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

(٢) سورة هود ، الآية ١٢٣

هذا : وقد علمت أنه شاء أن يعطيك الإرادة والاختيار ، ولنقف عند هذا الحد من الكلام على أفعال العباد . ولنتكلم على القضاء والقدر الذى يظن كثير من الناس أنه ملزم ومجبر فنقول :

القضاء والقدر

هما راجعان إلى علمه تعالى وقدرته ، فالقضاء فى رأى حكماء الإسلام — وليس بلازم أن نوزع قلبك بين شعاب الخلاف ونسلك بك مسالك الاعتساف — هو عبارة عن وجود الأشياء على الوجه الأكمل فى علمه تعالى على وجه كلى . والقدر إيجاد تلك الأشياء فى عالم الظهور على وجه تفصيلى يوافق القضاء السابق .

وهنا شبهة صعب حلها على كثير من الناس ، قالوا : إن ماسبق فى العلم الإلهى لابد منه ويستحيل نقضه ، فإذن الأشياء مرسومة مقررة قبل أن يوجد الإنسان فهو إذاً مقهور لا مختار . ومن الغريب أن الإمام فخر الدين الرازى « وهو هو » كثيرا ما يذكر ذلك فى إلزام المعتزلة بالجبر وإسقاط الاختيار ، مع أن ذلك غلط واضح لا أدرى كيف وقع فيه الإمام الرازى وغيره من الأعلام .

ذلك أن العلم لا علاقة له بالجبر والاختيار فإننى إذا علمت بأى وسيلة من وسائل العلم أنك تسافر غداً وكان ذلك علماً حقاً لم يكن له تدخل فى سفرك الذى سيقع بمحض إرادتك واختيارك ، والعلم ليس من صفات التأثير ، وتخلف المعلوم أو عدم تخلفه ليس مبنياً على كون العلم مؤثراً بل على كونه صحيحاً أو غير صحيح .

وهذا من أظهر الظاهر وأوضح الواضح . فإن من الجلى أن العلم لاأثر له فى المعلوم ، وأن المعلوم يوجد بأسبابه وسلسلة علله لا بعلم العالم أو جهل الجاهل .

والخلاصة : أن الله تعالى قبل أن يخلقك يعلم أنك ستكون مريداً مختاراً لأنك إنسان لا جماد « بل الحيوان الأعجم له إرادة واختيار أيضاً » ويعلم بالضرورة ماتختاره بمحض إرادتك وما ستصرف إليه عزمك من خير أو شر ، وقد اقتضت حكمته أن يهبك تلك الإرادة الحرة التى تصرفها كما تشاء كى يحقق لك الحرية التى اقتضت حكمته أن يمنحك إياها ، ثم يجازيك بعد ذلك على ما كان منك فى يوم عصيب تؤدى فيه الحساب عن كل ما كسبت يداك ، ولولا ذلك لم يكن هناك معنى للحرية والاختيار ، ولا للتكليف والثواب والعقاب .

ولسنا ننكر أنه لو شاء لسلبك تلك الإرادة ، ولو أراد لجعلك آلة صماء لا إرادة لك ، ولا تكليف عليك ، ولكنه لم يفعل لأنه يريد أن يجعلك إنساناً ، فأى جبر يقتضيه القضاء بعد ذلك ؟

وإن كان لابد من حصول ما سبق به القضاء ولا يتأتى تخلفه ولكن ذلك مبنى على صحة العلم لا على تأثيره كما قلنا .

وقد سأل الإمام علياً — كرم الله وجهه — شيخ بعد انصرافه من صفين فقال : أخبرنى عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال : « والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا

وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء الله وقدره » فقال الشيخ : عند الله أحتسب عنائى ما أرى لى من الأمر شيئاً ، فقال له : « مه أيها الشيخ عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين » فقال الشيخ : فكيف ساقنا القضاء والقدر ؟ قال : « ويحك لعلك ظننت قضاء مجبرا وقدراً قاسرا ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وجنود الشياطين ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيرا ، وكلف يسرا لم يعص مغلوبا ، ولم يطع مستكرها ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض ، وما بينهما باطلا (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)(١) ، وقال الإمام الرضا : إن الله هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم ، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادا ، وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وإن لم يحل وفعلوا فليس هو الذى أدخلهم فيه .

والخلاصة : أن هنا غلطتين : الأولى ، أن علم الله بالأشياء يوجبها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار ، ولا أدرى كيف يفهمون

---

(١) سورة ص الآية ٢١٧

ذلك مع أن العلم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذن يؤكد الاختيار ولا يعارضه .

والثانية : إخراج الإرادة الإنسانية من سلسلة الأسباب وجعلها لغواً فى البين. وقد اختصرنا لك الطريق وأهدينا إليك لباب التحقيق .

هذا : وهنا شيء آخر لابد أن ننبه عليه تتميما للمقام ، وإزالة لما عسى أن يكون من شبه الأوهام ، وذلك أن بعض الناس قد يعطى من المواهب ما لا يعطاه غيره ويجد من المعونة الإلهية ما لا يجد سواه ؛ فلماذا ؟ ؟

لنا عن ذلك جوابان : الأول : أن ذلك يرجع إلى سر القضاء والقدر ، أو نقول إلى الحكمة الكبرى التى دمرت العالم ، ووضعت نظام الوجود ، ولا نستطيع أن نصل إليها تماما مهما بلغ علمنا واتسعت مداركنا ، وفى قضية موسى مع العبد الصالح التى قصها الله علينا فى سورة الكهف أكبر شاهد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الجواب الثانى : أن ذلك من باب الفضل ، والاعتراض لا يكون على ترك الفضل ، وإنما يكون على ترك العدل ، وذلك غير موجود بل هو محال فى حق الله تعالى ، وقد أعطى كلاً من عباده ما يمكنهم من القيام بما كلفهم به ، حتى إذا عجزوا رفع عنهم التكليف فمنح كل إنسان من المواهب ما يستطيع أن يفعل به ما طلب منه ، فهذا القدر مشترك بين الجميع ، وأما تفضيل بعضهم على بعض

فذلك راجع إلى فضله الذى يعطيه من يشاء ويمنحه من يريد ، ولا اعتراض عليه فى ذلك (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)[١] .

ولو فتحنا هذا الباب لوجب ألّا توجد هذه المخلوقات ولا تظهر تلك المبدعات ، فقد كان للجاهل بناءً على هذا أن يقول : لم جعلتنى جاهلا ؟ وللناقص فى أى شيء أن يقول : لم خلقتنى ناقصا ؟ بل كان للحمار مثلاً أن يقول : لم لم تخلقنى حصانا ؟ وللحصان أن يقول : لم لم تخلقنى إنسانا ؟ وللإنسان أن يقول : لم لم تخلقنى ملكا ؟ بل وللأرض بلسان حالها أن تقول : لم لم تخلقنى سماءً ؟ وللسماء أن تقول : لم لم تخلقنى عرشا ؟ الخ الخ . فأنت ترى أن فتح هذا الباب يوجب أن ينسد باب الخلق بالكلية (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)[٢] ولعل للمقام متممات ، ولعلنا نأتى عليها فى فرصة أخرى إن شاء الله . وبعد هذا فلا يسعنا إلا أن نقول ما قال الله تعالى : (وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) أو ما قال جار الله الزمخشرى رحمه الله :

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه فى جهلاته يتغمغم

ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم[٣]

---

(١) سورة التوبة الآية ٩١

(٢) سورة المؤمنون من الآية ــ ٧١

(٣) يقال : تغمغم إذا ذهب فى الماء وغمر به حتى غرق .

القضاء والقـدر

(٢)

ورد هذا السؤال من صاحب التوقيع :

س : ذكرتم فى كلمة (القضاء والقدر) أن العبد غير مجبور مع أن العلم الإلهى سبق بكل ما كان وما يكون ، وماسبق فى العلم الإلهى لا يتخلف ، فكيف يكون العبد مع ذلك مختاراً

عبد الرحمن محمد
بشبين

الجواب : قلنا فى كلمتنا فى « القضاء والقدر » : إن العلم غير مجبر للعبد ولا مسقط اختياره بل يحقق الاختيار ، فإن الله إذا علم أنك ستفعل كذا باختيارك كان ذلك محققاً لاختيارك لا منافياً له وإن كان ذلك الفعل لابد من وقوعه ، ولكن ليس معنى ذلك أنك تدفع إليه دفعاً أو تفعله قسرا .

فإن الله وهب للإنسان إرادة واختياراً فضله بهما على غيره ، ولولا ذلك ما صح أن يكلفه ولا أن يحاسبه ، فهو بمنزلة السيد الذى أعطى عبده الحرية فيما يفعل ثم يحاسبه بعد ذلك على ما كان منه ، فلو فرضنا أن السيد فعل ذلك امتحاناً لعبده ، وكان عالماً بما سيفعله عبده باختياره ، لم يكن علم السيد مجبرا للعبد على ما فعله ، لأن

العلم ليس من صفات التأثير وإن كان معلومه لا يتخلف ، فإن هناك فرقاً بين صحة العلم وعدم تخلفه وبين كونه قاهرا أو مؤثرا .

ثم قلنا فى تلك الكلمة : إننا نعلم بالضرورة فرقاً واضحاً بين حركة المرتعش والمحموم ، وبين حركة المختار الذى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، ونعلم مع هذا أن الله لو أراد لسلبه ما وهبه من القوة على الفعل ، وما أعطاه من الإرادة والاختيار ، ولا يكون فى ملكه إلا ما أراد ، ولكنه منحك الإرادة ولم يرد سلبها منك ولا قهرك على غير ما تريد .

ثم قلنا فى الخلاصة : إننا نعلم حق العلم أن لنا دخلاً فى أفعالنا الاختيارية ، ونعرف أيضاً أننا غير مستقلين فيما نأتى ونذر ، فكأن دائرة الحرية لدينا دائرة محدودة ، وعلى قدر تلك الحرية التى منحناها تكون المسئولية ويتوجه الحساب ، أما تحديد ما لنا فى أفعالنا وما لله تعالى فى تصريفه المطلق غير المحدود فيجب علينا ألا نبحث عنه أو نتطلع إليه ، فإن ذلك خارج عن الطاقة البشرية .

وقلنا : إن علمنا بأى شيء من الأشياء حتى المحسوسات ناقص جداً ولا يمكن أن نصل إلى الحقيقة فى أى شيء مما علمناه ، بل علمنا قاصر على الظواهر ، واقف عند حد محدود منها ، ولابد أن يبقى وراء ما علمنا شيء كثير يستأثر به العلم الإلهى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا)[1] .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ولابد أن تعرف أنه قليل كما وكيفا ، فمعلوماتنا في عددها قليلة ، وفي الإحاطة بها واحدا واحدا فيما علمناه منها قليلة ؛ وقد نظم الله الملك على حسب ما تقتضيه علمه لا علمك ، ولا سبيل إلى أن تعرف ما في علمه الذي انبنى عليه ذلك النظام المراعى فيه حلقات سلسلة المخلوقات كلها لا كل حلقة على حدتها ؛ ولعل في هذا مقنعاً وكفاية .

كلمة تثير محبة الله في القلوب المستعدة [1]

يقول الله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنوا أَشَدُّ حبًّا لِلهِ)[2] ويقول : (قلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكم وَأَبْنَاؤُكمْ وَإِخْوَانكمْ وَأَزْوَاجُكمْ وَعَشِيرَتكمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الفاسِقِينَ)[3] ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى عنه : « حَبِّبُوا اللهَ إِلَى عِبَادِهِ يُحِبُّكمُ الله »[4] ويقول بعض من تخلص من الاوهام ورسخ في هذا المقام :

بادر لدرك الذى قد فات من عمرك — ولتتخذ زادك التوحيد في سفرك

فيامليك الورى يا منتهى أملى — ما أشوق الواله المضنى إلى خبرك

ما ظل لى أمل في غير مشهدكم — ولا قرأت كتابا ليس في سيرك

---

(١) مجلة الأزهر — العدد السادس — المجلد الأول — جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٥

(٣) سورة التوبة ، الآية ٢٤

(٤) ويقول صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

إذا كنت تحب أحدا لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم، فأحب الله تعالى الذى أتقن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسه.

وقد ذكرنا فى بعض ما كتبناه أن سبنسر الإنجليزى كان يقول : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » . ويكفيك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفسيولوجيا « علم وظائف الأعضاء » فطأطئوا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعشو الخفاش أمام الشموس .

وإن كنت تحب أحدا لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم السموات والأرض ، ورب العالمين ومدبر الخلق أجمعين ، من أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب أحدا لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه فى باب الفضائل والمكارم ، فأحب منبع النعم ومعدن الكرم ، وأين كل ما تتخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله ، وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة فى

الوجود ، وأنه رب الكرم والجود . (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١) .

ولعمر الإنصاف أن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام ، وتخرس فيه الألسن ، فلن تطيق شرح نعمة من نعمه . وانظر إن شئت لنعمة الهواء التى يتوقف عليها وجود كل حى ، إلى آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها . وإن شئت فانظر إلى نعمة الضياء أو الماء وما أودعه فى الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (٢) . (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (٣) .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل من فى الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود الفيلسوف « لينه » الفسيولوجى الفرنسى الذى كان يدعوه وجدانه فيجيبه ويناجيه شعوره الحى فلا يتغافل عنه ، قال : « إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شيء قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا ، فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده ، سواء أكان فى أصغر الأشياء أم أكبرها . إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبىء بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشى وتجددها ينطق بجلاله وعظمته » .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢
(٢) سورة يس ، الآية ٣٨
(٣) سورة ابراهيم ، الآية ٣٤

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكمالها فأحب من أوجدها فى أحسن تقويم ، وشق سمعها وبصرها وأسبغ عليها نعمه ظاهره وباطنه ؛ ولم يقتصر كرمه على إقامته الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ما تتنوع به لذاتك وتتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتك نعماؤه وأشرق عليك ضياؤه وعذب ماؤه ولطف هواؤه ، وأنعشتك بدائع أكوانه من : رياض غناء ، وصحارى فيحاء ، وأثمار شهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب ، من شموس وأقمار ، وأطيار وأزهار ، وليل ونهار ؛ أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات ، والدلائل الناطقات ، والنعم الفائضات ، ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويسمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار ⠀⠀ وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ⠀⠀ وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل ⠀⠀ مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا ⠀⠀ فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج ⠀⠀ وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير ⠀⠀ جل ربًّا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله ⠀⠀ نفوسا لها هدى واعتبار

أو تقول كما قال غيره مخاطبا نفسه مستحثًّا لها على العبرة وإطالة الفكرة حيث يقول فى تخميس أبيات أبى نواس « بتصرف وزيادة » :

تبصر حيث كان لك التبصر ⠀⠀ وفى ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر ⠀⠀ تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
فأنوار المهيمن ساطعاتٌ ⠀⠀ وأفكار الخلائق حائراتٌ
ولكن الأدلة واضحاتٌ ⠀⠀ أصول من لجين زاهراتٌ
على أغصانها ذهب سبيك
شموس فى البرية مشرقات ⠀⠀ نجوم فى الدياجى لامعات
بطول الدهر دوما سابحات ⠀⠀ إلى ما لست أدرى طائرات
يطير بها له الجرم السميك
رياض مونقات منعشات ⠀⠀ وألوان لعينك مدهشات
وأزهار تروقك مبهجات ⠀⠀ على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

أو يقول كما قال ذلك القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه ⠀⠀ وذا الكون سِفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم ⠀⠀ ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرىء فى الجو يرسل طرفه ⠀⠀ إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده ⠀⠀ وهذى حواشيه وهذى مواكبه

وأى امرىء ما سبح الله مرة　　إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة　　ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو يقول وقد امتلأت نفسه بأنوار وجود الحق الذى ظهر فى جميع الأشياء وتجلى نوره فى عوالم الأرض والسماء ، وإن غاب عن الأبصار وجل أن يدرك بالأنظار :

ظهو الوجود الحق فى الأشياء　　متجليًا جهرا بغير خفاء
إن الوجود عن البصائر غائب　　من حيث ما هو ظاهر للرائى
والفىء يكشف أن ثمت شاخصا　　متحكما فيه بغير مراء
فرأيته من حيث لم تعلم به　　وعلمته فى رتبة الأسماء
والشمس لاتستطع رؤية ذاتها　　لتالق فيها وفرط ضياء

أو يقول مقال ذلك الرجل الذى رآه ظاهرا فى آثاره ظهور الشمس وأنه تعالى بحقيقته محتجب عن العقول :

حسن تراءى فى المرائى　　وبه تحير كل رائى
والكون عرس زينت　　ذى الارض فيه مع السماء
بكواكب ومراكب　　والنجم خفاق اللواء
وصدى جميع الكائنا　　ت أخىّ من أشهى الغناء
هو باطن هو ظاهر　　فاحذره من وجه الخفاء
واطلبه من وجه الظهو　　ر تجده فى كل المراء
شمس وكل الخلق فى　　أنوارها مثل الهباء
يا قوم كيف عقولنا　　لا تضمحل من الهباء

أو يقول عندما يرى الأشجار تتهادى فى حلل الأوراق والأزهار معجباً برؤيتها متعجباً من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبا للابس　　قد حاكها من لم يمد لها يدا

فقل لى بعيشك هل من الحياء « والحياء خلق كل كريم » أن تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإمساء ، وما أوجد لك من بديع الأشياء ، وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على ما يقول عز وجل : « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »(1) ثم لاتؤدى شكره ولا تعرف قدره :

إنى لأعجب ممن قد رأى طرفاً　　من فرط لطفك ربى كيف ينساكا

فإن كان لا يؤثر فى نفسك فائض إنعامه ومزيد إحسانه ولا ما هو عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون وعظمة لا يصفها الواصفون ، وعلم لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وحكمة أتقن بها جميع الأشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجمال وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا سلطان الحسن الذى تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فإنما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق الذى يجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا بعض سرائره ، ولا تمثل لك أى مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه ، وأنى يسع المحدود من لا يقبل التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد عن

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٠

لا يدخل فى سجن التقييد ، فطوبى لمن شم عرف شذاه أو شام برق سناه ، وهنيئاً لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا ، فإذا لم يدر ماهو تائق إليه ومتلهف عليه قال :

شيءٌ به فتن الورى وهو الذى ... يدعى الجمال ولست أدرى ماهو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى الله أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون إلى صلاح لا يتناهى وكمال لا يتناهى وجمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله تعالى .

فأرجع إلى سلامة فطرتك وحدق ببصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجمال الإلهى الذى تجلى على صفحات الموجودات ، واقرأه بين سطور ذلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله إلى أى حد انتهيت ، ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الإحساس بالجمال إلا قد وصلت إلى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن ، إذ تجدك أحسست بجمال لا يكيف ، وغرقت فى بحر من الجلال لا يحد ولا يأتى عليه التعبير :

فطوراً فى الجلال على التذاذ ... وطوراً فى التذاذ بالجمال

وعند ذلك ينطق لسان حالك منشداً :

عجبت لعاقل فى الناس أضحى ... يرى هذا الجمال ولا يهيم

ويترنم بلبل روحك مغرداً :

لعمرك كل الحسن من بعض حسنه ... وما حسن كل الحسن إلا جماله

فاستجل هذا الحسن رعاك الله فى كل شيء تراه من العلويات والسفليات :

إن شئت فى فلك أو شئت فى ملك ... أو شئت فى مدر أو شئت فى حجر
فالكل ينطق أن الله خالقه ... وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس — وهى أظهر ما علمت ، وأبهر ما رأيت ، وأجمل ما وقع عليه البصر ، وأبهى ما وصل إليه النظر — إلا أثر من آثاره ونور من أنواره وقد كتبت عليها سطور البهاء والجمال والعزة والجلال ، فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالاً يذوقه الوجدان ، وإن كان لا يكفيه وتمتلئ به النفوس ، وإن كانت لا تعرفه ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : « تبارك الله أحسن الخالقين » وحقه وما أكبر حقه لو تفرغت من الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئاً لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عنى كل جارحة ... فى كل معنى لطيف رائق بهج
وفى مساقط أنداء الغمام على ... بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى ... برد الأصائل والإصباح فى البلج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى إلى سحيراً أطيب الأرج

عظم والله البرهان وامتلأ الوجدان ووصل الأمر إلى حد العيان : وليس بعد العيان بيان ، ولكن قويت الأنوار فعشيت الأبصار ، فهى آيات أعتيدت مشاهدتها وتكررت رؤيتها ، وسقط عن القلب وقعها ،

وإن عظم نفعها ، ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين ، لا ممن أخلد إلى الأرض من الغافلين الجامدين :

خليلى قد طال المقام على القذا   وحال على ذا الحال يا قوم أحوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت ، فإن كنت تحب أحدًا لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب فأحب الملأ الأعلى سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)(١) .

وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا السرور والحبور ، ولا أمنيته إلا الإطلاق من جميع التقييدات ، والاطلاع على جميع المغيبات وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيت عالمك الأول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجثمانى الذى لا بد له من الفناء فأنست بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات .

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصته التى هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول . (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)(٢) .

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية ، حتى أنستك عالم البهجة والبهاء ، فصرت لا تعرفه ولا تحس به ، وإنه لموطن روحك

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٠
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢

ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما مطلبها الذاتى وغذاؤها الأصلى فهو الأسرار والأنوار ، ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ما هى مستعدة له ومخلوقة لأجله وهو فى الحقيقة نسيان لنفسها (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)(١) فكأن لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التى أضعفت منها تلك الحاسة العليا ، التى هى مناط لذتها الكبرى ، وشرفها الأعلى ، وخاصتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه .

(١) سورة الحشر ، الآية ١٩

التوسل [1]

[١] كتبنا كلمة وجيزة فى التوسل بالنبى – صلى الله عليه وسلم – وحذرنا الغلاة ومن حذا حذوهم من تكفير المسلمين ، وقلنا لهم : إن التكفير أمر عظيم لا ينبغى لمن يشفق على دينه أن يسارع إليه .

وذكرنا من الأدلة على جوازه ما يخضع له المنصف ، ولا يمارى فيه إلا الجاهل المتعسف .

فجاءتنا رسائل من الجهلة كلها سب وإقذاع وليس فيها غير ذلك ، ولا غرو فسلاح السفهاء بذاءة اللسان لا قوة البرهان .

وإنى أبادر فأقول : إن كل ما يجد القارئ فى مقالى هذا من كلمة لاذعة فإنا لا نقصد بها إلا سفهاءهم وأراذلهم ؛ وحاشا أن نقصد منهم عاقلا أو كاملا . فإن سبق القلم بغير ذلك فهو على غير قصد منا ، وإنما جرنا إليه جهل الجاهلين وجمود الجامدين :

وجرم جره سفهاء قوم   فحل بغير جانيه البلاء

وقد خيل لأولئك السفهاء أنهم سينسفون الحق وأهله بسفاهتهم التى لا تزيدهم عندنا إلا صغارا واحتقارا ؛ ولسنا نقيم لها وزنا وإن

(١) مجلة الأزهر – العدد الأول – المجلد الثانى – المحرم سنة ١٣٥٠

تفننوا فيها ، وكم فى كلامنا من إشارات لم يفهموها ورموز لم يدروا المراد منها وإن ظنوا أنهم مبرزون فيما يكتبون :

إن العصافير لما قام قائمها   توهمت أنها صارت شواهينا

وللحق والإنصاف نقول : إنه جاءنا رسالة من بعض المكيين تحت إمضاء (ا . د) سلك فيها الكاتب مسلك الأدب ولم يقذع إقذاع أولئك الزعانف ، وربما نشرناها وعلقنا عليها تحقيقا للحق وإبطالا للباطل .

أما اليوم فنقول : ليعلم القارئ الكريم أن إسناد الفعل تارة يكون لكاسبه كفعل فلان كذا ، وتارة يكون لخالقه كفعل الله كذا . والكل حقيقة فى اللسان العربى ؛ وقد جاء ذلك فى القرآن الشريف (وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] . (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)[2] ومع هذا فقد قال : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[3] . وهو كثير معروف .

فإن منع أولئك الجهال الإسناد على وجه الاكتساب فهم مجانين ، وإن ادعوا أن الواقع فى كلام الناس هو الإسناد للخالق لا للكاسب فهى دعوى كاذبة لم يقم عليها برهان ، وقد استباحوا بها دماء المسلمين جهلا وضلالا . ومن منع الإسناد على وجه الكسب سقطت مخاطبته وانقطع الكلام معه .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٣
(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧
(٣) سورة الشورى ، الآية ٥٢

فمثلا : الغوث من الله خلق وإيجاد ، ومن النبي تسبب وكسب .

هذا على فرض أننا طلبنا الغوث منه – صلى الله عليه وسلم – مع أننا لم نفعل ذلك ، ولو فعلناه لصح على طريق التسبب والاكتساب بطلب الدعاء منه – عليه السلام – ، وقد قالت أم إسماعيل عندما سمعت الصوت : « أغث إن كان عندك غواث » فأسندته إليه على سبيل الكسب .

فكيف يجوز مع هذا تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم بالتوسل والاستغاثة ، حتى على اصطلاحهم الذى لا نوافقهم عليه ، والنزاع فى معان لا فى ألفاظ ؟

وقد جاء فى الحديث الصحيح : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه » وقد قال الله تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[١] . فإذا كان هذا فى رجل لم يكن منه إلا مجرد السلام الذى هو تحية المسلمين ، فكيف بمن يتجاسر على خيار الأمة المحمدية ويكفرهم بالتوسل بالأنبياء والصالحين بشبه أوهى من بيت العنكبوت (أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[٢] ومن المقرر أن اليقين لا يزول بالشك ، وأنه يؤول للمسلم من وجه إلى سبعين وجها كما نص عليه النووى وغيره من العلماء .

(١) سورة النساء ، الآية ٩٤

(٢) سورة المطففين ، الآية ٤ ، ٥ ، ٦

ولست أدرى هل يأخذ هؤلاء بظواهر العبارات أم بالمقصود منها ؟ فإن كان التعويل عندهم على الظواهر كان قول القائل : « أنبت الربيع البقل » و « أروانى الماء » و « أشبعنى الخبز » شركا وكفرا ، وإن كانت العبرة بالمقاصد والتعويل على ما فى القلوب التى تعتقد أنه لا خالق إلا الله وأن الإسناد لغيره إنما هو لكونه كاسبا له أو سببا فيه لا لكونه خالقا له لم يكن شىء من ذلك كله كفرا ولا شركا .

ولكن القوم متخبطون خصوصاً فى التفرقة بين الحى والميت على نحو ما يقولون « كأن الحى يصح أن يكون شريكاً لله دون الميت » أو كأن الأرواح تستمد قوتها وسلطانها من الأشباح لا العكس ، ولكنهم ليسوا أهل منطق ولا برهان ، ثم انضم إلى ذلك الصلف المذموم والكبرياء الممقوتة . فبماذا نخاطبهم؟ وعلى أى قاعدة نحاورهم .

ولكننا نكتب لغيرهم عسى أن نقيه شر سمومهم التى ينفثونها فيما يكتبون تبعاً لأسلافهم ، مطبقين الآيات التى نزلت فى الكفار على المسلمين ، مع أن الشاذ عن جماعة المسلمين أولى بالتكفير منهم وأقرب إلى الخطإ والضلال ، . وهل يرضون أن نقول لهم : إنكم مخالفون لسلف الأمة وخلفها إتباعاً لمن قبلكم ، ثم نطبق عليكم قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)[١] . (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)[٢] . (وَمِنَ النَّاسِ

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٠

(٢) سورة القصص ، الآية ٥٠

مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ)(١) .

وعندنا من ذلك شىء كثير ، وهل لنا أن نأخذ بظاهر هذا الحديث وهو أصح مما تأخذون به فنقول : إنكم كفرتم عند ما رميتم المسلمين بالكفر ؟ أو نقول : إنكم من أولئك الذين يحقر أحدنا صلاته بجنب صلاتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؟ أو نقول : إنكم من أولئك الخوارج الذين قال فيهم عبد الله بن عمر – كما فى صحيح البخارى – « إنهم عمدوا إلى آيات نزلت فى المشركين فجعلوها فى المسلمين » ؟ أو نقول كما قال ابن عمر أيضاً : « إنكم قتلتم أهل الإسلام وتركتم أهل الأوثان » ؟ أو نقول : « ولا نريد إلا أولئك الفظاظ الغلاظ الجامدين الجاهلين » :

إنكم أعداء الله حيث أثبتم له الجهة وشبهتموه بخلقه ، وأعداء رسول الله حيث لم توقروه ولم تراعوا حرمته ، وأعداء أولياء الله حيث حقرتموهم كل التحقير ، وأعداء جميع المسلمين حيث استحللتم دماءهم وأموالهم حتى قتل أطفالهم من بنات وبنين ، وذلك شىء لم نفعله مع أكفر الكفرة وأفجر الفجرة ، إلى آخر فظائعكم وشنائعكم .

فيأيها الناس ، اتقوا الله فى المسلمين فنحن أحوج إلى الوئام والاتحاد أمام العدو الذى أجمعنا جميعاً على كفره وعداوته . بل اتقوا الله فى أنفسكم وأعلموا أن النفس أمارة بالسوء ، وأن من اتبع

(١) سورة الحج ، الآيتان ٨ ، ٩ .

هواه ضل عن سبيل الله . ولو سلكنا مسلككم واتبعنا خطتكم وقابلنا السيئة بالسيئة لقلنا لمن يريد نصحكم ونحن يائسون منكم :

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)(١) .

وعلى نهجكم كان يمكننا أن نسير ولكن ديننا أعز علينا من أعراضنا التى نهشتموها ، ودمائنا التى استبحتموها ، ولعمر الله لقد صيرتم الإسلام بذلك نارا مضطرمة على وجه الأرض ، لا دين يسر وسلام كما جعله الله ، بل صار دين جهالة وجمود مع أن نبيه يقول : « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُم وَأَعْمَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ » . وإنا لنعلم أن الفرق الضالة كلها تستدل بالقرآن لى نحلها ونزعاتها ، فلا يغرنكم ما تستدلون به من الآيات فى غير محل الاستدلال ، مطبقين إياها على المسلمين خطأً وجهلا ، كما فعل أسلافكم ، فإن ذلك لا يغنى عنكم من الله شيئاً . والناجى من نجاه الله (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)(٢) .

ولا أدرى لماذا قامت قيامتكم ، وقد قلنا : إننا نعتقد فى توسلنا أن الله هو الفاعل ، ولسنا نطلب من غيره فعلا ، ولا عملا ، ولكن نسأله بمنزلة النبى عنده ، وتلك المنزلة ثابتة له فى الدنيا والآخرة ،

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٣ ، ٤٤

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧

وبها نذهب إليه للشفاعة يوم القيامة . وذكرنا وجوهاً أخرى هى فى غاية الوضوح لا داعى لإعادتها ؟ ! وسنفيض بعد فيما يقنع المناظر ويفحم المكابر .

فما ذلك الشرك الذى شغفتم بذكره ؟ وما ذلك التكفير الذى جننتم برمى المسلمين به ؟ وسنذكر من أدلة التوسل ما يلقمكم الحجر ، ونبين لكم أن آية (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ)[1] ما ذكرناها إلا لما قاله بعض أئمتكم . وستسمعونه بعد ، ولأننا لا نستبعد منكم شيئاً مما يعقل ومالا يعقل ، ولأن التفرقة بين الأحياء والأموات فى هذا المقام غير صحيحة ، فإن الطلب من الله والفعل لله لا من المستغاث به على أنه يستطيع أن ينفعنا بدعائه على ما نوضحه أتم توضيح .

ولنقتصر على هذا ونورد لكم شيئاً عن الأرواح وعملها بعد الموت مما قاله ابن القيم ، وشيئاً عن التوسل مما قاله الشوكانى . وهما من أئمة الغلاة الذين يرددون كلامهم فى كل موطن ، بل كل ما تراه لهم من علم أو مايشبه العلم فإنما هو لابن تيمية وابن القيم والشوكانى ، يحكونه واحداً بعد واحد كالببغاء أو كالحاكى للصوت « الفنوغراف » وليتهم كان لديهم من الأمانة (ما للفنوغراف) أو ليتهم عرفوا كل ما قال أئمتهم ، فسلكوا طريقتهم ولم يقولوا بغير قولهم .

وهذا هو كلام ابن القيم فى الأرواح بعد موتها :

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٢

عمل الأرواح بعد الموت

قال ابن القيم فى « كتاب الروح » : إن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه فى التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق به سبحانه وتعالى ما ليس للروح المهينة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه بسبب انغماسها فى شهواتها . فإذا كان هذا فى عالم الحياة الأرضية وهى محبوسة فى بدنها ، فكيف إذا تجردت عنه وفارقته ، واجتمعت فيها قواها ، وكانت فى أصل نشأتها روحاً عالية زكية كبيرة ذات همة عالية ؟ فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواردت الرؤى فى أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد الموت أفعالا لا تقدر على مثلها حال اتصالها بالبدن فى هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد ، والفيالق بالعدد القليل جدا ونحو ذلك ، وقد رئى النبى — صلى الله عليه وسلم — ومعه أبو بكر وعمر — رضى الله تعالى عنهما — فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المؤمنين وقلتهم .

[هذا ما قاله ابن القيم . فانظر فيه مع ما يقول هؤلاء . ولا تنس أنه ليس لهم علم ولا شبه علم إلا من كلام ابن القيم وأصحابه ، ولكن يظهر أنهم قاصرو الاطلاع كما أنهم قاصرو العقل .

التوسل فى رأى الشوكانى

وقال الشوكانى وهو ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة عندهم : قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاواه مالفظه : « والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيه مسلم ، ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر وإما مخطئ ضال » . أقول : فليكن النزاع فيما هو اللائق به وما يقدر عليه وفيما لا يليق به ولا يقدر عليه ، ولا شك أنه قادر على أن يدعو لنا وهو فى البرزخ كما قال فى الحديث الذى ستعلم صحته : « تُعْرَضُ عَلَىَّ أَعْمَالُكُمْ فَإِنْ وَجَدْتُ خَيراً حَمِدْتُ اللهَ وَإِنْ وَجَدْتُ شَرّاً اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ » .

ولنرجع إلى تتميم كلام الشوكانى :

قال الشوكانى : « وأما التشفع بالمخلوق فلا خلاف بين المسلمين أنه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا » .

هذا ما قاله ، وإنى أكرر لفت نظرك إلى أنه يجب أن يكون البحث إذاً فى تحقيق ما يقدر عليه ومالا يقدر عليه ، وقد علمت أنه قادر على أن ينفعنا وهو فى البرزخ بدعائه كما كان فى الدنيا ، فليكن محل النزاع هو كونه قادراً أو غير قادر ، على أنه لا وجه للشرك على كل حال .

ثم قال الشوكانى : وفى سنن أبى داود أن رجلا قال للنبى – صلى الله عليه وسلم – : إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيكَ وَنَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ . فقال : « شَأْنُ اللهِ أَعظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ به عَلَى أَحَد مِن

خَلْقِهِ » فأقره على قوله « نستشفع بك على الله » وأنكر عليه قوله « نستشفع بالله عليك » .

إلى أن قال :

وأما التوسل إلى الله سبحانه بأحد من خلقه فى مطلب يطلبه العبد من ربه فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبى – صلى الله عليه وسلم – إن صح الحديث فيه . ولعله يشير إلى الحديث الذى أخرجه النسائى فى سننه والترمذى فى صحيحه وابن ماجه وغيرهم : أن أعمى أتى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : يارسول الله إِنِّى أُصِبتُ فِى بَصَرِى فادعُ اللهَ لِى ، فَقَالَ لَه النبى – صلى الله عليه وسلم – « تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّد ، يا مُحَمَّدُ إِنِّى أَسْتَشْفِعُ بِكَ فِى رَدِّ بَصَرِى اللَّهُمَّ شَفِّعِ النَّبِىَّ فِىَّ » . وقال « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » فرد الله بصره .

وإنى ألفت نظرك إلى قوله « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » .

ثم قال الشوكانى : وعندى أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبى – صلى الله عليه وسلم – كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبدالسلام لأمرين : الأول : ما عرفناك به من إجماع الصحابة – رضى الله عنهم – والثانى : أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو فى التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة ، إذ لا يكون الفاضل فاضلا إلا بأعماله ، فإذا قال القائل : اللهم إنى أتوسل إليك بالعالم الفلانى ،

فهو باعتبار ما قام به من العلم ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى – صلى الله عليه وسلم – حكى عن الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركا كما يزعمه المتشددون فى هذا الباب كابن عبد السلام ومن قال بقوله من أتباعه لم تحصل الإجابة من الله لهم ، ولا سكت النبى – صلى الله عليه وسلم – عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم .

وإنى أرجوك أن تمعن النظر فى جعله ابن عبد السلام متشدداً مع قوله بجواز التوسل به – صلى الله عليه وسلم – ، غاية الأمر أنه قصر ذلك عليه :

ثم قال الشوكانى : وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى)(١) ونحو قوله تعالى : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا)(٢) . ونحو قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ)(٣) ليس بوارد ، بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبى عنه فإن قولهم . (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) مصرح بأنهم عبدوهم لذلك .

(١) سورة الزمر ، الآية ٣

(٢) سورة الجن ، الآية ١٨

(٣) سورة الرعد ، الآية ١٤

والمتوسل بالعالم مثلا لم يعبده ، بل علم أنه له مزية عند الله بحمله العلم ، فتوسل به لذلك وكذلك قوله تعالى : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) فإنه نهى عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول : يا الله يافلان ، والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله ، وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح ، عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم . وكذلك قوله : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) الآية فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذى يستجيب لهم ، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه .

فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع .

إلى أن قال :

والمتوسل بنبى من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله فى أمر . ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبياً أو غير نبى فهو فى ضلال مبين . وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)(١) . (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)(٢) فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أمر الله شئ ،

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٢٨

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٨

وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فكيف يملك لغيره ؟ وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء والأولياء أو العلماء .

وقد جعل الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – المقام المحمود ، مقام الشفاعة العظمى ، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه وقال له : « سل تعط واشفع تشفع » .

إلى أن قال : وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله – صلى الله عليه وسلم – لما نزل قوله تعالى : (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)[1] : « يَا فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً . يَافُلاَنَةُ بِنْتُ فُلاَنٍ لاَأَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً » فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه – صلى الله عليه وسلم – لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره ، ولا ضر من أراد الله نفعه ، وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلا عن غيرهم شيئاً من الله تعالى . وهذا معلوم لكل مسلم ، وليس فيه ألا يتوسل به إلى الله ، فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر وإنما أراد الطالب أن يقدم بين يدى طلبه ما يكون سبباً للإجابة ممن هو المتفرد بالعطاء والمنع .

هذا كلام علمائهم الذين يقدمونهم على علماء المذاهب الأربعة ، على أن لهم مع هذا شذوذاً لا نوافقهم عليه فى كثير من المواضع ، ولكن أتباعهم الذين لم يتذوقوا العلم إلا منهم ، ولم يتشدقوا بما يشبه الحق إلا بفضل كتبهم التى لا يستقون الدين والهدى إلا منها ،

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٤

وليس وراءها لديهم علم ولا دين ، يجب عليهم ألا يخالفوهم فى ورد ولا صدر ، وأن يكون كلامهم حجة عليهم كما كان الحجة لهم .

ويكفى هذا اليوم . وسنذكر من الأدلة الصحيحة الصريحة ما يدل على أن النبى – صلى الله عليه وسلم – يجوز التوسل به قبل وجوده ، وبعد وجوده فى الدنيا ، وفى البرزخ ، وفى عرصات القيامة . وقد وعدناهم فى كلمتنا الأولى بذكر الأدلة وتمام التفصيل ولكنهم قوم لا يفقهون .

وكثيراً ما تراهم إذا أرادوا أن يردوا علينا . أو على غيرنا قرروا مذهبهم ، – ونحن أعرف به منهم – متخيلين أن الأدلة يرد عليها بالدعاوى غير المبرهنة . وحيث عجزوا عن الاستدلال فلنتبرع نحن بإقامة الأدلة على فساد كل دعاويهم – حتى دعوى التفرقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية – وإن كان عجز المدعى عن إثباتها كافياً فى سقوطها ، فلينتظروا .

التوسل (١)

إنه لا بأس أن نتوسل بالنبى – صلى الله عليه وسلم – ونستغيث به فى حياته وبعد مماته ، لأن التوسل إنما هو بمنزلته عند الله ، وهى ثابتة له فى الدنيا والآخرة ، والمطلوب منه هو الله تعالى ، على أنا لو طلبنا من النبى أن يتشفع لنا عنده تعالى لصح عقلا ونقلا ، فإنه يمكنه وهو فى البرزخ أن يسأل الله لنا كما كان يسأله فى حياته .

وقد قلنا : إن الأرواح بعد الموت باقية فاهمة مدركة ، بل نقلنا عن إمامهم ابن القيم أن للروح بعد مفارقة الجسد أعمالاً تعملها « فى هذا العالم » لم يكن يمكنها أن تعملها حال اتصالها بالبدن ، إلى آخر ما نقلنا عنه .

وهو معقول جدا ، فإن الأرواح لم تستمد قوتها من الأشباح حتى تذهب قواها وخصائصها بمفارقتها ، بل الأشباح هى التى تستمد حياتها وأفاعيلها من الأرواح ، فما هذا الاشتباه الذى أدى إلى قلب الحقائق ومصادمة المعقول والمنقول .

على أن تخصيص الجواز بالحى دون الميت أقرب إلى إيقاع الناس فى الشرك ، فإنه يوهم أن للحى فعلا يستقل به دون الميت ، فأين هذا من قولنا : إن الفعل فى الحقيقة لله لا للحى ولا للميت ؟ ! ومن أمعن

(١) مجلة الأزهر – العدد الثانى – المجلد الثانى – صفر سنة ١٣٥٠

النظر فى كلامهم لم يفهم منه إلا مذهب المعتزلة فى الأحياء ، ومذهب الذين يئسوا من أصحاب القبور فى الأموات .

وعلى كل حال فالغفلة عن الفاعل الحقيقى ، وتخيل أن الفاعل غيره أظهر فى الأحياء منه فى الأموات . وقد نقلنا لك كلام « الشوكانى » – وهو من أئمتهم – أيضاً – فى التوسل ورده على « العز بن عبد السلام » فى تخصيصه جواز ذلك بالنبى – صلى الله عليه وسلم – وقال : إنه لا فرق بينه وبين غيره .

ولنقل كما قال على سبيل التنزل عسى أن ينقطع النزاع بيننا وبينهم : لماذا لا تجعلون التوسل بالولى أو النبى توسلاً بعمله الصالح ، فإنك تتوسل بالولى من حيث هو ولى مقرب إلى الله تعالى ، وما تقرب إليه إلا بما أحبه من صالح الأعمال ، وسؤال الله بالأعمال الصالحة مجمع على جوازه منا ومنكم ؟ ! وستسمعون أكثر من هذا . ولنذكر لكم اليوم عبارة ابن قدامة وهو من كبار الحنابلة الذين أنتم على مذهبهم ، وقد قال فيه ابن تيمية : « إنه لم يدخل الشام بعد الأوزاعى أفضل منه » فلعله يحرك منكم الإنصاف أو يذكركم بمذهبكم إن كان لكم مذهب كما تدعون .

نريد أن نحاكمكم إلى العقل تارة ، وإلى ما قاله « الشوكانى » « وابن القيم » وأئمة الحنابلة تارة أخرى .

وليت شعرى هل يفيد شىء من هذا ! « بكلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا » وقد قال الله فى حق قوم أُشْرِبُوا فى قلوبهم التعصب والعناد : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً)[1] وسر ذلك كما بين الله أنهم كانوا يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وأى تكبر أعظم من تكبر من يحتقر جميع المسلمين ، ويعتقد أن لا ناجى غيره ! ولكنا نكتب لغير جهلة الوهابيين كى نقيه من عدواهم ، وللمنصفين منهم كى يرجعوا إلى الحق إذا تبين .

أما عبارة ابن قدامة الحنبلى فى (مغنيه) الذى هو من أجل كتب الحنابلة أو أجلها على الإطلاق فهاك نصها : قال فى صفة زيارته — صلى الله عليه وسلم — فى الصفحة ٥٩٠ من الجزء الثالث : تأتى القبر فتولى ظهرك القبلة ، وتستقبل وسطه وتقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا نبى الله وخيرته من خلقه ، إلى أن قال : اللهم أجز عنا نبينا أفضل ما جازيت به أحداً من النبيين والمرسلين ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه به الأولون والآخرون » ، إلى أن قال : « اللهم إنك قلت وقولك الحق : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيمًا)[2] وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبى مستشفعاً بك إلى ربى .

فانظر إلى استشفاعه به وهو فى قبره الذى يحرمه الوهابيون « الحنابلة » ! وأظن أنهم لا يجرءون على التفرقة بين الاستشفاع والتوسل ، وإن كنا لا نستبعد منهم ما يعقل وما لا يعقل ، كما نعتقد

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦
(٢) سورة النساء ، الآية ٦٤

أنهم لا يفهمون إلا ما يفهمه الناس من أن الزائر يستغفر والرسول يستغفر أيضاً وهو فى البرزخ ، وإلا فلا معنى لإيراد هذه الآية .

ولا بُعد فى استغفاره — صلى الله عليه وسلم — بعد موته ، فقد ورد فى الحديث الصحيح « تُعْرَضُ عَلَىَّ أَعْمَالُكُمْ — أى بعد الموت — فإِنْ وَجَدْتُ خَيْراً حَمَدْتُ اللهَ وَإِنْ وَجَدْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ » وقد أطال المناوى وغيره فى تصحيح هذا الحديث ، فأنت تراه أثبت الاستغفار لنا بعد وفاته بنص الحديث .

وفى شرح المقنع المطبوع مع المغنى على نفقة جلالة الملك ابن سعود وبتصحيح الأستاذ السيد رشيد رضا فى الصفحة (٤٩٥) مثله حرفا بحرف ، وفيه زيادة على ذلك ما نصه : روى الدار قطنى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَجَّ فَزَارَ قَبْرِى بَعد وَفَاتِى فَكَأَنَّمَا زَارَنِى فِى حَيَاتِى » وفى رواية : « مَنْ زَارَ قَبْرِى وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِى » ا هـ . والدار قطنى من أعظم المحدثين تحرياً وأكثرهم تشدداً فى الحديث ، ولكنه وافق على حديث الزيارة كغيره من الحفاظ النقاد كما بينه السبكى فى « شفاء السقام » بما لا مزيد عليه .

فهذا كلام الحنابلة الأول المتبعين لمذهب الإمام أحمد ، المتمسكين بسنة النبى — صلى الله عليه وسلم — ومحبته كسائر علماء المذاهب .

ولنذكر لك بعد ذلك ما وعدنا به من أدلة التوسل من السنة الصحيحة فنقول : (شيءٌ من أدلة التوسل) :

جواز التوسل وحسنه معلوم لكل ذى دين ، وكأنه مركوز فى الفطر الإنسانية أن يتوسل إلى الله بأنبيائه وأصفيائه والمقربين لديه ، ولذلك يذهب الناس يوم القيامة للأنبياء كى يشفعوا لهم لمنزلتهم عنده ، وإن كان الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، وأتباع كل نبى كانوا يتوسلون إلى الله بذلك النبى .

وقد ثبت التوسل به – صلى الله عليه وسلم – قبل وجوده وبعد وجوده فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ وبعد البعث فى عرصات القيامة . أما التوسل به قبل وجوده فيدل له ما أخرجه الحاكم وصححه ، ولم يتعقبه الذهبى فى كتابه الذى تعقب به الحاكم فى مستدركه .

وقد صح عن مالك – أيضاً على ماروواه القاضى عياض فى (الشفاء) – أن آدم لما اقترف الخطيئة توسل إلى الله بمحمد – صلى الله عليه وسلم – فقال له : من أين عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ فقال وجدت اسمه مكتوبا بجنب اسمك فعلمت أنه أحب الخلق إليك ، فقال الله : إنه لأحب الخلق إلىّ وإذ توسلت به فقد غفرت لك .

وقال مالك للمنصور وقد سأله : يا أبا عبد الله أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل النبى – صلى الله عليه وسلم – ؟ فقال له الإمام مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك إلى الله ووسيلة أبيك آدم . يشير

إلى ذلك الحديث . وقال المفسرون فى قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) (١) : إن قريظة والنضير كانوا إذا حاربوا مشركى العرب استنصروا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان فينتصرون عليهم ، وهو مروى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما ، فأنت تراهم سألوا الله به قبل وجوده .

أما التوسل به بعد وجوده فى حياته فلا أظن أن أحداً يمارى فيه ، فقد كانوا يذهبون إليه فى كل شدة : إذا أجدبوا ، أو نزلوا منزلا فلم يجدوا به ماءً ، وعند ما يمسهم ضر أو كرب ، مما لا يسعنا الإفاضة فيه الآن ، وإن أنكره منكر ملأنا له الدنيا أدلة وبراهين ، وإن سموا بعضه استغاثة فلا ضرر فإنه يثبت المطلوب بالطريق الأولى ويرد عليهم على كل حال ، والنزاع ليس فى ألفاظ وعبارات كما قلنا فى العدد السابق .

ولكن نسوق لك الآن حديثاً صحيحا أخرجه الترمذى وصححه والنسائى والبيهقى والطبرانى بأسانيد صحيحة اعترف بها الحفاظ حتى (الشوكانى) : رووا جميعا عن عثمان بن حنيف – رضى الله عنه – أن رَجُلاً أَعْمَى جَاءَ إِلَى النبى – صلى الله عليه وسلم – وهمْ جُلوسٌ مَعَهُ ، فَشَكَا إِلَيْهِ ذَهابَ بَصَرِهِ فأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ ، فقالَ لَيْسَ لِى قائِدٌ وَقَدْ شَقَّ عَلَىَّ فقْدُ بَصَرِى ، فقالَ لَهُ : « ائْتِ المِيضَأَةَ فتوَضَّأْ ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قلْ : اللَّهمَّ إِني أَتوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا مُحَمَّدُ

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٩

إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى لى اللهم شفعه فى »
وفى رواية « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » قال عثمان بن حنيف : فو الله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيراً كأنه لم يكن به ضر. هذا هو الحديث الصحيح الصريح الذى كان ينبغى أن يقطع النزاع .

ولكن السخيف المتعصب لا يعدم خيالاً فاسداً وكلاماً فارغاً ؛ وقد قال الله تعالى : (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)[1] . فلننتظر حتى يتخيل ، وإنى ألفت نظرك إلى قوله عليه السلام : « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » وإلى ندائه — صلى الله عليه وسلم — وهو غائب عنه ، وهو مما يحرمه الوهابيون أو يجعلونه شركا .

وأما التوسل به بعد وفاته فيمكننا أن نستدل عليه بهذا الحديث ، فإن قوله — صلى الله عليه وسلم — « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » صريح فى جوازه بلاقيد ولا شرط ، ويدل له أيضاً ما رواه الطبرانى والبيهقى والترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف : أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان زمن خلافته فى حاجة له فكان لا يلتفت إليه ، فرجا عثمان بن حنيف أن يكلمه فى شأنه فعلمه الدعاء المذكور فتوضأ وصلى ثم دعا به كما علمه ، ثم جاء إلى باب عثمان فأخذه الخادم وأدخله عليه فأجلسه بجانبه على الطنفسة ثم قضى حاجته وقال له : إذا عرضت لك حاجة فأتنا ، فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف قال له : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر فى حاجتى حتى كلمته

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٤

فيها ، فقال له : والله ما كلمته ولكنى كنت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدخل عليه أعمى ، وذكر الحديث .

هذا وقد توسل — صلى الله عليه — بالأنبياء السابقين بعد موتهم كما فى الحديث الصحيح .

فعن أنس بن مالك — رضى الله تعالى عنه — قال : « لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ أُمُّ عَلِى بْنِ أَبِى طَالِبٍ — رضى الله تعالى عنه — ، وَكَانَتْ قَدْ رَبَّتِ النَّبِىَّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ — صلى الله عليه وسلم — فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهَا ثُمَّ قَالَ : رَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّى بَعْدَ أُمِّى . وَذَكَرَ ثَنَاءَهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ كَفَّنَهَا بِبُرْدَتِهِ وَأَمَرَ بِحَفْرِ قَبْرِهَا ، قَالَ فَلَمَّا بَلَغُوا اللَّحْدَ حَفَرَهُ رَسُولُ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِيَدِهِ وَأَخْرَجَ تُرَابَهُ بِيَدِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ — صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فَاضْطَجَعَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ : « اللهُ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَهُوَ حَىٌّ لَا يَمُوتُ » اغْفِرْ لِأُمِّى فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ وَوَسِّعْ لَهَا مَدْخَلَهَا بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِى فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم بسند صحيح . وروى ابن أبى شيبة عن جابر — رضى الله تعالى عنه — مثل ذلك ، وروى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس — رضى الله تعالى عنه — ، ورواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس — رضى الله تعالى عنه — .

ثم نقول : إنهم كانوا يتبركون بآثاره — صلى الله عليه وسلم — بعد موته ، فقد ثبت أنه كان له — صلى الله عليه وسلم — جبة عند

أسماء بنت أبي بكر كانوا يستشفون بها ، ولا معنى لهذا إلا أنهم كانوا يتوسلون بآثاره إلى الله تعالى فيشفيهم ببركتها .

والتوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد كما يفهمه هؤلاء ، أفتراهم يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به ! وفى الباب شيء كثير لعلنا نذكره بعد .

أما توسل عمر بالعباس حينما استسقى به دون النبي – صلى الله عليه وسلم – فلكون ذلك هو سنة الاستسقاء أولكون العباس من ذوى الحاجة للمطر ، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره – صلى الله عليه وسلم – لفضله أو لقرابته منه عليه السلام ، أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل ، أو ليدلهم على أن التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل ، وإلا فعَلِيٌّ أفضل من العباس وكذا عمر .

على أن البيهقي فى (دلائل النبوة) أخرج ما يأتي ، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن مالك الدارخازن عمر – رضى الله عنه – قال : أَصَابَ النَّاسَ قَحطٌ فِي زَمَانِ عُمَرَ ، فَجَاءَ رَجُلٌ قَبرَ النَّبي – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ : يا رَسُولَ اللهِ اسْتَسْقِ اللهَ لأُمَّتِكَ فإنَّهُمْ قَدْ هلكُوا ، فأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – فى الْمَنَامِ فقال : « ائْتِ عُمَرَ فَأَقْرِئْهُ السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُ أَنَّهُمْ مُسْقَوْنَ وَقُلْ لَهُ : عَلَيْكَ الْكَيْسَ الْكَيْسَ » . فأَتَى الرَّجُلُ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ ، فَبَكَى عُمَرُ – رضى الله عنه – ثُمَّ قَالَ : يَارَبِّ مَا آلُو إلاَّ مَا عَجَزْتُ عَنْهُ .

ومحل الاستشهاد فى هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد موته وإقرار عمر إياه على ذلك .

هذا وأحب أن تتذكر ما قلناه من أن المسؤول هو الله تعالى لا فاعل غيره ولا خالق سواه ، وإنما نسأله بمنزلة حبيبه لديه ومحبته له ، وذلك شيء ثابت لا يتغير فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ومن شك فى منزلته أو قربه – صلى الله عليه وسلم – فقد كفر . على أن قول عمر بمحضر من الصحابة إنا نتوسل إليك بعم نبيك يدل على جواز التوسل بالمنزلة وإلا لم يكن له معنى ، وأى حاجة إليه إذا كان المقصود دعاء العباس ، وهل ذلك من دعاء العباس ؟ !

أما التوسل به فى عرصات القيامة فلا حاجة للإطالة فيه ، فإن أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر ، وفيها : أن الناس يذهبون إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة ، إلى آخر ما هو معروف : « ضاق الكلام بنا من عُظم ما اتسعا » .

الخلاصة :

والخلاصة أنه مما لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم له عند الله قدر علي ، ومرتبة رفيعة ، وجاه عظيم ، فأى مانع شرعى أو عقلى يمنع التوسل به – فضلا عن الأدلة التى تثبته – فى الدنيا والآخرة . ولسنا فى ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين إلا إياه ؟ ! فنحن ندعوه بما أحب أياً كان ، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها ، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه كما فى حديث آدم السابق

وكما فى حديث فاطمة بنت أسد الذى ذكرناه ، وكما فى حديث عثمان بن حنيف المتقدم ، وتارة نسأله بأسمائه الحسنى كما فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « أَسأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ » . أو بصفته أو فعله كما فى قوله فى الحديث الآخر : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ » . وليس مقصورا على تلك الدائرة الضيقة التى يظنها الجاحدون .

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به ، وكذا كل من أحبه من نبى أو ولى ، وهو اضح لدى كل ذى فطرة سليمة ولا يمنع منه عقل ولا نقل ، بل تضافر العقل والنقل على جوازه ، والمسئول فى ذلك كله الله وحده لا شريك له ، لا النبى ، ولا الولى ، ولا الحى ، ولا الميت (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً)(١) .

وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبى - صلى الله عليه وسلم - أولى لأنه أفضل المخلوقات ، والاعمال منها ، والله أعظم حباً له - صلى الله عليه وسلم - من الاعمال وغيرها . وليت شعرى ما المانع من ذلك ، واللفظ لا يفيد شيئاً أكثر من أن للنبى قدراً عند الله ، والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى ، ومن ينكر قدره عند الله فهو كافر كما قلنا .

لو كنا مثلهم نأخذ بالظنة ونتصيد الشبه ونسارع إلى تكفير المسلمين لأمكن أن نقول لهم : إن من لا يعرف قدر النبى أولى

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧٨

بالإشراك ممن عرفه ، ومن استباح دماء المسلمين أقرب إلى الضلال ممن استبرأ لدينه وعرضه .

وبعد ، فمسألة التوسل تدل على عظمة المسئول به ومحبته ، فالسؤال بالنبى إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبته إياه ، وذلك مما لا شك فيه .

على أن التوسل بالأعمال متفق عليه منا ومنهم ، فلماذا لا نقول إن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التى يحبها الله تعالى ، وقد ورد بها حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق ؟

ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث إنهم صالحون فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها كما قلنا فى صدر المقالة .

ولنقتصر اليوم على هذا وموعدنا الأعداد المقبلة إن شاء الله .

التوسل والاستغاثة (١)

(٣)

لا تزال ترد إلينا الرسائل بشأن التوسل طلباً للتوضيح والإسهاب .

وقد ذكر بعض مرسليها أن من الناس من يكفر المتوسلين برسول الله صلى الله عليه وسلم — الذى سنتوسل به جميعاً يوم القيامة على ما نطقت به الأحاديث الصحيحة . ولو قالوا إن فى المسألة تفصيلا أو أن بعض العبارات التى يقولها المتوسلون أو الزائرون ينبغى التحاشى عنها ، وتعليم ما يصح أن يقول فى توسله أو عند زيارته ، لقبلنا منهم ذلك وشكرناهم عليه ، ولكنهم أفرطوا كل الإفراط ، فرأينا أن نفيض القول فى ذلك ، فلعلنا بزيادة التقرير والتكرير نزيل تلك العقيدة التى هى أخطر شيء على الإسلام والمسلمين :

ولنجعل الكلام معهم فى مقامين حتى نفحمهم بالمعقول والمنقول ، فنقول : الكلام معهم من جهة الدليل العقلى وما نضطر إليه من الدليل النقلى :

قبل الخوض فى الموضوع نحب أن نشترط عليهم أن يصبروا صبر المرتاضين بصناعة المنطق ، العارفين بقوانين المناظرة ؛ فلا يخرجوا عن الفرض الذى نفرضه حتى نتم الكلام فيه ، وأن يعرفوا

(١) مجلة الأزهر — العدد الثالث — المجلد الثانى — ربيع الأول سنة ١٣٥٠

موضوع البحث فلا ينتقلوا عنه إلى غيره ، وسنفرض الفروض كلها ثم نبطلها واحداً واحداً :

ولينظروا حتى لا يختلط المعقول بالمنقول ، ولا المنقول بالمعقول ؛ وسنوفى كلاً حقه إن شاء الله ، وعسى ألا يكونوا بعد ذلك ممن يسلم المقدمات ثم ينازع فى النتيجة ، فنقول :

هؤلاء إن كانوا يمنعون التوسل والاستغاثة ويجعلونهما شركاً من حيث إنهما توسل واستغاثة ، فاستغاثة المظلوم بمن يرفع ظلمه إذاً شرك ، واستغاثة الرجل بمن يعينه فى بعض شئونه شرك ، واستغاثة الملك بجيشه لدى الحروب شرك ، واستغاثة الجيش بالملك فيما يصلح أمره شرك ، بل نقول : يلزمهم على هذا الفرض أن طلب المعونة من أرباب الحرف والصنائع التى لا غنى للناس عنها شرك ، وطلب المريض للطبيب شرك ، بل يلزم بناء على تلك الكليات التى تقتضيها الحيثية أن استغاثة الرجل الإسرائيلى بسيدنا موسى عليه السلام وإجابته إياه كما قال تعالى : (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)(١) شرك ، إلى غير ذلك مما لا يقول به عاقل فضلا عن فاضل .

هذا كله إن كانوا يقولون : إنها ممنوعة من حيث إنها استغاثة بغير الله كما فرضنا ، فإن قالوا : إن الاستغاثة والتوسل بالأموات شرك دون الأحياء ، قلنا لهم لا معنى لهذا بعد أن سلمتم أن الاستغاثة بغير الله من الأحياء ليست بشرك ، وبعد ما ورد به القرآن ووقع عليه الإجماع فى كل زمان ومكان ، ولا معنى لأن يكون طلب الفعل

(١) سورة القصص ، الآية ١٥

من غير الله شركاً تارة وغير شرك تارة أخرى ، فإن فيه نسبة الفعل لغير الله على كل حال .

وإن قالوا : إننا لا نعتقد التأثير الذاتى من الأحياء الذين نطلب منهم المعونة ، قلنا لهم : يجب إذاً أن تجعلوا مناط المنع هو اعتقاد التأثير الذاتى لغير الله تعالى لا فرق بين الأحياء والأموات ، فإن وجد ذلك الاعتقاد كان شركاً وإلا فلا ، سواء كانت الدعوة لحى أو ميت ، وإن كان مناط المنع هو تلك السببية الظاهرة التى نفهمها من ظواهر الألفاظ ، وجب أن يكون ذلك كله شركا ، حتى طلب الرجل من أخيه أن يعينه فى الحمل على دابته ، أو بناء داره ، أو حفر نهره ، إلى غير ذلك كما أوضحنا فى الفرض الأول .

فإن قالوا : إننا ننسب تلك الأفعال والتأثيرات إلى غير الله — تعالى — من الأحياء معتقدين أن الخلق والإيجاد ليس إلا لله — تعالى — وأن الحى ليس له إلا الكسب لا غير ، قلنا لهم كذلك من يطلب من الأموات أو يتوسل بهم ، والقرينة فيهما واحدة وهو إيمانه بأن الله بيده ملكوت السموات والأرض وإليه يرجع الامر كله ، وأن ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه لا خالق غيره ، ولا موجد سواه ، وإن كان سر المنع عندهم هو : أن الميت لا يقدر على شىء مما طلب منه .

فنقول لهم :

أولا — لا يلزم من ذلك أن يكون الطلب شركاً بل عبثاً فقط ، والاستغاثة بالأحياء أقرب إلى الشرك منها بالأموات ، لأنها أقرب

إلى اعتقاد تأثيرهم فى الإعطاء والمنع بمقتضى الحس والمشاهدة لولا نور الإيمان وساطع البرهان .

ثانياً — ثم نقول لهم : ما معنى قولكم : إن الميت لا يقدر على شىء ، وما سره وباطنه عندكم ؟ إن كان ذلك لكونكم تعتقدون أن الميت صار تراباً ، فما أضلكم فى دينكم ، وما أجهلكم بما ورد عن نبيكم ، بل عن ربكم من ثبوت حياة الأرواح ، وبقائها بعد مفارقة الأجسام ، ومناداة النبى — صلى الله عليه وسلم — لها يوم بدر بقوله : « يا عَمرُو بنَ هِشَام وَيَا عُتبَةُ بنَ رَبِيعَة وَيَا فُلاَن ابن فلان إنَّا وَجَدنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا » فقيل له : ما ذلك؟ فقال : « مَاأَنتُم بِأَسمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهم » ومن ذلك تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله : « السَّلاَمُ عَلَيكم يَاأَهْلَ الدِّيَارِ » . ومن ذلك عذاب القبر ونعيمه ، وإثبات المجىء والذهاب إلى الأرواح ، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التى جاء بها الإسلام وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثاً .

ولنقتصر هنا على هذا السؤال :

أيعتقدون أن الشهداء أحياء عند ربهم كما نطق القرآن بذلك أم لا ؟ فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهم ، لانهم كذبوا القرآن حيث يقول : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)(١) . (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩

وإن اعتقدوا ذلك فنقول لهم : إن الأنبياء وكثيرا من صالحى المسلمين الذين ليسوا بشهداء كأكابر الصحابة أفضل من الشهداء بلا شك ولا مرية ، فإذا ثبتت الحياة للشهداء فثبوتها لمن هو أفضل منهم أولى .

على أن حياة الأنبياء مصرح بها فى الأحاديث الصحيحة ، وقد رأى-صلى الله عليه وسلم-موسى-عليه السلام - يصلى فوق الكثيب الأحمر ، وراجعه مرارا عندما فرضت الصلاة خمسين فى كل يوم وليلة حتى صارت خمسا ، كما قابل آدم وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء - عليهم السلام - ، فهذا كله يثبت حياة الأرواح وأنه لا شك فيها .

فإذا نقول : حيث ثبتت حياة الأرواح بالأدلة القطعية التى قدمنا بعضها فلا يسعنا بعد ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها ، فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم كما أن نفى اللازم يوجب نفى الملزوم كما هو معروف .

وأى مانع عقلا من الاستغاثة بها والاستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة فى قضاء حوائجه ، أو كما يستعين الرجل بالرجل « وأنت بالروح لا بالجسم إنسان » .

وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى مماسة ولا آلة ، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا فإنها من عالم آخر (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)[1] وماذا يفهمون من تصرف الملائكة أو الجن فى هذا العالم ؟

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ولا شك أن الأرواح لها من الإطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها ، وتغيث من يستغيث بها ، كالأحياء سواءً بسواءٍ ، بل أشد وأعظم . وقد ذكرنا لك فيما سبق عن ابن القيم أن الأرواح القوية كروح أبى بكر وعمر ربما هزمت جيشا ، إلى آخر ما ذكرناه . فإن كانوا لا يعرفون إلا المحسوسات ولا يعترفون إلا بالمشاهدات فما أجدرهم أن يسموا طبيعيين لا مؤمنين .

على أننا نتنزل معهم ونسلم لهم أن الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئا ، ولكن نقول لهم : إذا فرضنا ذلك وسلمناه جدلًا فلنا أن نقرر : أنه ليست مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح فى هذا العالم على نحو ما قدمنا ، بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم بالدعاء لهم ، كما يدعو الرجل الصالح لغيره ، فيكون من دعاء الفاضل للمفضول ، أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه ، وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون ، بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد لزوال الحجب الترابية وعدم منازعات الشهوات البشرية .

وقد جاء فى الحديث : أن أعمالنا تعرض عليه - صلى الله عليه وسلم - فإن وجد خيرا حمد الله وإن وجد غير ذلك إستغفر لنا . ولنا أن نقول إن المستغاث به والمطلوب منه الاغاثة هو الله - تعالى - ، ولكن السائل يسأل متوسلًا إلى الله بالنبى أو الولى فى أنه يقضى حاجته ، فالفاعل هو الله ، ولكن أراد السائل أن يسأله - تعالى - ببعض المقربين لديه الأكرمين عليه ، فكأنه يقول : أنا من محبيه « أو محسوبيه »

فارحمني لأجله . وسيرحم الله كثيرا من الناس يوم القيامة لأجل النبي – صلى الله عليه وسلم – وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء .

وبالجملة فإكرام الله لبعض أحباب نبيه لأجل نبيه بل بعض العباد لبعض أمر معروف غير مجهول ، ومن ذلك الذين يصلون على الميت ويطلبون من الله أن يكرمه ويعفو عنه لأجلهم بقولهم : وقد جئناك شفعاء فشفعنا فيه .

والمقصود من ذلك كله إثبات أن الله يرحم بعض العباد ببعض ، على أن توجه الإنسان إلى النبي أو الولي والتجاءه إليه تحس به روح النبي والولي تمام الإحساس ، وهو كريم ذو وجاهة عند الله – تعالى – ، كما قال تعالى في بعض أصفيائه : (وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا)[1] وكما قال في بعض آخر : (وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)[2] فتعتني تلك الروح بذلك الملتجيء أشد الاعتناء في تسديده وتأييده ، والدعاء له هي والملائكة الذين يجلونها ويحبون مسرتها ورضاها ،

والأنبياء والأولياء محبوبون للملائكة بشاهد قوله – صلى الله عليه وسلم – : « إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فلانا فَأَحِبُّوهُ » إلى آخر الحديث ، وأن الملائكة لتقول للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)[3] كما نص على ذلك القرآن الشريف .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦٩
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٤٥
(٣) سورة فصلت ، الآية ٣١

وذلك سر التوجه إلى الأولياء وزياراتهم ، لتتنبه أرواحهم لحال الزائر ، وتلتفت إلى معونته بما أعطاهم الله تعالى من الخصائص ؛ كما تنفع أخاك بما أعطاك الله من قوة أو وجاهة أو مكانة أو ثروة أو أعوان أو أنصار إلى آخره ، وإن الإنسان هو هو في الدنيا والآخرة ، من حيث روحه التي هي باقية في العالمين جميعا . وليس الإنسان إنسانا إلا بها كما شرحنا ؛ والأمر جلي « ولكنها الاهواء عمت فأعمت » .

ولنرجيء تتميم المقام الثاني ، فربما طال الكلام فيه لعدد آخر – إن شاء الله .

والخلاصة :

أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى . والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها ؛ فإنه إن اعتقد الإيجاد لغير الله كفر ، على خلاف للمعتزلة في خلق الأفعال ، وإن اعتقد التسبب والاكتساب لم يكفر .

وأنت تعلم أن غاية ما يعتقد الناس في الأموات ، هو أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء ، لا أنهم خالقون موجدون كالإله ، إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء وهم لا يعتقدون في الأحياء إلا الكسب والتسبب . فإذا كان هناك غلط فليكن في اعتقاد التسبب والاكتساب ، لأن هذا هو غاية ما يعتقده المؤمن في المخلوق كما قلنا ، وإلا لم يكن مؤمنا ، والغلط في ذلك ليس كفرا ، ولا شركا .

ولا نزال نكرر على مسامعك أنه لا يعقل أن يعتقد في الميت أكثر مما يعتقد في الحي ، فيثبت الأفعال للحي على سبيل التسبب ويثبتها

للميت على سبيل التأثير الذاتى والإيجاد الحقيقى ، فإنه لا شك أن هذا مما لا يعقل .

فغاية أمر هذا المستغيث بالميت — بعد كل تنزل — أن يكون كمن يطلب العون من المقعد غير عالم أنه مقعد ، ومن يستطيع أن يقول إن ذلك شرك ؟ على أن التسبب مقدور للميت وفى إمكانه أن يكتسبه كالحى بالدعاء لنا ، فإن الأرواح تدعو لأقاربهم كما فى الحديث الشريف إذا بلغهم عنهم ما يسوءهم ، فيقولون : « اللَّهمَّ رَاجِعْ بِهِمْ أَوْ لَا تُمِتْهُمْ حَتَّى تَهْدِيَهُمْ » .

بل الأرواح يمكنها المعاونة بنفسها كالأحياء ، ويمكنها أن تلهمك وترشدك كالملائكة ، إلى غير ذلك على ما شرحناه ، وكثيراً ما انتفع الناس برؤيا الأرواح فى المنام . ولعلنا نعود إليه .

تعليق(١)

على بعض ما جاء فى مقال الأستاذ الشيخ الجبالى

نقلا عن بعض العلماء الغلاة

قال فضيلته عن ذلك العالم : « بدأ الكلام معى فى العتب على فضيلة الأستاذ المحقق الشيخ يوسف الدجوى فيما نسبه إلى الغلاة من تفكيرهم بالتوسل والاستغاثة بالموتى ، فقد زعمهم الأستاذ يسوون بين الاستغاثة والتوسل فى الإنكار ، وليس الأمر كذلك عندهم ، فهم وإن لم يموّلوا بالتوسل لا ينكرونه ، إنكارهم للاستغاثة ولا يكفرون به ، إنما المنكر فى نظرهم أشد الإنكار هو الاستغاثة بالموتى .

ولقد كان من حق الأستاذ أن يفحص كلامهم ويتثبت مما يقولون قبل أن ينسب إليهم ما نسب .

ونحن نقول أولا : إننا كتبنا ما كتبنا إجابة عن سؤال يقول سائله : إنه اشتد النزاع فى التوسل برسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إن بعضهم كفّر من يتوسل به — عليه السلام — .

وثانياً نقول لذلك العالم المغالى : يكفينا منكم تكفير المسلمين بالاستغاثة على ما يفهم من كلامك السابق .

(١) مجلة الأزهر — الجزء الرابع — المجلد الثانى — ربيع الآخر سنة ١٣٥٠

التوسل والاستغاثة[1]

(٤)

س : هل جاء فى السنة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — علم الناس أن يسألوا الصالحين من الأموات ويطلبوا منهم الدعاء ؟[2] أرجو أن تذكر ولو حديثاً واحداً .

الجواب : ونحن نقلب عليه السؤال أولا — فنقول : هل جاء فى السنة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — نهى الناس عن أن يسألوا الصالحين ويطلبوا منهم الدعاء ؟ أرجو أن تذكر لنا شيئاً من ذلك ولو حديثاً واحدا .

ثم نقول له ثانياً : إن جواز الأشياء لا يتوقف على ورود الأمر بها بل على عدم النهى عنها كما هو مقرر فى علم الأصول : (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ)[3] إلى آخره ، فكل ما لم يرد فيه نص بالحظر فهو مباح على ما تقتضيه الآية ، وعلمنا — صلى الله عليه وسلم — فى السنة الصحيحة : أن ما أمرنا به فعلناه ولم نتركه ، وما نهى عنه اجتنبناه ولم نفعله ، وما سكت عنه فهو عفو ، فهذه هى قواعد العلم الذى يعرفه العلماء .

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء الخامس — المجلد الثانى — جمادى الأولى سنة ١٣٥٠

(٢) جاءنا خطاب مطول بإمضاء (مسلم بمكة) أطال فيه صاحبه وأعاد وأبدى وأكثر وكرر ، ظناً منه أنه أتى بالقواصم . وقد ألح فى طلب الإجابة حتى قال فى آخره : (يا فضيلة الشيخ أرجوك وأناشدك الله الذى لا إله إلا هو إلا ما حققت هذا الموضوع وأنصفت فيه) ونحن نلخص ما جاء فيه من الأسئلة معرضين عما فيها من غمز مشوب بأدب وتعريض نسامحه فيه فنقول وبالله التوفيق :

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٤٥

وأما شبهة الموت فهى شبهة واهية لأنكم بين أمرين : إما أن تنكروا إدراك الأموات وعلمهم ودعاءهم وسماعهم ، وإما أن تقروا بذلك ، فإن أنكرتموه ملأنا لكم الدنيا أدلة وبراهين على ثبوت ذلك لهم مثل : دعاء آدم وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء — عليهم السلام — لنبينا — صلى الله عليه وسلم — ليلة المعراج كما فى حديث البخارى ومسلم وغيرهما ، وكما فى حديث « تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ فَإِنْ رَأَيْتُ خَيْرًا حَمِدْتُ اللهَ وَإِنْ وَجَدْتُ غَيْرَ ذٰلِكَ اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ » وكما فى حديث عرض أعمال الأحياء على الأموات ودعائهم لهم ، وقد ذكره ابن تيمية نفسه فى فتاويه ، واعترف به ابن القيم كل الاعتراف وقرره أتم التقرير .

ومن محاسن المصادفات فى هذا ما يقرره الأوربيون الآن مما يوافق ذلك ، وقد قرره قبلهم بعشرات القرون الفلاسفة الأقدمون مثل أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، فالمسألة متفق عليها بين علماء الدين وعلماء الدنيا ، أو نقول : بين المسلمين وغير المسلمين ، أو نقول : بين أهل الأثر والنقل ، وبين أهل الفلسفة والعقل .

أما إذا اعترف الوهابيون بأن للأموات إدراكاً وعلماً وسماعاً ، وأنهم يدعون ويردون السلام إلى غير ذلك كما ورد فى السنة ، ثم منعوا طلب ذلك منهم كانوا متناقضين ، أو نقول : كانوا ممن يسلم بالمقدمات وينازع فى النتيجة ، أو ممن يقطع اللوازم عن ملزوماتها . وهو مما لا يقول به عاقل فضلا عن فاضل .

على أننا ذكرنا فى ذلك ما يقطع الشغب من أصله ، والمراء من أسه ، وذلك هو الحديث الصحيح الذى رويناه عن عثمان بن حنيف فى التوسل به فى حياته — صلى الله عليه وسلم — وبعد مماته ، وقد قال فيه :

« يَا مُحَمَّدُ اشْفَعْلِى عِنْدَ رَبِّكَ . ولا معنى للشفاعة إلا الدعاء الذى يكون منه — صلى الله عليه وسلم — ، وفى الحديث الصحيح « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » وفى حديث آخر «بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ » .

فالتوسل بالصالحين والدعاء ثابت وواقع ، وقد قلنا فى بعض ما كتبناه : لا معنى لكون هذا شريكاً كما يقوله الغلاة ، فإن الحى إذا طلب من الميت الذى هو حى بروحه ، متمتع بلوازم الحياة وخصائصها فإنما يطلب منه على سبيل التسبب والاكتساب ، لا على سبيل الخلق والإيجاد ، لأنه ليس من المعقول أن يرفعه عن رتبة الحى ، وهو إذا طلب من الحى فإنما يطلب منه على هذا الوجه لا على جهة الخلق والإيجاد ، والطلب من المخلوق على سبيل التسبب ليس شركاً ولا كفراً ، فلا معنى لتكفير المسلمين بذلك ، ولو فرضنا أن الميت لا عمل له ، فإن خطأ المنادى أو المستغيث على هذا الفرض إنما هو فى اعتقاد السببية لا الإلٰهية ، واعتقاد السببية فى غير الله ليس هو اعتقاد الإلٰهية كما يظنه الجاهلون ، وقد عرفت مما قدمناه أنه ليس غالطاً أيضاً ، وإنما الغالطون هم الغلاة ، وإن كان التوسل بمنزلته عند الله فالأمر واضح ، لأن الموت لا يغير المنزلة عند الله تعالى .

س : هل الرسول — صلى الله عليه وسلم — أهمل نوعاً من لتوسل إلى الله تعالى ، أو ترك شيئاً مما يقرب إلى الله تعالى ؟ .

ج : لم يهمل الرسول — صلى الله عليه وسلم — شيئاً مما يقرب إلى الله ، ولا ترك نوعاً من أنواع التوسل ، وقد علمنا التوسل فى حديث عثمان بن حنيف المتقدم ، بل توسل هو بحقه وحق الأنبياء قبله ، وعرفنا أن آدم — عليه السلام — توسل به قبل وجوده ، وقد بين ذلك كله فى الأعداد السابقة .

وبعد فماذا عسى أن يدل ذلك للسائل ، فلو فرضنا أن الرسول لم يتوسل بالصالحين لأمكن أن يقال إن مقامه أرفع من كل مقام ، على أنه — صلى الله عليه وسلم — كان عريقاً فى العبودية ، وكان أعلم خلق الله بإطلاق الربوبية وسعتها ، وبأن الكل عبيدها ، وتحت قهرها ، وليس هناك إلا فضلها الواسع ، وكرمها الشامل ، وأنه لابد من ظهور ذل العبودية على كل أحد ، وذلك من تعظيم الربوبية .

ويعلم — صلى الله عليه وسلم — أن عبيد السيد المطلق لهم منازل عنده ، وأن لكل منهم مزية لديه ، وأن المقتضى لعطائه — تعالى — إنما هو العبودية له عز وجل ، فلا بد أن يكون بينهم ارتباط العبيد وتبادل المنافع ، وعلى هذا قام بناء الكون .

كان — صلى الله عليه وسلم — أعرف الناس بذلك كله : فطلب الدعاء من عمر وابن عمر من رسول الله ، وأمر عمر أن يطلب الدعاء من أويس القرنى ، وأين أويس من عمر ، وسأل الله — تعالى — بحق الأنبياء قبله كما فى حديث فاطمة بنت أسد ، وأمرنا أن نتوسل به إذا عرضت لنا حاجة إلى الله ، فقال لذلك الأعمى : « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » وقد فعلها الرجل الذى كان يتردد على عثمان بن عفان فى خلافته ، وقد بينا ذلك أتم البيان .

على أننا نريد منكم أن لا تكفروا المسلمين بمثل هذا العمل الذى لا شيء فيه ، ونكتفى منكم أن تقولوا إنه مباح أو خلاف الأولى

أو مكروه « إذا أردتم » ولو قلتم ذلك لاحتملناه منكم ، وإن كان غير صحيح ، ولكن قومك يا حضرة السائل الذى يظن أنه منصف وغير متعصب يعملون على خلاف ذلك .

س : هل ثبت ما يروى عنه – صلى الله عليه وسلم – : « مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللهِ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ » ؟ وإذا كان ثابتاً فهل الطلب من الأموات أن يدعوا للأحياء مما قاله الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمر به وفعله أم لا ؟ .

ج : نعم ثبت أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال ذلك ، ودعاء الأموات داخل فى دعاء الأخ لأخيه الذى لا يمكنكم أن تمنعوه ، وقد عرفتنا السنة الصحيحة أنه لا فرق بين الحى والميت فى ذلك ، وأن الميت يدعو كما يدعو الحى على ما سبق ، فإن الموت ليس فناء أو عدماً كما يظنه الجاهلون ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار :

لا تظنوا الموت موتاً إنه ... لحياة وهو غايات المنى
لا ترعكم هجمة الموت فما ... هو إلا نقلة من ها هنا

ولا نزال نكرر أنه قد دعا آدم عليه السلام – وغيره من الأنبياء لنبينا – صلى الله عليه وسلم – وأن النبى يدعو لأمته فى البرزخ ، بل آباؤنا يدعون لنا على ما عرفت وتعرف ، على أننا نكتفى منكم أن تقولوا إنه مباح لا قربة ، أو على الأقل لا تكفروا به مسلمين وقد قلنا فى ما كتبناه فى العدد الثالث من هذه السنة : أنه لا وجه لذلك ولو قلنا : إن الميت لا يمكنه أن يدعو ولا أن يفعل شيئاً ، فإن الغلط

على هذا الفرض يكون غلطاً فى اعتقاد التسبب لا الإلهية ، ولا نزال نكرر أن معتقد السببية فى المخلوقات لا وجه لتكفيره ولا معنى له ، فإن من يجعل غير السبب سبباً يكون جاهلا لا كافراً ، ويكفى هذا .

س : هل بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما أمر به من الوسيلة فى آية المائدة عملا بقوله تعالى : (يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)[1] الآية أم لا ؟

ج : نعم بين لنا – صلى الله عليه وسلم – كل ما نحتاج إليه ، على أن الوسيلة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، والقرآن عربى نزل بلغة العرب ولا وجه لقصركم إياها على نوع خاص فإنه قول بلا دليل ، على أنه لا داعى لذلك كله فقد ثبت التوسل مصرحاً به فى حديث عثمان بن حنيف وغيره مما قدمناه ، وقد جاء فى آخر الحديث المذكور « فَإِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ » وقد عمل به فى زمن عثمان بن عفان كما بيناه فيما سبق من الأعداد .

س : هل يلزم من عدم دعاء الأموات ومخاطبتهم بغير المشروع إنكار كرامتهم ؟ وإذا قلتم بالتلازم فبينوا لنا وجهه بالبرهان ، واذكروا لنا من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين من قال بجواز هذا النوع من التوسل ؟

ج : نعم من كان مثلكم ينكر التوسل والاستغاثة يجب أن ينكر كرامات الأموات ، فإنه إذا لم يصح أن نتوسل إلى الله بالميت ولا يمكنه

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧

هو أن يدعو لنا ولا تستطيع روحه أن تفعل شيئًا كما هو اعتقادكم ، فأى كرامة تكون له بعد ذلك ؟ وما معنى إثباتكم إياها وقد نفيتم عنه كل عمل وكل قدرة ، ومنعتم أن نتوسل به لله تعالى ليفعل لنا ما نريد لأجله ؟ فأى شيء يبقى بعد ذلك .

وأما طلبكم منا ذكر من جوز ذلك من التابعين أو الأئمة المتبوعين فنحن نقول : إن الأمة كلها قبل ظهور ابن تيمية على هذا الجواز ، ونتحداكم فنقلب السؤال عليكم فنقول : هل يمكنكم أن تذكروا لنا من التابعين أو الأئمة المتبوعين من منع ذلك النوع من التوسل ؟

أليست المذاهب كلها مجمعة على توسل الزائرين للحجرة النبوية به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ وقد ذكرنا لكم نص الحنابلة فى ذلك وكذلك جميع الأئمة ، ولا نرى لكم سلفًا فيما تقولون بل جميع العلماء يصرحون بأن ذلك مطلوب من كل زائر لا جائز فقط ، فهذا هو الإجماع ، وقد مر من الأدلة العقلية والنقلية ما يكفى ويشفى . ثم نقول لكم : ألم يعترف ابن القيم بأن الروح القوية لها من الأعمال بعد الموت ـ ما لا تستطيعه حالة الحياة ، وقد وصل الأمر إلى أئمتكم أنفسهم ؟ .

فأنتم فى إثبات كرامات الأولياء وغيرها متناقضون تارة مع الهوى وتارة مع الحق ، ويرحم الله من قال : المبطل لا بد أن يتناقض شاء أم أبى .

وأما تضليلنا إياكم فإنما هو لتكفير المسلمين ، واستباحة دمائهم وأموالهم ، إلى آخر ما كان يفعله الخوارج ، وكان ينقمه عليهم

الإمام علىّ ومن معه من الصحابة ، ولو قلتم : إن الأولى أن يرجع الناس فى كل أمورهم إلى الله ـ تعالى ـ بلا واسطة ، أو قلتم : إن هناك مقامًا تسقط فيه الأسباب والوسائط كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لجبريل عليه السلام ـ : « أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا » عندما قال له : « أَلَكَ حَاجَةٌ » ؟ .

لو قلتم ذلك وسلكتم هذا المسلك لم ننكر عليكم ولم نشتد فى مناقشتكم ولو كان لكم رأى فى المسألة غير التكفير لقلنا : مجتهدون ظنوا ظنًا وإلى الله أمرهم ، وكم مجتهد أخطأ ، ولكن أولئك الذين أخطأوا لم يقدسوا أنفسهم هذا التقديس ، ولم يحملوا الناس على مذاهبهم بالسيف ، لأنهم يجوزون أن يكون الحق فى جانب غيرهم ، ويعلمون ما جاء عن الرسول : أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ، وأن من رمى أخاه بالكفر فقد كفر أو كاد .

ولم يرض الإمام مالك من الخليفة المنصور العباسى أن يحمل الناس على الموطأ وهو هو عند مالك ، ولا من الرشيد أيضًا أن يلزم الناس بما فيه احترامًا للأمة وعلمائها واتهامًا لنفسه ، شأن أئمة الهدى وورثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والجاهل لا يعرف غير تعظيم نفسه ، والعالم لا يعرف غير تعظيم ربه ، ومن تعظيم الله تعظيم من عظم الله ، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

ثم قال السائل : لا يمكننا أن نسيغ توجه المسلم العارف بربه الانس بذكره إلى عبد من عباده انتقل من عالم إلى آخر ، لا يعلم اله فيه إلا الله ، يسأله ويخاطبه بعد أن كان متلذذًا بخطاب الله تعالى ومناجاته ، ولا يخفى عليكم حديث أم العلاء من صحيح البخارى ،

وفيه أنها شهدت لمهاجر – وهو أبو السائب – توفى عندها فقالت : أما شهادتى فيك لقد أكرمك الله ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال لها : وما يدريك أن الله أكرمه [1] إلى غير ذلك من الأحاديث من أمثاله .

وكلها تدل على أن الأموات قد أفضوا إلى ما قدموا ، وأنه لا يجوز لنا أن نحكم لأحد حكمًا جازمًا بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا ما ورد النص بأنهم من أهل الجنة أو من أهل النار كما ورد فى أهل بدر وبعض الصحابة كعكاشة بن محصن .

ونحن نقول : إن حضرة السائل أدمج فى هذا الكلام الخطابى أشياء لا نتركها له بل نناقشه الحساب فيها ، أما التمويه بذكر توجه المسلم إلى ربه وتلذذه بذكره فهو لذيذ فى الأسماع يكاد يأخذ بمجامع النفوس ، ولكن هذا مقام تحقيق علمى لا ينفع فيه التمويه ولا تفيد فيه الخطابة ، وقد قلنا فيما سبق : لو كان رأى الوهابين أن هذا هو مقام الكمال لم نتعرض له ، ولكنهم بدّعوا وفسّقوا وكفّروا ، – إلى آخره .

---

(١) هذا نص الحديث الذى أشار إليه :
عن أم العلاء امرأة من الأنصار رضى الله عنها – وهى ممن بايع النبى – صلى الله عليه وسلم – قالت : إنه اقتسم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه فى أبياتنا فوجع وجعه الذى توفى فيه فلما توفى وغسل وكفن فى أثوابه ، دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال النبى – صلى الله عليه وسلم : ومايدريك أن الله أكرمه ؟ قالت بأبى أنت يارسول الله فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إنى لأرجو له الخير ، والله ماأدرى وأنا رسول الله مايفعل بى ؟ قالت فوالله لا أزكى أحدا بعده أبدا .

فأين هذا مما يقوله السائل ، فإن كان يريد أن الاشتغال بذكر الله ومناجاته أولى ، فليس الخلاف بيننا وبينه فى الأولوية ، ولكن الناس درجات بعضها فوق بعض ، ولا حرج على من يلتفت للأسباب والوسائط عالمًا أن الله هو الأول والآخر ، فهو ممد كل شىء والمفيض على كل شىء ، وإليه يرجع الأمر كله ، ولا بين من ترك الأسباب ثقة بالمسبب فكان هذا غريقًا فى قدرته كما كان ذاك ناظرًا إلى حكمته ، عاملا بسنته ، فلا حرج على هذا ولا ذاك وإن صح أن نقول : إن بعضهم أفضل من بعض .

وهل ما ذكره السائل من حديث التلذذ والأنس الذى قطعه خطاب الأموات صحيح أم هو تمويه وخيال ؟ ولماذا لا يقول مثل ذلك فى الطلب من الأحياء ؟ أليس الأنس بالله ومناجاته خيرًا من الطلب من الأحياء أيضًا « ولو كان وزيرًا أو أميرًا » أم التفضيل الذى ذكره لا يتحقق إلا بين الطلب من الله والطلب من الأموات ؟ .

وقد أدمج فى كلامه ما يلهج به كثير من الجهلة من أن الميت لا ندرى حاله ولا ما مات عليه ، وهو سوء ظن كبير بالمسلمين بل بالله تعالى ، فنلفت نظر السائل : إلى أن من عاش على شىء مات عليه كما فى الحديث الشريف ، فهذه هى سنة الله الغالبة ، وما عدا ذلك فشاذ لا يقاس عليه لحكمة يعلمها هو .

ثم نقول : إن الأمور فى هذا العالم مبنية على الظن ، حتى الأمور الشرعية والأحكام الفقهية ، وعلى هذا يجب أن نعامل أمواتنا فنغسلهم ونكفنهم وندفنهم فى مقابر المسلمين ، ونورث أموالهم إلى غير ذلك ،

ولسنا على اليقين الذى يريده السائل من أمرهم « ولكن ذلك اليقين لم يشترطه أحد » .

فعلينا أن نعد من عاش فى حياته على خير وصلاح من أهل الخير والصلاح بعد موته ، ولا يجوز لنا غير ذلك اتباعاً لتلك الوساوس التى ما أنزل الله بها من سلطان .

وليت شعرى هل إذا رمينا أحدهم بأن أباه لا ندرى حاله أمسلم هو أم كافر أفيغضب أم لا ؟ أو هل يريد أن لا نعمل شيئاً إلا بناءً على جزم ويقين ؟ إذاً يختل أمر هذا الوجود وتبطل أحكامه .

أما حديث عثمان بن مظعون الذى أشار إليه السائل فالمراد منه : أنه ينبغى الخوف من سعة التصرف الإلٰهى ، وأن مرتبة العبودية لا تتخطى مقام الرجاء والضراعة ، وأم العلاء قد قطعت على الله أنه مكرمه على سبيل الجزم فاخرجت ذلك مخرج الشهادة ، وأظن أنها لو شهدت له بالدين والصلاح لتغير جواب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد قال فى آخر الحديث : « وإنى لأرجو له الخير » .

فهل يفرق السائل بين رجاء الخير وظن الخير ؟ ولماذا لا يذكر لنا ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوا عَلَيهَا خيرا فَقَالَ النَّبِىُّ — صلى الله عليه وسلم — : « وَجَبَتْ » . ثمَّ مروا بِأُخْرَى فَأَثْنَوا عَلَيهَا شرًّا فَقَالَ : « وَجَبَتْ » . فَقَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ : مَا وَجَبَتْ ؟ فَقَالَ : هَذَا أَثْنَيتُم عَلَيهِ خَيرا فَوَجَبَتْ لهُ الجَنَّة ، وَهَذَا أَثْنَيتُم عَلَيهِ شرًّا فوجَبَت لهُ النَّارُ ، أَنْتُم

شُهَدَاءُ فِي الْأَرضِ » . أو ما أخرجه عن عمر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أَيُّمَا مُسلِمٍ شَهِدَ لهُ أَربَعَةٌ بِخَيرٍ أَدخلهُ اللهُ الْجَنَّة » فقلْنَا وَثَلَاثة ؟ قال : وَثَلَاثَةٌ ، فقلْنَا وَاثْنَان ، قال : واثْنَانِ ، ثمَّ لم نسأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ » . أو ما أخرجه البخارى أيضاً من قوله — صلى الله عليه وسلم — فى شهداء أحد : « أَنا شهِيدٌ عَلى هَؤُلَاءِ » .

ثم نقول للغلاة جميعاً : لماذا لا تذكرون أو لا تعملون — ولا نقول لا تصدقون — بما أخرجه البخارى أيضاً من قوله — صلى الله عليه وسلم — : « واللهِ مَا أَخْشى عَليكم الشِّرك وَلَكِن أَخْشى أَنْ تبسُط عَليكم الدُّنْيَا فتَنَافَسُوهَا » إلى آخره ، بل سارعتم إلى القول بالشرك الذى لا يخافه — صلى الله عليه وسلم — على أمته فأوسعتموهم ذبحاً وقتلا معتقدين أنهم مشركون خارجون عن الملة ، وكأن السائل قد أحس بذلك كله فقال : « على سبيل الجزم » .

ونحن نقول له : يكفينا الظن ، وحسن الظن بالمسلمين مطلوب خصوصاً الصالحين ، وأما الجزم الذى تريده فلم يشترطه أحد كما قلنا .

ثم قال السائل : وإن من المجازفة أن نزيد على حسن الظن فيمن لم يرد لهم شهادة من المعصوم ، ونحن نقول له : إن من المجازفة أن تسىء الظن بمن لم يرد فيهم نص عن المعصوم ، خصوصاً من ظهرت عليه علامات الخير وأمارات الصلاح ، أو ظهرت له كرامات فى حياته وبعد مماته ، وتجويز أن يكون قد تغير حاله هو من سوء الظن بالمسلمين بل بالله تعالى ، كما أنه عقوق للآباء والأجداد ، وما معنى الزيادة التى زدتها حضرتك ! وليس ذلك كله إلا أثراً لحسن الظن ومبنياً عليه .

ثم قال السائل : وكم أكون مسرورا جدا إذا عثرت لنا على نص صريح فى هذا النوع من الوسيلة .

وأقول : ذكرنا من الأدلة العقلية والنقلية الشيء الكثير ، وقد كان يكفيه حديث واحد على ما يقول ، وقد قلنا : إن من يثبت الحياة والإدراك والعلم للأرواح ، والقربة والمنزلة للصالحين ، ثم يمنع التوسل والاستغاثة بهم متناقض غاية التناقض قاطع للملزوم عن لوازمه ، وقد ذكرنا إجماع الأئمة على التوسل به — صلى الله عليه وسلم — عند زيارته ، ولو لم يكن فى الموضوع إلا حديث عثمان بن حنيف لكان كافياً شافياً .

وعلى الجملة فقد أجمعت الشرائع كلها ، والفلاسفة الأقدمون ، والفلاسفة العصريون ، أو نقول : المسلمون والأوروبيون والأمريكيون والهندوس على إثبات الحياة ولوازمها للأرواح ، وعلى أن لها من الإطلاق وسعة التصرف ما لم يكن لها حال حياتها فى هذا العالم ، وهو عين ما قرره ابن القيم أحد أئمتهم فى (كتاب الأرواح) . أسأل الله أن يزيل عنا حجاب المادة وكثافة الطبيعة وظلمة الأشباح بمنه وكرمه .

تنزيه الله عن المكان والجهة (١)

بقية الكلام على سؤال الأستاذ محمود على المدرس بمدرسة المنتزه :

قال حضرته ما ملخصه : إن الله فى السماء بمعنى جهة العلو ، ويدل لذلك آيات كثيرة وأحاديث عديدة ، ثم ساق من الآيات مثل قوله تعالى :

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ)(٢) وقوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(٣) (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)(٤) (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)(٥) (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)(٦) إلى غير ذلك .

ومن الأحاديث مثل قوله — صلى الله عليه وسلم — : « إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ » إلخ . . .

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء الرابع — المجلد الثانى — ربيع الآخر سنة ١٣٥٠
(٢) سورة الملك ، الآية ١٦
(٣) سورة طه ، الآية ٥
(٤) سورة فاطر ، الآية ١٠
(٥) سورة النحل ، الآية ٥٠
(٦) سورة النساء ، الآية ١٥٨

ونحن نقول له : ما كان ينبغي أن تذكر هذه الآيات المتشابهة « مجتمعة » وكذلك أحاديث الصفات ، فإن هذا يلبس على الناس ويدع فى نفوسهم أثراً سيئاً عند ما تمتلىء من تلك الظواهر التى لم تذكر فى الكتاب والسنة إلا فى مقامات معدودة ، وربما احتف بها من القرائن ما يوجب صرفها عن ظاهرها ، كما فى قوله — صلى الله عليه وسلم — فيمن ذكر أنهم يكونون على يمين الرحمن ، معرّفا إيانا أنه يجب تنزيهه عما يعطيه ظاهر لفظ اليمين فقال « وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ » .

ولا يكاد يذكر ذلك فى « مقام واحد » على نحو ما تفعلون قصداً للتأثير فى الناس والتلبيس عليهم ، خصوصاً من لا علم له بما ذكره أهل البيان من الاستعارات والمجازات والكنايات ، ولا ارتاض بصناعة المنطق ، ولا زاول العلوم العقلية ، ولا تعمق فى براهين العقائد ، ولا عرف ما قاله العلماءُ فى ذلك ، وقد قال تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)[١] .

ولابد أن تكون قد عرفت أن السلف فى آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه ، وأن الخلف يؤولون خوفاً من التشبيه ، فكلهم متفقون على التنزيه ، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعينون المعنى المراد فيقولون مثلاً فى قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) : المراد باليد القدرة ، والسلف يفوضون

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧

بعد التنزيه فيقولون : إننا ننزهه تعالى عن الجارحة ولا نعين شيئاً خاصاً من المعانى التنزيهية كما يفعل علماء الخلف[١] .

أما أولئك المتفيهقون الذين يعينون ويشبهون فهم مجسمون مشبهون يبرأ منهم السلف والخلف جميعاً ، فهم كراميون[٢] لا سلفيون ولا خلفيون .

وليت شعرى أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر : فيثبتون له تعالى يداً بمقتضى قوله : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[٣] أم يدين بمقتضى قوله — صلى الله عليه وسلم — : « كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ » أم أيديا عديدة بمقتضى قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)[٤] أو عيناً بمقتضى قوله : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)[٥] أم أعيناً بمقتضى قوله :

(تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)[٦] إلى غير ذلك ، وهو كثير جداً ألف فيه ابن الجوزى وغيره ، أو يقولون : إن الله فى السماء بمقتضى (أَأَمِنْتُمْ

(١) قال الوزير العالم العادل يحيى بن هبيرة : تفكرت فى أخبار الصفات فرأيت الصحابة والتابعين سكتوا عن تفسيرها مع قوة علمهم . فنظرت السبب فى سكوتهم فاذا هو قوة الهيبة للموصوف ، ولأن تفسيرها لا يتأتى إلا بضرب الأمثال لله ، وقد قال عز وجل (ولا تضربوا لله الأمثال) . وقال الوزير أيضاً تأويل الصفات أقرب إلى الحق من إثباتها على وجه التشبيه ، فإن ذلك كفر وهذا بدعة .

(٢) أى منسوبون لمحمد بن كرام ، وهو من رؤساء المشبهة .

(٣) سورة الفتح ، الآية ١٠

(٤) سورة يس ، الآية ٧١

(٥) سورة طه ، الآية ٣٩

(٦) سورة القمر ، الآية ١٤

مَنْ فِى السَّمَاءِ) أم على العرش بمقتضى قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) أم فى الآفاق بمقتضى قوله : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)(١) أم فى أماكننا وأحيازنا بمقتضى قوله :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)(٢) أم يثبتون له أصابع بمقتضى قوله — صلى الله عليه وسلم — : « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » أم يثبتون له يميناً فى الأرض من حجر بمقتضى قوله — صلى الله عليه وسلم — : « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِى الْأَرْضِ » !

وبعد هذا فأى لون يثبتون له وأى طول وأى عرض يصفونه به إلخ . إلخ ؟ ! .

ويرحم الله الإمام الغزالى حيث يقول : « من أخذ علمه من العبارات والألفاظ ضل ضلالاً بعيداً ، ومن رجع إلى العقل استقام أمره وصلح دينه » .

ولست أدرى كيف يخوضون فى هذا وهم لم يعرفوا حقيقة أرواحهم التى يحيون بها ! فكيف يعرضون للكلام فيمن ليس كمثله شىء :

« سبوح قدوس رب الملائكة والروح » وقد أقام كل ذرة من ذرات الكون دليلا على وجوده ، حتى أصبحت معرفته بآثاره من أجلى

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٥
(٢) سورة الحديد ، الآية ٤

الواضحات وأظهر الظاهرات ، ولنقل ما قال فيلسوف الإسلام ابن سينا فى بعض مؤلفاته :

الحمد لله بقدر الله   لا قدر وسع العبد ذى التناهى
الحمد لله الذى من أنكره   فإنما أنكر ما تصوره
الحمد لله الذى برهانه   أن ليس شأن ليس فيه شأنه

أما معرفة حقيقته والوقوف على كنهه فهو من أول المحالات ، فإنه ليس بيننا وبينه مشاكلة ولا مناسبة ، فكيف يمكن أن تحيط به العقول ، وهى لا تحيط إلا بما شاركها فى نوع أو جنس أو فصل مما هو حادث مثلها ! فهو بكل شىء محيط ، ولا يحيطون به علما .

وإنما غاية ما نعلم منه وجوده وتنزيهه عن صفات المحدثات ، وقد علمنا فى أول ما علمنا تلك القضية العقلية مع برهانها الواضح فقلنا : تجب مخالفته تعالى للحوادث ، لأنه لو ماثلها لكان حادثا مثلها لكن التالى باطل فبطل المقدم .

والإلهية يجب أن تكون أكبر من أن تخضع لسلطان عقل قاصر هو من صنعتها ، وقد عجز عن إدراك نفسه ، وعن حقيقة ما يقع تحت حسه ، فيكفيه أن تدهشه تلك الآيات الباهرات وما أبدعه فى الأرض والسموات ، أما ما وراء ذلك فليس من علمه ولا يليق بمرتبته ولا بمرتبة الإلهية .

قال الجاحظ فى بعض كتبه : « إياك وأن تظن أن العلم بوجود الشىء يستلزم العلم بحقيقته ، أو الجهل بحقيقته يستلزم الجهل

بوجوده ، فإنه إذا ضربك أحد فى ليل مظلم علمت وجوده لا محالة وإن لم تعرف شخصه » .

تـــاه الأنام بسكرهـــــم … فلذاك صاحـــى القوم عربد
تالله لا موسى الكليــــــ … ـــم ولا المسيح ولا محمد
كلا ولا جبريل وهـــــ … ـــو إلى محل القدس يصعد
علموا ولا النفس البسيــــ … ـــطة لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنـــ … ـــك أوحدى الذات سرمد
من أنت يا أر طـــو ومن … أفلاط[1] قبلك قد تفرد ؟!
ما أنتمو إلا الفـــــرا … ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفســـــه … ولو اهتدى رشداً لأبعـــد

وإنى لأعجب كل العجب والله ممن يجعله على العرش ! فأين كان قبل أن يحدث العرش ، وهل العرش غير محتاج إلى من يحمله ، أم هو محتاج إلى من يحمله ؟ ! وكذا حامله أيضاً ، حتى تصل إلى حامل غير محمول كما يقتضيه البرهان ، وهل يقولون : إن الله محتاج إلى العرش ، والعرش غير محتاج إليه ، أم كلاهما محتاج لصاحبه ، أم ماذا يقولون ؟ ! وهل العرش أكبر منه تعالى أم مساو له ،أم هو عز وجل يزيد عليه !

(١) هو أرسطاليس واضع المنطق ، وأفلاط هو أفلاطون أحد فلاسفة اليونان وهو أستاذ أرسطو ، وقد تصرف الشاعر هذا التصرف لأنهما أعجميان ، وهم لا يبالون بالأسماء الأعجمية كما قالوا : عجمى فالعب به .

وليت شعرى بعد ذلك من أى العناصر هو ، وكيف تركيبه إلخ . إلخ . . .

ومتى ثبت له بعض لوازم الجسم ثبت له جميعها ، وقد بالغ الإمام الرازى فى الرد على القائلين بذلك ، وله فيه كتاب سماه « أساس التقديس » .

ولننقل لك شيئاً مما قاله علماء الاسلام فى التنزيه ، ونبدأ بعبارة الرازى :

كلام العلماء فى التنزيه

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) : فى الاستواء عند الخلق تأويلات : أولها أنه كناية عن تمام الملك ، كما يقال جلس فلان على عرش المملكة وإن لم يكن هناك عرش ولا جلوس ، فيكون مثل قوله تعالى حكاية عن اليهود : (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ)[1] كناية عن البخل . ثم قال : إن من ملك بلدا صغيرا لا يحسن أن يقال فيه : جلس على العرش ، وإنما يحسن ذلك فيمن ملك البلاد الشاسعة والأقطار الواسعة .

ومما قاله . إن العرش يطلق على الملك ، وعلى السرير الذى يجلس عليه الملك ، ووزيره أمامه على الكرسى ، فالعرش والكرسى فى العادة لا يكونان إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض فى غاية العظمة عبر بما ينبىء فى العرف عن العظمة . ثم قال : ونظير

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٤

هذا أنك تقول للمقهور المغلوب : ضاقت به الأرض . أتظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له ؟ وكيف يتصور الجسم بلا مكان ! فكما يقال : الهارب لم يبق له مكان ، مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر : هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له . ومن التأويل : أن استوى بمعنى استولى ، كما هو فى كتب اللغة كديوان الأدب وغيره كقوله :

قد استوى بشر على العراق … من غير سيف ودم مهراق

كأنه قال : خلق السموات والأرض ثم ههنا ما هو أعظم منه (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) فإنه أعظم من الكرسى ، والكرسى وسع السموات والأرض .

إلى أن قال ما محصله : إنه لا يجوز أن نفهم من هذا الكلام إثبات المكان له تعالى ، حتى ولو قيل إنه استقر على العرش ، فإن فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل : استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه فى مكان ، وإذا قال قائل : استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان ، فقول القائل : الله استقر على العرش ، لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان ، فجواز كونه فى مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشىء على نفسه ، وهو محال .

ثم قال : كيف يكون محتاجاً إلى العرش وهو الغنى عما سواه ! وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهة العقل

حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه فى استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره ، وهو غنى بالنص .

إلى أن قال : اعلم أن كلمة «على» تستعمل لكون حكمه على الغير ، كما يقول القائل : لولا فلان على فلان لأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال : لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه ما حصل له شىء ، فكيف لا تقول فى (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) إنه استوى عليه بحكمه ، كما نقول هو معنا بعلمه ! كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان ! وذلك لأن كلمة (ثم) للتراخى ، فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه ، فقبله إما أن يكون فى مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان : أحدهما كون المكان أزلياً ، والثانى جواز الحركة والانتقال على الله تعالى ، وهو يفضى إلى حدوث البارىء ، أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن فى مكان كان هناك محل آخر ، وهو أن ماحصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لم يكن ، فهو القول بحدوث الله تعالى ، وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الأزل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان ، فلا يتم دليل حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه .

ألا يعلم ذلك الجاهل أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ! فإن كل محتاج إذا نظر إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم . ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالى – رضى الله عنه – فى حديث النزول المتقدم : ما أسهل على العالم إرشاد الجاهل ! بأن يقول : إن كان المراد من النزول إلى سماء الدنيا أن يسمعنا فما أسمعنا ، فلا فائدة فى النزول ، فلابد أن يكون المراد بالمنزول شيئا آخر له محصل : كنزول الرحمة أو نحو ذلك ، وقد تكلمنا على التأويل وما قال العلماء فيه فى عدد سابق .

وقال إمام الحرمين : إن الله خلق العرش من ذرة ، وهو بالنسبة إلى قدرته أقل من ذرة ، فكيف يكون مستقره ! .

وقال ذو النون المصرى – رضى الله عنه – وقد سئل عن التوحيد : التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنيعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ، ولا فى الأرضين السفلى ، مدبر غير الله تعالى ؛ وكل ما تصور فى وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك .

وقال أبو الحسين الثورى – رضى الله عنه – وقد سئل عن القرب من الله تعالى فقال : أما القرب بالذات فتعالى الملك الحق عنه ، وأنه متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فهذا قرب محال ، وقرب

هو فى نعته واجب ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الرحمة واللطف .

وقال يحيي الرازى – رضى الله عنه – وقد قيل له : أخبرنا عن الله تعالى فقال : إنه واحد ، فقيل كيف هو ؟ فقال : ملك قادر ، فقيل أين هو ؟ فقال بالمرصاد . فقال السائل : لم أسألك عن هذا ، فقال : ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق ، فأما صفته فما أخبرت عنه .

وقال جعفر الصادق – رضى الله عنه – : من زعم أن الله سبحانه فى شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك بالله ، إذ لو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان فى شيء لكان محصورا ، ولو كان من شيء لكان محدثا ، تعالى الله عن ذلك .

وقال بعض العلماء لتلميذ له يمتحنه : لو قال لك أحد أين معبودك فأى شيء تقول ؟ قال كنت أقول : حيث لم يزل ، قال فإن قال : فأين كان فى الأزل فأى شيء تقول ؟ قال أقول : حيث هو الآن ولا مكان فهو الآن على ما عليه كان ، قال التلميذ فارتضى الشيخ ذلك .

وقال السُّهْرَوَرْدِى من كلام طويل : جل الله عما يهجس به الوسواس ، وعظم عما تكتنفه الحواس ، وكبر عما يحكم به القياس ، لا يصوره خيال ، ولا يشاكله مثال ، ولا يعتريه زوال ، ولا يشوبه انتقال ، لا يلحقه فكر ، ولا يحصره ذكر ، لا تحد أزليته بمتى ، ولا تقيد أبديته بحتى ، إن قلت أين فقد سبق المكان ، وإن قلت متى فقد تقدم الأزمان ، وإن قلت كيف فقد جاوز الأشياء والأمثال

والأقران ، وإن طلبت الدليل فقد غلب الخبر العيان ، وإن رمت البيان فذرات الكائنات بيان وبرهان ، عرفنا المكان بتعريفه إيانا ، ولو شاء كوننا ولم نعرف زماناً ولا مكاناً ، وكوننا فى المكان ولو شاء كوننا ولا مكان ، فعوالم قدرته غير محصورة ، وغرائب مشيئته غير منكورة ، وما نحن فيه من العالم بما نحن فيه من العقل والعلم عالم من عوالمه ، ولا يستبعد قولى : « ولو شاء كوننا فى غير مكان » فقد كون المكان لا فى مكان ، إذ لو كان فى مكان لتسلسل ، فمن يكون المكان والمكون فيه ، والزمان والمقدر فيه ، عالماً من عوالمه ، ويسيراً من مبدعات قدرته ، كيف يحصره الزمان والمكان ! فما أحقرك وأحقر علمك ! فلو فتحت عين بصيرتك ، استحييت من قياسك ، وفكرك ، ووهمك ، وخيالك . أيها المحدود المحصور ! لا ينتج فكرك إلا محدوداً محصوراً ، وأيها المحيط به الجهات ! لا يحكم علمك إلا على الجهات ! ، فالجهات من جملة العالم ، وقد علمت نسبته إلى عظمة الله ، فتبارك الله رب العالمين .

والخلاصة أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها ، وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ، ولا نقطع بتعيين تأويل منها ، بل نكل ذلك إلى العليم الخبير ، ولكن لابد من التنزيه على كل حال .

رحم الله امرأً عرف قدره (١)

تعلم رعاك الله أن بعض الناس الذين رق دينهم وغلظ حجابهم يتكلمون فيما نسب إلى الأنبياء مما لم يدروا له تأويلاً ولم يعرفوا له معنى ، فتراهم ينكرون ما جاء فى الدين من الروحانيات وأمور الآخرة ، لأن طبعهم الخبيث لا يقبله ، واستعدادهم الضعيف قاصر عنه .

وكثيرا ما يؤثر ذلك فى قراء الصحف والمجلات ، فنريد أن نحذرهم من تقليد أولئك الجهلاء فى مقالنا هذا ، فعسى أن نرجع ذوى الثرثرة الذين يريدون أن يطيروا بأجسامهم الثقيلة فى جو سماء الأرواح ، إلى خطة الإنصاف ، حتى يعرفوا أن لهم درجة من العلم والاستعداد ، يجب عليهم أن يقفوا عندها ، ويدعوا ما وراء ذلك ولا يخوضوا فيه ، حتى إذا سمعوه عن الأنبياء لم ينكروه ، فيكونون من الذين يؤمنون بالغيب ، وهو نوع من الهداية .

إن التفاوت الذى بين أفراد الإنسان لم يتفق مثله لأفراد نوع آخر ، فليس هناك فرد يساوى ألف فرد أو أكثر من أفراد نوعه غير الإنسان ، وإنه باعتبار أفراده لأرفع الأنواع على الإطلاق ، وأحطها على الإطلاق ، وليس لكل فرد من تلك الأفراد علم إلا عن نفسه ، ولا خبر لديه عن معلومات الفرد الاخر وما هو عليه .

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء السابع – المجلد الثانى – رجب سنة ١٣٥٠

وإن كل إنسان لا يعرف إلا ما يناسب استعداده الخاص ، ولا يمكنه أن يعرف ما يناسب ما فوقه من ضروب الاستعداد ، وما لذلك من الأحكام الخاصة التى تعلو عن درجته ، فذلك عالم آخر بالنسبة إليه محجور عليه دخوله ، بمقتضى استعداده السافل ، حتى إنه لا يكاد يصدق بأوضحها عند أربابها .

وربما كان البعد فيما بين ذلك وبين استعداده شاسعاً ، فلا ينفع فيه البرهان ، ولا يمكنه أن يدركه ، وكان كالذى يكلف أن يرى ما يعد عن متناول بصره ، وقوة نظره ، من المرئيات لغيره ،ولو ذكرت الكهرباء وآثارها للمصرى الساذج منذ مائة سنة لم يصدقك ولو أقمت له على ذلك ألف برهان ، بل ذلك يجده الإنسان من نفسه إذا تأمل فى أحواله وتنقلاته فى أدوار حياته المختلفة ، يعرف أنه كان فى دور السذاجة ينكر ما يعتقد الآن فى دور العلم ، ولا يزال هكذا يترقى فى معرفة الحقائق « يعتقد اليوم ما كان ينكره بالأمس » .

وقد استبانت تلك الحقيقة لأساطين الفلسفة فى أوروبا ، فاعترفوا بأن ما يجهلون أكثر مما يعلمون ، وأن فوق استعدادهم ما لم يصلوا إليه حتى الان ، وقد قال الفيلسوف « سيزار لومبروزو » فى كتاب ألفه فى إثبات الاسيرتزم « استحضار الأرواح » : « لنحذر من ادعاء دقة العقل ، واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ، ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا ، فإن ذلك يوقعنا ولا شك فى الضلال » .

ولو ذكر لأرسطو وأفلاطون وسقراط أن الماء مركب وأن الذهب غير مركب لأنكروا ذلك كل الإنكار .

كما أنك تعد الآن انحصار العناصر فى الأربعة التى يذكرها القدماء الذين يجعلون الماء بسيطاً ، والهواء كذلك ، جهلا عظيما أو خرافة لا تسمع ، فليس من العقل أن نحكم فى كل شىء بالأحكام الجازمة ، بل يلزمنا أن نعتقد أن وراء استعدادنا ما لا يدخل تحت مداركنا .

ولو فرضنا أن حاسة الشم مثلا كانت مفقودة من العالم كله لأنكروا نوع المشمومات بأسرها ، لفقد آلة إدراكها فيهم ، ولعل هناك من الأشياء ما لا يدرك إلا بحاسة سادسة لم تخلق فينا أو فى بعضنا ، فكانت تلك الأشياء عنده داخلة فى عالم العدم لا فى عالم الوجود .

وقد ذكر بعض علماء الحيوان أن للنحل حاسة ليست فينا ، فكل إنسان محصور فى سجن استعداده المحيط به من كل جهاته ، لا يمكنه أن يرفع رأسه إلى ما فوق سقف ذلك السجن ، ولا أن يجاوز بصره ما وراء حيطانه ، وإن كان فى وسط ذلك العالم الفسيح ، والأشياء موجودة فى أنفسها لا يؤثر فيها جهل الجاهلين بها ، وكل يرى منها على قدر بصر عقله ، فليست الأشياء كلها موجودة فى حقك ، أو لست أنت موجوداً إلا فى بعض يسير منها ، وإن كان يخيل لك أنك فى الكون كله .

وبهذا تعلم أن حكم الطبقة الدنيا على الطبقة العليا ، لا يكاد يقرب من محل الصواب إلا بالمصادفة والاتفاق ، أو بالقرب من درجة تلك

الطبقة العالية ، بل إذا رأينا شخصين من طبقة واحدة وقد صدر منهما فعل واحد لم يمكنا أن نحكم عليهما حكماً واحداً ، حتى نعرف مبدأ الفعل وباعثه وغايته التى تراد منه عند كل منهما ، فقد تكون صورة الفعل واحدة وهو حسنة كبرى بالنسبة إلى شخص ، وسيئة عظمى بالنسبة إلى آخر .

ودرجات الأفعال فى ذلك وجزاؤها على ما يقتضيه وزنها الحقيقى لا يتضح فى هذا العالم إلا نوعاً من الإتضاح ، ولا يقوم بالجزاء الحق إلا من علم كنه الأشياء على ما هى عليه فى الواقع ، وليس إلا الله تعالى كما قال : (وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[1] .

ولابد أن تكون قد علمت بعد هذا : أن كل إنسان إنما يحكم حسب ما يريه بصره الضعيف أو القوى « المحدود على كل حال » وأما ما بعد عما يتناوله إدراكه فهو بالنسبة إليه فى عالم العدم ، وإن من الجهل أن يعتقد الإنسان أن كل شىء يدخل تحت علمه ويمكنه أن يصل إليه .

فكما خلقت على حد محدود فى القوة الجثمانية فلا تستطيع أن تنقل الصخر ، ولا أن تحرك الجبل ، ولا أن تسمع من الأصوات أو ترى من المبصرات إلا على مسافة مخصوصة ، ولا يمكنك أن تصل إلى ما وراء ذلك ولو أجهدت سمعك وأتعبت بصرك ، كذلك خلقت

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧

على حد محدود فى عقلك وإدراكك ، فأنت محدود فى جميع أمرك ، مقيد فى استعدادك الباطنى تقييدك فى استعدادك الظاهرى ، وإن كان يمكنك أن تترقى ولكن إلى حد محدود أيضاً . ولكل من الدرجتين علوم تخصها لا يمكنك فى كلتا الحالتين أن تتجاوزها إلى ما وراءها .

وليس ذلك الإطلاق الذى تتخيل ، والقوة غير المحدودة فى كل شىء ، والعلم غير المتناهى إلا لله تعالى ، وتعلم أن من الحكمة بعد ذلك إلزام كل حده ، حتى لا يحكم الصغير العقل ، الضعيف الاستعداد ، القليل المعلومات ، النازل الدرجة على العظيم فى كل ذلك .

وإذا أبينا على السوقى الساذج أن يتكلم فى السياسة ويحكم على قادة الأمم وكبرائها بأحكامه الجائزة التى لا يشك هو فى عدالتها ويخطئهم فى آرائهم التى لا يعرف أسرارها ودخائلها ، فكيف لا نأبى على هؤلاء الزعانف الذين لم يعرفوا من العالم المحسوس إلا ظواهره ، فضلا عن العالم الروحانى الذى لم يشموا له رائحة أن يتكلموا فى الأنبياء والمرسلين ، ويحكموا عليهم بجهلهم حكم من فى الأرض على من فى السماء .

فأمر الدين وما فيه من الأسرار أدق وأغمض من أمر السياسة وأرفع من أن يصل إليه أولئك الجثمانيون ، وبينهم وبين الأنبياء أبعد مما بين الملوك والسوقة ، وأرفع مما بين الفرش والعرش .

وإن العلم أشبه شيء بالبحر ، ومن نزل البحر ولم يحسن السباحة أدركه الغرق لا محالة . وليست كل سفينة تصلح لكل بحر ، ولا ربانها يسير بها مع كل عاصفة .

فعليك أيها الراغب فى سعادتك ، المحتاط لأمر دينك ، الخائف على نفسك أن تنتقى لأمراض قلبك من العلماء ، كما تنتقى لأمراض بدنك من الحكماء ، وأن تحتاط فى تحصيل مزاياك ، كما تحتاط فى اكتساب قضاياك ، فوراء ، ذلك شقاء ما له غاية ، أو سعادة ليس لها نهاية .

تنزيه الله عن المكان والجهة (١)

(٢)

كتبنا تحت هذا العنوان كلمة فى تنزيه الله تعالى عن الجهة فى العدد الرابع من هذه السنة جواباً عن سؤال ورد إلينا ، فجاءنا خطاب مطول من الأستاذ الشيخ عبد الغفار على المسلاوى أحد العلماء بيننا ، يبين فيه مذهب السلف والخلف ويبرأ فيه من التجسيم والتشبيه ، كأننا رميناه بذلك ، أو كأن الكلمة كانت موجهة إليه ، وقد اجتهد ما استطاع فى تبرئة السلف من التشبيه ولم يعلم أنه جهاد فى غير عدو ، ولو التفت قليلا لما كتبناه لأراح نفسه من ذلك العناء ، وأراحنا من العودة إلى الموضوع مره ثانية .

ولنسق لك عيون ما كتبه ، ونعلق عليها بما يعن لنا من الملاحظات :

قال حضرته : إن مذهب السلف — رضى الله عنهم — التصديق بآيات الصفات وما صح من أحاديثها ، وإمرارها على ظاهرها مع نفى التشبيه والتكييف عنها ، فلا يجوز صرفها عن ظاهرها ، لأن فيه تعطيلاً لما جاء فى الكتاب والسنة من صفاته تعالى ، وكذلك لا يجوز تكييفها وتشبيهها بصفات المخلوقين ، لقوله تعالى :

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء التاسع — المجلد الثانى — رمضان سنة ١٣٥٠

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ)[1] وقوله : (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)[2] فضلا عن دلالة العقل وإجماع الأمة على مخالفته تعالى للحوادث .

فكل ما وصف الله تعالى به نفسه من الوجه والعين واليدين والاستواء على العرش ، أو وصفه به رسوله – صلى الله عليه وسلم – كنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، فهو عندهم حق على حقيقته التى تليق به – تعالى – من غير تشبيه ولا تكييف فقوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[3] الصحيح عندهم ما نقله الإمام البخارى فى صحيحه وغيره عن مجاهد من أن معناه : علا أى علواً » بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته ، كما قال مالك الإمام وقد سئل عن كيفية استوائه على العرش : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » فهو سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وإنما هو تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة ، فقوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ)[4] يعنى نفسه ، لا يريد – تعالى وتقدس – أن السماء ظرف له ، وإنما معناه أنه فوقها على العرش بلا تمكن ولا تكييف .

كما أجمعوا على أن له تعالى – يدين وعيناً ووجها بلا تكييف ولا تشبيه ، إلى آخر ما وصف الله – تعالى – به نفسه أو وصفه به رسوله – صلى الله عليه وسلم – .

(١) سورة الشورى ، الآية ١١
(٢) سورة النحل ، الآية ٧٤
(٣) سورة طه ، الآية ٥
(٤) سورة الملك ، الآية ١٦

إلى أن قال : وحديث « لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَسَقَطَ عَلَى اللهِ » قال مخرجه الحافظ أبو عيسى الترمذى فى جامعه لما أخرجه : قال أهل العلم أراد لهبط على علم الله ، وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه . انتهى بلفظه .

إلى أن قال : وقال أبو عيسى الترمذى أيضاً إثر ما روى حديث أبي هريرة « إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا » : روت عائشة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – نحوه ، وقد قال غير واحد من أهل العلم فى هذا وما يشبهه من الصفات ، كنزول الرب : نثبت هذه الروايات فى هذا ونؤمن به ، إلى أن قال : ولم يثبت عنه – صلى الله عليه وسلم – ولا عن أصحابه حرف واحد يفيد صرف هذه الايات والأحاديث عن ظاهرها ، نعم التشبيه غير مراد منها قطعا ، إلى آخر ما قال .

ونحن نقول له : أولا : إن ما كتبناه كان جواباً عن سؤال يقول سائله : إن المراد من قوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ) جهة العلو ، فأثبت الجهة لله تعالى – بصريح العبارة .

وكثير ممن يطالع كتب ابن القيم وابن تيميه لا يكاد يخلص من تلك العقيدة ، فإنه بكثرة ما يوردونه من التلبيسات والتشكيكات وما يموهون من ذكر الآيات تسرى فيه تلك العقيدة من حيث لا يشعر ، ولو فتش عن قلبه تفتيش المتهم لنفسه لوجدها راسخة فيه .

غير أنه ضويق بما يلزم ذلك من الحدوث لجأ إلى كلمات لا محصل لها ، أو هى متناقضة ، ثم اقتنع بذلك واطمأن إليه .

على أننا نقول لحضرة المدافع عن السلف ــ قبل مناقشته فى بعض كلماته ــ : ما الذى هاج أعصابك علينا ؟ وهلا أعدت النظر فيما كتبناه حتى تعرف ما نسبناه إلى السلف الذين تدافع عنهم ، وما نسبناه إلى الخلف الذين توهمت أنهم المعتزلة أو الجهمية ، مع أن ذلك مبين فى كتب التوحيد أتم البيان ؟ وقد قال فى الجوهرة مشيراً إلى المذهبين ، وهى من أصغر كتب التوحيد ، وصاحبها أشعرى صميم :

وكل نص أوهم التشبيها   أوّله أو فوّض ورم تنزيها

ولنذكر لك ما قلناه فى مقالنا المشار إليه علّك تنظر فيه بإنصاف وإمعان ، حتى تعرف أنه لا خلاف بيننا وبينك ، وأنا كنا نرد على السائل الذى أثبت الجهة لله ، لا عليك ولا على السلف. وهاك نص ما قلناه فى العدد الرابع :

« ولابد أن تكون قد عرفت أن السلف فى آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه ، ، وأن الخلف يؤولون خوفاً من التشبيه ، فكلهم متفقون على التنزيه ، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعينون المعنى المراد ، فيقولون مثلاً فى قوله تعالى : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيدِيهِمْ)[1] : المراد باليد القدرة ، والسلف يفوضون بعد التنزيه ، فيقولون : إننا ننزهه ــ تعالى ــ عن الجارحة ولا نعين شيئاً خاصاً من المعانى التنزيهية كما فعل علماء الخلف « فهل ترى فى ذلك نسبة التشبيه إلى السلف حتى تثور ثائرتك » ؟

(١) سورة الفتح ، الآية ١٠.

ثم نقول لك : ما معنى قولك : إن كل ما وصف الله به نفسه من الوجه ، والعين ، واليدين ، والاستواء على العرش ، أو وصفه به رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة فهو عندهم حق على حقيقته التى تليق به ــ تعالى ــ من غير تشبيه ولا تكييف ؟ نريد منكم أن تفهمونا معنى تلك الكلمات التى تسبق إليها ألسنتكم من حيث تشعرون أو لا تشعرون ، فما معنى كون النزول حقاً وعلى حقيقته؟ وهل هناك حقيقة للنزول غير الهبوط من أعلى إلى أسفل؟ لا تعرف العرب حقيقة للنزول غير هذا ، وإن جاز استعماله فى غيره على طريق المجاز .

وكذلك اليد : لا معنى لها على سبيل الحقيقة عندهم إلا الجارحة المخصوصة وإن جاز استعمالها فى غيرها على سبيل المجاز ، وكذا العين وغيرها .

فما معنى كونها عندكم على سبيل الحقيقة ؟ وهل عرفتم لها معنى فى حق الله حتى تحكموا بأنها حقيقة فيه ؟

فإن بينتم لها معنى تنزيهياً لا تشبيه فيه وافقتم الخلف فى هذا ، وكانت حينئذ على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة .

وما معنى قولكم بعد ذلك : بلا تشبيه ولا تكييف ؟ وهل هو إلا قول متهافت لا معنى له بعد أن قررتم أنها ثابتة له على سبيل الحقيقة ؟

ثم نقول : إنك أثبت له فى خطابك يدين وعينين ، فلماذا لم تثبت له أعيناً لا عينين فقط ، مع أنه يقول : (تجرى بأعيننا) ؟[١] ولماذا لم تثبت له أيديًا لا يدين فقط ، فإنه يقول : (خلقنا لهُمْ مِمَّا عَمِلتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكونَ)[٢] ؟ .

ثم تقول فى قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[٣] : الصحيح عندهم ما نقله الإمام البخارى فى صحيحه وغيره من مجاهد من أن معناه : علا أى عُلُوًّا بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته ، كما قال مالك الإمام وقد سئل عن كيفية استوائه على العرش : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » فهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

ونحن نسألك عما فهمته من كلام مجاهد هذا : هل فهمت العلو الحسى كما ينبئ عنه قولك الذى تكرره إنه فوق عرشه ؟ وإذًا تكون قد أثبت له الجهة والحيز لا محالة ، وإذا ثبتت له الجهة ثبتت له الجسمية ، ومتى ثبتت له الجسمية ، ثبتت له لوازمها ، وإن أردت العلو المعنوى وافقتنا ولم تأت بشىء جديد . ولكن قلت : إنك لا تعقل ذلك العلو ، والعلو المعنوى معقول ، فما الذى فهمته وما الذى أثبته ؟ وهل هناك شىء وراء العلو الحسى والعلو المعنوى ، أم هو كلام « كالورد يشم ولا يدعك » ؟

ولماذا لم تقل : إنه فى السماء بلا تمكن ، كما قلت : إنه فوق العرش بلا تمكن ؟ وهل هناك فرق بين الآيتين ؟ وإذا قلتم بفوقية بلا تمكن ،

(١) سورة القمر ، الآية ١٤ (٢) سورة يس ، الآية ٧١ (٣) سورة طه ، الآية ٥

ولا كيف وهى على حقيقتها ، فلماذا لا تقولون : بظرفية بلا تمكن ولا كيف متى كان الغرض التشبث بكلمات من هـذا القبيل تعقل أو لا تعقل ، ثم كنتم تقولون : إن الظرفية بلا كيف لا تنافى الفوقية بلا كيف ؟ .

ثم نقول لك بعد ذلك : ماذا فهمت عبارة الإمام مالك فى قوله : الاستواء معلوم ؟ هل ظننت أن مالكاً يثبت الاستواء المعلوم ؟ « إذًا يكون مشبهاً ومجسماً » لأن الاستواء المعلوم هو الاستقرار المستلزم للجسمية ولوازمها ، فإن كان الاستواء بغير هذا المعنى فهو غير معلوم ، فيجب إذًا أن يكون مراد مالك أنه معلوم الثبوت والورود ، فإنه نطق به القرآن ، لا معلوم الحقيقة والمعنى .

على أن بعض المحققين يطعن فى ثبوت الرواية عن مالك ، وهو الذى أقول به ولا أكاد أعتقد غيره ، فإن جعله الاستواء معلوماً – على ما يفهم منه – اعتراف بأن المجهول هو الكيف فقط ، وقد يستوى الملك على عرشه بكيفيات كثيرة ، فجهل الكيفية لا يكفى فى التنزيه ، بل يثبت التشبيه ، فإن الكيفية حاصلة على كل حال غير أنها مجهولة ، والاستواء الحقيقى لا يعقل بدون كيفية وإن لم تكن معلومة لنا ، ولكن لابد له من كيفية فى الواقع .

هذا . وقد رأيت رواية أخرى فى هذه الواقعة عن عبد الله بن وهب أن مالكاً سئل عن الاستواء فأطرق وأخذته الرحضاء[١] ثم قال : الرحمن

(١) هو العرق الكثير الذى يغسل الجلد لكثرته .

على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع ، إلى آخر ما قال .

ومما يلبسون به على الناس أو على أنفسهم قولهم : إن ذلك كله حق على حقيقته .

فإن كلمة « حق » ها هنا تقع فى النفوس موقع الإيمان والقبول ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن ما ورد فى الآيات غير حق ؟ ولكننا نستفسر منهم عما أرادوا بتلك الكلمة : فإن كان قصدهم أن هذه النصوص لا يمكن ردها فإنها نصوص قرآنية أو سنة صحيحة ، فهو حق ، ولكن ليس محل النزاع ، وإن أرادوا أن معناه الذى يعرفه الناس حق ، فذلك باطل ، ولكنها عادتهم يأتون بالكلام الموجه وبالكلمات المحتملة .

وليت شعرى ، أى شىء أثبتوا لله تعالى إذا كانت اليد فى حقه ليست على ما نعرف ، والاستواء والنزول بالنسبة إليه على غير ما نعهد ، فما الذى أثبتوه له ؟ وهل يمكن التصديق بثبوت شىء لا تفهمه ولا تعقل له معنى ؟ ! كيف وتصور المحمول والموضوع شرط فى التصديق أو شطر منه ، كما هو معروف فى المنطق ؟ وهل بيننا وبينهم خلاف إذا كانوا سلفيين حقاً كما يقولون ؟ فإن الاستواء عندهم وصف كمالى تنزيهى ثابت لله تعالى ، وكذا اليد والعين إلخ ، ونحن نقول بثبوت كل كمال لله تعالى ، فما الذى أثبتوه زائداً على ذلك ؟ !

ونحن نقرر دائماً أن كمالات الله لا تتناهى ، وفى الحديث : « أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ » غاية الأمر أن الخلف يؤولون خوفاً من وقوع القاصرين فى التشبيه ، فما أرادوا إلا النصح لله وكتابه ورسوله والمسلمين .

على أنى أختار مذهب السلف وأدين به ، وقد قلت فى آخر العدد الرابع ما نصه : « والخلاصة : أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ولا نقطع بتعيين تأويل منها ، بل نَكِلُ ذلك إلى العليم الخبير ، ولكن لا بد من التنزيه على كل حال .

أما قول الكاتب : إنه تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة ، فهو من قبيل ما سبقه ، ولست أدرى أيقصد به العلو المعنوى الذى لا يخالف فيه أحد ، أم العلو الحسى الذى يستلزم الجهة ، أم هو شىء لا نعرفه « نحن ولا أنتم » ؟

ومثل ذلك قوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ)[1] يعنى نفسه : لا يريد — تعالى وتقدس — أن السماء ظرف له ، وإنما معناه أنه فوقها على العرش بلا تمكن ولا تكييف، وهل يظن الكاتب أنه بين معناها بقوله : إنه فوق سمائه على عرشه ، ما دامت الفوقية غير معروفة ؟ .

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

ثم نقل صاحب الخطاب بعد ذلك عن الترمذى أنه قال فى حديث « لَوْأَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللهِ » قال الترمذى فى بيان المراد منه : « لهبط على علم الله وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه » ولا أدرى لماذا نقلها وقد كان مقتضى مذهبهم ألا يؤولوا هذا التأويل ، لأنهم يبقون النصوص على ظواهرها ويؤمنون بها على حقيقتها ! ولعله نقلها لقوله فيها : وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه .

وليت شعرى لماذا لم يقولوا : إن الهبوط على حقيقته ولكن بلا تشبيه ولا تكييف ؟ .

ثم قال : قال أبو عيسى الترمذى أيضاً إثر ما روى حديث أبي هريرة « إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا » : روت عائشة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – نحوه ، وقد قال غير واحد من أهل العلم فى هذا أو ما يشبهه من الصفات كنزول الرب : نثبت هذه الروايات فى هذا ونؤمن به . ونحن أيضاً نثبتها ونؤمن بها ، ولكن النزاع ليس فى ثبوتها والإيمان بها ، ومن ذا الذى لا يؤمن بما ورد عن رسول الله ؟ ! ولكننا ممن يجوز إجراء المجازات والكنايات فى أمثال هذه المقامات من غير جزم ولا تحتيم على ما شرحنا .

ثم قال الكاتب : لم يرد عنه – صلى الله عليه وسلم – ولا عن أصحابه حرف واحد يفيد صرف هذه الآيات والأحاديث عن ظاهرها ، نعم التشبيه غير مراد منها قطعاً .

ونحن نقول أيضاً : لم يرد عنه – صلى الله عليه وسلم – ولا عن أصحابه حرف يفيد أنها باقية على حقيقتها كما تقولون ، بل ترك ذلك للعقول وتصرفاتها ، وللنصوص المنزهة الكثيرة ، فضلاً عن البراهين العقلية ، ولما تعرفه العرب من مجازاتها وكناياتها ، ولا أرى قولكم : إن الاستواء على العرش مثلاً باق على حقيقته مع التنزيه وعدم التشبيه إلا متناقضاً ، فكأنكم قلتم إنه مستقر على عرشه ، غير مستقر على عرشه وهل هذا إلا التناقض الصريح ؟ ! والذى لا يفهم للاستواء معنى محصلاً ، لا ينبغى له أن يكثر من ذكر الفوقية والاستواء والعلو ، وإلا فليصارحنا بما يعتقد ، ولا يقل إنه سلفى ، فإن السلفى لا يقول بمعنى معين فى آيات الصفات ، وإنما يفسرها كما وردت ، ولا يتعرض لتخيل معناها ، ولا إطالة القول فيه .

ثم قال الكاتب فى آخر كلامه : لسنا بحمد الله مجسمة ولاحلولية .

وإنى أحمد الله على ذلك ، وما رميت الكاتب بالتجسيم ولا كان كلامى معه ، ولا مع السلف الذين ينتمى إليهم ، ولكن كنت أكتب لمن يثبت لله جهة ، أو يقول وقد نزل من على المنبر : « إن الله ينزل من عرشه إلى سماء الدنيا كنزولى » .

هذا . وكلامنا اليوم –أيضاً– هو مع هذه الطائفة لا مع الكاتب ، وإن كان هو المثير غبارها ، فإنى أسلم ما يقرره من عقيدته وأوافقه عليه ، وما أريد بكل ما أكتب إلا النصح للمسلمين ، والتحذير من نزعات الضالين الجاهلين . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

العالم الذى نوه الدين بذكره
وخطأ الناس فى ذلك (١)

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والأحاديث ، اغترارا بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان ، أو تصنيف فى الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأصول أو نحو ذلك ، جاهلًا أن ما افتخر به من ذلك قد يوجد فى غير المسلمين ؛ وها هى ذى كتب مدارسهم التى ألفها أباؤهم وعلماؤهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المنصف ، وما تسمعه عن مستشرقى أوربا أعجب وأغرب ، فهم شركاؤك فيما علمت ، فلا بد أن يكونوا شركاءك فى خاصة ذلك العلم ، وإلا وجد الشيء بدون خاصته وهو محال .

فإذًا يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا إلى شيء آخر ، وأن تكون هذه العلوم التى ترفّعنا بها على الجهلاء ، وامتلأنا بها عجبا وكبرا وغرورا ، وزالت بها سلامة فطرتنا وطهارة قلوبنا بما أورثتنا من الصفات المهلكة ، ونخشى أن نكون ممن قال الله فيهم : (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)(٢) أشبه شيء بالصنائع التى يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ، ولا يرجع بها الفاسق

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثانى – المجلد الثالث – صفر ١٣٥١ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٤٧

عن فسقه ، ولا يتميز بها عن بنى نوعه ، إلا على قدر ما يتميز العالم بصنعة من الصنائع عن التجاهل بها .

نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمرا وراء ذلك كله ، وهو الذى جعل « العلماء ورثة الأنبياء » وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(١) وكان مجلس واحد من مجالس العالم خيرا من عبادة ستين سنة ، ذلك العلم الذى يبلغ بك تلك الغاية ، ويحلك تلك المنزلة الرفيعة ، ومن أجله احترمك الجهلاء وعظمك الكبراء ، معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ، ووصلت إلى ما لم يصلوا إليه .

والقلوب الإنسانية تحس بشرف العلم الأعلى ومكانة ذويه ، وتجل الروحانيين الربانيين إجلالها للملائكة المقربين ، وتنظر إليهم نظر أهل الأرض لأهل السماء على موجب ذلك الإحساس الذى لا يكاد يخلو منه إنسان فيه روح الإنسانية .

ذلك العلم يجل عن أن يكون هو العلم بأحكام الفاعل والمفعول ، والتصغير والتكسير ، والمسند والمسند إليه ، والحقيقة والمجاز ، وتناقض الموجهات ، وأحكام المختلعات ، وفروع الطلاق ، والبيع والجنايات ، إلى آخر ما اشرأبت به الأعناق ، وعظم فيه السباق ، وتبجحت به النفوس ، وارتفعت به الرءوس .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله – تعالى – وعظمته ، وبديع آياته ، وعظيم أسراره فى خلقه ، مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها ، وتلبيسها وكثرة دسائسها ، وسرعة طيرانها نحو شهواتها ، فتراهم يتهمونها فى كل شيء ، ويعاملونها معاملة العدو المحتال ، باحثين وراءها فى كل ما تشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية ،مجاهدين لها ما عاشوا ، ذائقين لقوله تعالى : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)(١) قائلين : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » . « أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » وجلين من أن يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم .

فكانوا ممن عرفوا نفوسهم فعرفوا ربهم ، فامتثلوا قوله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(٢) فعزلوها عن منصب الرياسة فتخلصوا من غوائلها كلها ، فلم يتحركوا إلا لله ، ولم يسكنوا إلا لله ، ولم ينطقوا إلا لله ، ولم يسكتوا إلا لله ، متحققين أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، فصبروا على بلائه ، وشكروا على نعمائه ، بل رضوا بقضائه ، وسارعوا إلى رضائه ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضى وقدر ، بل سلموا له تسليما ، شأن العبد الصادق فى العبودية مع مولاه ، فرقين أن يندرجوا فى سلك من قال الله فيهم : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ)(٣) سائرين فى الدنيا على قدم الأنبياء ، يتجرعون فى سبيل الحق شدة الأذى ،

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣
(٢) سورة ص ، الآية ٢٦
(٣) سورة النساء ، الآية ٦٦

كاظمين غيظهم ، صابرين على ما أصابهم ، بل عافين عن الناس محسنين إليهم ، مشفقين عليهم ، على نهج من قال الله – تعالى – فى وصفه الكريم : (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)(١) . (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا(٢)) زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة .

مقبلين على الله – تعالى – بكليتهم ، داعين إليه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، عالمين أنها محل المحن ودار الفتن ، فلا يحبونها إلا على نحو ما رسم الشرع لهم ، مشفقين من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)(٣) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم ، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم ، عالمين أنها سريعة الفناء وشيكة الانقضاء ، يرون قريبا ما يراه الناس بعيدا :

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى بعيدا غدا ، ما أقرب اليوم من غد

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٦
(٣) سورة فاطر ، الآيتان ٥ ، ٦

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)[١] مقتفين أثر من قيل له : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[٢] واصلين إلى روح قوله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)[٣] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)[٤] محبين للمرشد الأعظم والنبي الأكرم الذى هداهم الصراط المستقيم ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور محبة تزيد على محبة الوالد لولده ، والولد لوالده.

متحققين بما جاء فى حديث البخارى من قوله – صلى الله عليه وسلم – : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وما ورد فى حديث البخارى – أيضا : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ » فوصلوا بذلك إلى روح اليقين ، حتى صارت مظان ثوابه ومواقع مرضاته تعالى ، مما تنشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم ، عالمين أنهم لا يبلغون درجة الكمال ، وينتفى عنهم الحرج والمشقة ، ويصلون إلى محل الأمن ، إلا إذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ، ورسخ فى كل ذراتهم ، فيميلون إليه ميلًا طبيعيًا يتقاضى منهم المسارعة إليه والعكوف عليه ، إذ هو محل الأنس وحضرة القدس ، مجتلين فى تلك الحضرات من عرائس الجمال

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤
(٢) سورة طه ، الآية ١٣١
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٨٢ وسورة القلم ، الآية ٤٤
(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٥٦

الإلهى ما يفوق كل نعيم ، ويحتقر معه كل لذة سواه ، حتى قال قائلهم : « نحن فى لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » .

فكادوا يهيمون مما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ، ويذوبون عندما يوغلون فى سرادقات ذلك الجلال ، مدهوشين مما يذوقونه فى تلك الحضرات من مناجاة وإلهامات ، وملاطفات وأنوار وأسرار ، فكانوا من قوم (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[١] يتيهون على ملوك الدنيا استغناء وعزة ، على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء ، ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم ، وعزتهم التى يحسون بها من أعماق قلوبهم ، أن يتواضعوا لأهل العظمة ، والكبرياء ، وقد قال تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[٢] إلى آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه .

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة ، وتخلصوا من كل رذيلة ، وأدركوا من شريف الأحوال ، ورفيع المقامات ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكانوا بذلك ورثة الرسل ، وقادة الأمم ، ودواء العلل ، وكواكب الظلمات ، وسرج المشكلات ، بهم تنحل العقد وتنفرج الكرب « وراثة نبوية وخلافة إلهية » ولذلك كانوا مرجع الأمراء والكبراء ، حتى قال القائل قديما :

إن الأكابر يحكمون على الورى   وعلى الأكابر تحكم العلماء

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤
(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨

وقد قالوا : إن الأُمة تفسد بفساد الأُمراء ، والأُمراء يفسدون بفساد العلماء . فانظر أين أنت من تلك المقامات ، وإلى أى حد وصلت من البعد عن تلك الصفات ؟ أيها المتبجح بعلمك ، المترفع على بنى نوعك ، الغافل عن كون الإنسان لا يزال متعلماً طالباً من العلم ما يكون وراء ما علم ، وكلما ازداد منه رياً ازداد عطشاً ، وكلما زاد فضله ، بان له جهله ، وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا[1]) وقال : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[2] وقال : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[3] .

وإن العالم حقاً ليستحى من الله أن يتبجح بعلمه ، وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل ، والنقص والغفلة والنسيان ، ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الأمواج ، وهو بساحله يرجو أن يتطاير عليه من بحره رشاش ينتفع به مزيد غلته ، ويشفى به بعض علته ، وإن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء .

أنظر إلى ذلك كله ثم قل لى بعيشك ، هل أحببت النبى – صلى الله عليه وسلم – حباً وجدانياً يزيد على محبتك للناس أجمعين ؟ وهل صار هواك تبعاً لما جاء به ؟ بل هل سعيت إلى ذلك سعيه يوماً من الأيام ، وآلمك من أجله ضميرك ، وعاتبتك عليه نفسك ؟ أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حباً يهون عليك قضاءه ، ويخفف عنك

(١) سورة طه ، الآية ١١٤
(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

بلاءه ؟ أم هل صدقت فى بيع نفسك لله – تعالى – وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلا عن العلماء منهم ، فخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله ، فلم تتكالب على أمورك الشخصية ، ولم تتهالك على شهواتك النفسية ، ولم تذل لأهل الدنيا ذل العبيد ، ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لئام الطباع ؟ وهل ذقت لعزة المؤمنين طعماً أو عرفت لها معنى ؟ .

وهل أنت ممن قال الله فيهم : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[1] ؟ أو ممن قال فيهم : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[2] ؟ وهل أنت ممن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؟ وهل أنت ممن يقول لأخيه عندما يقابله : اجلس بنا ساعة نؤمن ، كما كان يقول ذلك أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – بعضهم لبعض ؟ وهل أنت ممن (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)[3] ؟ وهل وهل . . . إلخ ؟ .

أم أنت ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، وقد أحاط به الشره ، واستعبده حب الدنيا ، فليس يهمه إلا شىء يعود عليه ، ودرهم يصل إليه ، ففاتته عزة العلماء ، وثروة الأغنياء ، فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء ؟ !

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥
(٣) سورة مريم ، الآية ٥٨

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ لَهُ : مَا لَكَ وَقَدْ كُنْتَ تَأْمُرُنَا وَتَنْهانا ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » . كما يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)(١) .

وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه : « قل لعلماء السوء ألسنتكم أحلى من العسل وقلوبكم أمر من الصبر ، فبي يستهزءون وإياى يخادعون فوعزتى وجلالى لأتيحن لهم من الفتنة ما يدع الحليم حيران » !

وفى الأثر « لا تُجَالِسُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا مَنْ يَأْخُذُ بِكُمْ عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا إِلَى مَحَبَّةِ اللهِ ، وَعَنِ الْكِبْرِ إِلَى التَّوَاضُعِ ، وَعَنِ التَّبَاغُضِ إِلَى التَّحَابُبِ » ولا قدر للدنيا حتى تبيع بها السعادة الأبدية ، وقد قال بعض الملوك عندما حضرته الوفاة : « كنت أظن أنى ملكت كل شيء فإذا كل شيء لا شيء » . وقال بعض الحكماء : « أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره ، وعالم فرط فى علمه فلم يعمل به حتى حضره الموت » .

وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك منى ومنك شوقا إلى العمل بالعلم وندما على ذلك العمر العزيز ، وخوفا من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤

القيامة بقوله : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)(١) ورجاء أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا :

نُجُبُ(٢) الأيام بنا تثب ... ما أسرع ما تصل النجب
والشمس تطير بأجنحة ... والليل تطايره الشهب
والدهر يجــد بفعل الجـ ... ـد فليس يليق بك اللعب
ما القصد سواك فخل هوا ... ك وكن رجلا فلك الطلب
سل دهرك أين قرون الأر ... ض يجبك بأنهمو ذهبوا
ساروا عنــا سيرا عجلا ... فكأن مسيرهم الخبب
ما أفصحهم ولقد صمتوا ... ما أبعدهم ولقد قربوا
يا لاعب جد بفعل الجد ... فليس الأمر به لعب
واحــذر دنياك وزخرفها ... فجميع مناصبها تصب
فكأنك والأيام وقــد ... فتحت بابا فيه النوب
وبقيت غريب الدار فلا ... رسل تأتيك ولا كتب
وسلاك الأهل ومل الصحـ ... ـب كأنهمو لك ما صحبوا
فإذا نقر الناقور جثــو ... ت ويومئذ يوم عجب
فيصيخ السمع ويجثو الجمـ ... ـع ويجرى الدمع وينسكب
وجميع الناس قد اجتمعوا ... ثم افترقوا ولهم رتب
ذا مرتفع ذا منخفض ... ذا منجــزم ذا منتصب
فهناك المكسب والخسرا ... ن وثم الراحة والتعب

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٤
(٢) جمع نجيب وهو الكريم من الإبل .

أين مقر الأرواح بعد الموت (١)

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

كنت أطالع بعض موضوعات فى « كتاب فتح العلام – الجزء الثانى » فرأيت فصلاً معقوداً للبحث فى روح الميت بعد انقضاء الحياة وهو كما يأتى :

« رأى جمهور المتكلمين أن الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو باق لا يفنى ، قال الشيخ البجيرمى : إن الأرواح خمسة أقسام : أرواح الأنبياء ، أرواح الشهداء ، أرواح المطيعين ، أرواح العصاة من المؤمنين ، أرواح الكفار .

أما أرواح الأنبياء فتخرج من أجسادها وتصير على صورة المسك والكافور (٢) وتكون فى الجنة تأكل وتنعم ، وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش . أما أرواح الشهداء إذا خرجت من أجسادها فإن الله يجعلها فى أجواف طيور خضر تدور بها فى أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتشرب من مائها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش . هكذا قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أما أرواح

(١) مجلة الأزهر – الجزء الرابع المجلد الثالث – ربيع الآخر ١٣٥١

(٢) الرواية المعروفة : أطيب من ريح المسك . وستسمعها عن أبى موسى الأشعرى فى أرواح المؤمنين .

المطيعين من المؤمنين فهى فى رياض الجنة لا تأكل ولا تنعم لكن تنظر فى الجنة فقط . أما أرواح العصاة من المؤمنين فبين السماء والأرض فى الهواء . وأما أرواح الكفار فهى فى أجواف طير سود فى سجين ، وسجين تحت الأرض السابعة ، وهى متعلقة بأجسادها ، فتعذب أرواحها فيتألم بذلك الجسد ، كالشمس فى السماء الرابعة ونورها فى الأرض ، كما أن أرواح المؤمنين فى عليين متنعمة ونورها متصل بالجسد » .

ثم قال : إن المحقق القسطلانى نقل عن الحافظ ابن كثير ما يفيد تمتع أرواح المؤمنين وإن لم يكونوا شهداء بالأكل والتلذذ ورؤية منازلهم فى الجنة لا بالنظر فقط . انتهى ما رأيته فى فتح العلام فيما يتعلق بروح الميت :

أرجو بيان ما هو الصحيح من هذه الأقوال ، وهل ورد نص فى الشريعة المحمدية عن صحة هذه الأقوال كلها أم عن بعضها دون بعض ؟ .

عطية الشوادفى هلال
بمعهد الزقازيق

الجواب

مقدمة :

ليس يهمنا الكلام فى حقيقة الروح ما هى ، ويكفينا أن نعرفها بآثارها وخصائصها ، وأنها ليست من جنس هذا العالم المنظور

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)(١) وليعلم قبل كل شيء أنه قد صح فيما لا يحصى من الأحاديث والآثار أن الأرواح جواهر حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر ، وانها عارفة مميزة مدركة عاقلة ، إلى غير ذلك مما جاء فى السنة الصحيحة .

ولتعلم أيضاً أن الإنسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس ، ثم ينتزع منه ما قدر له من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده ، ثم هو بعد ذلك تارة يصيب فيما ينتزع ويستنبط وتارة يخطىء فيما يحدس ويتخيل ، بل نستطيع أن نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التى يقع عليها الحس ويدركها اللمس لا يصل إليها الإنسان تماما وإن كان يظن ذلك جهلا وتبجحا . فالعلم بكنه الأشياء على ما هى عليه من كل وجه مختص بالله تعالى (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ)(٢) وقد خلقت على حد محدود فى عقلك ، كما خلقت على حد محدود فى سمعك وبصرك .

ثم هنا شيء آخر يجب التنبه له خصوصاً فى هذا المقام ، وهو أن العوالم كثيرة ، ولكل عالم منها أحكام تخصه ، ولا يصح أن يقاس بعضها على بعض ، فمن الغلط البين أن تحكم بأحكام عالم الإنس على عالم الجن ، وبأحكام عالم الجن على عالم الملائكة ، وبأحكام عالم الأجسام على عالم الأرواح ، أو تحكم بشيء من أحوال هذه العوالم كلها على إله العالم الذى ليس كمثله شيء ، بل فى عوالم الحس

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥

ما يرشدك إلى هذا ، فللسوائل أحكام تغاير أحكام الجوامد ، وللغازات أحكام تغاير أحكام السائلات .

وقد عرف الآن من ظواهر الكهرباء والراديوم ما لا تكاد تصدق به إلا بالمشاهدة ، بل بين أنواع الحيوان — وهو جنس واحد — ما تختلف خصائصه وتتباين أحكامه ، وكم من فرق بين الحيوانات المائية وغيرها ، أو نقول بين الحيوانات الدنيا والعليا ، وكلها مخلوقة من تراب ، وقد خلق الله الإنسان من سلالة من طين ، وسلط عليه الروح ، فكان له من الأحكام ما تعرف ، ثم خلق الجن من مارج من نار ، فكان لها بمقتضى ذلك ما تقتضى منه العجب ، فليس يحجبها ستار ، ولا يمنعها جدار ، فلو فرضنا أن الله عز وجل — وهو على كل شيء قدير — خلق مخلوقاً من الكهرباء وسلط عليه الحياة ومتعه بالشعور والإرادة والاختيار ، فماذا يكون حاله وإلى أي حد تنتهى عجائبه ؟

إذا عرفت هذا فأمر الأرواح والملائكة أعجب من ذلك كله ، لأن هذه الأشياء كلها خلقت من تلك العناصر المادية الأرضية التى تعرفها ، فما بالك بما جاوز تلك الظواهر ، حتى قال فيه الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالى والراغب والحليمى : إنها جواهر مجردة عن المادة وعلائقها « والله يخلق ما يشاء كما يشاء » فلها من الأحكام والشئون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)(١) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ومن ظن أن أحكام الوجود كلها منحصرة فى تلك النواميس الطبيعية التى عرفها فقد جهل عظمة الله الذى لا نهاية لمقدوراته ، وجهل قدر العلم الذى لا آخر له ، وجهل قدر الإنسان الذى قال الله فيه : إنه خلق ضعيفا ، وكان ظلوما جهولا . ولنقتصر من المقدمة على هذا .

بعد المقدمة :

أما ما قاله الشيخ البجيرمى فهو منقول من بحر لكلام للنسفى على تغيير فيه ، ولا حاجة للإطالة فى ذلك . وفى المسألة أقوال كثيرة للعلماء من السلف والخلف ، وفيها سنن مأثورة وأحاديث شهورة . وسنتلو عليك شيئاً من ذلك ثم نعرفك جلية الحق ووجه الجمع بين تلك الآراء المتعارضة ، فنقول :

يرى كثير من العلماء : أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء أو غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين ، وهو مروى عن أبى هريرة وابن عمر . وقريب منه قول الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله : أرواح الكفار فى النار ، وأرواح المؤمنين فى الجنة لقوله تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)(١) ذكره تعالى بعد ذكر خروجها من البدن ، وقسمها ثلاثة أقسام : مقربين : فى الجنة ، وأصحاب اليمين : سالمين من العذاب ، ومكذبين : لهم نزل من حميم ، وتصلية جحيم .

كما قسمها يوم البعث الأكبر يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام فى أول سورة « الواقعة » فى قوله : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ

(١) سورة الواقعة ، الآية ٨٩

الْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ)(١) ولما فى الموطأ والنسائى عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعا « إنما نَسمة الْمُومن طَائِرٌ يُعلَّق فِى شَجرِ الْجَنَّةِ حتَّى يبعثَه الله إلَى جسدِهِ يوم الْقِيامةِ » .

وأخرج عبد الله بن منده عن أم كبشة بنت المعرور قالت : دخل علينا النبى – صلى الله عليه وسلم – فسألناه عن هذه الروح فوصفها حتى أبكى أهل الميت فقال : « إِنَّ أَرْوَاحَ الْمؤْمِنِينَ فِى حواصلِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرْعَى فِى الْجَنَّةِ وتَأْكُلُ مِنْ ثِمارِها وتَشْربُ مِنْ مِياهِها وتَأْوِى إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهبٍ تَحْتَ الْعرشِ يقولونَ ربَّنا أَلْحِقْ بِنَا إِخْوانَنَا وآتِنَا مَا وعَدْتَنَا ، وإِنَّ أَرواحَ الْكُفَّارِ فِى حَواصِلِ طَيرٍ سودٍ تَأْكُلُ مِنَ النَّارِ وتَشْربُ مِنَ النَّارِ وتَأْوِى إِلَى جُحْرٍ فِى النَّارِ » .

وقيل : إن الذى فى الجنة الشهداء لقوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)(٢) وروى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : « الشُّهَدَاءُ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ فِى الْجَنَّةِ ثمَّ يكون مأواهمْ إِلَى قَنَادِيلَ مُعلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ » .

وفى صحيح مسلم – واللفظ له – وجامع الترمذى وغيرهما عن مسروق قال : سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أمواتاً بلْ أحياءٌ عِنْدَ ربِّهِمْ يُرزَقون) فقال :

(١) سورة الواقعة ، الآيات ٨ – ١٢

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجوافِ طَيرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقةٌ بِالْعَرشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ فِى أَيِّها شاءتْ ثمَّ تأْوِى إلَى تِلْكَ الْقَنادِيل » .

وأخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن كعب بن مالك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إنَّ أرْواحَ الشُّهداءِ فِى طَير خضْرٍ تعْلُقُ (١) مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ — أوْ شَجرِ الْجنَّةِ » لفظ الترمذى ، وقال حسن صحيح . ولأحمد وأبى داود والحاكم — وقال صحيح الإسناد — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لمَّا أُصيبَ إخْوَانُكم — يَعْنِى يوم أُحُد — جَعَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمْ فِى جَوْفِ طَيْر خُضْر تَرِدُ أَنْهارَ الْجنَّةِ وَتأْكُلُ مِن ثِمارِهَا وَتأْوِى إلى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَب مُعَلَّقَةٍ فِى ظِلِّ الْعَرْشِ » الحديث . وفى بعض الآثار : « فِى صُوَر طَيْرٍ » وفى بعضها « فى أَجْوَافِ طَيْر » وفى بعضها « كَطَيْرٍ خُضْرٍ » .

وحديث كعب « نَسَمَةُ الْمُؤمنِ طَائرٌ » وقيل : هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من نعيمها ورزقها ، قاله مجاهد . وقد يحتج له بما فى المسند عن ابن عباس مرفوعا : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بارِقِ نَهْرٍ بِبابِ الْجنَّةِ فى قبَّةٍ خَضْراءَ يَخْرُجُ عليهم رِزْقهُم بُكْرةً وعشيَّةً مِنَ الْجنَّة » .

وقالت طائفة من الصحابة والتابعين : أرواح المؤمنين عند الله . ولم يزيدوا على ذلك . وقريب منه قول حذيفة بن اليمان : « الأرواح

(١) تعلق : أى تتناول : وهو بضم اللام ، كما فى المختار

موقوفة عند الرحمن عز وجل تنتظر موعدها حتى ينفخ فى الصور » وهذا تأدب منهم مع لفظ القرآن حيث يقول : (أحياءٌ عِندَ ربِّهم يُرزَقون) .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : « تَخْرُجُ رُوحُ الْمُؤْمِنِ أطْيبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ فَتَنْطَلِقُ بِهَا الْملائكَةُ الَّذينَ يتوفَّونه فَتَتَلَقَّاهُ الْملائكَة من دُونِ السَّماءِ فَيقولُون : هذَا فلانُ بنُ فلانٍ كَانَ يَعْمَلُ كَذَا وكذا لِمَحاسن عَمَلِه فيقولُونَ : مَرْحَباً بِكُمْ وبِه ، فَيَقْبِضُونَهَا منْهم فَيَصْعَدُونَ بِهِ مِنَ الْبابِ الَّذى كَانَ يَصْعَدُ عملُهُ منه فَتَشْرُقُ فى السَّماءِ ولَهَا بُرهانٌ كَبُرهَانِ الشَّمْسِ حتَّى تَنْتَهِىَ إلَى الْعرشِ ، وأمَّا الْكَافرُ فإذَا قُبِضَ انْطَلَق بروحِهِ فَيقُولونَ : ما هَذَا ؟ فَيقولونَ : فلاَنُ بن فلاَن كَانَ يَعْمَلُ كَذَا وكَذَا ، لِمَساوِىءِ عَمَلِهِ فَيقولونَ : لاَ مرحباً لاَ مَرْحَباً رُدُّوهُ فَيُرَدُّ إلَى أَسفلِ الْأَرضينَ » .

وقال الإمام مالك : بلغنى أن الروح مرسلة فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت . وهو قول سلمان الفارسى — رضى الله عنه — وقال ابن حزم : إنها عند منقطع العناصر : الماء والهواء والتراب والنار ، تحت السماء ، ثم قال : ولا يدل ذلك على تعادلهم ، بل هؤلاء من المؤمنين عن يمين آدم فى العلو والسعة ، وهؤلاء من الكفار عن يساره فى السفل والسجن ، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة .

وقيل : هى على أفنية قبورها . وقد ذهب إليه ابن عبد البر وقال : هو أصح ما ذهب إليه العلماء ، ألا ترى أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة كأحاديث السلام على القبور ؟ يريد بالأحاديث المتواترة مثل : حديث ابن عمر فى عرض المقعد على الميت ، وحديث البراء بن عازب الذى فيه « هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم

القيامة » وحديث أنس بن مالك الذى فيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن فى قبره سبعون ذراعا ويضيق على الكافر . وحديث جابر أن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان . الحديث ، وفيه أنه يرى مقعده من الجنة فيقول : دعونى أبشر أهلى . فيقال له اسكن فهذا مقعدك أبدا . وكذا سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه . ومراده بأحاديث السلام –وهى صحيحة– أن فيها خطاب المسلم لأهل القبور خطاب العاقل الحاضر .

تحقيق فى المسألة وجمع بين الآراء :

قال ابن القيم : وهذا القول يعنى قول ابن عبد البر – إن أريد به أن كونها على القبور لازم بحيث لا تفارقها ، فهذا خطأ يرده الكتاب المحكم والسنة الصحيحة ، وعرض المقعد لا يدل على أن الروح فى القبر ولا على فنائه ، بل على أن لها اتصالاً به يصح أن يعرض عليها مقعدها ، فإن للروح شأناً آخر ، فتكون فى الرفيق الأعلى وهى متصلة بالبدن ، بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهى فى مكانها ، وقد رأى النبى – صلى الله عليه وسلم – موسى – عليه السلام– ليلة الإسراء قائمًا يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر بمنزلة شعاع الشمس يكون فى الأرض وجرمها فى السماء . وهذا قول ابن عبد البر بعينه ، فإنه قال : أرواح الشهداء فى الجنة ، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورها . والمعنى أنها قد تكون على أفنية قبورها ، لا أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور .

وقد قال مالك : بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت . وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله تحت العرش ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان . وللروح المطلقة من أسر البدن وعوائقه من التصرف والقوة ما ليس للمحبوسة فى علائقه وعوائقه .

فلا يحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصحة وعلى غيره بالبطلان ، بل الصحيح أن الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت ، ولا تعارض بين الأدلة ، فإن كلاً منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم فى السعادة أو الشقاوة :

فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى ، وهم الأنبياء ، وهم متفاوتون فى منازلهم أيضاً ، كما رآهم النبى – صلى الله عليه وسلم– ليلة الإسراء ، ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره ، كما فى المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : « يارسولَ اللهِ مالِي إن قُتِلْتُ فى سبيل الله ؟ قَالَ : الْجَنة فَلَمَّا وَلَّى قَالَ : « إلاَّ الدين ، سَارَّنِى به جِبْرِيلُ آنفا » . ومنهم من يكون على باب الجنة كما فى حديث ابن عباس : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ » ومنهم من يكون محبوساً فى الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما أنها لا تجامعها فى الدنيا .

فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها « فالمرء مع من أحب هنا وهناك » ومنها أرواح تكون فى تنور كأرواح الزناة ، وأرواح فى نهر الدم كأكلة الربا ، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها فى قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له .

وإذا أمعنت النظر فى السنن والآثار عرفت حجج ذلك وأنه لا تعارض بينها ، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها ، وأن لها شأناً غير شأن البدن ، وأنها مع كونها فى الجنة هى فى السماء ، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهى أسرع شىء انتقالا ، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة ، وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة وألم ، وما أشبه حالها فى هذا بحال الجنين فى بطن أمه ، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

وللنفس أربع دور ، كل دار أعظم من التى قبلها ، الأولى : بطن الأم ، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث . الثانية : هذه الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر . والثالثة : دار البرزخ وهى أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار إليها كنسبة الدار الأولى وهى بطن الأم إلى هذه التى نحن فيها . الرابعة : الدار التى لا دار بعدها ، دار القرار : الجنة أو النار .

والله تعالى ينقلها فى هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ، وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل إليها . ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى .

وقال ابن القيم فى موضع آخر : إن الأرواح المنعمة مطلقة لا حجر عليها ، فأرواح الأنبياء فى الجنة وفى عليين ، ولكن ذلك لا يمنعها أن تكون فى السماء الأولى أو الثانية ، كما فى حديث المعراج ، وأنها حرة مطلقة تكون عند قبرها وتذهب حيث شاءت ، فالآثار فى ذلك كله صحيحة وحق لا مرية فيه .

وقال الحكيم الترمذى : الأرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا وأحوال الملائكة ، تتحدث فى السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح طيارة إلى الجنان إلى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعى إلى الله تعالى أيام الحياة .

وذكر البيهقى فى كتاب عذاب القبر أنه لما توفى إبراهيم بن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنَّ لَهُ مُرْضِعاً فِى الْجَنَّةِ » وهو فى الصحيح ، ثم قال : فحكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ابنه إبراهيم بأنه يرضع فى الجنة وهو مدفون بالبقيع فى مقبرة المدينة .

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه ابن أبى الدنيا من مرسل سليم ابن عامر الجبائى مرفوعا : « إنَّ مثل الْمُؤْمِنِ فِى الدُّنْيا كمثلِ الْجنِينِ

فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ، وكذا المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه » .

ويكفى هذا وإن كان قليلا من كثير :

حديث (1)

«كل مولود يولد على الفطرة»

جاءنا هذا السؤال من صاحب التوقيع :

سيدى الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوى :

السلام عليكم ورحمة الله ، لم يسبق لى شرف التعرف بكم ، ولكن سبق لى كثيراً الانتفاع بآثاركم وبقلمكم فى كل ما هو دينى واجتماعى. لذلك أتقدم إليكم الآن راجياً الانتفاع بكم وبعلمكم الغزير واطلاعكم الشامل فى ذلك الموضوع الذى يهمنى كثيراً ، وكذلك كل من يعنى من أساتذة علم النفس بمعرفة إحساسات الطفل . وأملى كبير أن أجد روح الدين الإسلامى فى الخلقة وفى طبيعة البشر حينما أهتدى بواسطة جوابكم الشافى إلى أن الاستعداد الموجود فى الطفل يتفق كلياً أو جزئياً مع تعاليم الإسلام الحنيف . لذلك أرجو التكرم ببيان هذا الحديث « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ » من غير أن يذكر الحديث « أو يسلمانه » . فمنطوق الحديث يفيد أن الإسلام أصل وطبيعة ، وأن ما عداه طارىء فما وجه ذلك وما سره؟ أرجوا أن تبينوا ذلك بياناً شافياً ، يتفق وما نعرفه من علم النفس مما تهدى إليه التجربة وترشد له المشاهدة .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثامن – المجلد الثالث – شعبان سنة ١٣٥١

ثانيا : ما المراد بالفطرة هنا : هل الفطرة هى الإسلام أم هى الاستعداد لقبوله ؟

ثالثا : أمجرد أن الإنسان إنسان أو ابن آدم كاف فى أن يعرف الإسلام بحيث لو نشأ فى شاهق جبل – كاصطلاح الفقهاء – أو بعيداً عن كل تعليم ، أمكنه أن يتوصل إلى دين وإلى دين هو الإسلام بنوع خاص ؟ أو أنه لابد من التعليم والتهذيب ، وإذاً يكون الدين أو الخلق من تأثير الوسط وتأثير الجماعة ؟ .

أرجو أن تفيض فى الموضوع بما يشفى الغليل ، حتى يلتقى البحث العملى بالبحث الدينى ، ويصدق الأول الثانى ويهدى الثانى الأول .

وإنى منتظر جواب فضيلتكم .

ابراهيم سلامة
مفتش بالمعارف
وعضو بعثتها بفرنسا

الجـواب

مقـدمة :

إن هناك أموراً بدهية لا يختلف فيها الصغير والكبير ، فهى عند الطفل كما هى عند الرجل ، وإن ما جاء به الإسلام من وجود الصانع ووحدته وعدم مماثلته لخلقه هو من وادى هذه البدهيات التى توجد فى كل فطرة إنسانية ، وليس المراد تفاصيل الشريعة ، بل المراد الأصل الأصيل الذى يتحقق به الإسلام . ولنبين هذا الإجمال فنقول :

إن الطفل لديه علوم ضرورية غرسها الله فى فطرته لحكمة كبرى .

ولنذكر لذلك أمثلة :

١ – فمن ذلك أنه يدرك بالفطرة أن الجزء أقل من الكل ، ولذلك إذا أعطيته نصف تفاحة مثلاً فبكى فأعطيته النصف الثانى سكت ورضى ، وما ذاك إلا لكونه يعلم علماً فطريًّا أن الجزء أقل من الكل ، وأن الكل أعظم من الجزء ، وإن لم يتنبه لذلك تنبها فكرياً ، ولا يمكنه الإفصاح عنه ، فإن البدهيات مركوزة فى الفطرة فلا تحتاج إلى عمل من العقل ولا حركة من الفكر ، فلذلك تصدر منه هذه الأشياء فى حين أنه لا يعرف تحديدها .

٢ – ومن ذلك علمه بأن النقيضين لا يجتمعان ، ولذلك نراه يبكى إذا رأى حيواناً أو طفلاً دخل البيت لا يحب وجوده فيه ، فإذا أخرجت الحيوان أو الطفل سكت واطمأن ، وما ذاك إلا لكونه يعلم علماً فطريًّا أن الحيوان أو الطفل لا يكون داخل البيت وخارجه فى وقت واحد ، فالعلم إذاً بأن النقيضين لا يجتمعان ، أو نقول بعبارة أخرى : إن الشىء لا يوجد فى مكانين فى آن واحد ، هو علم بدهى مركوز فى فطرة الطفل غير محتاج إلى نظر وفكر .

٣ – ومن ذلك إذا أمرته مداعباً أن يأتى بشىء من نافذة مثلا وهو قصير لا يصل إليه ، قال لك بلسان حاله أو مقاله : إنه لا يدركه ، أو طلب منك شيئاً يطول به ككرسى مثلا ، وذلك مبنى على إدراك فطرى هو الفرق بين الطويل والقصير .

٤ ـ ومن ذلك أنك إذا قلت له : هات كذا ، ذهب مسرعاً إليه ، فكأنه يعلم أن المسافات المحدودة ذات النهاية تقطع بالعدو ، وأن الذى لا يقطع إنما هو غير المتناهى .

٥ ـ ومن ذلك تفرقته بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، فإنك إذا أخبرته بشىء تريد أن تخدعه ، فتراه لا ينخدع ولا يسارع إلى التصديق ، فإذا أخبره شخص آخر بذلك وتضافرت لديه القرائن على صدق الخبر ، قبل وصدق وما ذاك إلا لتفرقته بين الصدق والكذب ، والحق والباطل ، فهو يسكن إلى الحق دون الباطل ، وإلى الصدق دون الكذب .

٦ ـ ومن ذلك علمه أن الحوادث لا تكون إلا فى زمان ، فإذا أخبرته بشىء قال لك : متى كان هذا ؟ وإن قلت له : لم قلت هذا ؟ قال لك : متى قلته ؟ علماً منه بأن الحوادث لا بد لها من وقت تقع فيه .

٧ ـ ومن ذلك أنه يعرف أن للأشياء طبائع وحقائق تقف عندها ولا تتجاوزها فتراه إذا رأى شيئاً لا يعرفه قال : أى شىء هذا ؟ فإذا عرفته به سكن واطمأن وفرح بذلك .

٨ ـ ومن ذلك علمه بأنه لا يكون فعل بلا فاعل ، فإنه إذا رأى شيئاً مع طفل آخر قال له : من أعطاك هذا . وإذا ضربه شخص من ورائه التفت : فهماً منه أن الفعل لا يكون بغير فاعل ، وأن الأثر لا يوجد بدون مؤثر .

٩ ـ ومنها إدراكه أن هناك أشياء قبيحة وأشياء حسنة ؛ وأن مايعود على النفس بالثناء والمدح ينبغى فعله ، وما يعود عليها بالنقص والذم ينبغى تركه ، ولذلك تشجع الأطفال وتثار فيهم رغبة فعل الحسن بمدحهم والثناء عليهم ، وينفرون من فعل القبيح بذم من يفعله وتهجينه عندهم .

فهذا كله ونظائره مشاهد فى الأطفال من أول نشأتهم ؛ وهذه الأشياء الفطرية كلها صحيحة مركوزة فى أفراد النوع الإنسانى صغيرهم وكبيرهم ، ولا يشك أحد فى شىء منها ، إلا من أصيب عقله بآفة غيرت فطرته . وقد قال بعض الحكماء : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان وفساد الإنسانية إنما هو بفساد هذه الفطرة .

والمقصود

إذا تمهد هذا فاعلم أن الاعتراف بالصانع وتوحيده هو من تلك الأمور الفطرية فإنه راجع إلى أن الأثر لا يوجد بدون مؤثر ، وأن الفعل لا يحدث بدون فاعل ، وهو مركوز فى نفس الطفل كما بينا . فالإسلام يقول للناس : آمنوا بأن لكم إلهاً واحداً عظيماً ؛ ويستدل على ذلك بهذا الدليل الفطرى ، فيقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (١) فها أنت ذا ترى هذا الدليل فطرياً يعرفه كل أحد ، فإن وجود الأثر بدون مؤثر محال فى إدراك الفطر الإنسانية ، حتى عند الطفل كما شرحنا ، « وكذلك يستحيل عندها وجود النظام بدون

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥ .

منظم » كما أن إيجاد الإنسان نفسه محال فى الفطرة ، فإن الصانع لابد أن يكون متقدماً على صنعته ، ولا يصح فى بداهة العقول أن يتقدم على نفسه .

ثم نقول : إن من تلك العلوم الفطرية أيضاً أن المثلين لابد أن يثبت لأحدهما ما ثبت للآخر ، وإلا لم يكونا مثلين .

وبذلك العلم الفطرى نقول :

إن الله تعالى مخالف لنا ، لأنه لو ماثلنا لكان حادثاً مثلنا ، وعاجزاً مثلنا ، ومتغيراً مثلنا ، وفانياً مثلنا ، إلى آخر ضروب المماثلات ، وهو دليل واضح لا يحتاج إلى كبير تأمل ، لأنه راجع إلى ما هو مركوز فى الفطر من أن ما ثبت لأحد المثلين ثابت للآخر . فهذا هو ما جاء به الإسلام فى أبسط تعاليمه وأول أصوله . وقد علمت أن الفطرة تشهد له وتنطق به ، إلا أن تصاب بآفة تغيّرها عن خلقتها فتنحرف بها عن الجادة ، وتميل بها إلى منعرجات الطريق وملتويات الشعاب وسحيقات الأودية .

ولتلاحظ أن الفطرة الإنسانية فى غاية الصفاء واللطافة ، فلأجل لطافتها المتناهية واستعدادها الواسع وقابليتها غير المحدودة بمقتضى إنسانيتها وما أراد الله بها ، لأجل ذلك تراها قابلة للخير والشر ، والنفع والضر ، والكمال والنقصان ، والكفر والإيمان ، والجهل والعلم ، والضلال والهدى ، إلى آخر المتضادات والمتقابلات .

وبهذا صار الإنسان قابلا لأن يكون أرفع المخلوقات على الإطلاق وأحطها على الإطلاق . وقلما يوجد فى باقى الحيوانات إلا استعداد

محدود ، فلا تراه مبرزاً إلا فى شىء واحد بخلاف الإنسان . فإذا اشتاقت نفسك أن ترى مخلوقاً يمثل الأسود فى سطوتها ، والأرانب فى ضعفها ، والعقارب فى أذيتها ، والخنازير فى دنسها ، والدب فى شهوتها ، فذاك هو الإنسان .

فإذا نظرنا إلى الإسلام وجدناه جاء بتلك الأصول التى تشهد لها الفطر قبل فسادها ، والبصيرة قبل انطماسها بسبب وجود الإنسان فى تلك البيئات الفاسدة ، وهاتيك الأجواء الموبوءة .

فإذا وجد الإنسان بين أبوين غير مسلمين ، انحرفا به عن الجادة ، وأخرجاه عن حدود الفطرة ، وأبعداه عن حرمها المقدس ، ووضعها الإلهى ، فنقشا فى نفسه أن الله يماثل خلقه : فله زوجة أو أم تسمى مريم ، وله ولد يسمى المسيح كما تقول النصارى ، أو عزيراً كما تقول اليهود ، وأنه يحل فى البشر كبقية الأشياء المادية التى يجوز عليها الحلول والاتصال والانفصال ، فهو إذاً كغيره لا محالة ، فإن ماثبت لأحد المثلين يثبت للآخر « ولذلك أثبتوا له القتل والصلب والتحقير والتسمير ، وكل أنواع الإهانة ، على نحو ما يذكره النصارى » وأن اليهود فعلوا ذلك مع إلههم (إله الكل ، ضابط الكل ، خالق الكل ، إلى غير ذلك) !

فانظر — رعاك الله — هل ترى الفطرة السليمة تسلم هذا فى رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين ، الذى يجب أن لا يماثله أحد من مخلوقاته ، كيف ولو ماثلها لكان حادثاً مثلها (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ

لْعزة عما يصفون)[١] ولكن الإسلام يقول فى وصفه تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ)[٢] . (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[٣] ويقول نبيه – صلى الله عليه وسلم – : « لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسكَ » فقل لى بعيشك أى دين من الأديان الثلاثة جاء بما تقتضيه الفطرة قبل أن يفسدها الأبوان وتقضى عليها (الأوساط) الموبوءة ؟ أهو الإسلام ، أم اليهودية والنصرانية !

هذا والحديث مروىّ فى صحيح البخارى فى مواضع متعددة ، ولفظه من رواية أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدانه أَوْ يُنَصِّرانه أَوْ يُمجِّسانه كما تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ » ؟ ثم يقول أبو هريرة : (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[٤]
و « جمعاء » فى الحديث : معناها تامة الخلق . و « جدعاء » معناها مقطوعة الأذن والأنف . والحديث انتهى عند كلمة « من جدعاء » أما ذكر أبى هريرة للآية فهو استشهاد لما فى الحديث .

والفطرة فى الحديث وفى الآية المستشهد بها معناها ؛ قبولهم للحق واستعدادهم للدين الصحيح متمكنين من إدراكه على وجهه .

(١) سورة الصافات : آية ١٨٠ .
(٢) سورة الشورى : آية ١١
(٣) سورة الإخلاص
(٤) سورة الروم آية : ٣٠

أو هو الإسلام ، فإنهم لو تركوا وما خلقوا عليه من سلامة الفطرة لاختاروا الإسلام على غيره من بين الأديان ، لأن نقاء هذا الدين وحسنه يتلاقى مع الفطرة السليمة ، ويتلاءم هو وطهارتها ، ولا يعدل عنه الإنسان إلا بآفة من الآفات البشرية كالتقليد للأبوين ، والتأثير للبيئة التى يعيش فيها . وتجد هذين المعنيين فى تفسير الفطرة قد ذكرهما كثير من العلماء .

فصاحب الكشاف قال فى تفسير الآية . (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)[١] ما نصه : ألزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله ... أى خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام لكونه على مقتضى العقل والنظر الصحيح حتى إنهم لو تركوا وطباعهم لما اختاروا عليه دينًا آخر . اهـ .

والقسطلانى شارح البخارى ذكر فى معنى الفطرة : أنها الجبلّة السليمة والطبع المتهيّئ لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومه ، لكن تطرأ على بعضهم الأديان الفاسدة . اهـ .

تجد هذا فى شرحه للبخارى فى كتاب التفسير من هذا الصحيح فى باب « لا تبديل لخلق الله » . وذكر هذا المعنى فى شرحه أيضا للبخارى فى كتاب الجنائز فى باب « إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه » وكذلك فى كل موضع من البخارى يذكر فيه الحديث تجد الشراح يذكرون هذا المعنى .

(١) سورة الروم ، الآية ٣٠

والمعنى الثانى للفطرة هو الإسلام وهو رأى كثير من السلف ، وهو ليس ببعيد من الأول ، لأنه كنتيجة لازمة له .

وهناك معنى ثالث للفطرة ، وهو العهد ، أى عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)(١) المذكور فى سورة الأعراف . وأظنك تعرف أن كثيرًا من العلماء قرروا فى معنى هذا العهد أنه عبارة عن الأدلة التى أقامها الله فى أنفسنا وفى الآفاق ، والتى تدلُّ على وجود الله وربوبيته ، مع ما وضع فينا من الاستعداد والتمكن التام لفهمها « إذا لا يمكن الاستدلال إلا مع سلامة الفطرة ونقائها مما يفسد طرق الاستدلال » فهذا المعنى هو والمعنيان السابقان يلتقيان فى نقطة واحدة .

أما كون الحديث لم يذكر « أو يسلمانه » فيمكنك أن تجيب عنه بما قدمناه من أن الإسلام جاء بما هو مركوز فى الفطر ، فهو غنى عن التعليم والتلقين ، بخلاف تلك التعاليم المعوجّة التى تنحرف بصاحبها عن الطريق السوى إلى تلك الوساوس والخيالات . ولذلك قال كثير من علمائنا : إن الإنسان مكلف بالتوحيد وإثبات الصانع ، ولو لم ترسل الرسل لأن العقل كاف فيه ، والفطرة شاهدة به ، والآثار دالة عليه .

وقد يقول قائل : إن اليهودية والنصرانية فى نقائها وسلامتها هى الإسلام الذى جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — ، من حيث العقائد والأصول العامة ، كما قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢

وعيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)(١) وكما فى النداء الذى خاطب به الرسل كل فى زمنه وحكاه إجمالا فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)(٢) وفى كثير من آيات القرآن ما يدل على هذا .

والجواب عن ذلك أن النبى — صلى الله عليه وسلم — إنما يحدّث فى هذا الحديث عن هذين الدينين بعد أن تقطعت الأمم أمرهم بينهم زبرا ، وبعد أن اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ، وبعد أن آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض وبعد أن كتموا الحق وهم يعلمون ، وبعد أن اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا ، وبعد أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبعد أن قالوا فى الإله ما شاءت لهم أهواؤهم : من أنه ثالث ثلاثة ، وأن المسيح ابن مريم إله أو ابن إله ، حتى كان رسولنا مأمورًا بأن يدعوهم إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينهم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله .

ويؤيد هذا أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : (أو يمجّسانه) فقرن اليهودية والنصرانية مع المجوسية فى سلك واحد هو سلك الانحراف والزيغ ، ولو بقيا على طهارتهما الأولى لما ساغ أن يسوّى بين هذين الدينين والوثنية ، على أنهما قبل التبديل هما الإسلام بعينه فى أصوله (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)(٣) .

(١) سورة الشورى ، الآية : ١٣
(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥١-٥٢
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩

وقد سألت عن كون الحديث يفيد أن الإسلام أصل وطبيعة وما عداه طارئ ، فيستطاع أن يجاب على هذا السؤال بما قدمنا ، فإن الإسلام لما كان مرادفاً للحق الذى تهيأت له الفطر واستعدت لقبوله ، كان أصلا وغيره طارئاً . وكذلك كل الأديان فى سلامتها الأولى تسمى إسلاماً ، والفطر متهيئة لها قابلة لمبادئها بخلافها على صورها الأخيرة المتبدلة ، فإنها طارئة على الفطر متنافرة معها .

وقد سألت : ماذا يعنى الحديث بالفطرة : هل هى الإسلام أو الاستعداد لقبوله ؟ فاختر ما تشاء منهما فإن المعنيين يتصافحان .

وسألت ثالثاً : هل مجرد كون الإنسان إنساناً كاف فى أن يعرف الإسلام بحيث لو نشأ فى شاهق جبل أمكنه أن يتوصل إلى دين وإلى دين هو الإسلام بنوع خاص ؟ ولقد لفتناك إلى هذه النقطة أولا ، وقلنا : إن بعض علمائنا يقررون أن وجود الصانع وتوحيده ، وكذلك كل العقائد العامة ، يكفى فيها العقل ، ولا يخرج من عهدة التكليف مثل الناشىء فى شاهق جبل « وأصحاب هذا الرأى المعتزلة والماتريدية » .

ورأى الأشاعرة أنه لابد فى التكليف بالأصول والعقائد العامة من رسالة رسول يلفتهم إلى هذه العقائد على وجهها الصحيح ، وإن كان هذا الرسول غير مرسل إلى الأمة التى منها الشخص الذى يكلف بالعقائد ، فيكفى سماعه برسالة أىّ رسول ولو غير مرسل إليه وإلى أمته ، وأنت خبير بأنه يوجد فى الغالب علم برسالة رسول . وهذان

الرأيان يختلف أصحابهما فى فهم قوله تعالى : (وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً)[١] ، فالرأى الأول يقول بكفاية رسالة العقل والفطرة ، أو يقول : إن المراد عذاب الاستئصال فى الدنيا لا عذاب الآخرة .

والآخرون يفهمون الرسالة والرسول على الاصطلاح المعروف ، وأن الرسول هو المرسل بالوحى . وهذا الخلاف إنما هو بالنظر للعقائد والأصول العامة ، كوجود الصانع ووحدته وعلمه . أما الفروع وما هو ليس من العقائد فلابد فيها من التعليم والتهذيب بالإرشاد والأسوة الحسنة .

والخلاصة : أن هناك أموراً عامة يكفى فى الوصول إليها سلامة الفطرة واستعدادها الذى خلقت عليه ، وأن ما عدا هذه الأصول لابد فيها من تعليم وتهذيب وبيئة صالحة .

وبهذا الفرق يمكنك الجواب عن باقى سؤالك الثالث . ونسأل الله تعالى أن يزيدك هدى .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٥

توحيد الألوهية ـ وتوحيد الربوبية (١)

جاءتنا رسائل كثيرة يسأل مرسلوها عن توحيد الأُلوهية وتوحيد الربوبية ما معناهما ، وما الذى يترتب عليهما ، ومن ذا الذى فرق بينهما ، وما هو البرهان على صحة ذلك أو بطلانه ؟ .

فنقول وبالله التوفيق :

إن صاحب هذا الرأى هو ابن تيمية الذى شاد بذكره .

قال : إن الرسل لم يبعثوا إلا لتوحيد الأُلوهية وهو إفراد الله بالعبادة ، وأما توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف فى أُمورهم فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين ، بدليل قوله تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموٰاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ)[٢] ثم قالوا : إن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء ويتشفعون بهم وينادونهم عند الشدائد هم عابدون لهم ، قد كفروا بما كفر به عباد الأوثان والملائكة والمسيح سواء بسواء ، فإنهم لم يكفروا باعتقادهم الربوبية فى تلك الأوثان وما معها ، بل بتركهم توحيد الأُلوهية بعبادتها ، وهذا ينطبق على زوار القبور المتوسلين بالأولياء المنادين لهم ، المستغيثين بهم ، الطالبين منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

---

(١) مجلة الأزهر الجزء الرابع – المجلد الرابع – ربيع الأول ١٣٥٢

(٢) سورة لقمان ، الآية ٢٥ وسورة الزمر ، الآية ٣٨

« بل قال محمد بن عبد الوهاب : إن كفرهم أشنع من كفر عباد الأوثان ، وإن شئت ذكرت لك عبارته المحزنة الجريئة » .

فهذا ملخص مذهبهم مع الإيضاح ، وفيه عدة دعاوى . فلنعرض لها على سبيل الاختصار ، ولنجعل الكلام فى مقامين فنتحاكم إلى العقل ثم نتحاكم إلى النقل ، فنقول :

قولهم : إن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الأُلوهية ، تقسيم غير معروف لأحد قبل ابن تيمية ، وغير معقول أيضاً كما ستعرفه ، وما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول لأحد دخل فى الإسلام : إن هناك توحيدين ، وإنك لا تكون مسلماً حتى توحد توحيد الأُلوهية ، ولا أشار إلى ذلك بكلمة واحدة ، ولا سمع ذلك عن أحد من السلف الذين يتبجحون باتباعهم فى كل شىء ، ولا معنى لهذا التقسيم ، فإن الإلٰه الحق هو الرب الحق ، والإلٰه الباطل هو الرب الباطل ، ولا يستحق العبادة والتأليه إلا من كان رباً .

ولا معنى لأن نعبد من لا نعتقد فيه أنه رب ينفع ويضر ، فهذا مرتب على ذلك ، كما قال تعالى : (رَبُّ السَّموٰاتِ وَالْأَرْضِ وما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ)[١] فرتب العبادة على الربوبية ، فإننا إذا لم نعتقد أنه رب ينفع ويضر ، فلا معنى لأن نعبده كما قلنا . ويقول تعالى : (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّموٰاتِ وَالْأَرْضِ)[٢]

---

(١) سورة مريم ، الآية ٦٥

(٢) سورة النحل ، الآية ٢٥

يشير إلى أنه لا ينبغي السجود إلا لمن ثبت اقتداره التام ، ولا معنى لأن يسجدوا لغيره .

هذا هو المعقول ، ويدل عليه القرآن والسنة .

أما القرآن فقد قال : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ﴾[1] فصرح بتعدد الأرباب عندهم .

وعلى الرغم من تصريح القرآن بأنهم جعلوا الملائكة أرباباً ، يقول ابن تيمية ، ومحمد بن عبد الوهاب : إنهم موحدون توحيد الربوبية وليس عندهم إلا رب واحد وإنما أشركوا فى توحيد الألوهية . ويقول يوسف — عليه السلام — لصاحبي السجن وهو يدعوهما إلى التوحيد :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[2] .

ويقول الله تعالى أيضاً : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾[3] وأما هم فلم يجعلوه ربا . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ لٰكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾[4] خطابا لمن أنكر ربوبيته تعالى . وانظر إلى قولهم يوم القيامة : ﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٠
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٩
(٣) سورة الرعد ، الآية ٣٠
(٤) سورة الكهف ، الآية ٣٨
(٥) سورة الشعراء ، الآيتان ٩٧–٩٨

« أى » فى جعلكم أربابا كما هو ظاهر . وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾[1] فهل ترى صاحب هذا الكلام موحدا أو معترفا ؟ ثم انظر إلى قوله : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ ﴾[2] إلى غير ذلك وهو كثير لا نطيل بذكره .

فإذاً ليس عند هؤلاء الكفار توحيد الربوبية كما قال ابن تيمية ؛ وما كان يوسف — عليه السلام — يدعوهم إلا إلى توحيد الربوبية ، لأنه ليس هناك شىء يسمى توحيد الربوبية وشىء آخر يسمى توحيد الألوهية عند يوسف — عليه السلام — « فهل هم أعرف بالتوحيد منه ، أو يجعلونه مخطئاً فى التعبير بالأرباب دون الآلهة ؟ » .

ويقول الله فى أخذ الميثاق : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾[3] فلو كان الإقرار بالربوبية غير كاف وكان متحققاً عند المشركين ولكنه لاينفعهم كما يقول ابن تيمية : ماصح أن يؤخذ عليهم الميثاق بهذا ، ولاصح أن يقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ ﴾ .

وكان الواجب أن يغير الله عبارة الميثاق إلى مايوجب اعترافهم بتوحيد الألوهية حيث إن توحيد الربوبية غير كاف كما يقول هؤلاء ، إلى آخر مايمكننا أن نتوسع فيه ، وهو لايخفى عليك . وعلى كل حال فقد اكتفى منهم بتوحيد الربوبية ، ولو لم يكونوا متلازمين لطلب

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٠
(٢) سورة الرعد ، الآية ١٣
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٧٢

إقرارهم بتوحيد الأُلوهية أيضا ، ومن ذلك قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلَٰهٌ وفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)(١) فإذه إلَٰه فى الأرض ولو لم يكن فيها من يعبده كما فى آخر الزمان . فإن قالوا : إنه معبود فيها ؛ أى مستحق للعبادة ؛ قلنا : إذاً لا فرق بين الإلَٰه والرب ، فإن المستحق للعبادة هو الرب لاغير ، وما كانت محاورة فرعون لموسى عليه السلام إلا فى الربوبية وقد قال : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ)(٢) ثم قال : (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)(٣) ولاداعى للتطويل فى هذا .

وأما السنة فسؤال الملكين للميت عن ربه لاعن إلَٰهه ، لأنهم يفرقون بين الرب والإلَٰه «فإنهم ليسوا تيميين ولا متخبطين» وكان الواجب على مذهب هؤلاء أن يقولوا للميت «من إلَٰهك» لا «من ربك» أو يسألوه عن هذا وذاك .

وأما قوله : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)(٤) فهم يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم إجابة لحكم الوقت ، ومضطرين لذلك بالحجج القاطعة والآيات البينات . ولعلهم نطقوا بما لايكاد يستقر فى قلوبهم أو يصل إلى نفوسهم ، بدليل أنهم يقرنون ذلك القول بما يدل على كذبهم ، وأنهم ينسبون الضر والنفع إلى غيره ، وبدليل أنهم يجهلون الله تمام الجهل ، ويقدمون غيره عليه حتى فى صغائر الأمور .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٤
(٢) سورة النازعات ، الآية ٢٤
(٣) سورق الشعراء ، الآية ٢٩
(٤) سورة لقمان ٢٥ ، وسورة الزمر ٣٨

وإن شئت فانظر إلى قولهم لهود — عليه السلام — : (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ)(١) فكيف يقول ابن تيمية : إنهم يعتقدون «أن الأصنام لاتضر ولاتنفع» إلى آخر مايقول ؟ :

ثم انظر بعد ذلك إلى قولهم فى زرعهم وأنعامهم : (هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَما كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وما كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ)(٢) فقدموا شركاءهم على الله تعالى فى أصغر الأُمور وأحقرها .

وقال تعالى فى بيان اعتقادهم فى الأصنام : (وما نَرَى معكُمْ شفَعاءَكُمُ الَّذينَ زَعمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ)(٣) فذكر أنهم يعتقدون أنهم شركاء فيهم .

ومن ذلك قول أبى سفيان يوم أُحد : اعل هبل ، فأجابه — صلى الله عليه وسلم — بقوله : «الله أعلى وأجل» .

فانظر إلى هذا ثم قل لى ماذا ترى فى ذلك التوحيدالذى ينسبه إليهم ابن تيمية ويقول : إنهم فيه مثل المسلمين سواء بسواء ، وإنما افترقوا بتوحيد الأُلوهية !.

ثم انظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى)(٤) (أى) وأما هم فلم يجعلوه رباً . ومثل ذلك قوله تعالى :

(١) سورة هود ، الآية ٥٤
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٣٦
(٣) سورة الأنعام ، الآية ٩٤
(٤) سورة الرعد ، الآية ٣٠

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾[1] خطابًا لمن أنكر ربوبيته تعالى : وانظر إلى قولهم يوم القيامة : ﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] (أى) فى جعلكم أربابًا كما هو ظاهر لغير المتعسف . وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾[3] فهل ترى هذا كلام موحد أو معترف ؟ ثم انظر إلى قوله : ﴿ وهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ ﴾[4] إلى غير ذلك ، وهو كثير .

وأدل من ذلك كله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[5] إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

فهل ترى لهم توحيدًا بعد ذلك يصح أن يقال فيه إنه عقيدة ؟

أما التيميون فيقولون بعد هذا كله : إنهم موحدون توحيد الربوبية ، وإن الرسل لم يقاتلوهم إلا على توحيد الألوهية الذى لم يكفروا إلا بتركه

ولا أدرى ما معنى هذا الحصر مع أنهم كذبوا الأنبياء ، وردوا ما أنزل عليهم ، واستحلوا المحرمات ، وأنكروا البعث واليوم الآخر ، وزعموا أن لله صاحبة وولدًا ، وأن الملائكة بنات الله ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[6] . . . إلخ . وذلك كله لم يقاتلهم عليه الرسل فى رأى هؤلاء . وإنما قاتلوهم على عدم

(١) سورة الكهف ، الآية ٣٨
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٩٨
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٦٠
(٤) سورة الرعد ، الآية ١٣
(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨
(٦) سورة الصافات ، الآية ١٥١–١٥٢

توحيد الألوهية كما يزعمون ، وهم بعد ذلك مثل المسلمين سواءً أو المسلمون أكفر منهم فى رأى ابن عبد الوهاب !

وما علينا من ذلك كله ، ولكن نقول لهم بعد هذا : على فرض أن هناك فرقًا بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية – كما يزعمون – فالتوسل لا ينافى توحيد الألوهية ، فإنه ليس من العبادة فى شىء لا لغة ولا شرعًا ولا عرفًا ، ولم يقل أحد إن النداء أو التوسل بالصالحين عبادة ، ولا أخبرنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بذلك ، ولو كان عبادة أو شبه عبادة لم يجز بالحى ولا بالميت .

ومن المعلوم أن المتوسل لم يطلب إلا من الله تعالى بمنزلة هذا النبى أو الولى ، ولا شك فى أن لهما منزلة عند الله – تعالى – فى الحياة وبعد الممات .

فإن تشبث متشبث بأن الله أقرب إلينا من حبل الوريد فلا يحتاج إلى واسطة ، قلنا له : حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء ، فإن رأيك هذا يلزمه ترك الأسباب والوسائط فى كل شىء ، مع أن العالم مبنى على الحكمة التى وضعت الأسباب والمسببات فى كل شىء . ويلزمه عدم الشفاعة يوم القيامة وهى معلومة من الدين بالضرورة ، فإنها على هذا الرأى لا حاجة إليها ، إذ لا يحتاج سبحانه وتعالى إلى واسطة فإنه أقرب من الواسطة ، ويلزم خطأ عمر بن الخطاب فى قوله : إنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس . . . إلخ .

وعلى الجملة يلزم سد باب الأسباب والمسببات والوسائل والوسائط ، وهو خلاف السنة الإلهية التى قام عليها بناء هذه العوالم كلها من أولها إلى

آخرها ، ولزمهم على هذا التقدير أن يكونوا داخلين فيما حكموا به على المسلمين ، فإنه لا يمكنهم أن يدعوا الأسباب أو يتركوا الوسائط ، بل هم أشد الناس تعلقًا بها واعتمادًا عليها .

ولا يفوتنا أن نقول : إن التفرقة بين الحى والميت فى هذا المقام لا معنى لها ، فإن المتوسل لم يطلب شيئًا من الميت أصلًا ، وإنما طلب من الله متوسلًا إليه بكرامة هذا الميت عنده أو محبته له أو نحو ذلك ؛ فهل فى هذا كله تأليه للميت أو عبادة له ، أم هو حق لا مرية فيه ، ولكنهم قوم يجازفون ولا يحققون ؟ كيف وجواز التوسل بل حسنه معلوم عند جميع المسلمين !

وانظر كتب المذاهب الأربعة « حتى مذهب الحنابلة » فى آداب زيارته – صلى الله عليه وسلم – : تجدهم قد استحبوا التوسل به إلى الله تعالى ، حتى جاء ابن تيمية فخرق الإجماع وصادم المركوز فى الفطر ، مخالفًا فى ذلك العقل والنقل .

ونخشى أن يطول بنا القول . فلنقف هنا ، ونؤخر الكلام على نداء الأولياء وتعظيمهم والاستغاثة بهم . وموعدنا العدد الآتى ، إن شاء الله .

توحيد الألوهية — وتوحيد الربوبية (١)

تفرق قومنا من غير شىء فحل بقومنا وبنا البلاء

كتبنا فى هذا الموضوع فى العدد الماضى ، ونكتب فيه اليوم ، ولعلنا نكتب فيه غدًا . وإنما نريد بذلك كله الدفاع عن ساحة الإسلام ، غيرة عليه من تلك الطائفة التى جعلته حربًا لا سلامًا . ولو كان كما زعموا لم يكن دين الرحمة والمحبة والحكمة ولا دين الأمم كلها ، بل كان دين الخصام والانقسام والنار والدمار ، ولم يصلح إلا لقوم جامدين وطائفة مخصوصين .

ولسنا نريد بكل ما نكتب فى هذا الموضوع غير ألا يتنازع المسلمون ولا ينقسم بعضهم على بعض ، من أجل أشياء يقع فيها الخلاف ويتباين فيها الرأى .

فيجب على أولئك المكفرين للمسلمين أن يحترموا رأى غيرهم ، ولا نريد منهم أن يتبعوا غيرهم ، بل أن يتركوهم أحرارا كما أنهم أحرار ، وأن يقيموا لأولئك العلماء من أئمة الهدى وزنًا ، فلهم منطق سليم ونظر مستقيم وسلف صالح .

وينبغى أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر وموضع للاجتهاد يجب أن لا يتنازع فيه الناس ، فالأمر واسع . فكم اختلف الصحابة والتابعون

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – المجلد الرابع ربيع الآخر ١٣٥٢

وتابعوهم مع محبة بعضهم بعضًا ، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعى ما له مرارًا ، وقد خالفه فى أشياء كثيرة وهو تلميذه . وقد قالوا : إن المنكر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعًا على إنكاره . فكيف بالكفر الذى جاء فى الحديث الصحيح أن أحدهما يبوء به ؟ ! وكيف بالقتل الذى يستبيحه هؤلاء ؟ !

وقد أنكر — صلى الله عليه وسلم — على أسامة حين قتل من قال : لا إلّه إلّا الله — تقية فى رأى أسامة — ولم يقبل منه ذلك العذر ، ولا رضى منه هذا التأويل .

وإنى أكرر عجبى منهم كيف يلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ويقيم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك ؟ وهل هذه إلا رتبة المعصوم الذى يجب على الناس أن يتبعوه ولا يخالفوه ؟ فهل هم معصومون حتى لا يجوز أن نخالفهم بحال من الأحوال ؟ ! بل نتنزل قليلًا ونقول لهم : أفتوجبون علينا التقليد وأنتم تحرمون التقليد ، أم تلزموننا أن نتبعكم ونحن مجتهدون كما أنكم مجتهدون ؟ !

وإنا نسألهم : هل كان الصحابة والتابعون يقسمون التوحيد إلى توحيد الألوهية والربوبية ، ويدعون الناس لذلك ؟ الجواب أنه لم يسمع ذلك عن أحد منهم ، فلماذا لا يسعنا ما وسعهم ؟ !

وأن من علامات الراسخين فى العلم أن يحترموا كلام الأئمة ، وما درجت عليه الأمة . أما إمامهم ابن تيمية فلم يسلم منه أحد ، حتى أبو بكر وعمر ، وعلى ، وفاطمة . ولا يسعنا تفصيل ذلك الآن .

ومن علامات الراسخين فى العلم أيضا أن تراهم ميالين دائما إلى اليسر والسهولة علما بسماحة الإسلام ، وأنه يسر لا عسر فيه ، وعملًا بما كان عليه — صلى الله عليه وسلم — مع المسلمين ، وأنهم لا ينكرون إلا ما أُجمع على إنكاره ، إلا ما اختلف فيه ، كما كان حال أئمة الهدى بعضهم مع بعض ، وأن كل ما كان محلاً للاجتهاد والنظر كان الأمر فيه واسعا ، متمسكين فى ذلك بأن المجتهد إذا أخطأ كان له أجر ، وإذا أصاب كان له أجران ، كما فى الصحيح .

ومن علاماتهم أنهم لا يقدسون أنفسهم ، ولا يحتقرون غيرهم ، علمًا منهم أنهم غير معصومين ولا مقدسين ، فلا يوجبون على غيرهم أن يرجع إلى رأيهم ، ولا يفرضون طاعتهم على الناس فرضًا ، كما فعل الخوارج فيما مضى ، وكما يفعلون الآن .

ومن علاماتهم أنهم يجادلون غيرهم بالتى هى أحسن ، وأن الحق إذا ظهر على يد غيرهم اتبعوه ، كما هو معروف من سيرة السلف الصالح أما أرباب الأهواء فهم على العكس من ذلك كله ، وإن صاموا وصلوا ، وعملوا من ظواهر العبادات ما يحقر أحدنا صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ..

وقد أخبرنا — صلى الله عليه وسلم — أنهم يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء ، وأنهم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب(١) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخل فيه . وكأنه — صلى الله عليه وسلم — يحذرنا من مخالطتهم ، مخافة أن يسرى إلينا داؤهم كما

(١) بالتحريك : هو الداء المعروف الذى يصيب الكلاب الكلبة .

يسرى داءُ الكلب الذى يسرع انتقاله ويعسر شفاؤه . فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبيًّا عن أُمته .

ولا تكاد تجد لواحد منهم شيئا يروقك من علم أو عمل إلا وجدت بجانبه ما يفسده ويربو عليه . وسر ذلك أنهم يتبعون الهوى ، فهو معهم حيثما كانوا ، ومن كان تابعا لهواه فلا بد أن يضل عن سبيل الله .

وعلامة الإيمان الصحيح ، بل علامة العقل الصحيح أن يتهم المرءُ نفسه ، ويرجع إلى ما عليه الأُمة المعصومة التى شهد لها — صلى الله عليه وسلم — أنها لا تجتمع على ضلالة . وأكثر ما نجد هذه النزعة التى لا تحترم إلا عقلها ولا تقدس إلا هواها ولا تبالى بالتضليل والتكفير — أكثر ما نجدها فى الخوارج الذين هم أضر على الإسلام والمسلمين من كل شىء ، بنص الحديث الصحيح الذى يقول فيه : « إنهم شر الخلق والخليقة » ويقول فى تصلبهم فيما أُشربوا من حب الهوى : « إنهم لا يعودون إلى الإسلام حتى يعود السهم إلى فوقه » أى مع كون أحدنا يحقر صلاته مع صلاتهم . . . إلخ . ولا بدع فى ذلك ، فإن للأَحبار والرهبان من التقشف والزهد فى الدنيا والبعد عن زخارفها وأنواع المجاهدات ما لا يتفق لكثير من أفاضل المسلمين ، ومع ذلك لم يغن عنهم شيئا (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[1] والله يتولى هدى الجميع .

وإنى أعجب لتفريقهم بين توحيد الألوهية والربوبية ، وجعل المشركين موحدين توحيد الربوبية مع قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

(١) سورة فاطر ، الآية ٨

ورُهْبانَهم أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ)[1] ؛ وهل المراد من الأرباب فى الآية إلا المعبودون[2] إلى آخر ما ذكرناه فى مقالنا السابق من تفنيد تلك الدعوى التى ابتدعوها . فإننا لم نسمع أن أحدًا سمي المشركين موحدين غير ابن تيمية وابن عبد الوهاب .

والخلاصة التى نريدها من ذلك كله : أن الذى يجب على كل من يحتاط لدينه ونفسه هو الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلًا ، فإن استباحة دماء المسلمين المصلين المقرين بالتوحيد خطأٌ لا يماثله شىءٌ ، فإن الخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطإ فى سفك دم مسلم واحد ، كما قاله حجة الإسلام الغزالى وغيره .

ولا بد أن ننبه هنا على أن الشرك والكفر لا بد أن يكون معقول المعنى .

ولا أدرى كيف يكفرون بالاستغاثة ونحوها ، فإن المستغيث إن كان طالبًا من الله بكرامة هذا الميت لديه فالأمر واضح ، وإن كان طالبًا من الولى نفسه فإنما يطلب منه على اعتقاد أن الله أعطاه قوة روحانية تشبه قوة الملائكة فهو يفعل بها بإذن الله ، فهل فى ذلك تأليه له ؟ ولو فرضنا جدلًا أننا مخطئون فى ذلك لم يكن فيه شرك ولا كفر ، بل نكون كمن طلب من المقعد المعونة معتقدًا أنه صحيح غير مقعد ، مع

(١) سورة التوبة ، الآية ٣١

(٢) فكيف يقولون إن عندهم توحيد الربوبية وكذلك قوله : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) وقد قال عدي : إننا لم نتخذ الأحبار والرهبان أربابا فإننا لم نعبدهم فدل ذلك دلالة صريحة على أن كل معبود رب . وقد أقره صلى الله عليه وسلم — على هذا . فاذا ترى ؟

أن عمل الأرواح ومواهب الأنبياء والأولياء ثابتة فى الدلائل القطعية ، على الرغم من أنوفهم .

وصفوة القول أننا نقول : هؤلاء المستغيثون يعتقدون أن الله أعطى هؤلاء الأولياء مواهب لم يعطها لغيرهم ، وذلك جائز لا يمكنهم منعه . وهم يقولون : إنهم اعتقدوا فيهم الألوهية ، مع أن ذلك لا يقول به أحد ، إلا عند من أساء الظن بالمسلمين ظلمًا وعنادًا . ولو فرضنا أن ذلك مشكوك فيه ، فهل يجوز التكفير والقتل بمجرد الشك ؟

فالاستغاثة مبنية عندنا على أن الأنبياء والأولياء أحياء فى قبورهم كالشهداء . بل أعلى من الشهداء ، ويمكنهم أن يدعو الله – تعالى – للمستغيث بهم ، بل يمكنهم أن يعاونوه بأنفسهم كما تعاون الملائكة بنى آدم . وللأرواح تصرف كبير فى البرزخ . وعلى ذلك دلائل كثيرة أطنب فيها ابن القيم ، وهو من أئمة هؤلاء . وأثبت ابن تيمية سماع الأموات وردهم السلام فى فتاويه وغيرها ، مستندًا إلى الأحاديث الصحيحة فى ذلك ، وذكر سماع سعيد بن المسيب الأذان من قبره – صلى الله عليه وسلم – أيام الحرة فى كتبه . فإذا استغاث بهم كان كمن يستغيث بالحى سواء بسواء ، لأنهم عندنا أحياء ، بل أعظم نفوذًا ، وأوسع تصرفًا من الأحياء .

ولو تنزلنا غاية التنزل ، وفرضنا أننا مخطئون فى ذلك ، لم يكن هناك وجه للتكفير ، وإنما يقال للمستغيثين ، إنكم أخطأتم فى ذلك ، فإنهم ليسوا أحياء ولا قادرين على ما سبق لنا .

فإذًا يكون الخلاف بيننا وبينهم مبنيًا على أن الأموات يسمعون ويعقلون ويدعون ، أم هم كالجماد لا يستطيعون شيئًا من ذلك ؟ فنحن نقول بالأول ، مستندين فى ذلك إلى الكتاب والسنة ، والأخبار المتواترة عن كرامات الأولياء ومرائى الصالحين وبركات النبى – صلى الله عليه وسلم – التى حصلت للمستغيثين به والاستشفاع به عند زيارته – صلى الله عليه وسلم – وقد نصت على ذلك كتب المذاهب الأربعة ، حتى الحنابلة عند ذكر آداب الزيارة له – صلى الله عليه وسلم – .

وهم يقولون بالثانى ، وأن الأموات قد دخلوا فى عالم العدم ، كما يقول الماديون . وعندما تحرجهم بالبراهين القاطعة يقولون : إنهم أحياء ، ولكنهم مشغولون بالعذاب أو النعيم !

وهذا كلام خيالى ، ولا نقول خطابى ، فإنه أقل من ذلك . وأكبر ظنى أنهم يقولونه بألسنتهم وليس فى قلوبهم . وليس هذا محل شرح ذلك ، فإن المتنعم حر مختار ، ولا ينافى نعيمه أنه يدعو الله لأحد المسلمين ، بل قد يرى من نعيمه أن يساعد ابنه أو محبه بما يقدر عليه .

والدلائل على ذلك متواترة مستفيضة ، خصوصًا المرائى فى ذلك ، كحديث بلال بن الحارث الصحابى – رضى الله عنه – المذكور عند البيهقى وابن أبى شيبة ، وفيه : أنه جاء قبره – صلى الله عليه وسلم – وقال : يا رسول الله استسق لأمتك ، أى ادع الله لهم ، فجاءه فى المنام وقال : « بشر عمر أنهم سيسقون » وقل له : « عليك الكيس الكيس » . ورؤيته – صلى الله عليه وسلم – جعفرًا ذا الجناحين يطير مع الملائكة يبشرون أهل بيته بالمطر . وهو فى المستدرك وغيره بألفاظ

مختلفة . وكرؤية أم سلمة للنبي – صلى الله عليه وسلم – وإخباره إياها بقتل الحسين . وهو فى المسند وغيره .

ويكفى فى ذلك محاجة آدم لموسى عليه السلام ، وما رأى – صلى الله عليه وسلم – ليلة الإسراء من الحوادث الكثيرة ، خصوصاً مراجعة موسى فى أمر الصلاة ، وكفالة إبراهيم لأطفال المؤمنين . وانظر كيف رأى موسى يصلى فى قبره ، ثم رآه فى السماء السادسة وببيت المقدس مع الأنبياء . وأى استبعاد فى ذلك ؟ وقد قلنا : إن لهم حالة ملكية لا تقاس على أحوالنا .

وإنك لتعرف أن عزرائيل – عليه السلام – لا يشغله قبض عن قبض ، والقبض لا يشغله عن العبادة طرفة عين . على أن حال البرزخ بخلاف حال الدنيا ، وقد قال أبو الطيب المتنبي ما يفيد هذا المعنى وإن لم يكن مما نحن فيه :

كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

« ولكل عالم نواميس تخصه . ومن الغلط البين الحكم على عالم بأحكام عالم آخر » . وقد نهى عمر عن رفع الصوت فى مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . ونهى الإمام مالك المنصور عن رفع صوته كذلك . ونهت السيدة عائشة عن دق الوتد بالدور المجاورة للحجرة الشريفة ، مخافة أن يتأذى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . وقد كانت تدخل مشدوداً عليها إزارها بعد دفن عمر حياء من عمر ، إلى غير ذلك مما هو معروف فى كتب السنن والآثار .

فلو كانوا منقطعين عن هذا العالم تمام الانقطاع على مايقول هؤلاء ، لم يكن لذلك معنى ، خصوصاً ما هو خارج عن المعقول فى العادة ، كعرض الأعمال عليه ، واستغفاره لنا – صلى الله عليه وسلم – ، ورد السلام على كل من يسلّم عليه ، وهو ثابت لا مراء فيه . وقد كتبنا فيه فى العام الماضى .

وقد نهى – صلى الله عليه وسلم – عن أذية الميت ، وكسر عظمه والجلوس على قبره ، مخافة تأذيه . إلى غير ذلك ، وهو كثير . ولا يمكننا فى هذه العجالة إلا أن نلمح إليه ، وندل على ماوراءه .

ولا نزال نكرر إنه إذا لم يكن فى هذا إلا ما كان فى حديث المعراج : من أسف سيدنا موسى على بنى إسرائيل ، ومراجعة النبي فى أمر الصلاة ، واجتماع الأنبياء فى بيت المقدس وخطبهم ، لكفى .

وقد ذكر ابن القيم فى كتاب الروح حديث مذاكرة الأنبياء فى أمر الساعة ، وأنه إذا جاء عيسى – عليه السلام – كانت كالحامل المتم (1) فلو كانت الأرواح على ما يقولون لم يكن لهذا معنى .

ومع كل هذا نسلم لهم صحة ما يقولون ، ونفرض أننا نحن المخطئون ، فهل يوجب ذلك شركاً أو كفرا ؟ وقد قلت لبعض أذكياء العامة فى المولد الحسينى – وقد قال يا رسول الله – : إن الوهابية يكفرونك بقولك : يا رسول الله ، كما فى الهدية السنية وغيرها ، فقال إن كنا نقول يا رسول الله على ما نريد ، فلا معنى للكفر ، وإن كنا نقوله على

---

(1) وقد جاء فى الأحاديث الصحيحة أنهم يحجون ويلبون . ونسأل الله أن يكفينا شر المتعسفين .

ما يريدون من تأليه الرسول ، فنحن كفار . فأعجبنى هذا منه ، فقلت له : وهل يسمعك وأنت هنا وهو بالمدينة ؟ فلم يجب جواباً شافياً .

ونحن نقول : إن هذا الاستبعاد منشؤه قياس الغائب على الشاهد ، وقد عرفنا أن سمع الأجسام لا يصل إلا إلى مسافة محدودة ضئيلة ، ولكن هل عرفنا المسافة التى يصل إليها سمع الأرواح ، وماذا أعطيت من ذلك ؟ وكيف ندرك أن عمر وهو بالمدينة أسمع سارية وهو بنهاوند من أرض العجم ؟ .

وأس الغلط فى هذا وأمثاله أننا نعطى أحكام العوالم المختلفة بعضها لبعض ، مع أن لكل عالم أحكاماً تخصه ، ونواميس ليست لغيره ، فقياس عالم الأرواح على عالم الأشباح من أفسد الأقيسة وأبطلها . والواقفون عند ما عرفوا من أحكام هذا العالم فحسب ، إنما هم الماديون لا أتباع الرسل (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)[1] .

أما قولكم : إنهم يطلبون ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فكلام لا تحقيق فيه ، فهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فإننا نقول أولا :

هب أن الأمر كذلك ، وقد أخطأ ذلك السائل فظن غير الممكن ممكناً ، وغير المقدور للبشر مقدوراً له ، أفيكفر بذلك ، أم يعذر بجهله وخطئه ؟ « وهو لم يعتقد الألوهية على كل حال » .

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

وثانياً – نقول لكم : إننا لم ندع أنه يفعل ذلك استقلالاً من عند نفسه ، بل نقول : إنه يفعله بإذن الله . وبعبارة أخرى نقول : أعطاه من المواهب مالا تعقلونه . وهل عرفتم ما يصح أن يعطيه الله عبيده المقربين وما لا يصح ؟ وهل ثبتت عندكم تلك الحدود التى لا يصح لله أن يتجاوزها مع عبيده ؟ وهل كان الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يرتد الطرف مما يقدر عليه البشر فى نظركم ؟ وهل كان رد عين قتادة – رضى الله عنه – وقد سالت على خده فجاء للنبى – صلى الله عليه وسلم – فردها إليه فكانت أحسن عينيه ، مما يقدرعليه البشر فى رأيكم ؟ وهل رؤية عمر بن الخطاب لسارية وجيشه ببلاد العجم مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إسماعه صوته وهو بنهاوند مما يقدر عليه البشر ؟ !

وهل قول بنى إسرائيل لموسى عليه السلام : (لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ)[1] مما يقدر عليه البشر ؟ إلى غير ذلك ، وهو طويل عريض ، أم الخوارج كلها من هذا القبيل لا يقدر عليها البشر فى العادة ، ولكنه يقدر عليها بإقدار الله إياه ؟ .

وهل تقيسون الأرواح على الأشباح ؟ وهل عرفتم نواميسها وما تنتهى إليه ، أم ذلك قياس الغائب على الشاهد كما قلنا ؟ فهو قياس مع الفارق ، بل مع ألف فارق . وهل إذا رأيتم بنى إسرائيل يطلبون من عيسى – عليه السلام – إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص تقولون : إن هذا مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتم النبى يضرب جبل أحد ويأمره أن يثبت ولا يتحرك ، تقولون : إن ذلك يقدر عليه البشر ؟

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٣٤

وهل إذا رأيتموه يأمر الشجر فيمتثل أمره ، ويخد الطريق خدا ، تقولون : إن ذلك مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتموه وقد نبع الماء من بين أصابعه قلتم : إن ذلك مما يقدر عليه البشر ؟ إلى غير ذلك مما جاء فى الصحيح ، ولا يمكنكم المكابرة فيه .

على أن لنا أن نقول : إن كل شىء مقدور للمبشر بالدعاء ، فما لا يقدر عليه البشر بالذات يستطيعه بالدعاء ، فالفاعل فى الحقيقة هو الله لا غيره ، والذى يستغيث بالنبى مثلا لا يريد منه إلا هذا .

وقد عرفنا أنه — صلى الله عليه وسلم — يستغفر لنا بعد موته ، كما فى الحديث الصحيح : « حَيَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ » إلخ . وقد بينا صحته بلا مزيد عليه فى العام الماضى . ويمكننا أن نتوسع فى هذا المقام كثيراً ، فسماع الموتى وإدراكهم لا شك فيه لمن يؤمن بالله وما جاء عن رسوله — صلى الله عليه وسلم — ، كما قال السيوطى فى منظومته :

سماع موتى كلام الخلق قاطبة ... جاءت به عندنا الآثار فى الكتب

وقد قدمنا أن ابن تيمية نفسه ذكر أن سعيد بن المسيب كان يسمع الأذان والإقامة فى زمن الحرة من قبره — صلى الله عليه وسلم — . وأما جعلهم هذا عبادة ، وعبادة غير الله كفر ، فهو من مجازفاتهم الشنيعة ، فإنهم إذا فهموا أن كل تعظيم عبادة ، أو كل طلب عبادة ، فقد برهنوا على جهلهم ، فإنا رأينا إخوة يوسف قد سجدوا ليوسف ، والملائكة قد سجدوا لآدم ، وليس هناك شىء أبلغ فى التعظيم من السجود ، فإذًا ليس التعظيم شركاً لذاته مهما بلغ أمره . ولو كان ذلك وصفاً

ذاتياً له لوجب ألا يفارقه . فالتعظيم لا يكون عبادة إلا إذا كان معه اعتقاد الربوبية .

وأما الدعاء الذى يتمسكون به ويستدلون عليه بمثل قوله تعالى : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا)[1] إلى آخر الآيات الكثيرة التى نزلت فى المشركين ، فطبقوها على المسلمين ، زاعمين أن الدعاء عبادة ، وعبادة غير الله كفر ، فهو تلبيس لا ينبغى أن يصدر إلا من غاش أو جاهل ، فإن الدعاء مشترك .

فإذا قالوا : إن كل دعاء عبادة ، رد عليهم قوله تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)[2] * (رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلَّا فِرَارًا)[3] * (وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[4] * (إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)[5] إلى غير ذلك ، وورد عليهم أنهم يدعون الأمير والوزير ، فهذا دعاء لغير الله ، فيلزمهم على هذا الفرض أن يكون ذلك شركا ، وأن يكون الدعاء فى تلك الآيات بمعنى العبادة ، وهو ما لا يقوله أحد .

وإن قالوا : إن الطلب من غير الله كفر ، وهذا هو العبادة ، لزمهم كفر العالم كله . ولا معنى هنا للفرق بين الحى والميت ، كما

(١) سورة الجن ، الآية ١٨
(٢) سورة النور ، الآية ٦٣
(٣) سورة نوح ، الآيتان ٥-٦
(٤) سورة يونس ، الآية ٢٥
(٥) سورة القصص ، الآية ٢٥

أوضحناه ، فلا يقول إن مجرد الطلب من غير الله عبادة إلا من لايدرى ما يقول . وإن قالوا : إن الطلب من الأولياء والأنبياء هو الكفر لاغير ، قلنا : إن هذا هو محل النزاع ، وهذه هى الدعوى التى لم يقم عليها دليل ، بل قام على بطلانها ألف دليل ..

وإيراد الآيات النازلة فى حق المشركين العابدين لغير الله لا معنى له ولا غناء فيه ، فهل نظفر منهم بعد ذلك بشىء من الإنصاف ، حتى يرحموا هذه الأمة المسكينة ، فلا يكفروها ولا يستبيحوا دماءها ؟ إنى أشك فى ذلك ، ولا أكاد أتوقعه ، ولكننا نكتب لغيرهم ، خشية أن ينخدعوا بترهاتهم وضلالاتهم .

والخلاصة أن هؤلاء يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، بل هم أقل من ذلك ، فإنهم يقولون مالا معنى له ولا مستند فيه ، تلبيساً على العوام الذين هم كالأطفال يمكن كل أحد أن يأخذهم إلى ما يشاء .

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه : أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال فى ذى الخويصرة التميمى « إِنَّ مِنْ ضِئْضِىءِ هَذَا – أَوْ فِى عُقْبَى هَذَا – قوماً يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ » . وفى بعض الروايات : « سَيَكُونُ فِى أُمَّتِى اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ، لَا يُجَاوِزُ

إِيمَانُهُمْ تَرَاقِيهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ إِلَى فُوقِهِ هُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِى شَىْءٍ » . الحديث . وفى رواية أخرى : « سَيَخْرُجُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ ، يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » الحديث .

وعند مسلم من رواية عبد الله بن أبى رافع : « يَقُولُونَ الْحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، لَا يُجَاوِزُ هَذَا مِنْهُم » . وأشار إلى حلقه . وفى رواية عنده أيضاً : « سَيَكُونُ فِى آخِرِ أُمَّتِى أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ » . رواه بلفظ آخر فقال : « يَكُونُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُون كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُم مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُم ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُم لَا يُضِلُّونَكُم وَلَا يَفْتِنُونَكُم » وجاء فى وصفهم كما فى بعض الروايات عند أبى داود وغيره : « إِنَّهُم تَتَجَارَى بِهِمُ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى فِيهِ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَ فِيهِ » .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى وردت فيهم. فجزى الله نبينا أفضل ما جازى نبيا عن أمته . لقد بلَّغ ونصح وأدى الأمانة حتى تركنا على الحنيفية البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . وهذه الفرق الضالة لا يزال يتجدد شرها ، ويتفاقم أمرها

إلى يوم القيامة . فنى بعض الروايات أنه سيكون آخرهم مع الدجال ، وهم ميئوس منهم ، لحديث البخارى « إِنَّهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ » .

وبعد : فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .

وكل ما يقوله الكذوب يزول بالتحقيق بل يذوب

ولنقتصر على هذا ، ففيه مقنع وكفاية .

الحكم على المسلمين بالكفر[1]

شبهة جسيمة وتشبيه فاسد وحكم باطل

جاءنا هذا السؤال تحت هذا العنوان :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير والمحقق الشهير ، مرشد الضالين وقامع الملحدين ، لسان الإسلام الناطق ، وترجمانه الصادق ، وسيفه الماحق لكل مارق وفاسق ، الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ، حفظه الله وأطال بقاه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فغير خاف على فضيلتكم أن تفسير الشوكانى المسمى « فتح القدير » ، وكان من بين ما قرأناه فيه عند تفسير قوله تعالى فى سورة التوبة : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ)[2] الآية « ص ٣٣٧ من الجزء الثانى » العبارة الآتية التى حكم فيها على عموم المسلمين المقلدين للأئمة المجتهدين بالكفر الصريح ، وحضهم على نبذ كتب الدين : ولم يردعه عن جهره بهذا الحكم الفاسد والرأى المنكر وازع من الدين ولا زاجر من العلم . وهذا نص عبارته :

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثالث — المجلد الرابع — ربيع الأول سنة ١٣٥٢

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣١

وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله وتأثير(١) ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة ، مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ، ونطقت به كتبه وأنبياؤه ، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا ، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء ، فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ، ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه ، فعملتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تغمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين ، ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه ، فأعرتموهما(٢) آذانا صمًّا ، وقلوباً غلفاً ، وأفهاماً مريضة ، وعقولاً مهيضة ، وأذهاناً كليلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياى كتباً كتبتها لكم الأموات من أسلافكم(٣)

---

(١) لعله الإيثار .

(٢) لعل الصواب (فارعيتموهما) .

(٣) ليت شعرى ماذا يريد بكلمة الأموات وماذا دس فيها ، أيريد ألا نأخذ شيئاً إلا عن الأحياء وإذا يضيع الدين كله ، أم ماذا يريد ؟

واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأى أقوال إمامكم وإمامهم ، وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — . ا هـ .

فنلتمس من فضيلتكم دحض هذه الشبهة ، ورد هذه الفرية ، بما آتاكم الله من قوة فى الدين وصلابة فى الحق ، ونشر ذلك بأول عدد من « مجلة الازهر » الغراء . وحبذا لو أتيتم على جميع شبههم ، فكم فى تفسير الشوكانى من الشبه المعسولة المسمومة التى نحا فيها نحو ابن تيمية ، وإن الله لمؤيدكم بروح القدس ما نافحتم عن دينه ، ودافعتم عن كتابه ، وأرشدتم عباده إلى الصراط المستقيم . وختاماً نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يحفظكم ذخرا للإسلام ، ومرشدا للمسلمين ، وتفضل يا سيدى بقبول فائق احترامى .

محمد أحمد عمارة

تلا — منوفية

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فهذا كلام لا يصدر إلا ممن غلظ فهمه وجمدت عواطفه وقسا قلبه وقل احتياطه ، فاستهان بإجماع العلماء وكلام أئمة الهدى الذين لا يقولون فى الدين بشىء إلا إذا كان لهم مستند من كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — كما سنبينه.

وذلك منه اغتراراً بما زعمه لنفسه من زعامة كاذبة واجتهاد باطل ، ولو احتاط فى أمر الدماء وتحرج من خطر التكفير ، أو احترم اتفاق المسلمين وكلام غيره من العلماء المبرزين ، لم يجازف بإلقاء القول على عواهنه ضد أمة بأسرها ، وفيها من العلماء والفضلاء والأولياء والمحدثين والمفسرين وعلماء التوحيد والفلسفة ماأدهش التاريخ وأنطق أعداء الإسلام بفضل الإسلام .

و « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِى لَهَا بَالاً يَهْوِى بِهَا فِى النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً »[1] .

وكل من قدس نفسه واتبع هواه فلابد أن يضل عن سبيل الله ، وكل من امتلأ أنانية وكبراً فلابد أن يحتقر المسلمين ولا يحترم العلماء السابقين[2] (إِنَّ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[3] هؤلاء إذا حللنا نفوسهم وجدناها مملوءة قسوة لا تقل فى وزنها وتقديرها عن قسوة قطاع الطريق ، الذين يستهزئون بسفك الدماء وقتل الأبرياء ، غير أن أولئك يسفكونه ليلا ، وهؤلاء يسفكونه نهارا لو قدروا ، وأولئك يسفكونه خائفين

---

(١) حديث شريف يتفق معناه مع ماورد فى صحيح الإمام البخارى (كتاب الرقاق باب حفظ اللسان عن أبى هريرة رضى الله عنه) .

(٢) وليس أدل على ذلك من أن جهلة أتباعهم يجرمون بل يكفرون من صلى على الرسول بعد الأذان يلا حياء من رسول الله ، ولا تحقيق من العلم ، ولا احتياط فى الدين ، وعندنا خطابات كثيرة من هذا وهو أدل دليل على ماذكرنا فإن علماء المذاهب الأربعة نصوا على استحسانها . وكم لهم من أمثال تلك المجازفات .

(٣) سورة غافر ، الآية ٥٦

وجلين ، وهؤلاء يسفكونه فرحين متبجحين ،[1] وأولئك لا يصفون بألسنتهم الكذب ولا يتقولون على الله ، وربما رجعوا إليه نادمين مستغفرين ، وهؤلاء يلصقون ذلك بدين الله مفترين على الله الكذب قائلين : هذا حلال وهذا حرام ، هذا كفر وذاك إسلام .

فجدير بهم أن يغلق باب التوبة فى وجوههم ، فإنهم من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فكيف يتوبون أو يستغفرون (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَيَشْعُرُونَ)[2]

هذه النزعة نزعة تكفير المسلمين ، والاستهانة بدمائهم هى نزعة الخوارج الذين هم شر الطوائف ، حتى ذهب كثير من العلماء « وتشهد لهم الأحاديث الصحيحة » إلى تكفيرهم . وما نرى طائفة على نقيض ما جاء به الأنبياء من الشفقة والرحمة والمحبة والوئام وعدم الانقسام مثل هذه الطائفة .

وبعد فالقول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد على كل واحد يجافى المعقول قبل أن يخالف المنقول ، فما أدرى بأى قلم يكتبون وبأى عقل يتفكرون ، فإن الناس خلقوا على درجات متفاوتة لايحصيها إلا الله « وإنما العلم بالتعلم » ومبنى هذا الوجود على أن الصغير يرجع إلى الكبير ، والجاهل يرجع إلى العالم ، والضعيف يرجع إلى القوى .

---

(١) وانظر إلى الوهابية مقلدة ابن تيمية وما امتلأ به تاريخهم من حوادث قتل المسلمين واعتقادهم أنهم يشركون ، فهم يتقربون إلى الله بسفك دمائهم ، وتطهير الأرض منهم كما هو معروف .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢

وقد قال – صلى الله عليه وسلم – : « قَتَلوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّ شِفَاءَ الْعَيِّ السُّؤَالُ » قال ذلك فى قوم أفتوا مجروحاً أن يغتسل ويغسل جرحه ولا يتيمم فمات . رواه أبو داود وابن ماجه (١) وقال تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (٢) وقال ، (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٣) فعلة الامر بالسؤال هو الجهل ، والامر المقيد بالعلة يتكرر بتكررها . ومعلوم أن العلماء لم يزالوا يستفتون فيفتون ويتبعهم الناس من غير إبداء المستند ، ثقة بدينهم وأمانتهم ، ومزيد معرفتهم ، حتى شاع وملأ البقاع ولم ينكره أحد ، فكان إجماعاً .

ولو أوجبنا على كل أحد أن يؤهل نفسه للأخذ من الكتاب والسنة وما يجب لذلك لأدى الأمر إلى إبطال المعايش والصنائع ، ولكان تكليفاً بما لا يطاق .

ولا يمكننا أن نطيل فى النصوص الآن ، ولا فيما ورد من خطر تكفير المسلم وعدم احترام دمه وماله وعرضه ، ولكن نقول : إن سنة الله فى البشر أن يرجع الناس فى كل شىء إلى العارفين به المبرزين فيه ، ولو لم يفعلوا ذلك لاختلت أمورهم وفسد نظامهم ، ولأصبح العالم فوضى ، ولكان الهلاك أسرع إليه من السلامة .

---

(١) وكان من حقه على مذهب هؤلاء أن لا يرقى له فإنه إتخذ هؤلاء المسئولين الجاهلين أرباباً من دون الله فكان حقه أن يسخط عليه وإن يحذر من مثل فعله .

(٢) سورة النساء ، الآية ٨٣

(٣) سورة النحل ، الآية ٤٣ وسورة الأنبياء الآية ٧

وانظر لو اجتهد كل إنسان برأيه فى الطب أو ذهب المريض إلى من لا يحسن علاجه ، فماذا تكون النتيجة . وكيف يكون الحال إذا ألقينا بقيادة الحروب إلى الجهال الأغرار أو الجبناء الأغمار ، أوخولنا كل أحد حرية الرأى ورسم الخطط فى مجالدة الأعداء والذود عن بيضة الإسلام ، أفلا تكون النتيجة خراب البلاد وهلاك العباد ! .

وقل مثل ذلك فى التجارة والزراعة وكل حرفة من الحرف وصنعة من الصنائع . وها أنت ذا ترانا إذا أردنا طبيباً لمرض من الأمراض لم يقنعنا أن نذهب إلى طبيب عام بل إلى الطبيب المختص بذلك الفرع الذى وجه كل عنايته إليه ، علماً منا بسعة العلم وأن الأمور تشتبه ، وأن الجهل غريزة فى البشر ، والضعف طبيعة فى الإنسان ، وشعوراً بأنه لا يكاد يخلص من سلطان الوهم وظلمات المشكلات والمتشابهات إلا من قتل العلم بحثاً ، وأحاط بمناحى التفكير خبراً ، وعرف ضعف نفسه فلم يسارع إلى أول رأى فطير ولا أسبق خيال طائش .

هذا كله مركوز فى الطباع يعرفه الجاهل والعالم والصغير والكبير والرجل والمرأة . فليت شعرى هل أصبحت الشريعة أهون من ذلك كله مع ما فيها من الأسرار الدقيقة والمشكلات الخفية والمتعارضات القوية والمرجحات المختلفة والمنسوخات المتروكة والمطلقات المقيدة والعمومات المخصصة والمفاهيم المعطلة والمجملات التى قد يخفى بيانها والظواهر التى لا يراد ظاهرها والمجازات التى تدق قرينتها والكنايات التى تخفى إشارتها وتبعد غايتها ومواقع الإجماع والاختلاف ومباحث القياس المتشعبة ومسالك العلل الخفية وقوادحها المترامية ، إلى أقوال الصحابة

المختلفة وآرائهم المتباينة وما يحتاج إليه ذلك كله من دقة الفهم وإصابة الرأى وأهلية الحكم ، وسعة الاطلاع وطول الباع ، بعد معرفة اللغة العربية وفنونها ، إلى آخر ماذكره الأصوليون فى مباحثهم الطويلة العريضة ، خصوصاً شروط الاجتهاد المبينة هناك ، حتى قال كثير منهم : إن الاجتهاد لايتجزأ لجواز أن يكون لبعض الأبواب علاقة بغيره ، إلى آخر ماقالوا .

فلابد إذاً من الرسوخ فى جميع الأبواب والإحاطة بمظانها ، وما عسى أن يكون فيها من مقيد ومخصص ومعارض ومرجح ، إلى غير ذلك ، وهذا بحر لاساحل له ، ومهامه فيحاء يضل فيها الخريت ، ولذلك كان كثير من السلف الصالح يتحرجون من الفتيا غاية التحرج «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ» .

وقد عرض الخليفة المنصور العباسي وحفيده هارون الرشيد على الإمام مالك أن يحملا الناس على الموطأ فأبى ، وإذا حللت ذلك الإباء وبحثت عن سره وجدته الإخلاص البالغ والدين القيم ، واتهام النفس وعدم تقديسها ، فهو يجوز على نفسه أن يكون مخطئاً وأن يكون الحق مع غيره ، تالياً قوله تعالى : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[١] وقوله عز وجل : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)[٢] (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)[٣] .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣

(٢) سورة النساء ، الآية ٢٨

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

وإن من أول شروط الاجتهاد عندى نور البصيرة وصفاء الذوق وقوة الإخلاص وشدة الخوف والمراقبة ، واتهام النفس الباعث على شدة التحرى ومزيد الاحتياط ، ولا يكفى فى ذلك سعة العلم ولا كثرة الاطلاع .

وكم قد رأينا من كبار الحفاظ من هو أكثر حديثاً من بعض المجتهدين ، ولكن لم يسمح له دينه أن يدعى الاجتهاد ، علماً منه بأنه لم يخلق له ولا وجد فيه استعداده الذى يعرف به روح الشريعة فى كل شىء وذوقها فى أحكامها ومراميها ، وقد قالوا : إن المُحَدِّث كالصيدلى والمجتهد كالطبيب .

ولا بأس أن أفكهك بشىء طريف له مغزى شريف عن بعض هؤلاء المجتهدين العصريين ، ثم نردفهم برؤسائهم المتقدمين الذين كانوا من سعة العلم بالذروة العليا ، ولكن ليس فيهم أناة الأئمة ولا تحريهم ولارزانتهم ووقارهم ، بل كانوا أنانيين متبجحين ، وقلما يأتى المتبجح بخير أو يهدى إلى صواب وقد قال تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[١]

أما هؤلاء الطائشون فلا يعرفون الصبر ولا الإيقان . وعلى الجملة فالأمانة تحتاج إلى استعداد خاص فى طينة النفس وتكوينها «والناس معادن كمعادن الذهب والفضة»[٢] والنحاس لايكون ذهباً أبداً وإن راقتك صفرته وخفيت عنك حقيقته .

(١) سورة السجدة ، الآية ٢٤

(٢) رواه العسكرى مرفوعاً ، وأخرجه الطيالسى وابن منيع والحارث والبيهقى فى حديث بلفظ آخر .

وقد شط بنا القلم ، فلنعد إلى تلك الفكاهة : سئل بعض مجتهدى العصر عن قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ والدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)(١) هل يبقى التحريم فى لحم الخنزير إذا أوصلناه من الغليان إلى درجة تقتل كل مافيه من الديدان التى اكتشفوها الآن ؟ فأجاب مجتهدنا الظريف بأنه لاوجه للتحريم حينئذ ، ويمكننا أن نستنبط ذلك من آخر الآية حيث تقول (إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ)(٢) والتذكية هى التطهير ، فحيث طهر لحم الخنزير مما فيه كان حلالاً داخلا فى هذا الاستثناء .

ولم يفرق حضرته بين التذكية بالذال وهى الذبح ، وبين التزكية بالزاى وهى التطهير (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)(٣) ولا حقق مايرجع إليه الاستثناء فى الآية ، وهذا من البدهيات التى يعرفها صغار الطلبة ، فماذا تقول فى هذا الاجتهاد وذلك التجديد العصرى : أليس هذا أشبه شىء بقول من قالت : إن النساء أفضل من الرجال بنص القرآن ، ثم استدلت بقوله تعالى : (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)(٤) غير مفرقة بين همزة الوصل وهمزة الإنكار فظنت أنه إخبار عن فضلهن ؟ فلا أكثر الله من هؤلاء المجتهدين ولا هؤلاء المجتهدات !

لون آخر :

جاء فى تفسير ابن كثير هذا الحديث الذى رواه الحاكم عن عبادة ابن الصامت أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِى

(١) سورة المائدة ، الآية ٣
(٢) سورة المائدة ، الآية ٣
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٣
(٤) سورة الصافات ، الآية ١٥٣

عَلَى ثَلَاثٍ » ؟ ثم قرأ قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)(١) إلخ . الآيات الثلاث ، ثم قال : « فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » الحديث. قال الحاكم صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه .

فعلق عليه ذلك المجتهد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا خمس لا ثلاث ، ولم يبين حضرته فى الحديث علة تقدح فى صحته غير ما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هى الوصايا مع أن النبى — صلى الله عليه وسلم — يريد بها الآيات لا الوصايا ، والآيات ثلاث بلا شك ، وقد جاء التصريح بذلك فى رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت ، وفيه : « أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِى عَلَى الآيَاتِ » ؟ ثم تلا (قُلْ تَعَالَوْا) إلى ثلاث آيات .

فانظر إلى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائماً على شفا جرف هار ، وكم لهؤلاء من أمثال هذه التعليقات الحمقاء ، فرحم الله امرءا عرف قدره فلم يتعد طوره .

ولنترك هذه الطبقة المتفيهقة المتشدقة على ما بهم من جهل وسخافة ، ولنرجع إلى من قبلهم من رؤسائهم وأئمتهم لنرى إمامهم ابن تيمية الذى قدموه على جميع الأئمة ، وهم فى تلك النزعات الخبيثة على الرغم من دعوى الاجتهاد ، مقلدون له فانون فى تقليده ، كيف منع من شد الرحال لزيارته — صلى الله عليه وسلم — وجعل السفر للزيارة سفر معصية

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥١

لا يصح فيه قصر الصلاة ، خارقاً بذلك إجماع المسلمين ، غير مستحى من سيد المرسلين ! ودليله الذى استند إليه واستنبط منه ما لم يستنبطه أحد من الأولين والآخرين هو منعه — صلى الله عليه وسلم — من شد الرحال إلا لأحد المساجد الثلاثة ، ففهم من ذلك النهى أن الرحال لاتشد للزيارة بناء على خيال قام برأسه أن القصر حقيقى لا إضافى ، ولو كان كما فهم ذلك المجتهد الكبير لكان شد الرحال لصلة الرحم أو زيارة الإخوان أو التجارة أو غير ذلك محرما ، فإذًا تقف مصالح العالم ، وتتعطل أمور الدين والدنيا !

ولو تبصر قليلاً لعلم ما أراد — صلى الله عليه وسلم — من أن المساجد متساوية فى الفضل فكلها سواء إلا هذه المساجد الثلاثة ، وذلك ظاهر لا خفاء فيه ، فإن الأصل أن الشىء يستثنى من جنسه القريب ، فإذا قلنا : ما مات إلا زيد ، كان معناه : ما مات إنسان إلا زيد ، وليس معناه : ما مات حيوان إلا زيد ، ومن فهم ذلك كان من الحيوان لا من الإنسان .

على أننا لو جعلنا القصر حقيقيا لفسدت أمور العالم كما قلنا ، والشريعة إنما جاءت بالصلاح لا بالفساد .

ويلتحق بذلك ما رأيناه فى « فتح البارى » من قول ابن تيمية المذكور : إنه لم يجمع بين إبراهيم وآل إبراهيم فى رواية من الروايات التى وردت فى تعليم الصلاة عليه — صلى الله عليه وسلم — حين سئل عن ذلك ، مع أن الجمع بينهما وارد فى البخارى ، وهو لدى الحفاظ بمنزلة الأجرومية فى النحو ، إلى غير ذلك مما هو معروف عنه .

وهو من كبار — أو كبير — أولئك المجتهدين ، ولو لم يكن له إلا ما هو معروف عنه وعن تلميذه ابن القيم خصوصاً فى نونيته من إثبات الجهة لله تعالى أخذا بالمتشابهات واغتراراً بظواهر الآيات لكان كافياً لكل منصف فى تقدير ما لهم من علم وعقل [1] .

ثم انظر بعد ذلك كله إلى كلام الشوكانى [2] الذى ذكره السائل ، وإلى فهمه الكاسد وقياسه الفاسد ، وهو من كبار هؤلاء أيضاً .

فإن الأحبار والرهبان كانوا يحللون ويحرمون من عند أنفسهم قائلين : ما حللناه فى الأرض فهو محلول فى السماء وما ربطناه فى الأرض فهو مربوط فى السماء ، كما هو معروف عنهم ومسطر فى كتبهم المقدسة ، فضلاً عن تاريخ الكنيسة أو التاريخ العام .

وأما أئمة المسلمين فلم يدعوا لأنفسهم ذلك المنصب الذى لا ينبغى أن يكون إلا لله ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك أو يصدروا عن غير قول المعصوم وسنته التى هم أعرف الناس بها وأحرصهم عليها .

---

(١) ومن الاجتهاد المضحك قول بعضهم إن الأمة إذا زنت جلدت مائة إن كانت بكراً لدخولها فى عموم قوله تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فان تزوجت جلدت خمسين بقوله : (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فالمحصنة عنده أقل من غير المحصنة . فانظر إلى هذا الاستنباط العجيب ، وأعجب منه ما نقل بعضهم عن ابن حزم من أن الإنسان إذا بال فى الماء الراكد نجسه لورود النهى فى الحديث عن ذلك ، فإن بال فى إناء ثم صبه فيه لم يتنجس ، إلى غير ذلك من المضحكات المبكيات من أولئك المجتهدين الذين لايأخذون إلا من الكتاب والسنة . وماأحسن قول ابن الجوزى فى حقهم :

لعمرى لقد أدركت منهم مشايخاً — وأكثر من أدركته ماله عقل

(٢) لما تولى الشوكانى القضاء قال بعض علماء اليمن : وإنا لا ندرى أشراً أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . وهناك ماهو أشد من هذا من أقوال العلماء فى حقه ، ولاداعى إلى نقلها .

وقد صرحوا بذلك فقالوا : إذا خالفنا الحديث الصحيح فاضربوا بقولنا عرض الحائط . فكيف يحل له بعد ذلك أن يقول : إنكم اتبعتم آراءهم ولم تتبعوا الكتاب والسنة ، وكل إنسان يعلم أنهم لم يقولوا من عند أنفسهم ، وإنما يقولون : هذا قول رسول الله وذاك فعله وتلك سنته ، وهم أعرف الناس بذلك وأقدرهم على تعرف ما جاء فيه .

وقد وثق الناس بهم فلم يتهموهم فى دينهم ولا علمهم ولا أمانتهم بعد ما عرفوا أنهم يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

وحاشاهم أن يشرّعوا من عند أنفسهم وهم خير القرون ؛ فإن لم يجدوا شيئاً فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، اجتهدوا ما استطاعوا . وهم أعرف بروح الشريعة ومقاصدها ومناط أحكامها ، ولو لم يفعلوا ما فعلوا لكانت الشريعة الآن لعبة بيد الجهال كما رأيت فيما تلوناه عليك .

وبالجملة فهؤلاء الأئمة قد نظروا فى الشريعة نظر العالم المدقق والأمين الحذر ، فما وجدوه مجمعاً عليه عضّوا عليه بالنواجذ ، وما كان فيه اختلاف أخذوا منه الأقوى والأرجح ؛ لكثرة من ذهب إليه أو لموافقته لقياس قوى ، أو تخريج صحيح من الكتاب والسنة .

وقد كان هذا ميسراً للطراز الأول من المجتهدين حين كان العهد قريبا والعلوم غير متشعبة ومذاهب الصحابة والتابعين معروفة ، على أنه لم يتيسر ذلك أيضاً إلا لنفوس قليلة ، ومع ذلك فقد كانوا مقتدين

بمشايخهم معتمدين عليهم ، ولكن لكثرة تصرفهم فى العلم صاروا مستقلين .

وكيف يقيس عاقل هؤلاء الأئمة على أولئك الرهبان الذين لم يدعوا لأنفسهم منصب النبوة فحسب ، بل تخطوا ذلك إلى منصب الإلٰهية ! فإن النبي يقول من عند نفسه ، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[1] ولذلك قالت الآية : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ)[2] كما اتخذوا المسيح ابن مريم ، فسوت ، بينهما ، وقالت فى آخرها ، (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[3] .

فهل ترانا أشركنا الأئمة بالله تعالى ، أم ذلك كلام من يرسل لقلمه العنان بما يوجب سخط الله والملائكة والناس أجمعين ؟ .

وقد استتبع ذلك ما لا يحصى من المفاسد التى يرتكبها هؤلاء الجهلة ويتشدق بها أغمار من ينتسبون إلى العلم من زعانف القوم وأراذلهم . وقد جر ذلك إلى استباحة الأعراض بل الأموال والدماء ، فهى من السيئات الباقيات التى عليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

فإن تشبثوا بالقياس والاستنباط ، قلنا : ذلك لابد منه على رغم أنوفهم بمقتضى الدلائل العقلية والنقلية ، حتى قال بعضهم : إن من لا يقول بالقياس لا يعد من العلماء ولا يعتبر من أهل الإجماع .

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣
(٢) سورة التوبة ، الآية ٣١
(٣) سورة يونس ، الآية ١٨

وإجمال القول أنهم إذا قالوا إن كل إنسان يأخذ من الكتاب والسنة ولو لم يعرف الفاعل من المفعول فضلاً عن دلالة الإيماء والاقتضاء ومسالك العلة وقوادحها ، ومعرفة المنطوق والمفهوم وما فيه من جدل وكبير عمل ، ومعرفة ما صح وما يعمل به فى فضائل الأعمال ، وما يحتج به فى الحلال والحرام ، وما قيل فى المرسل والمسند ، إلى غير ذلك فضلاً عما قيل فى الرجال من تعديل وتجريح ، وهو بحر لا ساحل له ، وما عسى أن يكون فى الحديث من علة خفية ، مع معرفة تاريخ الأحاديث ليتميز الناسخ من المنسوخ ، ومعرفة المرجحات عند التعارض ومواقع الاختلاف والاتفاق ، حتى لا يخرقوا الإجماع الخ .

نقول إذا أباحوا للناس أن يأخذوا من الكتاب والسنة مع الجهل بذلك كله ، فقد عرضوا الدين للضياع والشريعة للهزء والسخرية ، وكان ذلك منهم جنوناً أو فوق الجنون ، وإن قالوا إنه يقلد العالم فى ذلك كله ، فقد هدموا ما بنوا ، وقوضوا ماشيدوا فأين يذهبون .

« وهل هذا إلا رجوع للتقليد الذى منعوه وتفسير للماء بعد الجهد بالماء[1] » .

وبعد فإنى أعجب كيف يكلفون أرباب الحرف والصناع وعامة السوقة المشتغلين بمعاشهم وعيالهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة ، وليس ذلك فى وسعهم ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ؟ .

(١) وليت شعرى ماذا يريدون منا ؟ أيريدون أن نقلدهم فيما يقولون وهم يحرمون التقليد أم يريدون أن ينازعونا ونحن مجتهدون كما أنهم مجتهدون ؟

ولا أرانى محتاجاً بعد ذلك للإضافة فى الدلائل النقلية والكلام عليها ، فإن الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس . ولولا ظهور تلك الطائفة التى اقتدت بأسلافها من الخوارج الذين هم أسرع إلى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم من الفراش إلى النار ، لما تحرك به قلم ولا تفكر فيه أحد .

ولنختم كلمتنا هذه بتلك الحكاية التى تخفف عنك ما لا قيت من تلك الترهات التى يخجل منها العلم ويبكى لها الدين .

قال مولانا الشيخ محمد عليش — رحمه الله — فى فتاويه : إن ابن حزم كان له مناظرات مع الباجى وهو من كبار علماء المالكية ، فلقى أخاه إبراهيم بن خلف الباجى يوماً فقال له : ما قرأت على أخيك ؟ فقال : قرأت عليه كثيراً ، فقال له ، هلا اختصر لك العلم فأقرأك إياه فى سنة أو أقل ؟ فقال : أو يصح هذا ؟ فقال : أنا أقرئك العلم فى سنة ، فقال : أنا أحب ذلك ، فقال له : أو فى شهر فقال له : ذلك أشهى إلى ، فقال له : أو فى جمعة أو دفعة ، فقال : هذا أحب إلى من كل شيء ، فقال له ، إذا أوردت عليك مسألة فاعرضها على الكتاب ، فإن وجدتها فيه وإلا فاعرضها على السنة ، فإن وجدت ذلك فيها وإلا فاعرضها على مسائل الإجماع . فإن وجدتها وإلا فالأصل الإباحة فافعلها .

فقال له إبراهيم الباجى : أرشدنى إلى ما يفتقر إلى عمر طويل وعلم جليل ، لأنه يفتقر إلى فهم الكتاب ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، ومؤوله وظاهره ، ومنصوصه ، ومطلقه ومقيده وعمومه وخصوصه ،

إلى غير ذلك من أحكامه ، ويفتقر أيضاً إلى حفظ الأحاديث ، ومعرفة صحيحها من سقيمها ، ومسندها ، ومرسلها ومعضلها ، وتأويل مشتبهها وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، إلى غير ذلك ، ويفتقر إلى معرفة مسائل الإجماع وتتبعها فى جميع أقطار الإسلام ، وقل من يحيط بهذا . ا هـ .

وقد قال الإمام أبو بكر بن العربى فى حق هذه الطائفة فى « القواصم والعواصم » : إنها أمة سخيفة تسورت مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على – رضى الله عنه – يوم صفين ، فقالوا : لا حكم إلا لله . وما أدرى أيهما أجهل وأخطر : أطائفة الباطنية أم طائفة الظاهرية ؟

هذا وإنى ألفت نظرك إلى ما أتى به الخوارج والروافض والمعتزلة والظاهرية والوهابية مما تقشعر منه الأبدان وتتبرأ منه الأديان بناء على اجتهادهم المبنى على الوهم دون الفهم :

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، إشفاقاً على القارىء . وربما عدنا إليه مرة أخرى .

طريقة عملية تقضى على عمل المبشرين (١)

فى أيام معدودة قضاء مبرماً

إن هذا الخطر الداهم لا يكفى فى القضاء عليه أن نضيع كثيرا من الزمن فى رسم الخطط لدفعه وسن النظم والقواعد لدرئه ؛ فإنه كالنار تجب المبادرة إلى إخمادها بكل سرعة ونشاط ، أو كالسم إن توانينا فى معالجته سعيا وراء التفكير فيما يجب له من أنواع المعالجة اللازمة حالا ومالا استفحل أمره واشتد ضرره ، وسرى فى جميع أجزاء الجسم فأفسده وأفسد على الطبيب كل علاج .

فالمبشرون جادون فى إفساد تلك الفرائس التى سقطت بين مخالبهم وهم متيقظون مراقبون لحركاتنا ، فلابد أن يعملوا على إبعاد هؤلاء المساكين إلى حيث لا يعلم لهم مقر ، ولا يوقف لهم على أثر ، قبل أن يتم العلاج ، وتنفذ الخطط ، وإن كانت حكيمة فى غاياتها ومقاصدها ، فالساعة رهيبة ، والأمر يوجب العمل المجد السريع ، لذلك أرى ما يأتى :-

---

(١) مجلة الإسلام – السنة الثانية – العدد الثالث عشر – ربيع الأول – سنة ١٣٥٢

واجب القائمين باحباط سعى المبشرين

من العلماء والعظماء

(أولا): يختار العدد الكافى من ذوى الكفاية الدينية والعلمية والوطنية ونرسلهم إلى البلاد التى تقوم بها معاهد التبشير، يتجولون ويتصلون بآباء التلاميذ الذين هم بتلك المدارس، ويبينون لأهل تلك البلاد الخطر المترتب على وجود هذه المدارس، والشر الناجم عن إدخال أبنائهم فيها، ويجب عليهم أن يحملوهم على إخراج أولادهم حالا منها، وليتكلفوا لهم لكل ما يطلبونه من تعليم واستشفاء.

(ثانيا): عليهم أن يجمعوا الناس بوجه عام ويبينوا لهم المضار الدينية والخلقية والقومية من إدخال أبنائهم وبناتهم فى تلك المبانى المشئومة، التى تقام باسم التعليم والرحمة وهى من ذلك براء، ويجب عليهم أن يبصروهم بتلك العواقب الوخيمة التى تعود عليهم وعلى قومهم من تلك المعاهد، ويغرسوا فى نفوسهم روح الكراهية فى القائمين بها، بحيث لا يعاملونهم ولا يخالطونهم بل ولا يحادثونهم، حتى إذا ما وجدوا أنفسهم منبوذين مقاطعين وألفوا معاهدهم خلوا من أبناء المسلمين اضطروا إلى مغادرة البلاد فاستراح العباد من ويلاتهم وطهر الجو من أرجاسهم وعاشت الأمة آمنة على دينها وقوميتها ووحدتها.

(ثالثًا): إذا أعوز القائمين بمقاومة التبشير وجود العدد الكافى من ذوى الغيرة والعلم، فأمامها جماعة الوعاظ والمرشدين والموظفين فى

معظم جهات القطر، يكلفهم فضيلة شيخ الجامع الأزهر بالقيام بأعباء هذا العمل وهو من أخص أعمالهم، فيقومون بتحذير الناس ووعظهم فى المساجد والبيوت والشوارع وفى كل مكان، ويوزعون النشرات على نحو ما يفعل المبشرون بحيث يستنهضون الهمم، ويحفزون العزائم، حفظًا لأبناء المسلمين من المضلين الدجالين الذين يفسدون عقائدهم، ويخرجونهم من دينهم ويوقعون العداوة والبغضاء بينهم وبين أمتهم ووطنهم.

(رابعًا): الاكتتاب، يجب الإسراع بتأليف لجان فرعية فى مختلف نواحى القطر، يكون أعضاؤها من ذوى العلم والدراية والمكانة الذين يعرفون أن هذا العمل جهاد فى سبيل الله فأجر التعب والجد والسهر مذخور عند الله تعالى فيكون عملهم مضاعفًا متواصلًا مقرونًا بالإخلاص والموعظة الحسنة والإرشاد النافع المقبول، حتى يتسنى لهم جمع ما يمكن جمعه من الأمة كل على قدر ما آتاه الله، ولو قرشًا واحدًا على نحو ما كانوا يفعلون فى مشروع القرش.

(خامسًا): يجب أن ينتفع المعوزون وذوو الحاجات من هذا المال أولًا فأولًا، حتى يحس الناس بنفع المشروع ويلمسوا فائدته، فيطمئنوا إلى عمل اللجان ويؤمنوا بأنها ستغنيهم عن ارتياد معاهد وملاجئ ومشافى المبشرين.

(سادسًا): ومما يجب على اللجان الرئيسية عمله أن تستعين — بالحكومة وذوى النفوذ من الكبراء على تنفيذ خططها، وإخراج أبناء المسلمين من بيوت المبشرين، وإعداد الأماكن اللازمة لمداواتهم وتعليمهم

بحيث يتم ذلك قبل السنة الدراسية المقبلة ، وأمامهم وزارة الأوقاف ، والأوقاف الملكية وغيرها . ولدى الأمة كثير من الجمعيات الخيرية فلا بأس أن تلحق هؤلاء المساكين بها وتساعدها الحكومة من جهة واللجان بما تجمعه من جهة أخرى ، إلى أن تتسع دائرة العمل وتنشأ الأماكن المطلوبة الكافية فى أنحاء القطر .

وبعد فإن ما أحدثه المبشرون قد أثار حفيظة الأمة وأجج نار الحقد والبغضاء فى الصدور ونبه فى النفوس عوامل الغيرة على الدين فيجب أن نبادر بالعمل وننتهز هذه الفرصة ، ونستغل هذا الظرف للدين والوطن جميعًا ، والأمة ستعاضدنا وتنصرنا ، وتنفذ كل ما نشير به عليها ، فإن توانينا فترت العزائم ، وضعفت الهمم ، ونامت العواطف وحينئذ لا نصل إلا إلى نتيجة ضئيلة يتغلب عليها المبشرون على طول الزمان :

وربما فات قوما جل أمرهم   من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

واجب الحكومة :

أما الحكومة — ودينها الرسمى الإسلام وهو دين شعبها الغالب — فيجب أن تثبت لهؤلاء المجرمين العادين الدجالين ، أن لها عينًا ساهرة على رعاياها ، وأن تقيم البرهان القاطع على أن غيرتها على عقائد أبنائها وعقول بناتها وشرفهن ، لا تقل عن غيرتها على الأمن العام والمصلحة العامة .

وأى جرم فى نظر العقل أو القانون أكبر من أن جماعة مرتزقة يحتالون بكل أنواع الحيل الدنيئة السافلة على صغار أبناء الأمة

وضعفائها ، ويغرونهم بأنواع المغريات لإفساد عقائدهم وخروجهم من دينهم ، والحيلولة بينهم وبين أهلهم ، إنه والله لأكبر شين فى وجه المسيحية وأفظع عار فى المدنية العصرية الأوربية أن يقوم هؤلاء الجهلة الأغبياء بأمثال هذه المخزيات . ألا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الفضائح تشوه الدين المسيحى شر تشويه وتظهره أمام الناس بأنه لا يقوم إلا على الإجرام والختل والحيلة والدجل .

يجب أن تقوم الحكومة بما يلزمها سواء أكان من جهة السياسة أم من جهة القضاء أم القوانين العامة .

واجب الأمة :

وإنه لمن المؤلم حقًا أن تعرف الأمة نيات هؤلاء الناس وغاياتهم من إقامة دورهم المتنوعة ، ثم تقبل عليهم وتأتمنهم على أفلاذ أكبادها ، وأعز شيء لديها ، يعبثون بهم ، ويخرجونهم من حظيرة الدين ، بل من حظيرة الأمة فى الحقيقة ، لأنه باندماج أولئك الأغرار فى زمرة هؤلاء المفسدين ، قد انقلبوا حربًا على الدين أولًا وعلى الأمة ثانيًا . ولماذا لا يقتدى المصريون بإخوانهم الهنود فى إحكام المقاطعة للمبشرين كما أحكم غاندى وأمته مقاطعة البضائع الأوربية مع شدة حاجتهم إليها ، أفلا تقاطعون أنتم هذه المعروضات الجهنمية التى عرفتم خطرها ولمستم ضررها :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان فى القلب إسلام وإيمان

الدين والعلم (١)

يتوهم بعض الناس أن العلم قد يعادى الدين ويباينه ، لأن بعض النظريات العلمية المعروفة لا تتفق هى وبعض القواعد الدينية ظاهراً . غير أن المتأمل الذى يحقق ويبحث يعلم أن كثيراً من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير ، وأن كثيراً من الآراء العلمية التى كان يرى أصحابها أنها هى الثابتة والتى أفضى إليها البحث ، قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها .

من يتحقق هذا ويعلمه — وهو ما تدل كل الدلائل عليه — يجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية فى ظاهره مخالفاً للدين لا يباينه فى الواقع ونفس الأمر ، وأن الصحيح فى الأمر هو ما ذهب إليه الدين ، وأن الرأى العلمى هو الذى لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه ، وإنا ناقلون لك كثيراً من الشواهد على ذلك ، ولكنى أحب أن أعلمك قبل كل شىء أننا لسنا ممن يعادى الجديد ، أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية ، والمكتشفات الحديثة فى هذا العصر ، إلى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى .

(١) مجلة الأزهر — الجزء السابع — المجلد الرابع — سنة ١٣٥٢

ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقى بها العمران وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الإنسان ؟ ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق بعض الباحثين ، وهى فى الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقى . تلك الظاهرة التى لا يكاد بعض الناس يخلص منها أو ينفك عنها ، هى تلك الكبرياء الممقوتة التى تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثاً وأحاط بها خبراً ، فتراه — وما أوتى من العلم إلا قليلاً — يتكلم فى كل شىء ويحكم على كل شىء ، حتى إنه كثيراً ما يعتقد أن الخارج عما وصل إليه من النواميس وحدده من القوانين لا نصيب له من الصحة ، ما دام مجاوزاً دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره ، وهزىء بما كان يتبجح به من معلوماته ، مبيناً ما كان له من زلات ، وما تورط فيه من جهالات .

وقد ترى ذلك الهازىء الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين وكان فوزه فيما استدركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطغى عقله فتزل قدمه .

ولو وقفوا عند ما وصلوا إليه من المعلومات الحقة التى شهد لها الحس وأقرها الامتحان وقام عليها البرهان ، ولم يتعرضوا لما سوى ذلك ، لكانوا فى أمن من الزلل ، وعصمة من الخطل ، ولكن طغيان نفوسهم أبى عليهم أن يعرفوا قدرهم ، أو ينسبوا أنفسهم لجهل أو قصور .

الخلاصة :

أن من تأمل فيما يتجدد كل يوم من العلم الحديث ، ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون ، لا يشك فى أن العلم البشرى

لا يزال طفلًا ، وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلًا . وهذا هو مقتضى الضعف البشرى ، وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلقته وتكوينه . وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر : أنهم عرفوا ما يمكن وما لا يمكن ظنًا منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون ، غرور يبرأ منه التحقيق العلمى ويستهزىء به النظر الواسع المدقق .

ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة :

١ ـ لو قال قائل : إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلاسفة السابقون قائلًا بالجهل منابذًا للعلم لا يدرى ما يقول ، فإنهم كانوا مجمعين على أن كلاً منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل ، وأن ما سموه علمًا ولم يكن محلاً للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به فى عالم الخرافات ، وإن شهد أهل زمانهم بأنهم المتخصصون فى ذلك .

٢ ـ لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الجواهر كالذهب عنصر بسيط تلقى منهم أشد الإنكار ، والعامة تكون فى جانب المنكرين لا محالة ، لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن . وقد أصبح اليوم إنكار هذا الأمر هو الجدير بأن ينكر ، إلى غير ذلك من الأمور العديدة التى تجدد بها العلم .

٣ ـ هذا الجسم الإنسانى كم فيه من جزء كانوا يظنون أنه لا منفعة فيه ، ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع . وناهيك ما يقولون الآن

فى الغدد ، وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص . ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله فى مخلوقاته فى دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[1] ولا يزال قوله تعالى : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ)[2] صادقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى تقوم الساعة .

ولا ينبغى أن ينخدع منخدع بكثرة ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر « المنظار المعظم » فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون فى بعض الحيوانات التى تسبب بعض الأمراض : إنها تحت المجهر ، يريدون أن المجهر لا يزال قاصرًا عن كشفها ، وإنما عرفوها بآثارها .

ولا يزال كثير من الأمراض مجهول الميكروبات إلى اليوم ، رغم تقدم الأبحاث العلمية والتفنن فى صناعة الآلات الكاشفة .

وكم من شىء فى العقاقير الطبية يعرف تأثيره فى بعض الأدواء ولا يدرى لماذا يكون هذا التأثير ، ولذلك نرى الطب كل يوم فى تطور ، حتى لقد قال لى بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زمانًا طويلًا : إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها فى المدرسة ، وكانت إذ ذاك هى العلم الذى لا يعول على غيره .

وما يدريهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم فى خطأ من قبلهم ؟ وقد قرر ذلك غاية التقرير أحد

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

علماء أوربا فى مجمع ترق العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج الجامعة أثناء أغسطس سنة ١٩٠٤

ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ، ولا يدرك غوره أحد ، ولا ينتهى منته إلى كل مافيه « وأنى للمتناهى أن يبلغ ما لا يتناهى » ؟

وإن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التى تكاد تلحق بالبدهيات أن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشىء وبين عدم الشىء فى نفسه ، وأن الأول لا يستلزم الثانى ، وأن عدم الدليل على الشىء ليس دليلًا على عدمه .

تعليقاتٌ وحقائقُ

كان السكوت خيرًا لكم لو كنتم تعلمون [1]

إنَّ فى البلد علماء وفضلاء فاتقوا الله فى أنفسكم واسكتوا خيرًا لكم

إن المريض إذا أحس بمرضه طلب الدواء فرجى له الشفاءُ ؛ فإذا أعضل المرض أبطل إحساسه فكان ميؤوساً منه ، وذو الجهل المركب لا يحس بجهله فيفعل أقبح القبيح معتقداً أنه من أحسن الحسن ، ويأتى أبطل الباطل زاعماً أنه من أحق الحق .

جهلت وما تدرى بأنك جاهـــل   ومن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى

وأكبر المصائب هو جهل الجاهل بجهله وعدم إحساس المريض بمرضه . وقد ابتلينا ، وهى شر بلايانا بهذا الداء الوبيل وكثر بيننا العليل والدخيل وأى داء أدوأ من الفوضى التى يتبجح فيها الجاهل وينشط فيها الباطل .

كتبنا مقالا بمجلة الإسلام جاء فيه إن بعض الناس قال لى : من لم يعتقد أن الله فى السماء فهو كافر لأن الله يقول : ﴿ ءَأَمِنْتُم مَنْ فِى السَّمَاءِ ﴾ [2] إلخ فقلت له : إن الذى يعتقد ذلك على ظاهره هو الكافر فإن من اعتقد أن لله ظرفاً يحويه ومكاناً يستقر فيه فقد شبهه بخلقه ،

---

(١) مجلة الإسلام — السنة الثانية — العدد الرابع والعشرون — جمادى الآخرة — سنة ١٣٥٢

(٢) سورة الملك ، الآية ١٦

ومن شبهه بخلقه فقد كفر ، وكنت أظن أنهم سيتوارون من ذلك وأنهم لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون .

ولكن طلع علينا الشيخ رشيد بمقال فى جريدة (السياسة) يمثل الجهل والتناقض والتشبيه والتجسيم والإلحاد والوقاحة والبذاءة بكل معانيها ، فلم نعجب لذلك وقلنا « الشيء من معدنه لا يستغرب » ولكنى ولا أكتمك الحقيقة مع سوء اعتقادى فى الشيخ رشيد ماكنت أظن أن يبلغ به الجهل وضعف العقل إلى هذا الحد . فإن من بدهيات العقائد التى تلقيناها أول ما جئنا الأزهر ، بل قبل أن نجيء الأزهر ، أن الله مخالف للحوادث ، وأقمنا على هذه الدعوى ذلك البرهان البدهى وهو أنه لو ماثلها لكان حادثاً مثلها وذلك محال ، ولـكن الشيخ لا يستطيع أن يفهم إلا المحسوسات ، وأحكام المحسوسات والماديات ، وأحكام الماديات . ولذلك حبذ الرأى القائل : بأن الملائكة هى القوى الطبيعية ونقله كذباً وزورا عن بعض المفسرين ، وقد تحديناه أن يذكر ذلك المفسر فلم يحر جواباً ، فاستعداده وتكوينه لا يقبل التنزيه ولا يعرف غير التشبيه « وكل ميسر لما خلق له » وتعالى الله عما يصفون .

وإنا نختصر الطريق فنقول :

إن كنت آمنت بظواهر الايات فأنت مجسم ومشبه وإن صرفتها عن ظاهرها المقتضى للتشبيه والتجسيم فلا خلاف بيننا وبينك لو كنت تعقل ، أو نقول : إذا لم تفهم من الآية أنه مستقر فى السماء أو على العرش وقد أجريتها على ظاهرها كما تقول فما الذى فهمته منها ، وما

الذى آمنت به ؟ وهل تستطيع أن تؤمن بما لا تعقل أو بما تعده محالا . وهل يمكنك أن تفهمنا أنك تؤمن بظواهر هذه الايات مع كونك منزهاً فتجمع بين النقيضين أم هى كلمات قالها قائل فنقلها ناقل فاغتر بها جاهل . إنى لا يمكننى أن أعتقد إلا أنك أحد رجلين : رجل يلبس على الناس ، أو رجل لا يفهم ما يقول ، وإلا فما معنى قولكم : إنه مستو على عرشه حقيقة ، وقولكم : إننا نؤمن بذلك على ظاهره ، ثم تقولون: إنكم غير مشبهين ولا مجسمين ، وإنى أصارحك الحقيقة أننا لا نكتب بحكم ولا نطمع فى هدايتكم ، فإنا يائسون منكم ، وكيف لا نيأس ممن لا يتكلم بالعقل ويتناقض وهو لا يدرى .

وخلاصة القول : إنك إذا كنت تفهم لها معنى آمنت به على ظاهره كما تقول فأخبرنا عنه ، لنثبت لك أنك مشبه بالثلث ، وإن كنت تقول : إنى أنزهه عن مشابهة الحوادث وأثبت ذلك له على ما أراد مما لا أعلم فقد وافقتنا وصرفتها عن الظاهر كما هو رأينا .

ويبقى الخلاف بيننا وبينكم فى أننا نخوض فى تعيين المعنى المراد ، وأنتم لا تخوضون فيه ، وليس هذا إيماناً بالظاهر كما تقولون أو كنتم تعقلون ، بل ليس خلافاً حقيقياً بيننا وبينكم ، فإننا لا نقول بتعيين ذلك المعنى بحيث لا يصح غيره ، فلسنا نريد إلا تنزيهه تعالى عن مشابهة الحوادث وإنما سلكنا هذه الطريقة ليقتنع الذين لا يسهل عليهم التسليم بما لا يعقلون ولا التفويض فيما لا يفهمون .

وهنا نفيدكم فائدة جليلة ، وهى أن مذهب السلف ليس كما تفهمون أو تلبسون ، فإن مذهب السلف يشترك هو ومذهب الخلف

التنزيه المراد من الآية معروف معين ، أو ليس كذلك فالخلف يعينون على سبيل التجويز ، والسلف لا يعينون بل يفوضون . وما فعل المتأخرون ذلك إلا لكثرة المبتدعة والملحدين والزنادقة المشككين للعامة فى زمانهم ، أما ما أنتم عليه فليس مذهباً للسلف ولا للخلف، ولا يتصور أن يكون مذهباً لمسلم يعقل ما يقول .

وقد عرفنا مبدأ لكل طائفة إلا هذه الطائفة فإنهم ليس لهم مذهب مخصوص ، ولا أصول ثابتة يرجعون إليها ، ولا قواعد ممحصة يعولون عليها ، فهى مؤلفة من سائر المذاهب بدون علم ولا تمحيص ، ولا أصول يستندون عليها كسائر الفرق ، فأصبحت فرقة غريبة فى أهل الأهواء وإنما الجامع بينهم فساد الأفكار والاعتراض على الأئمة الأخيار ، وقد نبغوا فى استعمال الوسائل المختلفة ، والتفنن فى عمل (البروبجندات) لظهور أسمائهم ، ولكن من لطف الله وحكمته أن الناس عرفوا ذلك فأصبحوا لا يغترون به ولا يفكرون فيه .

وإنى أعجب لصاحب « المنار » كيف يكتب ما كتب رداً علينا بعد ما قلنا إن من يؤمن بهذه الآيات المتشابهة « على ظاهرها » فهو كافر ، أفلا يعقل قولنا « على ظاهرها » أم يريد أن يكتب ويهوش فحسب ، ولندع مناقشتهم من الوجهة العقلية التى هى صعبة عليهم ونتكلم معهم فى نصوص الكتاب والسنة ، فإنهم يزعمون أنهم من أئمة الحديث وإن كانوا أكذب الناس فى ذلك كما بيناه فى مجلة الأزهر الصادرة فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٥١هـ . فى الكلام مع الشيخ رشيد أيضًا :

فرقة تدعى الحديث ولكن   لا يكادون يفقهون حديثًا

ولندع هذا كله ونسائلهم هذه الأسئلة : لم قلتم – إن الله فى السماء أو على العرش بمقتضى قوله : (أَأَمِنْتُم مَنْ فِي السَّمَاءِ)(١) وقوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(٢) ولم تقولوا : أنه فى الأرض بمقتضى قوله : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)(٣) أو تقولوا : إنه فى جميع الأجواء والنواحى بمقتضى قوله : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)(٤) ولماذا لم تقولوا : إنه فى بيوتنا وأسواقنا بمقتضى قوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)(٥) أو تقولوا : إنه فى قبلة المصلى كما فى الحديث الصحيح . أو تقولوا ، إنه تحت الأرض أو فى باطنها بمقتضى قوله – صلى الله عليه وسلم – : « لَوْ دَلَّيْتُم بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ » .

إلى غير ذلك ما دمتم مؤمنين بها على ظواهرها ، وهى على حقيقتها عندكم كما تقولون ، وهل تقولون بعد ذلك إنه ذو يدين بمقتضى قوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)(٦) أم ذو أيد كثيرة بمقتضى قوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا)(٧) وهل تثبتون له عينًا واحدة بمقتضى قوله : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)(٨) أم أعينًا كثيرة بمقتضى قوله : (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)(٩) . . . إلخ .

(١) سورة ، الملك ، الآية ١٦
(٢) سورة طه ، الآية ٥
(٣) سورة الأنعام ، الآية ٣
(٤) سورة البقرة ، الآية ١١٥
(٥) سورة الحديد ، الآية ٤
(٦) سورة ص ، الآية ٧٥
(٧) سورة يس ، الآية ٧١
(٨) سورة طه ، الآية ٣٩
(٩) سورة القمر ، الآية ١٤

بل نقول والله يعلم بنيتنا واضطرارنا إلى نصح المسلمين : هل تقولون إن لله يميناً من حجر بدليل قوله — صلى الله عليه وسلم — : « الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الأَرْضِ » أم تؤولون بعض هذه النصوص دون بعض ترجيحاً بلا مرجح فتحلونه عاماً وتحرمونه عاماً ؟ أم تؤمنون بتلك المتناقضات كلها على حقيقتها وظاهرها كما صرحتم به ؟ وإن كنتم تقولون ما لا تعقلون ثم تنسبون ذلك إلى السلف كذباً وزوراً وحمقاً وجهلاً .

وقد قلنا إن السلف يوافقون الخلف فى صرف آيات الصفات وأحاديث الصفات عن ظاهرها قطعاً لأنهم منزهون لا مشبهون . وإنما الخلاف بينهم بعد ذلك فى تعيين ذلك المعنى التنزيهى وعدم تعيينه .

ولا بد أن ننبه القارىء الكريم على ما يكون منهم جهلا أو تلبيساً بعد إثبات الجهة بصريح العبارة ، وقولهم إن هذه النصوص على حقيقتها وظواهرها كما قال الشيخ رشيد واعترض علينا فى صرفها عن ظاهرها فجعل الكفر إيماناً والإيمان كفراً ، والجهل علماً والعلم جهلا ، ثم تخبط بعد ذلك فى الخروج من المأزق كما نبينه فى مقال خاص بعد .

نقول إنهم بعد ذلك كله يتبجحون بأنهم سلفيون ومنزهون ، وقد أطنب فى الرد عليهم ابن الجوزى والتقى المغنى بما لا مزيد عليه ، حتى قال ابن الجوزى فى قصيدة طويلة له :

لعمرى لقد أدركت منهم مشايخا   وأكثر من أدركته ماله عقل

يقولون بعد هذا كله إنهم منزهون لا مشبهون ، وهم كاذبون من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

قال فى كشف الظنون : « ذكر ابن تيمية فى كتاب العرش أن الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش وقد أخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، كما ذكر ذلك أبوحيان فى « النهر » انتهى .

ولذلك قال قائلهم فى حق الله تعالى :

فلا تنكروا أنه قاعد   ولا تنكروا أنه يقعده

يريد أن الله قاعد على العرش وأنه يقعد نبيه معه . وقال السيد مرتضى الزبيدى فى شرح كتاب قواعد العقائد من الإحياء عند ذكر الاستواء على العرش ما نصه : « قال التقى السبكى : وكتاب العرش من أقبح كتبه « أى ابن تيمية » ولما وقف عليه الشيخ أبو حيان مازال يلعنه حتى مات بعد أن كان يعظمه .

وقال ابن القيم وهو من كبار أئمتهم فى نونيته المطبوعة المتداولة بين الناس ما تقشعر منه الأجساد وتتفتت منه الأكباد « وإذا كان هؤلاء الذين بلغوا درجة الاجتهاد فيما يقولون مثل ابن تيمية وابن القيم عندما أخذوا بظواهر هذه الآيات ضلوا ضلالا بعيداً . فما بالك بهؤلاء الجهال الذين ليسوا فى العير ولا فى النفير ، وهاك ما قال ابن القيم فى نونيته المذكورة :

والفوق وصف ثابت بالذات من   كل الوجود لفاطر الأكوان

وإنى ألفت نظرك لقوله (بالذات) وهل قال السلف ذلك حتى يقولوه أم هم سلفيون كذابون .

ودونك ما هو أصرح من هذا :

لـكن نفاة الفوق ما وافوا به ... جحدوا كمال الفوق للديان
بل فسروه بأن قدر الله أعـ ... ـلى لا يفوق الذات للرحمان

أما هو فقد وفقه الله تعالى لاعتقاده أن الله فوق عرشه بذاته : فسبحان المنعم المتفضل . ودونك أصرح من هذا :

الله فوق العـرش فوق سمائه ... سبحان ذى الملكوت والسلطان
ولعرشه منه أطيط مثـل ما ... قد أطَّ رحل الراكب العجلان
بل عطلوا منه السموات العلا ... والعرش أخلوه من الرحمن

إلى أن قال :

وسيظهر المختار حقاً قاعـداً ... معه على العرش الرفيع الشأن

وقد بلغت الجرأة أو نقول الجهل والجنون برجل من هذه الطائفة يسمى محمود بن أبى القاسم الدمشقى أنه ألف رسالة سماها « إثبات الحد لله عز وجل وأنه قاعد وجالس على العرش » هذا العنوان وحده كاف فوق الكفاية لإثبات المقصود . ولا عجب فقد سمعت قبل ذلك إمامه ابن القيم وإمام الجميع ابن تيمية . ولابن القيم كتاب فى هذا الموضوع غير نونيته السابقة ، يرد به على الجهمية فيما يزعم ، وقد كنا

نعجب لمن يقول لا تكلمنى بالشرع ، ولم نعلم أن هناك من يقول لا تكلمنى بالعقل .

إلا أنها الأيام قد صرن كلهـا ... عجائب حتى ليس فيها عجائب

وقد أكثرنا من الكتابة فى هذه الموضوعات نصيحة للمسلمين خصوصاً من ابتلاهم الله بقراءة « المنار » وكتب صاحبه الذى عرفت مبلغه من العلم ومنزلته من التوحيد . ولو دققت النظر لعلمت أن هؤلاء لا يعرفون الله ولا يعبدون الله ، فإنهم يعبدون إلهاً مجسماً محدوداً جالساً على العرش « وكل من عبد إلهاً مجسماً فهو عابد وثن لا عابد الله عز وجل » .

وإنا يائسون من هدايتهم وقد قال الله تعالى فى حق قوم فسد استعدادهم : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [1] .

ذلك بعد أن وقفوا على النار كما فى الآية قبلها وقال :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [2] وكيف لا نيأس منهم وقد تحجر صاحب « المنار » فى كل شىء حتى فى أبسط القواعد الصرفية فقد قلنا له إن كلمة (القبوريين) التى يلهج بها لحن فاضح فإن الجمع لا ينسب إلى لفظه فقال : إن القبور بين « علم » فضحكنا منه وقلنا له إن القبور بين ليس بعلم ، ولو كان علماً ما نفعك ذلك

(١) سورة الأنعام ، الآية ٢٨
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

شيئاً ، فإن العلمية المسوغة لذلك هى علمية المنسوب إليه لا المنسوب ، فلم يستطع أن يقول شيئاً ، ولكننا نراه يستعملها حتى الآن ولا يستحى من أساتذة اللغة العربية الذين يتضاحكون فيما بينهم تعجباً من جهله أو جراءته .

ولا أدرى لم لم يجب عما ذكرناه فى مجلة الإسلام من تلبيسه وعدم أمانته فى النقل مع بيان تلك الصحف التى دلس فيها أقبح تدليس ، ومن العجيب أنه يسكت عن ذلك ويرمينا بأننا نقلنا عنه أنه ينسب إلى الشيخ محمد عبده الجهل بالسنة فى (منار سنة ١٣٥٠ بصحيفة ٢١) يرمينا بأننا رويناه بالمعنى ولم نفهمه وأنا أوافقه على أن كلامه لا يفهم أو أنه هو لا يفهم وأنه لا يمكننا أن نتفق على معنى واحد . وسنبين أينا الجاهل الذى لا يفهم كلام غيره بل ولا كلام نفسه فى مقالنا التفصيلى بعد ، ولكن مارأيه فى تلك الخيانة التى أثبتناها عليه فى تلك المسائل وذلك الكذب الذى لا يرضاه لنفسه صحفى له شرف وذمة .

وسنرى القراء ما يعرفون به حقيقة الرجل حتى لا يغتروا بكتبه التى تحمل السم فى باطنها ، والكذب فى طياتها ، والجهل فى ثناياها فيتحاموها تحامى الصحيح لأنواع السموم .

ولولا أن مقاله (السياسة) كثير التناقض يحتاج إلى مقال طويل . وكثيرًا ما قلنا لو علقنا على مقالات (المنار) لكان ذلك أكثر من المنار ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . لولا ذلك لفكهناك بشىء من تلك الجهالات المضحكة ولكن موعدنا قريب إن شاء الله .

غلطة دينية خطيرة

يتمسك كثير من الناس بظواهر الآيات وهو غلط فاحش يؤدى إلى الكفر . وقد قال لى قائل : يجب اعتقاد أن الله فى السماء فإنه يقول : (أَءَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ)[١] . الخ فمن لم يعتقد ذلك فهو كافر .

فقلت له إن من يعتقد ذلك على ظاهره هو الكافر ، فإنه جعل لله ظرفاً يحيط به ومكانا يستقر فيه ومن اعتقد فيه ذلك فقد شبهه بخلقه .

ومن شبهه بخلقه فهو كافر : فانظر إلى أولئك الذين يأخذون من كتاب الله على جهالة وعماية (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)[٢] وقد كتبنا فى هذا الموضوع كثيرا لمجلة الأزهر .

ولكن نريد أن نتحف القراء بشىء بديع تراه فى هذا الموضوع تعرف منه مقدار السعة الإلهية والحكمة النبوية فنقول :

من بديع أمر الدين الإسلامى أنه إذا كان ذكر العلو مثلا فى حق الله ذكر مايدفع الأوهام الفاسدة من أن له جهة كالأجسام ، فيذكر مع

(١) سورة الملك ، الآية ١٦
(٢) سورة الكهف ، الآية ١٠٤

هذا أنه فى قبلة المصلى ، وأنكم لو دليتم بحبل فى بئر لهبط على الله ، ويقول : (وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وفِي الْأَرْضِ)[١] .

ويقول : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)[٢] ويقول : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[٣] ويقول : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ)[٤] إلى غير ذلك .

فليس المراد أنه مستقر فى السماء بل المراد أنه ليس من آلهة الأرض التى كانوا يعبدونها ، وهو كثير فى الكتاب والسنة مما يفيد المراد بطريقة واضحة ليس فيها ذلك التعقيد الفلسفى ولا تلك الملتويات المعروفة .

فكان هذا أحسن جواب عن المتشابهات مع المحافظة على مايجب لله من علو القهر والغلبة ومن الإحاطة التى سلب عنها صفات الأجسام وذكر فيها مالا يتصور أن يكون جاريا على نحو ماتعرف وتعهد ، فكان فى ذلك مصلحة العامة وبغية الخاصة (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[٥] .

وما كان يراد بذلك كله إلا أن يأخذ قلوبهم عن الآلهة الأرضية إلى إله السماء الذى يباينها ، فكان محط الفرق أن المشركين لا يفزعون إلا لتلك الآلهة السفلية وكان المؤمنون على عكسهم من التوجه إلى السماء ، وكأن العلو الحسى دليل على اعتقاد العلو المعنوى ، أو كان هذا حال الأجسام وما يليق بها وذاك حال الأرواح وما يناسبها .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٥
(٣) سورة الحديد ، الآية ٤
(٤) سورة المجادلة ، الآية ٧
(٥) سورة فصلت ، الآية ٤٢

كما أن الأجسام تتوجه فى الصلاة إلى الكعبة والأرواح تتوجه إلى خالق الكعبة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[١] وكأن الإنسان فى خلقته العجيبة لايتأتى إصلاحه إلا بهذا ولا يمكنه غير هذا ، مع ملاحظة أن محل السلطان هو السماء فإنها بمنزلة الأسباب ، والأكوان السفلية بمنزلة المسببات أو نقول هى بمنزلة الفاعل ، والأرضون بمنزلة المنفعلات ففيها يتجلى اقتداره وألوهيته سبحانه وتعالى ، وكأنها بمنزلة ديوان الملك فى الشاهد ، منها تصدر الأحكام وإليها تعود . ولله المثل الأعلى .

ولنقف هنا ونرجىء مانريد أن نتكلم عليه من الغلطات الدينية التى لتلك الطائفة المتهورة خصوصًا صاحب المنار الذى أتى بالمضحكات المبكيات .

(١) سورة الفاتحة الآية ٥

ما السر فى أن الإنسان يدعو فلا يستجاب له[1] وما فائدة الدعاء

جاءنا هذا السؤال وفيه تلك الأبيات :

ماقولكم فيمن دعا ودعا الكريم تضرعا
وبكى بدمع هاطل عاما وزادا أربعا
يدعو المجيب بحرقة متوسلا متطلعا
حفظ الدعا وشروطه ودعا بخير طامعا
ومضى يمنى نفسه ورجا عطاء واسعا
فإذا بنحس جاءه واليأس كان اللاذعا
وإذا ببؤس هاله والعسر زاد وروعا
فتحيرت نفس الفتى يدعو فيعكس ما دعا
وتوجمت وتساءلت فى أمر ربى بالدعا
حزن الفتى متألما يبكى ويندب طالعا
يشكو الحياة وذلها يشكو زمانا روعا
وتأثرت من جرحه نفس الفتى فتزعزعا
هل بالدعاء زيادة تأتى وتبقى مرتعا

(١) مجلة الأزهر — الجزء السابع — المجلد الخامس — سنة ١٣٥٣

أو بالسكوت شقاوة ؟ نرجو جوابا مقنعا
كل الشواهد أيدت لاسعد يأتى بالدعا
لكن ذا متعارض بدليل ادعوا تضرعا
أقدار ربى قدرت قبل الخلائق أجمعا

عبد الظاهر العمرى
بساقلته مركز أخميم مديرية جرجا

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .

(إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُون)[1] .

يظهر أنك يا أستاذ متشبع بأن الدعاء لا فائدة فيه ، وهو غلط محض من وجوه عديدة :

أما (أولا) ، فلأن الإجابة لها شروط كثيرة وموانع عديدة ، والأمر المطلق فى قوله تعالى : (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لكُم)[2] مقيد بما فهم من الكتاب والسنة مثل الحديث الصحيح الذى فيه : « إِنَّ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ يَارَبِّ يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّىَ بِالْحَرَام فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ » وقوله — صلى الله عليه وسلم — : « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُم فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ » ، ومثل قوله

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٧
(٢) سورة غافر ، الآية ٦٠

تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)(١) ، ومثل ما بين من أوقات الإجابة وأسبابها ، ومثل ما ورد من أن الداعى يستجاب له ما لم يستعجل : يقول : دعوت الله فلم يستجب لى . فهذا كله يفيدنا أن قوله تعالى : (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ليس على ما تفهم من العموم الذى ينقدح فى نفسك .

وأما (ثانيا) ، فلابد فى الحكمة الإلهية من أن تكون مستعدا لما دعوت به ، وقد فسر بذلك قوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)(٢) . ويقول بعضهم فى قوله : (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) أى ادعونى بلسان الحال لا بلسان المقال . وسر ذلك أن الإمداد على قدر الاستعداد . ويقول سفيان الثورى وهو من كبار أئمة السلف وشيوخ الحديث : « إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ تَرْكُ الذُّنُوبِ » .

وأما (ثالثا) ، فالداعى إما أن يجاب بعين ما طلب ، وإما أن يجاب بغيره . ثم هو بعد ذلك إما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يؤخر إلى الآخرة « وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » .

فعن أبى هريرة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — ما يفيد أن الداعى لابد أن ينال خيراً بدعائه ، فإما أن يعجل له ما دعا به فى الدنيا ، وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يكفر من ذنوبه بقدر ما دعا ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل . قالوا يارسول الله : وكيف يستعجل قال : « يَقُولُ دَعَوْتُ رَبِّى فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِى » .

(١) سورة النحل الآية ٦٢
(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٥

ولكنك لا تريد من إجابة الدعاء إلا حصول مطلوبك أيا كان ، مقدساً علمك ، متحكماً على ربك ، وليس هذا شأن المؤمنين الذين يعتقدون أن الله أحكم الحاكمين. فإن لم تعرف الحكمة فقلد من يعرف الحكمة :

يا حاكمى وحكيمى   أفعالك الكل حكمة

وأما (رابعا) ، فقد أتيت فى صريح كلامك بما يمنع إجابة الدعاء ، فقد سمعت فى الحديث أنه يجاب للداعى ما لم يستعجل : يقول دعوت الله فلم يستجب لى . وأنت تقول ذلك وتقرره وتكرره . وعندك مانع آخر : فإن على الإنسان أن يدعو وهو موقن بالإجابة .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ » أخرجه الترمذى . وأما أنت فيظهر أنك لا تدعو إلا وأنت شاك مضطرب كأنك تجرب ربك .

وأما (خامسا) ، فللدعاء موانع كثيرة وآداب عديدة . ومن أكبر موانعه أكل الحرام الذى لم يدع بيتاً إلا دخله ، ولا جوفاً إلا أصاب من صريحه أو مشتبهه .

ومن شروط الدعاء الإخلاص ، وأن لا يدعو وقلبه مشغول بغير الدعاء ، وأن يكون المطلوب بالدعاء شيئاً لا يتعارض هو والمصلحة الخاصة أو العامة فى حكمة الله تعالى ، وأن لا يكون فيه قطيعة رحم ، إلى غير ذلك .

وأما (سادسا) ، فالأمور كلها موكولة لمشيئة الله تعالى ، الذى هو أعلم بمصالح خلقه ، والذى لا يحابى أحداً فى باب المصلحة التى يقتضيها العدل والنظام .

ولو فرضنا أن حكومة من الحكومات سارت مع أهواء الناس فأعطت كلا ما يطلبه من غير مراعاة الحكمة لا ختل أمرها ، وانتقض بناؤها ، وفشت ضروب الفوضى فيها . وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله ، (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)[1] .

(سابعا) : أما تشبثك بالتقدير الأزلى فليس فيه غناء ، ولا فى دفعه عناء ، فإن الأسباب مقدرة كالمسببات ، والعالم كله مبنى على الحكمة ، ولذلك كانت الأسباب مشروعة أو واجبة . وهل إذا قلنا إن فلانا قدر له أن يلد ولدا : فهل يكون معنى ذلك أنه يلده بغير زواج وبلا سبب ؟ أو أن فلانا قدر له أن يكون من الأغنياء : فهل معنى ذلك أن غناه يتم له بلا تجارة ولا زراعة ولا صناعة ؟ إلى غير ذلك من الأسباب التى قام عليها نظام الكون ؟ لا يا أستاذ ! إن معنى ذلك أن كل شىء جعله فى هذا الوجود على قدر مخصوص ، وبكيفية مخصوصة ، وسبب معين ، ووقت محدود إلخ . وهو يعلم ذلك أزلا . فالأشياء محاطة بتلك الحدود التى يعلمها الله تعالى لا يمكن أن تتخطاها . وليس معنى ذلك أن الأسباب غير مفيدة أو غير مشروعة ، فإن الأسباب من المقدر أيضاً كما قلنا :

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٧١

وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن سأله عن الرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هِىَ مِنْ قَدَرِ اللهِ » أخرجه أبو داود والحاكم . ونحوه قول عمر لأبى عبيدة : « نفِرُّ مِنْ قدَرِ اللهِ إلَى قدَرِ اللهِ » يشير إلى أن الأسباب مقدرة ، وتوصيلها إلى مسبباتها هو من قدر الله ، كما أن الأسباب مقدرة بأسبابها .

وصفوة القول : أنك لا تخرج عن القدر فى جميع تصرفاتك ، فإن الله يعلم ما ستفعله بعد وجودك ، وما تستعمله من الأسباب التى جعلها طريقا لمسبباتها ، ومنها الدعاء . فالكل مقدر معلوم ، ولا تعارض بينه وبين الاختيار ، ولا ما تسلكه من شتى الأسباب ، فأى منافاة بين القدر واستعمال الأسباب يا حضرة الأستاذ ؟ !

هذا وعليك أن تعرف أن لله قوانين كثيرة لا يحيط بها محيط : (وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلا)[1] . فاتهم عقلك ، ولا تتهم ربك ولا نبيك ، واعلم أن السعادة كلها والعلم كله والحق كله إنما هو فيما جاء به الأنبياء .

وقد ساءنى جدا قولك :

كل الشواهـد أيدت ... لا سـعد يأتى بالدعـا

ولو أنصفت لقلت :

نحن ندعو الإله فى كل كرب ... ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو إجابة لدعـاء ... قد سددنا طريقها بالذنوب

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

وماذا تصنع يا أستاذ فى قول القرآن : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وآتيناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ)[1] ، وفى حق يونس : (فَنَادَى فِى الظُّلُماتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ . وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّه رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لنا خَاشِعِين)[2] وفى حق نوح : (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)[3] إلى غير ذلك وهو كثير ؟

وماذا تصنع فى قوله – صلى الله عليه وسلم – : « مَنْ فُتِحَ بَابُ الدُّعَاءِ فُتِحَتْ لهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ » أخرجه الترمذى . وعن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عيه وسلم – : « مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ تعَالَى فِى حَاجَةٍ إلا آتاهُ الله إيَّاها أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ » أخرجه الترمذى . وعن أبى أمامة – رضى الله عنه – قال : قيل يا رسول الله : أى الدعاء أسمع ؟

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٨٣ ، ٨٤
(٢) سورة الأنبياء ، الآيات ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
(٣) سورة القمر ، الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢

قال : « جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرِ ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ » أخرجه الترمذى . وعن عمرو بن العاص – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مَا مِنْ دَعْوَةٍ أَسْرَعَ إِجَابَةً مِنْ دَعْوَةِ غائِبٍ لِغَائِبٍ » . أخرجه أبو داود والترمذى . وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إلا قالَ الْمَلَكُ : وَلَكَ مِثْلُهُ » أخرجه مسلم وأبو داود . فماذا تقول فى ذلك كله ؟

وبعد : فإن الله يسوق السحاب من الأقطار البعيدة ببركة دعاء المسلمين فى الاستسقاء عند انحباس المطر . ولئن كنت جربت عدم إجابة الدعاء – والمانع منك – فقد جرب غيرك إجابة الدعاء فيما لا يحصى من الوقائع . فارجع إلى نفسك باللوم ، واقرأ قوله تعالى : (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[1] ، وقوله : (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[2] (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)[3] . (قلتُمْ أَنَّى هذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[4] . (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[5] اللهم اجعلنا ممن سمع فوعى ، وعلم فعمل ، ثم راقب فأخلص ، وأزل قساوة قلوبنا ، وأنزل علينا سكينة من عندك ، حتى نطمئن لوعدك ، ولا نفرط فى عهدك .

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٧ ، وسورة الأعراف ، الآية ١٦٠
(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٦
(٣) سورة الشورى ، الآية ٣٠
(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٥
(٥) سورة الرعد ، الآية ١١

هذا وقد قال على – كرم الله وجهه – : « لوْ أنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزلُ بِهِمْ النِّقَمُ وتزولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ ، فَزِعُوا إلى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كل فاسِدٍ » ويقول : « إنّ من الإيمانِ مَا يَكُونَ ثَابِتاً مُسْتَقِراً فِى القُلُوبِ ، وَمِنْهُ ما يَكُون عَوارِىَ بَيْنَ القُلُوبِ وَالصدُور إلى أَجَلٍ مَعْلُوم » . ويقول الله تعالى : (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً وَإلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (١) ويقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (٢) ، ويقول : (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (٣) ، ويقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (٤) ويقول : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ) (٥) ، ثم يقول فى آخر الآية : (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (٦) إلى غير ذلك وهو كثير .

ومما له اتصال بهذا المقام قوله تعالى : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (٧) ويقول : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥
(٢) سورة محمد ، الآية ٣١
(٣) سورة العنكبوت ، الآيتان ٢،٣
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٥٥
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦
(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦
(٧) المؤمنون الآية ٥٥، ٥٦

إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) (١) . ويقول : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (٢) ويقول : (ولَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) (٣) . فما أجدرنا أن نقول لك :

أيها الإنسان صبرا ... إن بعد العسر يسرا
أشرب الصبر وإن كا ... ن من الصبر أمرّا

أو نقول :

إذا أعطى فقد أرضى ولكن ... إذا أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا ... وأحمد عند منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت سرورا ... أم الأخرى التى أهدت ثوابا؟

أو نقول :

إن الأمور إذ التوت وتعقدت ... نزل القضاء من السماء فحلها
فاصبر لها فلعلها ولعلها ... ولعل من عقد الأمور يحلها

ولكن :

كم قد سمعنا من الآثار والحكم ... لكن بأذن عن الإنذار فى صمم
همنا بوادى المعاصى آنسين به ... فالقلب من ظلمة الوادى الوخيم عمى

(١) الأنعام الآية ٤٤
(٢) سورة القلم ، الآيتان ٤٤ ، ٤٥
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٨

إنا لنعرف مانسمو به عظما ... لكن أنفسنا تأبى من العظم

أدلة الحق كالأعلام ظاهرة ... لكن غفلتنا تعمى عن العلم

يانفس وقتك سيف فى يدى أمل ... إن كنت نائمة فالموت لم ينم

جدى وكونى على الخيرات عاكفة ... وخالفى مرتع العصيان والظلم

وما أكثر مايفتح الله به للمستعد من الفيض الإلهى الذى يورث النور ويزيل الغرور !

نسأل الله أن يعرفنا قصور عقلنا ، وضيق علمنا ، وكبير ضعفنا ، وعظيم جهلنا بمنه وكرمه .

تنزيه الله عن المكان والجهة (١)

(٣)

جاءنا خطاب من حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد خراشى قال فيه :

كنت بمركز ملوى فاتصل بى أن بعض المتزيين بزى أهل العلم من المرتزقة الذين يجوبون البلاد يشنع على علماء الأزهر ويذكرهم بكل سوء. وهو ينادى بإثبات الجهة الحسية لله جل عن ذلك ،ويقول: إن الله يشار إليه بالإشارة الحسية ،وله من الجهات الست جهة الفوق فقط ، فنرجو من فضيلتكم الإفاضة فى هذا الموضوع على صفحات مجلة (الأزهر) ، حرصاً على العقائد ، ودفعاً لسموم تلك الطائفة التى ليس لها هم إلا إثارة الشعب ، وتشويش الأفكار .

الجـواب

كان يجب ألا نقيم لتلك الطائفة وزنا ، ولكننا مضطرون لتفنيد آرائهم الزائفة وأقوالهم الباطلة ،لنحفظ عقائد العامة وأشباه العامة ، الذين يتبعون كل ناعق ويتأثرون بكل ما يسمعون ،خصوصاً عندما يتلون عليهم الآيات الكثيرة والأحاديث العديدة التى وردت فى هذا الموضوع. وذكر تلك الآيات والأحاديث مجتمعة بدون تعقيب عليها

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثامن — المجلد الخامس — سنة ١٣٥٣

يؤثر فى نفوس العامة أثرا لا يكاد يمحى. وقد شنع الغزالى على من يفعل ذلك غاية التشنيع فى كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام).

وإنا نختصر الطريق معهم فنقول على الإنصاف والوضوح : إن كانوا يأخذون آيات المتشابهات وأحاديث الصفات على ظاهرها ويثبتون معانيها التى وضعت لها فى لغة العرب ، فذلك كفر صراح ، لأنه يستلزم الجسمية والتجزء والتركيب . ولا يعقل غير هذا ، فإن الظرفية مثلا إذا أخذت بمعناها الحقيقى فى مثل قوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)(١) تستلزم أن يكون له مكان محيط به هو أكبر منه بالضرورة . وذلك يستلزم صفات الحوادث لا محالة. وقل مثل ذلك فى الاستواء والنزول واليد والوجه الخ .

وإن قالوا : إن ذلك ليس كاستقرارنا ولا ظرفيتنا الخ فليس له لوازم الظرفية ولا الاستواء المعروفين ، قلنا لهم :فما الذى فهمتموه من تلك الظرفية إذا كنتم تجردونها عن معناها ولوازمها؟ وما هو المعنى الحقيقى الذى تقولون إنه مراد من الاستواء مثلا؟ وبعد تسليم هذا فأنتم موافقون لنا ،وأصبح قولكم إن آيات المتشابه على حقيقتها لغوا من القول ، فإنه لا فرق بيننا وبينكم فى المعنى حينئذ ،فما هذه الطنطنة التى أصمت الآذان وهوشت الأذهان « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » . !

قال بعض أئمتكم المتقدمين على ما به من علم وفلسفة ما معناه « إن القول بأن الله لا جهة له وأنه ليس فوقاً ولا تحتاً الخ.

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

قول بأن الله غير موجود فإن هذه صفات المعدوم لا الموجود » . وغاب منه أن هذا قياس الغائب على الشاهد ،وإلحاق المنزه بالمادى والخالق بالمخلوق ،فإن المادى هو الذى لابد أن يتصف بشيء من تلك الصفات ، أما غير المادى فترتفع عنه هذه الصفات كلها ، بل كونه غير مادى مانع من قبوله لها . وإذا كنا لا نعرف حقيقة الذات ، ويستحيل أن نعرفها ، فكيف نتكلم فى حقائق الصفات أو نقيسها على ما عرفنا من أحوال المحسوسات وأحكام الماديات ؟وكيف نجرؤ على أن نقول : إن النزول على حقيقته وأنه استوى على عرشه بذاته حقيقة كما تقولون ؟ !

ولنقرب ذلك بعض التقريب فنقول: إن الإنسان مثلا لا يتصور فيه إلا أن يكون جاهلا أو عالما ، ولا يتصور ارتفاع الجهل والعلم عنه . ولكن الحجر لا يتصف بكونه عالماً ولا جاهلاً فهما منتفيان عنه بل ممتنعان عليه ،لعدم القابلية . وكيف يثبتون الجهة والاستواء الحقيقى ثم ينفون ما يلزمهما؟ وهل هناك عاقل يقول بثبوت الملزوم حقيقة مع نفى اللازم ؟

وليت شعرى بعد ذلك كله ما هذه الحقيقة التى أثبتوها؟ فإن كانوا لا يدرون منها شيئاً فماذا أثبتوا ؟ وهل هناك حقائق للأشياء عندنا غير ماوضعت له ألفاظها فى اللغة العربية مما عرفناه وحكمنا بأنها إذا استعملت فى غيره كان مجازا يحتاج إلى علاقة وقرينة؟ فهذه هى الحقيقة فى عرف العلماء . ولكن هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً .

على أنهم لو كانوا مستندين إلى ظواهر النصوص ولم يكونوا على هذا الاستعداد الغريب ما كان ينبغى أن يجمدوا على أن الله فوق عرشه حقيقة ، فإنه كما يقول مثلا : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ)(١) يقول : (وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ)(٢) . إلى غير ذلك وهو كثير . والبرهان العقلى قائم على فساد ما يقولون ونقيض ما يعتقدون

* بكل تداوينا فلم يشف ما بنا *

ثم نقول لهم بعد ذلك « ولعلها من الفكاهات العلمية » : كيف تقولون : إن نزوله تعالى كل ليلة كما ورد فى الحديث على حقيقته ، والليل مختلف فى البلاد باختلاف المطالع والمغارب « يعلم ذلك من بحث عنه » فإذا كان ينزل لأهل كل أفق من الآفاق فى ليلهم بمقتضى ما ورد فى الحديث فمتى يستوى على عرشه ، والأرض فى كل وقت من الأوقات بها ليل كما هو معروف ، ولا تخلو ساعة من الساعات من ذلك ، فما هو الوقت الذى يكون مستويا فيه على عرشه بذاته حقيقة كما تقولون ؟

وليت شعرى بعد ذلك كله ما الحامل لهم على إثارة تلك الموضوعات بين العامة وإلقاء الشكوك فى عقائدهم وأصول دينهم ، ولعلهم لا يعرفون من ذلك إلا ما ألفوه فيما بينهم «ولكن أحمق الناس من أعطى قلبا منطبقا ، ولسانا منفهقا ، فإن أراد أن يسكت لم يستطع السكوت ، وإن أراد أن يتكلم لم يحسن الكلام .

(١) سورة الملك ، الآية ١٦
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣

وإن هؤلاء وحقك لا يستحقون المناظرة ، وكيف يناظر من يتناقض ولا يدرى ، أو من لا يفرق بين الجائزات والمستحيلات ! ولقد رأيتهم ينقلون ما لا يفهمون ، وكثيرا ما أغنونا بذلك عن المراجعة . ولكن لا نزال نكرر أننا نخاف على العامة الذين ابتلوا بهم واعتقدوا فيهم . والأمر والله واضح لمن نور الله بصيرته وأراد هدايته (مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)(١) .

ومن عجيب أمر هؤلاء قولهم : إن هذا هو مذهب السلف . فإن السلف منزهون . لا مشبهون . وهل قال السلف : إن الاستواء على حقيقته ، والنزول على حقيقته ، أو أنه استوى بذاته كما قالوا ذلك ؟ اللهم لا ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك !

وقد قال العلماء : إنه لا خلاف فى وجوب التأويل عند تعين شبهة لا ترتفع إلا به . وقال كثير من العلماء « وسننقل نصوصهم بعد » : إن السلف والخلف متفقون على التأويل . وهذا غير ما اشتهر من أن السلف لا يؤولون .

والتحقيق فى ذلك أننا إذا أردنا بالتأويل صرف المتشابه عن الظاهر ، فالسلف والخلف متفقون عليه بهذا المعنى ، وإن قلنا : إن التأويل تعيين المعنى المراد الذى هو غير ما وضع له اللفظ من مجاز أو كناية ، كان السلف غير مؤولين بهذا المعنى .

أما أخذ الآيات والأحاديث على ظاهرها والقول بأنها باقية على حقيقتها فلا ينبغى أن يكون قولا لأحد من المسلمين ، وإنما هو قول

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧

بعض الملل والمشبهة . وهل حقائق اليد والعين والنزول والاستواء شىء غير ما نعرفه فى الماديات ونعهده فى المحسوسات ؟ فما معنى بقائها على ظاهرها وإرادة حقائقها كما يقولون ؟ اللهم إن ذلك مجاف للعقل والمنطق قبل أن يكون مجافيا للدين الذى جاءت به الرسل !

ولكن ما الحيلة وقد ابتلينا بقوم لا يفقهون ولا يسكتون ، وينقلون من النصوص ما يرد عليهم ولا يشعرون !

الخلاصة :

والخلاصة المختصرة المتواضعة أننا نقول لهم : إن كنتم قائلين بالتنزيه فنحن معكم ، فإنا لا نريد من كل ما نكتب إلا إثبات التنزيه . وإن قلتم : إنها صفات للبارى – عز وجل – ولم تقولوا إنها باقية على حقيقتها وهى راجعة إلى كمال الله تعالى ، فنحن قائلون بأعلى صوت : إن كل كمال يجب لله تعالى وإن كمالاته لا تتناهى . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ » .

ثم نقول لكم بعد هذا : إن إثبات هذه الأشياء على ظواهرها ليس من الكمال فى شىء ، وإنما هو النقص بعينه والمحال بذاته . فإن كنتم لا تعقلون إلا الاستواء الحسى والنزول الحسى كما يدل على ذلك قولكم : إن المراد من الاستواء حقيقته « ولا حقيقة له عندنا إلا الحسى المادى » فصرحوا بما انطوت عليه قلوبكم ليعرفكم الناس ، وأريحونا من هذه المداورة التى يناقض آخرها أولها وظاهرها باطنها .

أظن أن القارئ الكريم قد تبين له غاية البيان أنهم إذا نفوا عنه تعالى صفات المحدثات وأحكام الماديات فنحن معهم . ولكن ليعلموا أنهم لم يعرفوا لها بعد ذلك معنى. فلينتهوا عن قولهم : إنه فوق عرشه بذاته حقيقة وإن له جهة الفوق . . الخ ، وإلا كانوا متخبطين متناقضين .

ولو أنصفوا لتركوا الآيات والأخبار على ما جاءت من غير أن يقولوا فيها شيئاً أو يزيدوا عليها كلمة ، ثم يكلون علم ذلك إلى الله تعالى كما فعل السلف . وحينئذ يصح قولهم إنهم سلفيون وإن هذا هو مذهب السلف . أما أن يقولوا : إنه استوى على عرشه بذاته حقيقة ويشنعوا على من لا يقول بذلك ، كما فعل ابن القيم فى (نونيته) وابن تيمية فى كثير من كتبه ، وكما يصرحون به الآن فى كتاباتهم ودروسهم ، فغير مقبول ولا معقول .

ولنسق لك بعض النصوص استئناسا واستروحا : قال اللقانى : أجمع الخلف –ويعبر عنهم بالمؤولة ، والسلف ويعبر عنهم بالمفوضة– على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذى دل عليه الظاهر ، وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال ، وعلى الإيمان بأنه من عند الله تعالى جاء به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– . وإنما اختلفوا فى تعيين محمل له وعدم تعيينه بناء على أن الوقف على قوله تعالى : (وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ) [1] أو على قوله سبحانه : (إِلاَّ اللَّهُ) . ويقال لتأويل السلف : إجمالى ، ولتأويل الخلف : تفصيلى . وقال بعضهم : إن ما عليه

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧

القائلون بالظواهر مع نفى اللوازم هو تأويل أيضًا لما فيه من القول بعدم اللوازم ، مع أن ظواهر الألفاظ أنفسها تقتضيها ، ففيه إخراج اللفظ عما يقتضيه الظاهر ، وإخراج اللفظ عن ذلك لدليل هو عين التأويل .

الكلمة الختامية

والكلمة الختامية أن من أثبت ما ورد فى آيات الصفات وأحاديث الصفات ما ترك من التشبيه شيئاً. وربما عرفت بعض ذلك من مقالنا هذا.

ومن التناقض البين الذى حملهم عليه خوف العامة قولهم : إنها على حقيقتها وليست على ما نعرف ، فكأنهم يقولون : إن النزول ليس نزولا ، والاستواء ليس استواء ، والضحك ليس ضحكاً . وهو بعد باق على حقيقته «فكأنهم أطفال أو يكلمون الأطفال» ! ولكنك ستسمع منهم كلاماً مختلطاً يرضون به العوام ، وكم لهم من تلاعب وتناقض .

وليت شعرى أى فرق بينهم وبين أصحاب الملل فى الاغترار بالظواهر ؟ !

وهؤلاء يقولون : إن هذه النصوص على ظواهرها وحقيقتها ، وما ظاهر القدم فى قوله – صلى الله عليه وسلم – : « لَا تَزَال جَهَنَّمُ تَقول هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ » الحديث – إلا الجارحة ، ولا الاستواء إلا الجلوس ، ولا النزول إلا الحركة المخصوصة .

ولا شك أن من قال استوى بذاته فقد أجراه مجرى الحسيات ، وأنزل النصوص على ما يعرف من صفات المخلوقات .

ولو قالوا : « إننا نقرأ الآيات والأحاديث ثم نسكت » لما أنكر أحد عليهم ، ولكنهم يقولون إننا نحملها على ظاهرها . ولا ظاهر لها عندنا إلا ما نعرفه فى مخاطباتنا ومألوفاتنا ، وإذا ضايقناهم قالوا إنها على حقيقتها ، وهى غير معروفة لنا ولا تشبه شيئاً من صفاتنا .

فواعجباً كيف تكون محمولة على ظاهرها وغير معروفة لنا : أليس ذلك تخبطاً شنيعاً ؟

ثم نقول لهم بعد ذلك : هل تثبتون لله يداً واحدة بمقتضى قوله : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[1] أم يدين بمقتضى قوله : (مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىّ)[2] أم أيديا كثيرة بمقتضى قوله : (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)[3] . وهل تثبتون له عيناً واحدة بمقتضى قوله : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى)[4] أم أعينا كثيرة بمقتضى قوله : (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا)[5] إلى غير ذلك .

ثم نقول : إذا أثبتوا كونه على العرش بمقتضى قوله : (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) فلماذا لا يقولون إنه فى الأرض بمقتضى قوله : (وَهُوَ اللهُ

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١٠
(٢) سورة ص الآية ٧٥
(٣) سورة يس ، الآية ٧١
(٤) سورة طه ، الآية ٣٩
(٥) سورة القمر ، الآية ١٤

فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) وقوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ)[1] وقوله : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)[2] إلخ ؟

* ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا *

ولا نزال نكرر أن من أخذ بهذه الظواهر لم يدع من التشبيه شيئاً .

هذا وقد ورد فى السنة أنه تعالى خمر طينة آدم بيده ، فماذا يقولون فى هذا ؟ وهل يقدمونه على قوله : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[3] أم يصرون على بقاء النص على ظاهره ؟ ولعمر الله لو تكلم بمثل هذه عامى جلف لاستفظعناه منه ؟ فكيف به ممن يدعى العلم والمعرفة ؟ ولكن الإنسان مجمع العجائب والغرائب ، وقد نقل الإمام ابن الجوزى عن ابن حامد الحنبلى أنه قال : الاستواء مماسة وصفة لذاته والمراد به القعود .

قال : « وقد ذهبت طائفة من أصحابنا إلى أن الله تعالى على عرشه ما ملأه ، وأنه يقعد نبيه معه على العرش . فواعجبا من قلة العقول ويا أسفاً من الخطأ فى فهم المنقول ! وأما قولهم : إنه استواء لا كما نعرف بعد أن قالوا إنه على ظاهره ، وإنه باق على حقيقته فهو بمنزلة من يقول : قام فلان وما هو بقائم وقعد وما هو بقاعد . ا هـ .

(١) سورة الحديد ، الآية ٤
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٥
(٣) سورة يس ، الآية ٨٢

كلمة للشيخ الغزالى وأخرى للشيخ محمد عبده

ولنختم هذا المقال بعبارتين جليلتين أولاهما لحجة الإسلام الغزالى والثانية للأستاذ الشيخ محمد عبده :

قال حجة الإسلام الغزالى فى قوله — صلى الله عليه وسلم — : « إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا » : « نقول للمتشبث بظواهر الألفاظ : إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه فما أسمعنا نداءه ، فأى فائدة فى نزوله ؟ ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا ، فلا بد أن يكون ظاهر النزول غير مراد ، وأن المراد به شيء آخر غير ظاهره . وهل هذا إلا مثل من يريد وهو بالمشرق إسماع شخص فى المغرب ، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه ، فيكون نقله الأقدام عملا باطلا ، وسعيه نحو المغرب عبثاً صرفاً لا فائدة فيه . وكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل » ؟

وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى حاشيته على (العقائد العضدية) : « فإن قلت : إن كلام الله وكلام النبى — صلى الله عليه وسلم — مؤلف من الألفاظ العربية ، ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة فيجب الأخذ بمدلول اللفظ كائناً ما كان ، قلت حينئذ : لا يكون ناجياً إلا طائفة المجسمة الظاهريون القائلون بوجوب الأخذ بجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأساً ، مع أنه لا يخفى ما فى آراء هذه الطائفة من الضلال والإضلال ، مع سلوكهم طريقاً ليس يفيد اليقين بوجه ،

فإن للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها ، فلا سبيل إلا الاستدلال العقلى وتأويل ما يفيد بظاهره نقصاً إلى ما يفيد الكمال . وإذا صح التأويل للبرهان فى شىء صح فى بقية الأشياء حيث لا فرق بين برهان وبرهان ولا لفظ ولفظ . وقال فى قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)(1) إن الوحى من الله للنبى – صلى الله عليه وسلم – يسمى تنزيلا وإنزالا ونزولا لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولاً حسياً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض . ومن الغريب أنهم يقولون فى الرد على هذا : إن علو الله على خلقه حقيقة أثبتها لنفسه فى كتابه لا حاجة لتأويله بعلو مرتبة الربوبية . وليت شعرى إذا لم يؤوله بعلو مرتبة الألوهية فماذا نريد منه ؟ وهل بقى بعد ذلك شىء غير العلو الحسى الذى يستلزم الجهة والتحيز ولا يمكن نفى ذلك اللازم عنه متى أردنا به العلو الحسى ، فإن نفى التحيز عن العلو الحسى غير معقول ، ولا معنى للاستلزام إلا هذا . أما هم فينفون اللوازم . ولا أدرى كيف تنفى اللوازم مع فرضها لوازم ؟ هذا خلف . ولكن القوم ليسوا أهل منطق ، والمتتبع كلامهم يجد فيه العبارات الصريحة فى إثبات الجهة لله تعالى ، وقد كفر العراقى وغيره مثبت الجهة لله تعالى . وهو واضح ، لأن معتقد الجهة لا يمكنه إلا أن يعتقد التحيز والجسمية . ولا يتأتى غير هذا .

فإن سمعت منهم سوى ذلك فهو قول متناقض وكلام لا معنى له » .

(1) سورة النور ، الآية ٣٤

أبيات تناسب المقام :

ولا بأس أن نفكهك ببعض الأبيات اقتبسناها من قصيدة طويلة لابن الجوزى رحمه الله فى حق هؤلاء – قال :

لعمرى لقد أدركت منهم مشايخاً ... وأكثر من أدركته ماله عقل
إذا ناظروا قاموا مقام مقاتل ... فواعجبًا والقوم كلهم عُزْل
موائدهم لا يلحق الخل بقلها ... وإن شئت لا خل عليها ولا بقل

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتقاه فجعل له فرقاناً !

حياة الأرواح وإدراكها بعد الموت (١)

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأُستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى فزار (دار مجلة الإسلام) بمناسبة حلول شهر رمضان المكرم فاستقبله الأُستاذ منشئ المجلة وأسرتها بما يليق بمقامه الجليل من الحفاوة والإجلال شاكرين ومقدرين .

وقد تكرم حفظه الله فخص مجلة الإسلام بهذا البحث القيم فى (حياة الأَرواح وإدراكها) بعد الموت فأَماط اللثام عن موضوع علمى خطير كثر فيه الخلاف والجدل فجاءَ مقالة دجوية موفقة من تحقيقات الفليسوف الإسلامى العظيم . وكم للأُستاذ الدجوى من أَياد بيضاء فى خدمة العلم والدين قال حفظه الله وأَكثر فى العلماء من أَمثاله :

عن لنا أَن نكتب كلمة فى هذا الشهر المبارك (شهر رمضان) ، أَعاده الله على الإسلام والمسلمين بما يعلى أَمرهم ويصلح شأْنهم بمنه وكرمه . وقد رأَينا أَنه سيفيض كثير من الكتاب فى حكمة الصوم وأَسراره وما يتعلق بذلك فاستحسنا أَن نجعل الكلمة فى حياة الأَرواح وشؤون الموتى ، راجين أَن نهيج من الناس تلك الذكرى التى كادت تموت فى النفوس بغلبة الماديات وتراكم الظلمات ، مع مافى ذلك من مناسبة

(١) مجلة الإسلام — السنة الرابعة — العدد السادس والثلاثون — سنة ١٣٥٤

شهر الصوم الذى هو شهر الروحانيات وموسم الطاعات والقربات فنقول وبالله التوفيق :

الإنسان بعد الموت هو الإنسان قبل الموت فإن المحس المدرك الفاهم العالم إنما هو الروح لا الجسد بل نقول : إن حياة الجسم ، ماجاءته إلا من الروح فحياة الأَرواح إذا ذاتية وحياة الأَجسام عرضية ، تحدث فيها من تعلق الروح بها ؛ فهى آتية لها من غيرها ، بخلاف الأَرواح التى خلقت للبقاء ولا تذوق طعم الفناء ، وقد قرر ذلك قدماء الفلاسفة أَتم تقرير حتى أَن سقراط لم يجزع من الموت عندما شرب السم بل كان يلاطف أَصحابه ويحادثهم بعد ما شربه منتظرا الموت بجأْش ثابت وصدر رحيب ؛ موقناً أنه ذاهب إلى عالم أَبهى من عالمه وقوم خير من قومه وقد كان يقول لأَصحابه ما معناه : إن فارقناكم فإننا سنكون مع قوم صالحين ويعدد أَساتذته الذين ماتوا قبله .

وقد ذكرنا فى بعض ما كتبنا أَن بلالا كان يبتسم عند الموت ؛ فقيل له فى ذلك . فقال : سنلقى الأَحبة محمدا وحزبه . ومما ينسبه بعضهم للغزالى وبعضهم ينسبه لغيره قوله فى قصيدة وجدوها عند موته :

قل لإخوان رأونى ميتا ... فبكونى ورثوا لى حزنا
أَتظنون بأَنى ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أَنا
أَنا در قد حواه صدف ... لامتحانى فنفيت المحنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا
وأَنا اليوم أُناجى ملأً ... وأَرى الله جهارا علنا

حياة الأرواح وإدراكها بعد الموت (١)

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى فزار (دار مجلة الإسلام) بمناسبة حلول شهر رمضان المكرم فاستقبله الأستاذ منشئ المجلة وأسرتها بما يليق بمقامه الجليل من الحفاوة والإجلال شاكرين ومقدرين .

وقد تكرم حفظه الله فخص مجلة الإسلام بهذا البحث القيم فى (حياة الأرواح وإدراكها) بعد الموت فأماط اللثام عن موضوع علمى خطير كثر فيه الخلاف والجدل فجاء مقالة دجوية موفقة من تحقيقات الفيلسوف الإسلامى العظيم . وكم للأستاذ الدجوى من أياد بيضاء فى خدمة العلم والدين قال حفظه الله وأكثر فى العلماء من أمثاله :

عن لنا أن نكتب كلمة فى هذا الشهر المبارك (شهر رمضان) ، أعاده الله على الإسلام والمسلمين بما يعلى أمرهم ويصلح شأنهم بمنه وكرمه . وقد رأينا أنه سيفيض كثير من الكتاب فى حكمة الصوم وأسراره وما يتعلق بذلك فاستحسنا أن نجعل الكلمة فى حياة الأرواح وشؤون الموتى ، راجين أن نهيج من الناس تلك الذكرى التى كادت تموت فى النفوس بغلبة الماديات وتراكم الظلمات ، مع مافى ذلك من مناسبة

(١) مجلة الإسلام – السنة الرابعة – العدد السادس والثلاثون – سنة ١٣٥٤

شهر الصوم الذى هو شهر الروحانيات وموسم الطاعات والقربات فنقول وبالله التوفيق :

الإنسان بعد الموت هو الإنسان قبل الموت فإن المحس المدرك الفاهم العالم إنما هو الروح لا الجسد بل نقول : إن حياة الجسم ، ماجاءته إلا من الروح فحياة الأرواح إذا ذاتية وحياة الأجسام عرضية ، تحدث فيها من تعلق الروح بها ، فهى آتية لها من غيرها ، بخلاف الأرواح التى خلقت للبقاء ولا تذوق طعم الفناء ، وقد قرر ذلك قدماء الفلاسفة أتم تقرير حتى أن سقراط لم يجزع من الموت عندما شرب السم بل كان يلاطف أصحابه ويحادثهم بعد ما شربه منتظرا الموت بجأش ثابت وصدر رحيب ، موقناً أنه ذاهب إلى عالم أبهى من عالمه وقوم خير من قومه وقد كان يقول لأصحابه ما معناه : إن فارقناكم فإننا سنكون مع قوم صالحين ويعدد أساتذته الذين ماتوا قبله .

وقد ذكرنا فى بعض ما كتبنا أن بلالا كان يبتسم عند الموت ، فقيل له فى ذلك . فقال : سنلقى الأحبة محمدا وحزبه . ومما ينسبه بعضهم للغزالى وبعضهم ينسبه لغيره قوله فى قصيدة وجدوها عند موته :

قل لإخوان رأونى ميتا ... فبكونى ورثوا لى حزنا
أتظنون بأنى ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا در قد حواه صدف ... لامتحانى فنفيت المحنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجى ملأ ... وأرى الله جهارا علنا

قــد ترحلــت وخلفتــكم   لست أرضى داركم لى وطنا
لا تظنوا الموت مقتاً إنــه   لحيــاة وهو غايــات المنى
حىّ ذى الدار نوُوم مغرق   فإذا مــات أطــار الوثنــا
لاترعكم هجمة الموت فمــا   هــو إلا نقلــة من هاهنــا

إلى آخر ما قال .

ومن أعجب العجب — أو نقول من آيات الله الكبرى — أن أصبح فريق كبير من أكابر علماء أوربا وأمريكا يعتقدون حياة الأرواح وبقاءها بعد الموت ، وأن لها أفاعيل لا يمكنها أن تفعلها وهى فى ملابسها الجسمانية ، حينما كانت على ظهر الأرض وهذا يوافق ما ستسمع عن ابن القيم وما سمعت عن الغزالى فى قوله :

كنت قبل اليوم ميتاً بينكم   فحييت وخلعت الكفنــا

فنسبة هذه الحياة المادية لتلك الحياة الروحية فى نظر الغزالى نسبة الموت للحياة . فأهل الدنيا فى رأيه أحق أن يسموا بالأموات من أهل القبور الذين انطلقت أرواحهم من قيود الأبدان فرجعت إلى عالمها الأول تسرح حيث شاءت فى عوالم الله تعالى لا فرق بين أرضه وسمائه، بل وعرشه وجنته ، كما ورد فى الشهداء وغيرهم من عباد الله المقربين ، كل على حسب درجته ومرتبته .

ولنقص عليك شيئاً مما جاء فى السنة من حياة الأرواح وشعورها وإدراكها لعل القارىء يستفيد منها كثيراً فى دينه وعقيدته فنقول :

روى مسلم وغيره أن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه سمع قرع نعال المشيعين إذا انصرفوا عنه .

وروى البخارى عن أنس — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِى قَبْرِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى أَنَّهُ لَيسمعُ قَرْعَ نِعالهِمْ : أَتَاه ملَكَانَ فَأَقْعداهُ فَيقُولَانِ لَهُ ما كُنْتَ تَقُولُ فِى هذَا الرجُل (مُحمد) ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انْظُرْ إِلَى مقْعدكَ مِنَ النَّار أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مقْعداً مِنَ الْجَنةِ . قَالَ النَّبىُّ — صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ — فَرَآهما جميعاً ، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِى كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لَادَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ » .

روى مسلم فى حديث أسماء قريباً منه .

وفى البخارى أن أبا سعيد الخدرى يقول :إن رسول الله —صلى الله عليه وسلم — قال : « إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ قَدِّمُونِى وإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ يَاوَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا يسمعُ صوْتَها كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ ، وَلَوْ سمِعها لَصُعِقَ » فانظرإلى قوله — صلى الله عليه وسلم — يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان تجده يدفع ما عسى أن يتوهمه بعض المتأولين المتعسفين من أن ذلك بلسان الحال لا بلسان المقال .

وفى الصحيحين وغيرهما : مررت ليلة أسرى بى على موسى وهو قائم فى قبره يصلى عند الكثيب الأحمر ، إلى آخر ما ذكر عن الأنبياء فى قصة المعراج المعروفة ، وهو شىء كثير ، ومنه سلام إبراهيم — عليه السلام — على أمة النبى — صلى الله عليه وسلم — وإخباره إياها على لسان نبيها أن غراس الجنة « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » .

ومنها مراجعة موسى – عليه السلام – مرارًا فى شأن الصلاة وقوله : إنى بلوت الناس قبلك ، وكفالة سيدنا إبراهيم لأطفال المؤمنين ، ودعاء الأنبياء له – صلى الله عليه وسلم – وافتخارهم فى بيت المقدس بما آتاهم الله تعالى ، إلى آخر ما لعله ليس بخاف عليك .

وروى مسلم فى صحيحه أن النبى – صلى الله عليه وسلم – رأى موسى ويونس فيما بين الحرمين الشريفين محرمين ملبيين متضرعين إلى الله تعالى .

وروى البيهقى وجمع من المحدثين مرفوعًا بأسانيد صحيحة أنه – صلى الله عليه وسلم – قال : « الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِى قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ » وقوله : (حياتِى خَيْرٌ لَكُم تُحَدِّثُونَ وَيُحَدَّثُ لَكُمْ ، فَإِذَا مُتُّ كَانَتْ وفَاتِى خَيْرًا لَكُمْ يُعْرَض عَلَىَّ أَعْمَالُكُمْ فَإِنْ وَجَدْتُ خَيْرًا حَمَدْتُ اللهَ وإِنْ وجَدْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرتُ لَكُمْ) وهو حديث صحيح خلافا لمن طعن فيه ، وقد أفاض فى ذلك المناوى فى شرحه الكبير على الجامع الصغير ، وكتبنا فيه بما لامزيد عليه فى (مجلة الأزهر) ردا على من أنكره ، فلاعجب أن تعرض عليه الأعمال فيكون منه الإستبشار أو الاستغفار .

ولماذا لا نطيل القول فى حياة أرواح بعد الموت وإثبات شعورها وإدراكها وقد أثبت ذلك – صلى الله عليه وسلم – لأرواح الكفار فضلا عن غيرهم . فقد ناداهم بعد أن ألقوا فى قليب بدر بقوله : يَاعَمْرُو بْنَ هِشَام وَيَافُلَانُ بْنُ فُلَان قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبنا حقًّا فَهل وَجَدْتُم مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَقَالَ عُمَرُ « يَارَسُولَ اللهِ مَاتُخَاطِبُ مِنْ أَمْوَاتٍ قَدْ جيفُوا ،

وفى رواية ماتكلم من أجساد لا أرواح فيها » فقال : « والَّذِى بَعَثَنِى بِالْحَقِّ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وفى رواية بِأَسْمَعَ ، أَقُولُ : مِنْهُمْ » .

وقد تواتر عذاب القبر ونعيمه على أنه يكفينا قول الله تعالى : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُوم السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب)[1] فإذًا العرض على النار غدوًّا وعشيا كان قبل الساعة .

ثم نقول بعد هذا جاءت الأخبار بأن الميت يعلم بزيارة الحى له ويستأنس به فقد روى ابن أبى الدنيا عن أبى هريرة قال : قال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « إِذَا مَرَّ الرَّجُل بِقَبْرِ الرَّجُلِ لَايَعْرِفهُ فَسَلم عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » ورواه أيضا البيهقى فى شُعَب الإيمان عن أبى هريرة مرفوعا ، وكذا الصابونى فى المائتين ، وكذا ابن القيم وابن عبد البر فى الاستذكار والتمهيد عن ابن عباس ، وصححهُ الحافظ عبد الحق الإشبيلى وأورده ابن تيمية فى كتاب (اقتفاء الصراط المستقيم بمخالفة أصحاب الجحيم) : بنحو ماسمعت وقال تلميذه ابن القيم فى كتابه (الروح) أنه صحيح الإسناد .

ولاغرابة فى كون الأموات يردون علينا ولانسمع كلامهم فإن الجن يوجدون معنا يتكلمون ولا نسمع لهم حديثا ، فكذلك رد الموتى على الأحياء وحديث بعضهم مع بعض . وقد روى مسلم فى صحيحه أن

(١) سورة غافر ، الآية ٤٦

النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « إنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِى قُبُورِهَا فَلَوْلَا أَلَّا تَدَافَنُوا (بحذف إحدى التائين) لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِن عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِى أَسْمَعُ مِنْهُ) .

وقد كانوا يعاملون الموتى فى احترامهم معاملة الأحياء ، علماً منهم أنهم ناظرون سامعون مدركون منتقدون كما يدل لذلك مارواه الإمام أحمد والحاكم عن عائشة – رضى الله عنها – قالت :

كنت أدخل البيت فأضع ثوبى وأقول إنما هو أبى وزوجى . فلما دفن معهما عمر بن الخطاب ما دخلته إلا وأنا مشدودة على ثيابى حياءً من عمر . وذكره الخطيب التبريزى فى مشكاة المصابيح .

وفى فتاوى ابن تيمية ما نصه : « ما تقولون فى الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلم الأموات بزيارتهم وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو غير قرابتهم » .

الجـواب

نعم قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء عليهم فيما رواه ابن مالك عن أبى أيوب الأنصارى قال : « إذا قُبِضت نفسُ الْمُؤْمِنِ تلقاها أهلُ الرحمةِ مِنْ عِبَادِ اللهِ كما يتلقون الْبَشِيرَ فى الدُّنْيا فيُقْبِلون عليهِ ويَسألونهُ فيَقولُ بَعضهُم لِبَعضٍ انْظُروا أخاكم لِيَستَريحَ فإنهُ كان فِى كربٍ شديدٍ ، قال فيُقبِلون عليه وَيَسألونه مَا فعلَ فلان مَا فعلت فُلانَة هَل تزوجَت ؟ » الحديث .

وأما علم الميت بالحى إذا زاره ففى حديث ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « مَا مِنْ أحدٍ يَمُرُّ بِقبرِ أخِيهِ الْمُؤمِن يعرِفُهُ فِى الدُّنيا فَيُسَلِّمُ عليهِ إلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيهِ السَّلام » . . . وقال ابن عبد البر : ثبت ذلك عن النبى – صلى الله عليه وسلم – وصححه عبد الحق صاحب الأحكام .

وقال ابن القيم الأحاديث والآثار تدل على أن الزائر للأموات متى جاءهم ، علم به المزور منهم وسمع كلامه وأنس به ورآه .

هذا عام فى حق الشهداء وغيرهم وأنه لا توقيت فى زيارتهم وهذا أصح من أثر الضحاك الدال على التوقيت بيوم الجمعة ويوم بعده ويوم قبله ، وفى مسند الإمام أحمد وأخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن منده أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إنَّ أعمالَكُم تُعرَضُ عَلَى أقارِبِكُم وعَشَائِرِكُم مِنَ الأمواتِ فَإنْ رَأوا خيراً استَبشَروا بِهِ وَإنْ كَانَ غيرَ ذَلِكَ قالُوا اللَّهُمَّ لَا تُمِتهُم حَتَّى تَهدِيَهُم كَمَا هَدَيتَنَا » وفى رواية عن الطيالسى فى مسنده عن جابر بن عبد الله « وَإنْ كَانَ غيرَ ذَلِكَ قَالُوا اللَّهُمَّ أَلْهِمهُم أَن يَعمَلُوا بِطَاعَتِكَ » .

وأخرج الحكيم الترمذى وابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان عن النعمان بن بشير قال : « سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يقول « اتَّقُوا اللهَ فِى إخوَانِكُم مِنْ أهلِ القُبُورِ فَإنَّ أعمَالَكُم تُعرَضُ عَلَيْهِمْ » وفى رواية لابن أبى الدنيا قال : « تُعرَضُ أعمالُكُم عَلَى الموتَى فَإنْ رأَوْا حسنًا استَبشَروا وإنْ رأَوْا سوءًا قَالُوا اللَّهُمَّ راجِعْ بِهِمْ » .

هذا وقد قال ابن القيم فى كتاب الروح : إن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه فى التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى العرش والتعلق به سبحانه وتعالى ما ليس للروح المهينة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه ، فإذا كان هذا وهى محبوسة فى بدنها فكيف إذا تجردت عنه وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت فى أصل نشأتها روحا عالية زكية كبيرة ذات همة عالية ، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواردت الرؤى فى أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد الموت أفعالا لا تقدر على مثلها حال اتصالها بالبدن فى هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد ، والفيالق بالعدد القليل جداً ونحو ذلك .

وكم رؤى النبي – صلى الله عليه وسلم – ومعه أبو بكر وعمر – رضى الله عنهما – فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم ، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المؤمنين وقلتهم .

هذا ما قاله ابن القيم فأنت تراه هو وشيخه ابن تيمية موافقان للعلماء فى هذا كل الموافقة فليس ذلك من مواضع شذوذهما . وقد أوردنا ذلك عنهما كى يعتبر مقلدوهما أرباب تلك الثرثرة الفارغة . فلنقتصر على هذا .

التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح (١)

جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع :

فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى . السلام على فضيلتكم ورحمة الله . وبعد :

فنرجو من فضيلتكم التكرم بالإجابة عن السؤالين الآتيين :

هل هناك علاقة شرعية بين التنويم المغناطيسى وبين استحضار الأرواح وإخبارها بما وقع ؟ وهل الروح المؤمنة التى تكون منعمة بنظرها إلى ما أعد لها فى الآخرة من النعيم العظيم يمكن لأى كان أن يسيطر عليها ويستحضرها ؟ مع علم فضيلتكم بأنه حصلت أشياء كثيرة مدهشة من هذا القبيل .

وحيث إن فضيلتكم مرجعنا العظيم فى مثل هذه المباحث المهمة . فنرجو أن يكون الجواب شافيا منشورا فى مجلة (هدى الإسلام) الغراء . وتفضلوا بقبول احترامنا .

الجواب

يحسن أن نذكر لك سر « التنويم المغناطيسى » وعجائبه ثم نجيبك عما سألت عنه فنقول :

(١) هدى الاسلام – السنة الثانية العدد ١١ سنة ١٩٥٤

إن الروح خلقت من نور كالملائكة وهى بمقتضى طبعها يمكنها الاتصال بالملإ الأعلى الذى هو عالمها الأصلى فيكشف لها شىء من المغيبات ، وترى الأشياء البعيدة جدا ، لأن بصر الروح ليس كبصر الجسم .

أو نقول كما قال الفلاسفة وبعض أهل السنة كالغزالى والحليمى إنها من المجردات فلا حيز لها ، وإذا لم يكن لها حيز استوت عندها الأحياز كلها فترى القريب والبعيد على السواء متى التفتت إليه . ولكن مادامت مشغولة بتدبير هذا الهيكل الجسمانى فإنها تنحصر فيه ولا تتعداه فإنه ليس لها إلا وجهة واحدة .

فإذا تخلت عنه وأغلقت أبواب الحواس فلم تشغلها بأخبار المبصرات والمسموعات إلخ : رجعت إلى عالمها وظهرت عليها تلك الظواهر الروحية التى تقتضيها تكوينها وخصائصها النورية .

وقد تعرف شيئا من ذلك بما تراه فى نومك من المنامات الصادقة ، وإن لم تكن رأيت ذلك فقد سمعت به سماعا مستفيضا أو متواترا . وقد جاء به القرآن فى سورة يوسف عليه السلام ففيها منام صاحبى السجن ومنام الملك ومنام يوسف مع إخوته وأبويه ، وقد قال : (هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا) (١)

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

فالمنوِّم (بكسر الواو) يحاول أن يوصل المنوَّم (بالفتح) إلى تلك الحالة التى تتخلى فيها الروح عن تدبير الجسم وترجع فيها إلى عالمها فتظهر عليها خصائصها الروحية .

وقد ذكروا أن المنوَّم لو اطلقت بجانبه المدافع الضخمة لم يسمعها ولم يتأثر بها لأن الروح فى عالمها الذى لا يتأثر بهذه المؤثرات .

فهذا هو سر ما تسمعه من حوادث التنويم المغناطيسى .

أما استحضار الأرواح المسمى «بالاسبرتزم» فأمره مشتبه محتمل فإنه يجوز أن تتمثل الشياطين بأرواح الموتى ، ويجوز أن يكون ذلك الظهور وتلك الخوارق لأرواح الموتى أنفسهم وما يظهرونه من العجائب .

فسره هو ما شرحناه من خصائص الأرواح التى لها نواميس أخرى غير نواميس المادة والموت ليس إلا انتقالا من دار إلى دار . بل يقولون : إن الروح إذا خرجت من البدن كانت كالسيف إذا خرج من غمده . ولكن ليس ذلك على إطلاقه فإن للأرواح بعد الموت أحكاما كثيرة وليست كلها على السواء . بل بينها من الاختلاف مالا يعلمه إلا الله — تعالى — .

ويجوز أن يكون بعض ما يظهر لهم هناك هو من الشياطين وبعضه من الأرواح . ولذلك يحصل تخليط كثير وصدق وكذب . . إلخ .

أما الأرواح الكبيرة فليس للمستحضر سلطان عليها ولا يستطيع أن يقسرها على الحضور ، ولكن الأمر مفوض إلى اختيارها فإن شاءت أجابته وإن شاءت لم تلتفت إليه .

هذا ما حضرنا فى الوقت وقد كتبناه على عجل وهو كاف فى الجواب عما سألت عنه إن شاء الله .

أفعال العباد

والرد على الجبرية والمعتزلة وتحقيق الحق فى ذلك

ورد إلى إدارة المجلة أسئلة كثيرة من صاحب التوقيع نقتصر منها اليوم على هذا السؤال الذى يهم كثيراً من الناس ، وجوابه الذى أسهبنا فيه . قال السائل بعد الديباجة : نريد من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى أن يبين لنا ما هو الحق من مذهب الجبرية والمعتزلة والأشاعرة فيما يقع منا من أفعالنا ، وأن يفيض القول فى ذلك إفاضة لاتدع فى قلوبنا شكًّا ولا فى نفوسنا حيرة . فإن هذه المسألة مشكلة غاية الإشكال . وكيف لا وقد ورد فى القرآن الكريم آيات تفيد أن الله — سبحانه وتعالى — خلقنا وما نعمل وأنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد (١)

وقد ورد به أيضا عدة آيات أخرى تفيد أن الإنسان هو الذى يشقى نفسه ، وأن الخير منه — تعالى — ، والشر من العبد .

فكيف نوفق بين هذه الآيات ؟ وإذا كان المولى سبحانه وتعالى هو مدبر الأمور ومسير الخلائق حسب إرادته وأنى شاء ، فلم يعاقبهم على ما اقترفوا من السيئات التى قدرها عليهم ؟ .

عبد الرحمن عبد الفتاح
ناظر مدرسة نزلة أحمد يونس

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء الخامس — المجلد السادس — سنة ١٣٥٤

الجواب

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

جاءتنا أسئلة كثيرة حول هذا الموضوع ، ولهذا رأينا أن نطنب فى الجواب ولا نختصر فيه ، فنقول :

مذهب أهل السنة : أن خالق أفعال العباد بعد اختيارهم وإرادتهم ، هو الله – تعالى – ولا يصح أن يطلق اسم الخالق على غيره – عز وجل – ولكن للعبد تدخل فيه باختياره ، وهو أحد الأسباب التى يتوقف عليها وجوده ، بل هو أعظم حلقات سلسلة الوجود وأهمها ، على ما ستسمع بعد ، – إن شاء الله – .

وإنه ليكفى لنصرة مذهب أهل السنة وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البديهة ، وخالفوا المحسوس . فإن كل إنسان يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ؛ وكل ما صادم الضرورة وناقض البديهة فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه .

وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ولا يضربوا من ضربهم ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الإنسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الإنسانى ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم :

فنرى المعتزلة قد غالوا فى التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات ، وزلوا فى هذه المسألة زلة لا تقال .

والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام . والروافض غالوا فى النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول والقول بالعصمة فى غير الأنبياء .

والخوارج أفرطوا حتى كفّروا بالذنب . والمرجئة فرّطوا حتى أغروا الناس بالمعاصى ولم يقيموا لها وزنا ؛ إلى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر إلى ماوقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفى نقيض ، كالعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ؛ فقال بعضهم : إنه لايحد لكونه ضروريا . وقال آخرون : لايحد لكونه من النظريات التى يصعب تحديدها . وكذلك اختلافهم فى الوجود وفى الضوء «إلى آخر مايلهيكم عن أعظم المصاب وأكبر الألعاب » .

ولاغرو فقد قال الله فى حق الإنسان : ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1] . وقال فى بيان طيشه : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[2] . ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾[3] . وإن من ضعفه الذى خلق عليه جهله بضعفه «ولو عرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه » .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٧
(٣) سورة الإسراء الآية ١١

وقد يفسد استعداد الإنسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك . والنور لايزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة . وقد قال تعالى فى حق القرآن الذى هو هدى ونور : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا[1]) .

الرد على المعتزلة وبيان فساد مذهبهم

أما المعتزلة فهم أعظم الناس جهلا وأكثفهم حجابا وأكبرهم جرأة على الله وأبعدهم عن إدراك ماجاء فى كتاب الله وسنة رسول الله وأشدهم مصادمة لصرائح النصوص ، وأكثرهم تأويلاً لها .

ولو تأملوا قليلاً لعلموا أن الموجودات تنقسم إلى ماله الوجود من ذاته ، وإلى ماله الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ، بل إذا اعتبرت ذاته من حيث هى ، كان عدما محضا . وقد عرف فى أحكام الممكن أنه ليس له شىء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة إليه سواء ، فلابد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب لله عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد فى قبضة الحق « وهكذا يجب أن يكون العبد مع الرب الذى شملت ربوبيته كل شىء ، ويجب له بمقتضى إلهيته أن يرجع إليه الأمر كله ، وألا يخرج عن حيطته وهيمنته شىء من الأشياء » أليس من أوضح الأدلة على ذلك أنه تعالى أظهر للناس كل شىء ، وبين لهم كل طريق ؟ ولكن لايمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الأخروية إلا ما أراده الله لهم ، فريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة ؟

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦

فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدى إلى صراط مستقيم ، وكم سمعوا من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ، وكل ذلك واضح المغنى عالى المبنى سافر المحيا غير مبرقع ولامحجوب . فهو على طرف الثمام للمتناول . ولكنهم يمرون به فلا يرون ضوءه المتلألئ ، ولايسمعون نداءه العالى ، وكأن فى آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة .

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت فى الأغبياء الذين لايعرفون كيف يسيرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شىء بحثا ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها وأدق خوافيها ، وجميع مبادئها وغاية مراميها . فكان لسان القدرة الإلهية يقول : أوجدت كل شىء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحا بينا على جانبى الطريق الذى تمرون فيه كل يوم تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض . ومع ذلك كله لايمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تتظللوا بشىء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا إلى سعادتكم بشىء من تلك الوسائل التى جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكأنكم لا تبصرون أو لاتعقلون . أفلا تعرفون بذلك أنكم تحت قدرتنا وإرادتنا ، ولن يمنعنا من ذلك جعل الأعلام واضحات والطرق بينات والدلائل ناطقات ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا وأظهر فى بيان تصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيكم الأبصار التى تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لاترون ذلك النور ، فلا تسلكون أو لاتستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شىء محيط ، وأنه على كل شىء قدير ، فأين تذهبون أيها المحجوبون ، سنستدرجكم من حيث لا تعلمون .

وإنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، وبيدنا ملكوت كل شيء وإلينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجل فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[1] .

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكنا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، أو لم يساعدنا الحظ ، إلى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .

وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله في خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، ورد كل شيء إلى مقاييسهم الفاسدة وأفكارهم الضعيفة ، فناشيء من جهلهم بالله وجهلهم بأنفسهم .

فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلي يستدعي أن تدرك كنه علاقة الخالق بالمخلوق ، وأن يكون علمك بترتيب الأشياء وأسرارها ومايجب لها وما فيها من الحكم مساوياً لعلم الله تعالى — والفكر الإنساني له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه .

وكأن من خواصه أنه لايصل إلى كنه الأشياء وحقائقها ، ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٥

فليس له من العلم بالأشياء إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها . ولذلك كانت الفلسفة في كل زمان مثار الأوهام ، ومعشش الخيالات ، ومنبع الشبهات :

قل لمن يفهم عني ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول

ثَمَّ سر غامض من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول

سبحانك ماعرفناك حق معرفتك ، لافي ذاتك ولافي صفاتك ولافي أفعالك . وهكذا الألوهية يجب ألا يعرفها غيرها ، ولا يحيط بها سواها .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر في كل مافعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمه أو قريبا منه .

ولديك الوجدانيات التي نحس بها ونحن من نوع واحد ، لا يمكن صاحبها أن يفهمها لغيره . بل المحسوسات التي لم نعرفها ولا مايشابهها ، لايمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام لم تذقه قط ولا ذقت مايشبهه ، ولذلك لايمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقاع ، ولا من خلق أكمه تلك الألوان المختلفة وهكذا الأشياء كلها .

وأنت تعلم أن الحيوان البهيمي لايبلغ بما له من الإلهام إلى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه . فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولايستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على مايعرفون .

وقد انكشف لموسى – عليه السلام – وهو هو صحة مافعل الخضر بعد القطع ببطلانه .

ومما يجب الالتفات إليه أن الوهم فى هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع إلى الله فى إمداده بهدايته . وينبغى للإنسان فى هذا المقام أن يتذكر مايعلمه من نفسه ، من شدة الجهل وقلة العلم وتردده فى الأمور وحيرته فى أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارًا ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه .

وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه فى كتابه العزيز بأنه ظلوم جهول . وقد كان ينبغى أن تعلم من التجربة المتكررة ، ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخلق فى معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل ؟

ولنتنزل غاية التنزل فنقول :

لو وهب الله – عز وجل – لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل فى النصف الآخر . فما أتى الإنسان فى توهمه نفى الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجملى بحكمة ربه كاف شاف . وإن علمه بكمال ربه فى جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، مع نقص العبد فى كل شىء وكثرة جهالاته وظلمه وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعا عن اتباع سنة إبليس حيث نازع ربه فى حسن سجوده لآدم .

وهذه هى سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (١) . وقد قال سبحانه وتعالى للملائكة : ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

قال على – كرم الله وجهه – لمن سأله عن مثل هذا : اعلم أيها السائل أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخا .

وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجداله ما أنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – ؟ ولننشد هنا قول الزمخشرى :

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه فى جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وإنك لتعلم الفرق بين قدرتك التى لا تستطيع أن تخلق ذبابًا ، وبين قدرته التى خلقت السموات والأرض ، وما لا يحصى من العوالم . فلتعلم أن الفرق بين علمك وعلمه كالفرق بين قدرتك وقدرته . وقد جاءتنى هذه الأبيات عفوًا :

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٢
(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠

لما علمتُ بما للعلم من سعة ... وما لرب البرايا الحق من عظمه
عزلت عقلى فلم أقبل تخرصه ... فيما يظن لجهل أنه علمه
وعندما قد بحثنا عن حقيقته ... قد استبان لنا ما فيه من تهمه

وأحسن طريق عندى أن تفكر فى دقائق خلقتك العجيبة ، وما أودع فى كل عضو من أعضائك من الأسرار ، وما نيط به من الوظائف ، وما يكتشفه علماءُ الفزيولوجيا من ذلك حتى الآن مما أدهشهم . وكذلك علماءُ الحيوان والنبات والفلك ، حتى قال العلامة الشهير (هرشل) : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية لحكمته . فالجيولوجيون (علماء طبقات الأرض) والرياضيون والطبعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده .

وقد أتينا على كثير من ذلك فيما كتبناه فى هذه المجلة ، خصوصًا فى تفسير قوله تعالى : (إِنَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[1] فهل نشك فى حكمته بعد ما شاهدنا ذلك وأضعافه وأضعاف أضعافه ؟ فعلى العاقل أن يملأ قلبه بالفكر فى المحكم لا فى المتشابه ، (فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)[2] .

وبعد : فلنقل كما قال بعضهم :

إننا نعلم أن لنا إلٰهًا لا شريك له ، فيجب بمقتضى ألوهيته ألا يخرج شىءٌ عن حيطته كما قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ

(١) سورة الجاثية ، الآية ٣
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٧

بِالنَّاسِ)[1] . (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)[2] . ونعلم أن لنا أفعالًا اختيارية لا نشك فى أنها باختيارنا . فلنؤمن بأول السلسلة وآخرها ، ولندع ما بينهما .

ومع كونى أطلت ، أجد فى نفسى باعثًا قويًا أن أتكلم كلمة وجيزة فى فعل الإنسان واختياره ، غير معرج على ما يذكره الأشاعرة فى تفسير الكسب الذى أصبح مضرب الأمثال فى خفائه . فيقال فى كل شىء دقيق أو غير مفهوم : إنه أخفى من كسب الأشعرى . فلهذا لا أريد أن أخوض بك تلك الغمرات التى قلما تخرج منها مقتنع النفس مطمئن القلب ، فأقول وبالله التوفيق .

تقريب لمذهب أهل السنة

الذى هو وسط بين مذهب المعتزلة ومذهب الجبرية بعبارة واضحة

من البدهى أننا نختار الفعل على الترك ، والترك على الفعل ، فى الجزم بحريتنا واختيارنا ، وقد تعلم ما يعارض البدهى أو المحسوس يجب ألا يلتفت إليه ، ويكفى فى سقوطه مصادمته للبديهة كما قلنا فى رد مذهب الجبرية .

ولسنا نشك فى أن لنا تدخلا فى الفعل ، فإذًا لنا شىء فى العمل لا محالة ، وإن كنا نعتقد أن ما يشاء الله كان وما لا فلا ، لأننا لا نستطيع أن نوجد جميع الأسباب التى يتوقف عليها وجود الفعل ،

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٦٠
(٢) سورة هود ، الآية ٥٦

فإن ذلك ، بيد الله وحده ، فهو المهيمن عليه ، والقادر على إيجاده وترتيبه .

وكيف لا يكون لنا تدخل والأسباب الجمادية لها تدخل فى الأشياء كما هو مذهب السلف المأخوذ من القرآن ؟ قال تعالى : (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)[1] . فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به فى الآية الأخرى (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)[2] فالباء للسببية الظاهرة ، وإن كانت الأسباب غير مستقلة ولا قائمة بنفسها .

والممكنات كلها كذلك ، ولكن لها خصائص فى عالم الحكمة ، وإن كان المتأخرون لهم من العبارات ما يفيد سلب كل خاصة لها وفائدة ترجع إليه ، محافظة على توحيد الأفعال فيما ظنوا . ولكنهم وإن وفوا بحق القدرة قد أخلوا بحق الحكمة التى جعلت الأشياء مراتب وقضت بالتفاوت بينها ، فلم تجعل النار كالماء ، ولا السم كالترياق ، فسبحان من خلق فسوى ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، فكيف لا يكون لنا تدخل فيما يكون منا ؟

هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار ، الذى يستطيع أن يقلب الأسباب الآلية ويسيرها فى أى طريق شاء وهو أعظم منها ، فإنها مسخرة له وهو مليكها ، فكيف لا يعطى ما أُعْطِيَتْهُ من الأحكام ، وهو أقوى الأسباب وأعظمها ؟ ولماذا يجعلون من الأسباب التى يتوقف

(١) سورة النحل ، من الآية ١١

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٦٤

عليها الفعل نظر الإنسان وإرادته واختياره وترجيحه ؟ هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل فى الفعل ما ليس للعاقل المختار ؟ اللهم إن ذلك غير معقول . فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار ما للعبد من ذلك ، وهو غير ضرورى للعلم الإنسانى ، بل غير ممكن فإن اكتناه الأشياء كما هى غير مستطاع للإنسان ، ولا داخل فى متناول قدرته . فهذا الغذاء الذى هو من أظهر الأشياء فى أدواره وما يترتب عليه لا نعرف من أمره إلا الظواهر التى لا تسمن ولا تغنى .

أما كيفية انقلابه أعضاء مختلفة : فيصبح عينا باصرة وأذنا سامعة ومخا مدركة إلخ . فهذه أشياء لا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها ؛

وكذلك ما تنبت الأرض من أوضح الواضحات من حيث أطواره المعروفة ، ولكن كيف تكون هذا النبات من التراب ، وكيف استحال التراب أزهارا بهية وأثمارا شهية ، فذلك مما لا سبيل إلى الوصول إليه ؛ وهكذا الأشياء كلها .

ومما يجب أن يلتفت إليه أن كل شىء نستطيع البحث فيه إلى حد محدود . فإذا تجاوزنا ذلك الحد استغلق علينا وانسدت أبواب الفهم فيه ، فأخذنا نضرب فى متاهات الخيال ، ونخبط فى مهامه من الظنون والأوهام ، فتضاربت الأقوال وتناقضت الآراء .

وسر ذلك أن الإنسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس ، ثم ينتزع منه ما قدر له من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده يحدس ويتخيل .

وقد قرروا أن الوهم كثيراً ما يغلب العقل ؛ وأن القضايا الوهمية كثيراً ما تشتبه بالقضايا الضرورية . والحق الذى عرفناه بالعلم ثم بالتجربة ، أن السلطان الغالب على الناس فى هذا العالم إنما هو سلطان الوهم لا سلطان العقل ؛ ولا يكاد يخلص من سلطان الوهم إلا الفذ بعد الفذ .

هذا ولا نزال نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التى يقع عليها الحس ويدركها اللمس لا يصل إليها الإنسان تماماً ، وإن كان يظن ذلك جهلا وتبجحاً .

فالعلم بكنه الأشياء على ما هى عليه من كل وجه ؛ مختص بالله –تعالى– : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)[1] . وقد خلقت على حد محدود فى عقلك ، كما خلقت على حد محدود فى سمعك وبصرك .

ولو عرفنا هذه الحقيقة فلم نجوز قدرنا ولم نتعد طورنا ؛ لزال هذا العناء ، وذهب ذلك الشقاء . وهى حقيقة يجب أن تقرر وتكرر ، حتى تملأ الرءوس وتثبت فى النفوس .

ومن العجيب أنهم أطالوا القول فى هذه المسألة (مسألة أفعال العباد) منجدين ومتهمين ، مشرقين ومغربين ؛ فكانت من أعوص المسائل بين الفرق الإسلامية والمسيحية . ولو تأملوا لعرفوا أنه لا فرق بينها وبين غيرها ، فكل شىء من الأشياء عويص إذا أردنا أن نقف على كنهه وحقيقته ، فما بالنا نتجاوز قدرنا ثم نكثر من الصراخ والضوضاء

(١) سورة البقرة ، من الآية ٢٥٥

ولو تركنا كلام المتأخرين فى هذه المسألة ورجعنا إلى سلفنا الصالح ، لوجدنا كلامهم أدخل فى باب الحقيقة ، وأقرب إلى الذوق والاقتناع . فانظر إلى قولهم : « أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض » يريدون أن العبد ليس بمستقل استقلالا تاما ، ولا هو مجبر على ما يأتى ويذر . وهذا شىء نحس به ولا ننكره ، وإن لم يمكنا تحديده كما قلنا .

وقد سأل الإمام علياً – كرم الله وجهه – شيخ بعد انصرافه من صفين ، فقال : « أخبرنى عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره » فقال : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا ولا علونا قلعة إلا بقضاء الله وقدره » . فقال الشيخ : « عند الله أحتسب عنائى ما أرى لى من الأمر شيئاً » فقال له : « مه أيها الشيخ : لقد عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين » .

فقال الشيخ : « فكيف ساقنا القضاء والقدر » ؟ قال : « ويحك لعلك ظننت قضاء مجبرا وقدرا قاسرا . لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولما كان المحسن أولى بالمدح من المسىء ولا المسىء أولى بالذم من المحسن . تلك مقالة جنود الشياطين وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب ، إن الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف يسرا ، لم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكرهاً ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » .

وقال الإمام الرضا : « إن الله هو المالك لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم ، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادا ، وإن اختاروا معصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وإن لم يحل وفعلوا فليس هو الذى أدخلهم فيه » .

أقول : ولهذا كله ترى القرآن ينسب الأفعال إلى العبد تارة وإلى الله تارة أخرى ، نظراً للأمرين وتوفية للمقامين .

وهكذا يجب فى الشريعة الحكيمة التى تعتبر الأسباب وتراعى المراتب ، ثم لا تلبس أن تلفتك إلى الحقائق وما يجب اعتقاده فى حق الخالق ، الذى تستمد جميع المخلوقات منه ، ولا غنى للممكنات عنه ، بمقتضى إلٰهيته الشاملة وربوبيته التى تمد كل شىء وتحيط بكل شىء .

والخلاصة أن هنا غلطتين : (الأولى) ظنهم أن علم الله بالأشياء يوجبها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار . ولا أدرى كيف يفهمون ذلك مع أن العلم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذاً يؤكد الاختيار ولا يعارضه . و (الثانية) إخراج الإرادة الإنسانية من سلسلة الأسباب وجعلها لغواً فى البين .

وقد اختصرنا لك الطريق ، وأهدينا إليك لباب التحقيق .

وبعد : فمن عرف الألوهية وعظمتها ، لم يطمع فى معرفة أسرارها ولا اكتناه حكمتها فى مخلوقاتها ، فإنه تعالى دبر العالم على حسب علمه لا على حسب علمك . وكل من عرف عظمة الربوبية لم يتوجه إليها سؤالا ، ولم يتبع فى شأنها خيالا .

وما جاءت المصائب كلها إلا من تقديس الإنسان عقله القاصر ونفسه الجاهلة وعدم معرفة ربه . ولكن اقتضى قصور عقله أنه لا يدرك قصور عقله ، وجهل نفسه أنه لا يدرك جهل نفسه .

كلمة ختامية :

رأينا أن نختم كلمتنا هذه بما رواه البيهقى فى كتابه « الأسماء والصفات » عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : أنه لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت . وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تعصى ، فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . فانتهى موسى .

رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد وعزاه إلى الطبرانى ، وزاد فيه : فلما بعث الله عزيراً سأل الله مثل ما سأل موسى ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصر صرة من الشمس ؟ قال : لا ، قال : أتستطيع أن تجىء بكيال من الريح ؟ قال : لا ، قال : أتستطيع أن تجىء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا ، قال فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . فقال عيسى – عليه السلام – . القدر سر الله تعالى أفلا تتكلفوه .

وروى الطبرانى عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر فقال : وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً

أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شعاع الشمس : كلما زاد فيه نظرا ازداد تحيراً . وقد قال تعالى : (إنى أعلمُ مَا لَا تَعلَمُونَ)[1] .

وسر ذلك أن الله قد خلق العوالم كلها كالشيء الواحد ، فلا يمكنك أن تحكم على شيء من الأشياء بالأحكام الصحيحة المحيطة إلا إذا أحطت خبراً بجميع العوالم وما بينها من العلاقات ، وما لها من المراتب ، وما فيها من الأسرار .

وقد تعرضنا لهذا الموضوع فى رسالتنا تفسير قوله تعالى : (لَا يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)[2] بغير ماقاله المفسرون . ولعلها خير ما كتب فى هذا الموضوع فيما نظن ، والفضل لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، والموفق يكفيه القليل ، والمخذول لا يقنعه الكثير .

أسال الله أن يعرفنا قصور عقلنا وعظمة ربنا ، وأن يقينا شر الفتنة ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٣

الشرك وعقوبته الأخروية[1]

ورد إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر كتاب من حضرة محمد زكى عبد الوهاب العفيفى بشبرا مصر ، يرجو فيه أن يجاب على سؤال له فى الشرك ، فاهتم فضيلته ، بالأمر وكلف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى ، ومدير هذه المجلة ، أن يضع كل منهما جوابا عليه ، كل على حسب وجهة نظره ، فصدع كل منهما بهذه الإشارة كما يراه القراء فى هذا العدد .

أما نص السؤال بعد الديباجة فهو :

قبح الله الشرك وأوعد المشرك بعدم المغفرة والخلود فى النار فلماذا ؟ وما حكمة هذا العقاب الشديد ، وما حكمة كونه لا يغفر ، وكيف التصق بالخلق ، وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرر الله ذكره ومقته مقتاً عظيماً فى آيات كثيرة فى القرآن ؟ ولماذا كان يغيظ الشرك محمدا وغيره فحملهم ذلك على أن يحاربوهم حروباً شعواء ؟

وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصح له ؟

وما الفرق بين المشرك والمنافق ؟

وكيف نوفق بين قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[2] وبين قوله :(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا)[3] فكيف يكون من هو رحمة للعالمين سبباً فى عذابهم ؟

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء السادس — المجلد السادس — سنة ١٣٥٤
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ (٣) سورة الإسراء ، الآية ١٥

ولو فرضنا أن محمداً لم يبعث فى جزيرة العرب فماذا كان يضر ؟ وقد بعث وليس بها نهر ومات ولم يحفر بها نهراً ، فما حكمة ذلك ؟

هذا هو الكتاب مجرداً من حواشيه . فكان جواب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى عليه ما يلى :

الجواب

إنا نعجب كل العجب من أعماق قلوبنا لمثل هذه الأسئلة ، ولكن لا مندوحة لنا عن جوابها . وعلى الطبيب أن يداوى كل مريض يأتيه ، فنقول وبالله التوفيق :

لا يعرف قبح الشرك بالله وإجرام المشرك إلا كل من يعرف عظمة الله التى أدهشت العلماء ، حتى قال بعض الفلاسفة من فرط دهشته بعظمة الله الذى أبدع تلك العوالم ، التى لا يأتى عليها العد ولا يحيط بها الحد ولا يدرك كنه ما فيها من الأسرار والعجائب إلا مبدعها العليم الحكيم ، قال ذلك الفيلسوف ، « ليت شعرى من ذلك الذى اجترأ عليك فسماك الله لأول مرة ؟! » .

وقال سبنسر الانجليزى ما ترجمته : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » .

ولا شك أن جرم من يتجرأ على العظيم أعظم من جرم من يتجرأ على غير العظيم ، وهكذا تتفاوت عظمة الجرم على حسب درجات تلك العظمة . فإذاً المتجرئ على أعظم العظماء هو أعظم المجرمين .

وأما قول السائل : « وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرهه الله ومقته مقتاً شنيعاً فى آيات كثيرة من القرآن » .

فجوابه أنه يترتب عليه كل مفسدة يمجها السمع وينفر منها الطبع ، وتقوض أركان العمران وتذل نوع الإنسان ، وتذهب بالفضائل وتأتى بجميع الرذائل :

أما من عرف الإله الحق العادل الحكيم الذى يجازى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه ، وهو الذى يقول : (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)[١] . ويقول : (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[٢] . ويقول : (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[٣] .

نقول : كل من يؤمن بهذا الإله الذى ذلك بعض صفاته وقليل من كمالاته ، لا يمكنه أن يظلم أحداً أو يتعدى على أحد . . . إلخ .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧
(٢) سورة الزلزلة ، الآية ٧
(٣) سورة يونس ، الآية ٦١

وكل ما تراه اليوم مما تضج منه الإنسانية وتصرخ منه الأخلاق وتئن له الفلاسفة والمصلحون ، فليس إلا نتيجة الشرك بالله ، والجهل بعدله وعلمه وقدرته . فما زور المزورون ولا كذب الكاذبون ، ولا تلون السياسيون الخداعون ، ولا قتل القاتلون ، ولا سرق السارقون ، ولا جار القضاة الظالمون ، ولا خان الخائنون ، ولا غصب الغاصبون ، ولا التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ، ولا استعبدتهم وتفننت في ضروب الاستعباد لهم ، ولا ضحك الأذكياء على الأغبياء ولا المتنورون على الجهلاء ، ولا الأكابر على الأصاغر ، ولا الأقوياء على الضعفاء فلم يريدوا منهم إلا ما يريده رب الماشية من الماشية ورب الضيعة من الضيعة ... إلخ .

لم يقع ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه مما لا يخفى عليك ، ولا حاجة بنا أن نسوقه إليك ، إلا من عدم معرفة الله والإيمان بعدل الله ، وهو نتيجة من نتائج الشرك الجلي أو الخفي ، والعدول عن سنن الدين وأهل الدين ، (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)(١) .

ولو رسخ الإيمان فى القلوب كما يريد الأنبياء ، لتراحم الناس فيما بينهم ، ولكانوا إخوة متحابين متضامنين ، عملًا بقوله — صلى الله عليه وسلم — : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » بل قد يصل المؤمن من لباب ذلك إلى حد أنه يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، ويخاف من أن يؤذى هرة فضلًا عن إنسان ؛ لأنه يعرف ما قاله — صلى الله عليه وسلم — : « دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِى هِرَّةٍ » .

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٦

ثم يقول فى حديث آخر : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِى الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ » . ولو عمل الناس بتعاليم الأنبياء لكانوا على غاية الصفاء والهناء ، ولعاشوا عيشة أهل الجنة فى الجنة .

فهذه هى الغاية التى يريدها — صلى الله عليه وسلم — من الناس حتى جعلها شرطًا فى الإيمان الكامل فقال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » . وقال : « وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : الَّذِى لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » إلى غير ذلك وهو كثير .

فسيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — هو الذى جاء لإنقاذ الإنسانية المعذبة ورفعها من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة ، ولكن كل إنسان يأخذ من هذا المعين الصافى وذلك البلسم الشافى حسب ما قدر له وسمح به استعداده .

أما دعوى الأوربيين إنقاذ الإنسانية من شقائها ، فهى دعوى كاذبة قصد بها التغرير وتوسيع الاستعمار ؛ فكانت من وسائل تعذيب الإنسانية لا إنقاذها . ولعل السياسيين هم أعرف الناس بذلك .

وسر هذا كله أن الإنسان لا يحب أولًا وبالذات إلا نفسه ، ولا يحب الأشياء إلا من أجلها ؛ فليس له هم بمقتضى طبعه إلا ما يعود عليها بالمنفعة من قرب أو بعد ، ولا يكاد يفكر فى غير هذا أو يريد شيئًا سواه ، وكل ما يوصله إلى ذلك فهو من بغيته وطلبته ، وإن خرجت

البلاد وهلكت العباد ، فهو وحش ضارٍ يفترس أقرانه ويبيد بنى نوعه بلا شفقة ولا رحمة ، وليس لديه قانون إلا قانون المنفعة الذاتية ، ولا دستور إلا دستور المصلحة الشخصية ، فهو فى نظر الفلسفة الصحيحة أحط من الحيوان وأضر من الثعبان . ولذلك أباح الدين دم الحربى ؛ لأنه سقط عن رتبة الإنسانية والتحق بالحيوانات المؤذية ، فكان الواجب للإنسانية تطهير الأرض منه رحمة بها وشفقة عليها ، فلا غرو أن يهدر دمه ولا تراعى كرامته ، وهو الذى أضاعها بسوء سلوكه وفساد إنسانيته (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(١) .

أما خلوده فى النار فلعظم الجريمة كما قلنا . أو نقول ما قال كثير من العلماء : إنه كان ينوى الكفر بالله على التأبيد . والعبرة عند الله ليس إلا بما تكنه النفوس وتنطوى عليه القلوب « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » .

أو نقول : إن هذا الرجل دأب على مساخط الله والعمل على فنون الرذائل حتى صارت ملكة راسخة فيه ، فالتحقت بالغرائز ، وصارت بكثرة التمرن واستحكام العادة كأنها جزء من تكوينه الخلقى واستعداده الطبعى ، فلا سبيل لانتزاعها منه إلا بفساد تكوينه واقتلاع غرائزه وانخرام طبيعته ، ولذلك يقول الله تعالى : (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ)(٢) . ومن عرف تأثير العادات وتكوينها للملكات الخبيثة أو الصالحة فى النفوس ، لم يستغرب ذلك .

(١) سورة النحل ، الآية ١١٨
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٢٨

وإذًا نقول : إن هذا الرجل كله خبث وقذارة روحانية هى أشد من قذارة الحسيات لدى من يدرك للروحانيات معنى أو يشم لها رائحة (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)(١) . فكيف يدخل حضرة الله المقدسة التى لا يدخلها إلا المقدسون ، أو يفوز بجنته المطهرة التى لا يفوز بها إلا الروحانيون ، أو يسمع لذيذ المناجاة التى لا يظفر بشرفها إلا المقربون ؟

لعمرى إن الحكمة تأبى دخوله الجنة التى أعدت للمتقين وحرمت على الكافرين ؛ لأنهم ليسوا لها بأهل ؛ ولعمر الحكمة المقدسة التى تأبى أن تضع الأشياء إلا فى مواضعها لو دخلوا الجنة لكان هذا فى نظر الحقائق بمنزلة من يأتى بشر الدواب فيدخلها حظيرة الملك ومحل خواصه ومجلس ندمائه « وأى عقل يسمح بوجود الحمير بحضرة الملك الكبير مع الوزير والأمير » ؟

ولا تعجب من هذا فإن الإنسان قد ينحط إلى أسفل دركات الحيوان فلا يكون إنسانًا إلا بصورته وتخطيطه لا غير . وقد قال بعض الفلاسفة : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » . وليس هناك تفاوت بين أفراد نوع من الأنواع مثل التفاوت الذى بين أفراد نوع الإنسان ، الذى هو مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات .

وقد قال تعالى فى حق أولئك المشركين الجاهلين الذين عموا عن الآيات وكفروا برب الارض والسموات : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٨

هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)[1] وقال : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)[2] .

فهذا قول خالقهم العالم بما خلقوا عليه وانجذبوا إليه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[3] . وسيقولون فى الآخرة : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[4] .

هذا وللشيخ محيي الدين بن العربى وابن تيمية وابن القيم كلام فى الخلود فى النار شذوا فيه عن الجمهور ، فلا حاجة لسوقه هنا أو التعريج عليه .

وأما قول السائل : « ما الفرق بين المشرك والمنافق ؟ » فلا أدرى ماذا يريد به ، فإن الفرق بينهما واضح من حيث التحديد والتعريف وكيف يشتبه من يظهر الكفر بمن يظهر الإيمان ؟ وإن أراد الفرق بينهما فى الدار الآخرة فلا فرق فى استحقاق كل منهما العذاب الأليم . وقد قال الله : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)[5] . فلندعه وما أراد .

وأما قوله : « وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصح له ؟ » فهو عجيب ، فإننا نريد أولا إقامة الحجة عليه (لِئَلَّا

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤
(٢) سورة محمد ، الآية ١٢
(٣) سورة الملك ، الآية ١٤
(٤) سورة الملك ، الآية ١٠
(٥) سورة النساء ، الآية ١٤٥

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[1] . وثانياً علينا أن ندعو الناس جميعاً إلى الخير والهدى (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)[2] وما أودع فى استعداد الإنسان من الأسرار لا يعلمه إلا الله تعالى . فالواجب علينا أن ننصح كل من نقدر على نصيحته بالوسائل المختلفة ، عسى أن يكون فيه قابلية للخير « ولو فى طبقة من طبقات أرضه السابعة » . فإذا لم ينتصح كنا معذورين ، وقامت عليه الحجة .

وأما قوله : « وكيف نوفق بين قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[3] وبين : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[4] وكيف من يكون رحمة للعالمين يكون سبباً فى عذابهم ؟

فجوابه إن الطبيب رحمة وإن أعرض عنه المغفلون ، وأن النيل رحمة وإن لم ينتفع به الجاهلون أو غرق فيه المجازفون . بل نقول : إن النار رحمة كبرى ، وقد امتن الله علينا بها فى قوله : (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ)[5] إلى أن قال : (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)[6] . ولا ينافى ذلك أنها قد تكون نقمة على بعض الناس وهذا فى غاية الوضوح .

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٥
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٤٢
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧
(٤) سورة الإسراء ، الآية ١٥
(٥) سورة الواقعة ، الآية ٧١
(٦) سورة الواقعة ، الآية ٧٣

فإذا كان هذا شعار العصر وشعوره فكيف نذكره – صلى الله عليه وسلم – بدون أدنى تعظيم ولا توقير ، وقد قال الله تعالى : (لَاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا)(١) .

ولكنها الأيام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب

وأما قوله : « ولو فرضنا أن محمدا لم يبعث فى جزيرة العرب فماذا كان يضر » .

فهو على ركاكته لامعنى له ؛ لأن الله يفعل مايشاء ويختار من يشاء . ولو بعث من أمة أخرى لجاء هذا السؤال أيضًا . فهو سؤال دورى لاقيمة له .

على أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة كما فى الحديث الصحيح ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل العرب ، وللعرب فضائل يعرفها من درس طباع الأمم وعاداتها .

ومما لا شك فيه أن الناس متفاوتون فى الاستعداد تفاوتا لا يعلمه إلا الله تعالى . فما اختار لرسالته سبحانه وتعالى إلا أشرفهم نفسا وأعظمهم استعداداً كما قال ، (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)(٢) .

ولديك آثار المصلحين والعظماء والملوك والفلاسفة ، فهل يستطيع أحد أن يأتى لنا بمثل تلك الآثار أو بتعاليم فيها تلك الأسرار ، التى رفعت الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ، وخرقت القوانين الطبيعية ؟

(١) سورة النور ، الآية ٦٣
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤

كما قال جوستاف لوبون الفرنسى فى حقهم ، وهو من أكبر فلاسفة أوروبا : « إن ملكة الفنون لاتستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شذ العرب فوصلوا إلى الاستقلال فى جيل واحد » .

وقال أيضا : « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .
وكل هذا بفضل التربية النبوية والتعاليم المحمدية . وقد أذكرنى ذلك قول صاحب الهمزية فى أصحابه – صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء   علماء أئمة أمراء

وأما قوله : « إنه بعث بأرض الجزيرة ومات ولم يحفر بها نهرا » .

فناشىء من تغلغل حب الماديات فى نفس السائل ، فهى محمود كل فضل عنده ، وهى المبدأ والمنتهى . ولو أنصف لعرف أنه – صلى الله عليه وسلم – أجرى بها أنهر العلم الصحيح ، والعمل النافع والأدب الجم ، والدين القويم ، والتربية التى أدهشت فلاسفة أوربا .

ولو قرأ السائل (حضارة العرب) لجوستاف لوبون الفرنسى ، أو كتاب (درابر) الأمريكى ، أو أقوال غيرهما ممن لايحصى عددا ، لم يقل ماقال ، بل لخجل مما قال .

وقد قلنا ولانزال نقول : ماذا تريد منه – صلى الله عليه وسلم – بعد رفع الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ، ومن دركات الذل الذى كانت فيه العرب إلى أعلى درجات العز، وتربيتهم بأحسن التعاليم ، وأخذهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب ، حتى صار الواحد منهم أمة

وجده بعد أن كانوا أشبه شيء بالوحوش الضارية يأكل قويهم ضعيفهم ، ويئدون بناتهم ، إلى غير ذلك من الفظائع التى لاتفعلها الحيوانات : ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة فى أقل قليل من الزمن ، ثم ينشر ذلك النور فى كل أنحاء الأرض ؟

ذلك كله لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على أن مصدر ذلك كله هو مثال الخير وشخص الكمال . والفضائل لا تفيض من الإنسان على غيره إلا على قدر رسوخه فيها .

إن مناط السعادة الحقة إنما هو تخليص أفراد النوع الإنسانى من مخالب الشرور التى أحاطت بهم ، وغرس مكارم الأخلاق فى أعماق نفوسهم ، ومراقبة الله تعالى فى سرهم وعلانيتهم ، فإن ذلك جماع الخير وأساس السعادة .

ونبينا — صلى الله عليه وسلم — أعظم الخلق فى ذلك كله ، وهو برهان ساطع على نبوته ، وأنه أكبر المصلحين لدى من يطلب البراهين الوجدانية من ذوى الفطر السليمة . وأما غيرهم فنحيلهم على ماكان منه من البراهين الحسية والخوارق الكونية ، إذ لايعرفون مقدار الحقائق التى يدور عليها فلك السعادة من ارتفاع الإنسان إلى الأفق الملكى ، وترقية مقام البشر إلى أعلى عليين ، ومعرفة الله تعالى ، والكشف عن حقائق الأشياء ، ورقة الإحساسات ، وتنعيم الأرواح ، بما تشرئب إليه من العالم الأعلى حتى تتم للإنسان المدنية الأرضية والمدنية السماوية .

فلا برهان عند ذوى البصائر أكبر من أعمال مدعى النبوة ، وصفاته النفسانية ، وكمالاته الخلقية ، وآثاره الخارجية التى ترقى الأمم وتسعد الشعوب ، وتجعلهم ملوكا فى الأرض ملوكا فى السماء ، كما كان ذلك للأمة الإسلامية حين تمسكها بدينها وشريعتها .

ولاغرو ، فقد جاء ، كما قال بعض الفضلاء ، فى باب التشريع الصالح لكل زمان ومكان ، الكافل للعدالة بأوسع معانيها بما لا يعرف مقداره إلا العظماء والحكماء .

ولعمرى إن فلاسفة الاخلاق وعلماء النفس على شدة تبجحهم وكثرة ماقالوا ودونوا ، لم يأتوا بعشر معشار ما جاء به — صلى الله عليه وسلم — صافيا من الأدناس ، خالصا من شوائب الأوهام ، ممتلئا رحمة وحنانا بأبناء هذا النوع الضعيف .

وهل وصلت أمة من الأمم الراقية كما يقولون إلى الديمقراطية الحقة فسوت بين الشرقى والغربى ، وقالت : لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى كما قال الإسلام ؟

ولعمر الله لو درست ماجاء به النبى — صلى الله عليه وسلم — وما يؤثر عن الفلاسفة والمصلحين لوجدت الفرق شاسعا والبون بعيدا ، فكل فيلسوف أو مصلح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال المحيطة به ودرجة علمه فى العهد الذى كان عائشا فيه ، مما يجعل تعاليمه تستدعى الإصلاح والتهذيب إلى حدود بعيدة .

ولهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الإصلاحية ، واستبدل الناس بها فلسفات جديدة وتعاليم من طراز حديث يلائم ما وصل إليه الناس من الثقافة العلمية .

ولكن التعاليم المحمدية لاتزال جديدة ملائمة لكل عصر بما فيها من المرونة ، وما تضمنته من الأسرار البديعة والإشارات الخفية ، والكليات ، التى يفنى الزمان ولاتفنى عجائبها ، بل يرى فيها ما لم تنضج العقول للعمل به واكتناه جميع أسراره ومزاياه .

ولهذا اعتقد عقلاء النوع الإنسانى وعلماؤهم أن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليمه – صلى الله عليه وسلم – بغير تعديل ولا تنقيح ، ويرون أنها بالغة أقصى درجات الكمال ، إلى حد أن كل إصلاح فيها يحط من قدرها ويطمى من لآلئها .

وها أنت ذا ترى الفرق شاسعا بين الأمم الإسلامية عندما كانت عاملة بشريعتها وما كانت عليه من التعاطف والتراحم والعزة والرفعة والوئام والاتحاد ، وبين ما نحن عليه اليوم من التفرق والانقسام والضعة والذلة والاكتفاء بالمظاهر الخلابة والظواهر الكاذبة والأقوال الفارغة دون الأعمال النافعة ، عندما تركنا العمل بالشريعة واتبعنا القوانين الوضعية التى لاتعنى إلا بإصلاح الظواهر دون البواطن ، وبالأشكال دون الحقائق ، ولا يعنيها إلا حفظ أبهة الدولة وسيطرة الحكومة دون تربية الأفراد وإصلاح النفوس . وكم عيب على الفلاسفة فيما قرروا من علم ودونوا من إصلاح ؟ .

وسنكتب مقالاً خاصًا فى الفرق بين النبي والفيلسوف ، إن شاء الله تعالى .

ومن عجيب أمره – صلى الله عليه وسلم – تلك الحكمة البالغة ، والعلم الواسع ، والنظر البعيد الذى أحاط بمصالح الدنيا والاخرة .

وما عهدنا عظيما من العظماء إلا وقد نبغ فى ناحية من النواحى فشغلته عما عداها ، بخلافه – صلى الله عليه وسلم – مما دل على أنه خارق للعادة مؤيد من عند الله .

وقد قال المسيو (بلانشيه) العالم الفرنسى المشهور : «إن النبي محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى أنه أحيا شعبا ، وأنشأ امبراطورية ، وأسس دينا » .

هذا وقد أصبحنا فى دور الانحطاط الذى يقضى فيه على الأمة شر القضاء ، فيحتقر أبناؤها أئمتها وعاداتها وآدابها ، ويحتقر بعضهم بعضا ، ولا تقدس إلا كلام الأجانب الذين فنيت فيهم فعلا ، واقتدت بهم عملا ، وإن تبرأت منهم قولا .

فلنتل عليك زيادة على ماتقدم كلام بعض العظماء من أساطين العلم والفلسفة بأوربا فى شأن نبيك الذى عرفوا عظمته وجهلتها أنت ، أيها الشرقى المسلم الذى لم يعرف تاريخ آبائه وأسلافه الذين كانوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق .

ولو شئنا لذكرنا لك شهادة كثير من أولئك العلماء مثل (الكونت هنرى ديكسترى) و (كاين تيلر) و (جوزف تومبسون) و (لوازون) و (مارقس دودس) و (مود سلى) والفيلسوف (تولستوى) وغيرهم . ولكن نقتصر لك فى هذه العجالة على شهادة من سمح المقام بذكرهم . وإنى أرى من الدواء اللازم لهذا الجيل الحاضر والنشء الجديد أن هذه الشهادات يجب أن تقرر وتكرر حتى تملأ الرؤوس وتستقر فى النفوس ، فإنه جيل مفتون بكل ماجاء عن الأوربيين ، فلا يعرف غيرهم ولا يقدس سواهم ، فنقول :

شهادة برنارد شو الانكليزى (وهو من عظماء الانكليز) :

« إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم لتم النجاح فى حكمه ، ولقاده إلى الخير وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

وقال مؤلف كتاب (دراسات فى تاريخ الدين) : « ينبغى أن نذكر أن الدين الإسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة » .

وقال المسيو (لبون) فى شأن القرآن الكريم :

« حسب هذا الكتاب جلالة ومجداً أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف — ولو بعض الشىء — من أسلوبه الذى لايزال غضا كأن عهده بالوجود أمس » .

شهادة لامرتين الفرنسى الطائر الصيت الغنى عن التعريف :

قال : « أترون محمدا كان أخا خداع وتدليس وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين كل أولئك من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق وإذا كان قوة الصعود والمرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمنا طويلا وتمشى فى الحياة أبدا رخية . وهى لا ريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى . ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، وتروح معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه ، فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته فى وسط أعدائه ، وبهره خصومه فى قلب مكة ونواديها ، ومجامع أهلها ، وتقبله سخرية الساخرين وهزوه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وثباته وتوافره عليها ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم وأناته وصبره حتى يحرز النصر ، وطماعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة ،

وتأسيس العقيدة ، لا فتح الدول وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ونجواه التى لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضىء فى قلبه ، وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة ، وحجة قائمة ، ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة :

(الأولى) تدل على من هو الله .

(الثانية) تنفى ما ألصق الوثنيون به .

الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة ، والأخرى فتحت طريقا جديدا إلى الفكر ، ومهدت سبيلا للنظر . فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ورواد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فذلكم هو محمد . فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير هذا الرجل ؟ انتهى كلام ذلك الرجل العظيم الذى لم يأكل الحقد قلبه ولا الجهل عقله . وحقا ليس يدرى العظيم غير العظيم .

فهكذا تكون معرفة العظمة الإنسانية ، وهكذا يكون تحليل النفوس الكبيرة ، وهكذا تكون الموازين الصحيحة لوزن الرجال وعظائم الأعمال لا حفر الترع وردم الجسور وأمثالها من أعمال الهمم الأرضية ، التى لا تعرف إلا الماديات ، ولا تعيش إلا فى الظلمات .

وقد جاءتنى هذه الأبيات عفواً وما أنا بشاعر ، فقلت أخاطب النبى – صلى الله عليه وسلم :

إنى أجل مزايا   بهن قد صرت فردا
وسيرة تتلالا   تفوق مسكا وندا
إن سار غيرك هزلا   تراك قد صرت جدا
فى حكمة واعتدال   فما تجاوزت حدا
لكن سواك وإن كا   ن أعظم الناس مجدا
فى جل ما يرتئيه   لابد أن يتعدى
من يدعى غير هذا   فإننى أتحدى

هذا ولا يفوتنى أن أقول لحضرة السائل : إنك جاهل بجزيرة العرب وما هى عليه ، ولا سيما فى ذلك التاريخ ، فإن طبيعتها خصوصا قبل الاتصال بالممالك الأخرى كانت تأبى كل الإباء أن تحفر فيها الأنهار . فكان من العبث أن يحاول ذلك فيها وهى فى ذلك العهد على ما علم المؤرخون والجغرافيون . ولذلك بقيت حتى الآن وقد مضى أربعة عشر قرنا وهى متأخرة فى المشروعات الأرضية التى يريدها السائل غاية التأخر ولو شئنا لأطلنا .

وبعد : فقد أرسل – صلى الله عليه وسلم – بما هو سبب لسعادة الدارين ومصلحة النشأتين ، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض بفساد استعداده عن هذه السعادات إلى تلك المهالك .

ويكفى أن الناس قد وقفوا بسبب إرساله – صلى الله عليه وسلم – على علوم جمة وأسرار عالية وفضائل سامية ، مما أودع فى كتابه الذى فيه بيان ما كان وما يكون عبارة وإشارة ، ثم ما جاء فى سنته – صلى الله عليه وسلم – مما عجز عنه علماء النفس وأساتذة الاجتماع . وأى سعادة أعظم من التحلى بزينة العلم ؟

وعلى الجملة لولا النبوات لم يكن فى العالم نافع البتة ، ولا عمل صالح ولا صلاح فى معيشة ، ولا قوام لمملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التى يعدو بعضها على بعض .

وكل خير فى العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع فى العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فيما بين الناس .

والعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه ، ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ولم يبق فى الأرض شىء من آثارها البتة ، انشقت سماؤه ، وانتثرت كواكبه ، وكورت شمسه وخسف قمره ، ونسفت جباله ، وزلزلت أرضه ، وأهلك من عليها . فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة .

ولو نظرت إلى ما دونه علماء شريعته من العلوم التى تنوء بها السفن فضلا عن الإبل وما أنجبته تعاليمه من الفلاسفة التى يقدسها الأوربيون

« وإنهم لأعرف هناك بعلمائنا منا هنا » لو عرفت ذلك لم تقل ما قلت ، ولم تكتب ما كتبت .

ولنتل هنا قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)[1] .

هذا ولنا مقال يتصل ببعض هذا الموضوع فى بيان مذهب المعتزلة والأشاعرة والجبرية ، فراجعه .

أسأل الله أن يلهمنا الرشد ، ويقينا شر الفتنة ، ويرزقنا العلم الصحيح ، والنظر الواسع ، بمنه وكرمه .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧

سوانح ونصائح (١)

١ – المجادلات لا توصل إلى الحق ، والكلام لا ينتهى ولا يفرغ مهما كان الحق واضحا لمن أراد أن يشاغب . وأنك لتعلم أن إبليس لم يخضع للأمر الإلهى ، بل جادل كل المجادلة فى سجوده لآدم ولم يقتنع بشىء مع كون خصمه هو الله . وقد قال تعالى فى حق قوم من المعاندين : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) (٢) . وقال : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (٣) . وقال فى المتعنتين أيضاً : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) (٤) إلى آخر ما جاء فى القرآن وهو كثير . ومن درس استعداد الإنسان عرف أنه مجمع العجائب والغرائب ومظهر المتضادات والمتناقضات .

٢ – المحبة ، أو نقول العواطف والأميال تجعلك عميا عن كل شىء إلا ما يوافق هواك ونزعاتك . وقد قال الله فى حق قوم : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً) (٥) فإذا كان هذا فى القرآن الذى هو آيات بينات فكيف بغيره .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثالث – المجلد السابع – ربيع الأول سنة ١٣٥٥

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ (٣) سورة الحجر ، الآيتان ١٤ – ١٥

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١١ (٥) سورة الأنعام ٢٥ والاسراء ٤٦ الآيتان

٣ – عرفتنا الحوادث السياسية بعد الحوادث التاريخية كيف تضل الأمم فى الواضحات ولا تدرك الجليات . وبهذا عرفنا مقدار الأنبياء وقوة استشعارهم بالحق حتى لم يؤثر فيهم الوسط الذى هم فيه ، ولم يرعهم إجماع البيئة التى نشئوا فيها ، ولم تشككهم مخالفة جميع الناس لهم ، ولا أوحشهم انفرادهم فى طريق الهدى ، والناس مطبقون على الضلال يسيرون على غير هدى ولا بصيرة كأنهم لا يبصرون ولا يعقلون .

فانظر كيف لم تتسرب الوساوس إلى نفوسهم عليهم السلام مع كونهم يرون إطباق الناس على الباطل بل اعتقدوا بقوة نور بصيرتهم أن الناس سائرون فى الظلمات : فهم مساكين يرثى لهم وجهلة يبكى عليهم ، حيث أنهم يجهلون ولا يعلمون أنهم يجهلون .

فليت شعرى ما مقدار ذلك النور الذى لم تؤثر فيه تلك الظلمات ولا أطفأته عواصف الشكوك والشبهات ولا قوة المخاصمات والمجادلات ولا كثرة الوجدانات والاعتقادات ، وكأنهم يرون الغيب شهادة وما وراء الطبيعة محسوسا حتى قبل الرسالة والوحى بفضل ما أوتوا من استعداد رفيع وطهارة ذاتية (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (١) . فحاذر أن يغرك إجماع ذوى الجهالات وإطباق ذوى الظلمات واعرف استعداد الإنسان واعتقد أنه قابل لكل شىء من الحق والباطل والضلال والهدى الخ .

فلا تحترمهم فى السياسات ولا فى الطبيعيات ، ولا فى شىء من الأشياء إلا بالبرهان الساطع وسل الله التأييد والتسديد .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤

٤ – يمكنك أن تعيش فى عصر السلف الأول بل فى عصر النبى – صلى الله عليه وسلم – وذلك بقصرك نفسك على كتب الدين وسيرة الصالحين . ويمكنك أن تعيش فى أى عصر من العصور بتلك الوسيلة فإن الإنسان ليس إلا عبارة عما ينقش فى نفسه ، وما يصدر منه إنما هو مقتضى تلك النقوش .

٥ – لا عبرة بغير الأشياء العملية ، واكتساب العلم الصحيح وتكوين ملكته فى النفوس لا يكون بغير العمل . ولا قيمة لتلك النظريات وإن تبعها كثير من التشدق والثرثرة ، وما الإنسان إلا صورة مما يحيط به وينقشه فى نفسه . فمن الغلط البين اغترار كثير من الناس بالعلوم النظرية حتى يظن ذووها أنهم اتصفوا بها وفازوا بثمرتها . مع أن هذا الصنف من الناس فى علمه هو بمنزلة من قال الله فيهم : (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ)(١) . وقد قالوا : العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل . فذوق العلم وتكيف النفس به لا يكون إلا بالعمل وإلا كان شقشقة فى العلماء تشبه النفاق فى المؤمنين وكان ممن حق عليهم قول الله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)(٢)

وقد أذكرنى هذا لمناسبة ما يحكى من أن الشيخ محيى الدين ابن العربى رأى جنازة الفيلسوف ابن رُشد ، ومؤلفاته محملة أمامه فسأل عنه فقيل إنه الإمام ابن رشد وهذه كتبه ، فقال :

هذا الإمام وهذه أعماله ... ياليت شعرى هل أتت آماله

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٤ (٢) سورة الصف ، الآيتان ٢ ، ٣

يريد بذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين العلم العملى الذى يسيطر على القلوب وتكيف به الأذواق وتنصبغ به النفوس وبين العلم النظرى الذى تؤديه الألسنة ويبرع فيه المشتدقون : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)(١) .

ومن ذلك الوادى ما يزعمه كثير من الجهلة أو من ذوى الأغراض الخبيثة من تحبيذ السفور والاختلاط ، خصوصاً فى المتعلمات اعتماداً على ما تلقنه فى تعليمهن من تلك النظريات التى لا تسمن ولا تغنى .

وهؤلاء المغرورون كأنهم ليسوا فى الوجود فلم يعتبروا بالتجربة والمشاهدة والنتائج السيئة التى نراها كل يوم من جراء ذلك الاختلاط فقد جهلوا الفلسفة والدين فإن الأمر طبيعى شديد له أكبر سلطان على النفوس بمقتضى الغريزة ، والنظريات لا تقاوم الطبيعيات . ولكن ما لهم ولتلك التحليلات الفلسفية وهم أرباب شهوات وأهواء لا دين وفلسفة . ولهذا لم يكتف الله تعالى بالعظات النيرات والزواجر البالغات بل شرع الحدود والتعذيرات ، علما منه بما جبلت عليه النفوس البشرية (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(٢) . وقد كان عندنا وظيفة تسمى وظيفة الحسبة ولعلنا نكتب فيها بعد .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤

(٢) سورة الملك ، الآية ١٤

سوانح ومقتبسات (١)

قرأت للدكتور الفاضل صاحب العزة عبد العزيز بك إسماعيل مقالا نشر بهذه المجلة يقول فيه : « فالإنسان الذى لا يعرف من الغيب إلا بقدر ما يعرف من سنن طبيعية يسمى جاهلا مهما عرف لأن قوانين السنن الطبيعية لا حد لها » . فهيج من قلبي شعورا بتلك السوانح فكان مبدأ الإلهام بها ، والاستعداد لها .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشكر ذلك الدكتور الذى جمع من نواحى الكمال ما لا يكاد يوجد إلا فى أفذاذ الرجال . فأبان لنا من أسرار القرآن الطبية ما يعد آية الآيات ومعجزة المعجزات .

وقد أذكرنى ذلك ما كان يفعله المرحوم الدكتور (توفيق صدقى) فى آيات القرآن الفلكية وما فيها من الأسرار . « وهكذا لا يزال القرآن معجزة المعجزات وآية الآيات على مر العصور والأوقات » .

أسأل الله أن يديم عليه هذا التوفيق فى دينه القويم وعلمه الواسع وفضله الكبير وأن يطيل حياته للعلم والدين . وأن يكثر من أمثاله بمنه وكرمه وهذه هى السوانح :

١ — الفضيلة تستحيل رذيلة فى النفوس الخبيثة كما تستحيل الأغذية الطيبة إلى فساد فى المعدة الضعيفة . « ومعدن الكبريت يقلب ما يحل فيه من الماء الزلال إلى طبعه » .

(١) مجلة الأزهر — الجزء السادس — المجلد السابع — جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥

٢ — إن النواميس كثيرة لا تكاد تحصى فللأبدان نواميس وللأرواح نواميس وللعوالم الغيبية نواميس ، فى كل واحد منها مالا يعلمه إلا الله تعالى . بل فى عالمنا هذا من النواميس مالا يأتى عليه العد . وإن شئت فانظر إلى ما لا يحصى من أنواع الحيوان تجد نواميس الحيوانات الدنيا غير نواميس الحيوانات العليا ، ونواميس حيوانات الهواء غير نواميس حيوانات الماء المخ . فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . ولا يمكن مخلوقا من المخلوقات أن يسلك غير ما رسم له من الطرق ، ولا أن يعرف غير ما هو مستعد له من المعلومات . فليعلم الإنسان أنه لا يمكنه أن يتكلم فى علم من العلوم ولا صنعة من الصنائع ولا حرفة من الحرف إلا إذا كان راسخا فيها تمام الرسوخ .

وبودى لو عرف الناس تلك الحقيقة وعرفوا أن الرسوخ لازم فى كل شيء وأن بين التعلم السطحى والرسوخ فى الأشياء ما بين السماء والأرض وأن هناك أشياء لم تخطر لنا على بال وهى ذات نواميس واسعة وأحكام كبيرة . ولو عرف الناس سعة العلم وجهل النفوس وضعف البشرية لاستراح العالم من منازعة بعضهم بعضا . وقد اذكرنى هذا قول الرئيس ابن سينا « إن البلاهة — أو الغباوة — خير من الفطنة البتراء » .

٣ — قال بعض المحققين : « إن معرفة الله ضرورية من حيث العقل دون الحس والتذكير بها كالتذكير بالضروريات كالموت » . لكن ضرورة الحس ليست كضرورة العقل فإن ضرورة الحس فيها جذب وقسر وإكراه . وأما ضرورة العقل فهى لطيفة جدا والحس ينازعه فيما لا يعرفه . وقد تقع الشبهة فى ذلك للعقل فيختلط عليه

الحال ولا يدرى التفرقة بين ما علم وما جهل ، فإن شئت فقل هو مستدل عليه وإن شئت فقل هو بديهى على حسب غلبة العقل أو الحس.

من يستدل يترقى من الجزئيات إلى الكليات ومن الأدنى إلى الأعلى ، وهناك من تنقدح فى نفسه الكليات فينحدر منها إلى الجزئيات — وقليل ما هم .

٤ — لا بد من تقليد الأنبياء فى بعض ما جاءوا به لقصور الأفهام عن مغزى كثير من الشرائع . والطفل الذى يعطى الحرية فى الكلام عن الحقائق ولا يكون عنده مبدأ التقليد يستحيل تكميله ، لأنه بمقتضى قصوره الطبيعى لا يمكنه إدراك الحقائق على ما هى عليه وبمقتضى حريته المفروضة لا يقتنع إلا بما عرف ولا يمتثل إلا لما أدرك .

والناس بجانب الأنبياء أو نقول بجانب ما أودع فى العوالم من القوانين الروحانية والجسمانية والنواميس التى لا يحيط بها محيط والعلوم التى لا يحصى عددها إلا الله والأسرار التى اعترف الفلاسفة الحديثون والسابقون بقصورهم أمامها أقل من الطفل بجانب الرجل .

وإذا كان الناس لا يصدقون إلا بالبرهان فى كل مسألة دينية لم يمكن أن يكونوا متدينين إذ يستحيل الوصول إلى برهان تام فى كل مسائله إذا كان التصديق موقوفًا على البحث فى كل مسألة كما هو شأن المتفيهقين اليوم . والإنسان لا يمكنه أن يصل إلى مدنية تامة ما لم يكن هناك أسس صالحة لذلك.

أما إذا كان محتاجًا إلى الملبس الضرورى والمسكن الضرورى والمأكل الضرورى ولا يرجع ذلك كله إلا إلى نفسه ولا يقبل من أحد شيئًا

فما أجدر هذا أن يموت قبل أن يستنبت ما يأكله وما يلبسه وقبل أن يصنع الآلات اللازمة لذلك.

وما أعجز الإنسان أن يشيد دنيا طويلة عريضة من العدم فكذلك لا يمكنك أن تشيد لإنسان غير مسلّم لك ولا واثق بك ولا مقلد إياك ولا عنده شىء من أصول الخير دينا ينازعك فى الصغير منه والكبير ، ويريد على جهله وسذاجته أن يكون رسولًا من الرسل أو نبيًا من الأنبياء . «وإلا فأنت بمنزلة من أراد أن ينشىء دينًا من العدم» .

٥ — ينبغى أن يكون الإنسان مجتهدًا ومقلدًا فيكون مجتهدًا فيما هو راسخ فيه متمكن منه ويكون مقلدًا غيره فيما عداه ، ولا بد من ذلك وإلا لم ينتظم العالم ولم يصل أحد إلى سعادته وليعلم أنه لا يوثق بعلمه ما لم يصل إلى ذلك الرسوخ ولا يمكنه أن يصل إلى تلك الدرجة إلا فى بعض الأشياء فقط وهو فى حجاب عما عدا ذلك لا يكاد يعرف حقيقته وروحه . فيجب عليه أن يكون مقلدًا فى غير هذا الذى رسخ فيه مسلّمًا لأهل الرسوخ من ذويه لأنه لا يمكنه الرسوخ فى كل شىء كما قلنا. ومن طلب غير ذلك فقد سعى فى افساد النظام وادعى معرفة كل شىء وذلك من خصائص الألوهية .

٦ — فلسفة القرآن فوق كل فلسفة . وليست هذه الأشياء الروحانية والحقائق العالية التى فيه إلا فلسفة علت عن كل فلسفة حتى إن كثيرًا من الناس عدها خرافة لبعد ما بينه وبينها . وما عرف حقائقها — إلا الراسخون فى العلم وانظر إلى مثل قوله تعالى : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ)[١] وقوله : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ)[٢] وقوله : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ)[٣] . إلى غير ذلك ، واستجل ما فيها من أسرار وأنوار .

أما سياسته فى مخاطبة الخلق وذكر تلك الحقائق العالية بما يناسب ظاهره العامة وباطنه الخاصة فهو محل الإعجاز ولا يمكن الفيلسوف أن يقف أمام ذلك إلا باهتا مدهوشا لا يستطيع سلوك تلك المسالك ، وغاية ما يمكنه إن كان راسخا فى فلسفته ذا بصيرة تامة أن يعرف فلسفة القرآن ويصل إلى مراميه ، أما انتهاجه نهج القرآن فخارج عن طوق البشر .

٧ـ نبغ الناس الان فى الأمور العملية والمخترعات المادية ونشهد لهم بهذا . ولكن ما أجهلهم فى النظريات ومعرفة البراهين والملازمات : فكثيراً ما يشتبه عليهم المصاحب بالملازم والمعد بالفاعل والشرط بالمفيض . وعلى الجملة فهم بريئون من الفلسفة والمنطق وما أكثر غلطهم فى الاستدلال غلطا كان يضحك من مثله الأولون .

فلئن جهل الأقدمون كثيراً مما أوصل إليه العمل فما أجهل هؤلاء بطرق الاستدلال وشروط البرهان ، وما أبعدهم عما يقوى العقول ويمتع الأرواح ويزج بالإنسان فى عالم الروحانيات ويبعده عن عالم الظلمات والآفات فما أضعف دولة العقل وحظ الفلسفة اليوم على الرغم من دعاوى المدعين وفيهقة المتفيهقين .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣٣ .
(٢) سورة النمل ، الآية ١٤ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩ .

٨ـ قال فى الأسفار : إن المادة لا تفعل فى شىء إلا إذا كانت على وضع خاص منه . فلا يمكن أن تفعل فى نفسها ولا فى قواها الطبيعية لأنها ليست ذات وضع بالنسبة إلى ما فيها من القوى . فلا يمكن أن تخرج الكامن فيها من القوة إلى الفعل ، بل لا بد له من شىء آخر يخرجه لأن ما بالقوة لا وجود له وما لا وجود له لا يعطى الوجود. فمفيض الوجود هو بارئ الصور المصور القادر .

وأما هذه الأشياء فهى معدات وشروط لا فاعلة ومفيضة ، ولا معنى لأن تهب الصور ولا لأن تكون فاعلة فإن كيفيات المادة هى من جنس الحرارة والبرودة فلا تفعل إلا ما تفعله الحرارة والبرودة . . . إلخ .

وأما إفاضة الصور وحفظ الأجزاء بالإمداد عليها وتعويضها كل ما فقدت من أجزائها وحفظ الاتصال بين أجزائها على الصورة الخاصة مع ما فيه من دقائق الصنع فمحال أن يكون من فعل المادة . ثم نقول إنها لا تفعل إلا بما فيها من القوى الطبيعية ، ولا يمكن أن توجد فى نفسها تلك القوى الطبيعية لأنها بدونها خالية من كل قوة فكيف توجدها فى نفسها وهى لا تكون هى هى إلا بوجودها فيها ، إلى آخر ما لعلنا نفيض فيه بعد ، إن شاء الله .

كلمة مع مقدسي النواميس الطبيعية (١)
وبيان عظمة العلم وضعف الإنسان

تكلم معى بعض الناس فى النواميس الطبيعية ، وقال : إنه يستحيل خرقها وأن يوجد شىء على خلافها . يريد بذلك أن ما ينسب إلى الأنبياء من المعجزات وللقديسين من الكرامات لا يمكنه التسليم به لأنه غير صحيح ولا ممكن .

فرأيت أن أجعل مقال اليوم مع أولئك الماديين الذين وقفوا عند الظواهر ولم يصلوا إلى رتبة التحقيق فى الأشياء حتى فى علم الطبيعة نفسه الذى يدعون أنهم علماؤه وبيدهم لواؤه ، مع أن أساطين علم الطبيعة بأوربا لا يقدسون النواميس الطبيعية هذا التقديس ، وستسمع شيئًا من كلامهم بعد فكأننا عائشون فى القرن السابع عشر لا القرن العشرين .

وهكذا الحركات كلها عندنا فى الشرق تأخذ شكلًا غريبا تستوحيه من الطيش والجهل . فهى معكوسة عكسًا سار بنا إلى الاضمحلال الذى إذا لم نستأصله فسيجعلنا فى أخريات الأمم أو على حافة العدم .

فنقول وبالله التوفيق :

إن فريق الماديين الذين جمدوا على القشور وظنوا أنهم عرفوا كل شىء ووصلوا إلى كل شىء قد أنكروا المعجزات الحسية للأنبياء —

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثانى — المجلد السابع — صفر سنة ١٣٥٥ .

والكرامات المتواترة للأولياء ، لأنها تناقض النواميس الطبيعية المقدسة التى لا يجوز خرقها ، وهى أزلية أبدية على ما يزعمون .

دعاوى خيالية لم يعضدها الحس ولا قام عليها البرهان ، ولكنها نزعات نفوس حمقاء ، وأوهام رءوس طائشة لم تستمد من الوجود ولا استندت إلى البرهان ، وإنما استمدت من عقول أربابها المنحرفة واستندت إلى ما فى نفوسهم الطفلية من خيالات وجهالات .

وإنا نقول لهم : أولا : هل أحطتم بكل النواميس ؟ أليس من الجائز بل الواقع أن يكون هناك ناموس أو نواميس لم تحلموا بها ؟ ألم يكن من قبلكم من علماء القرن السابع عشر والثامن عشر يتبجحون تبجحكم ويدعون دعاويكم ؟ بل نقول : ألم يكن الأقدمون يزعمون أن العناصر أربعة وأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة ، وكانوا يحلون بذلك كل شىء فى الوجود . وما كان يدور بخلدهم أن العناصر تصل إلى السبعين أو الثمانين « ومن يدرى ما يجىء به المستقبل فلعلها تصل إلى المئات أو الألوف » .

وما كانوا يظنون أن نظرية الجوهر الفرد ستصبح فى حيز الهزء والسخرية وأن ستحل محلها نظرية الألكترونات الجديدة؟ وعلى كل حال من ذا يستطيع أن يدعى أنه أحاط علما بكل نواميس الكون وما فيه ، ولو كان كذلك لوقف الاكتشاف والبحث ولم يتقدم العلم الذى يبدى لنا كل يوم جديدًا ويبرهن على أنه لا آخر له ؟ ومن ذا الذى يدريهم أن قدرة الفاعل المختار تقف عند ذلك الحد ولا تتعداه ، مع أنهم يعتقدون أن فى الطبيعة قوى لا تحد ولا تعد ؟

فعلى أى شىء يعتمدون فى إنكار معجزات الأنبياء ؟ وهب أنهم عرفوا شيئاً مما شاهدوه فى تلك الأرض التى هى من أصغر العوالم ، ألم يبق مما لم يعرفوه الشىءُ الكثير الذى لا نهاية له ؟ فإن العوالم لا يدرون لها نهاية « باعترافهم » .

وقد ذكروا فى سير النور وسرعته وأنه مع تلك السرعة المدهشة لا يصل إلينا من بعض الكواكب إلا بعد مئات السنين أو ألوف السنين ما يوجب الدهش الكلى والقبوع التام فى إحدى زوايا تلك الأرض الصغيرة التى هى أقل من جحور الحشرات والديدان بالنسبة لهذا العالم الذى لا يعلمه غير خالقه .

ولماذا لا يقولون ما يقول (اسحق نيوتن) الانكليزى مكتشف الجاذبية وأحد أساطين العالم فى الفلك : « لسنا إلا كأطفال فى جزيرة على شاطئ بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من القواقع ، على حين أن الجواهر النفيسة فى قعر ذلك البحر » ولكن الأمر على ما يقول الفليسوف شوبنهور : « كلما انحط الإنسان فى القوة العقلية قلت مساتير الوجود فى نظره فكل شىءٍ عنده يحمل معه تفسيراً لكيفية وجوده وسبب حدوثه » .

وقد قال المسيو (لوسيان بوانكاريه) : « إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاماً ويجمع عليها المجربون إجماعاً عاماً بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى » وقال الفليسوف الشهير (جوستاف لبون) : « الوجود مفعم بمجهولات

لا نراها ، والحجاب الذى يحجبه عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد ، العلم الرسمى) .

وقال الفليسوف (إدوار لوروا) : (العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهر الثبوت. فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم . فالعلم لا يستطيع وحالته هذه أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة وكل ما ينتظر منه أن يتخذ منا كقاعدة للعمل) .

وقال الفليسوف الكبير (وليم كروكس) فى خطبة له : « إن عدم اعتمادى على رأس مالى العلمى قد بلغ حداً بعيداً جداً ، فقد تقبض هذا النسيج العنكبوتى للعلم كما عبر عنه بعض المؤلفين حتى لم يبق منه إلا كرية حقيرة تكاد لا تدرك ».

وقال الفليسوف الطائر الصيت (هنرى بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (قيمة العلم) «إذا نظرنا فى ناموس خاص أياً كان فإنا نستطيع أن نتأكد من أنه لا يمكن أن يكون إلا تقريبياً » وقال أيضاً : « كثيراً ما يقال من الذى يدرى ما إذا كانت النواميس لا تتطور وأنها لم تكن فى العهد الفحمى على ما هى عليه اليوم ؟ » ولهذا كله قال بعضهم : « إن الفرق بيننا وبين آبائنا أنهم كانوا يعتقدون أنهم علماء أما نحن فنعتقد أننا جهلاء » .

إلى آخر ما اعترف به المنصفون من أكابر علماء الطبيعة المخلصين الذين ليسوا فيه زعانف ولا مقلدين .

رَدّ على مُبَشّر [1]

جاءنى خطاب من حضرة الفاضل كمال لاشين يقول فيه: «إنه ناظر مبشرًا من المبشرين فطعن على القرآن بأنه من كلام الجن ، وأن النبى أجبرهم على ألا يخبروا أحدًا بذلك ، كما طعن عليه بأنه لم ينزل جملة واحدة » إلى آخر سخافاته وجهالاته التى لا نرى داعياً لذكرها بنصها ، وقد طلب منا ذلك الأستاذ أن نكتب كلمة فى ذلك .

ونقول له : إن أمثال هذا الكلام أسقط من أن يرد عليه ، وأحقر من أن يلتفت إليه ، فإن الإنس أفصح من الجن ــ وخاصة الجن هى الخوارق المادية المعروفة لا الفصاحة والبلاغة ، على أن وجوه إعجاز القرآن ليست منحصرة فى الفصاحة والبلاغة كما هو معروف .

وما فى القرآن من البينات والهدى وذكر مجامع السعادات ، والإخبار عن المغيبات ، وشرح ما يجب للإله الحق ، وما انطوت عليه النفوس وأكنته القلوب ، والأخذ عن الدنيا والترغيب فى العقبى ، إلى آخر مالا يمكننا شرحه فى هذه العجالة يستحيل أن يكون من إنس أو جن ، «ولو جاء به جنى لكان أعظم الأنبياء على الإطلاق ولاستحال عليه الغش والكذب فضلا عن أن يكذب على الله » .

(١) مجلة الإسلام ــ السنة السادسة ــ العدد السادس ــ ... ١٣٥٦ .

وقد قال (سديو) الفرنسى : لو وجدنا المصحف فى فلاة ــ لقلنا إنه كلام الله . إلى غير ذلك من كلام أكابر الأوربيين المنصفين « الذين ليسوا مخرفين ولا مستأجرين » مثل الكونت (هنرى) والفليسوف (كارليل) ، والفيلسوف (كاين تيلر) ، والفيلسوف (برنارد شو) والفيلسوف (جوزف تومبسون) والفيلسوف (درابر) الأمريكى ، والفيلسوف (لوازون) ، وغيرهم مما نشر فى الجرائد والمجلات ،

وإن الإسلام بوضوح حقيقته ، ونصوع براهينه ، وسمو تعاليمه ليدعو لنفسه بنفسه لدى العظماء والكبراء الذين نرى أسماءهم على صفحات الجرائد من حين لآخر . على حين أن المبشرين المأجورين الذين جاسوا خلال الديار الإسلامية كلها لم يظفروا إلا ببعض السفلة الساقطين الذين يعدونهم ويمنونهم (وما يعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)[1] فيوافقونهم ظاهرًا لا باطناً إجابة لداعى الأغراض والأمراض .

وليت شعرى بعد ذلك كله ما هو الطريق الذى يلزم الجن والشياطين الذين هم أعداء بنى آدم ومضلوهم بمقتضى تلك العداوة الأصلية التى شهد بها الإنجيل والتوراة وجميع كتب الأنبياء أن يكتموا ما فعلوه وما جاءوا به ولو بعد وفاته ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهل أسلموا عن آخرهم حتى امتثلوا أمره ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وكيف يتصور الإسلام والامتثال وهم أصل ذلك كله ومختلقوه على رأى ذلك المخرف ؟ وهل يمكن الجن أن يعلموا المغيبات التى جاء بها القرآن وهى كثيرة ؟ وهل يمكنهم أن يأتوا بتلك السعادات والهدايات التى اشتمل عليها القرآن؟ وهل يمكنهم أن يأتوا بتلك المعجزات التى ظهرت على يديه

(١) سورة الإسراء من الآية ٦٤

– صلى الله عليه وسلم – حتى انشقاق القمر؟ وهل تتفق سيرة الكذاب الذى يتلقى عن الشياطين وسيرة النبى – صلى الله عليه وسلم – « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ »(١) وهل يكون للكذاب المشعوذ تلك الآثار التى ملأت الدنيا نوراً ، وبهرت أساطين المؤرخين كما كان له – صلى الله عليه وسلم – ؟ وهل إذا حللنا نفسيته – صلى الله عليه وسلم – وشجاعته وثقته بالله نجدها نفس غشاش خداع يريد الدنيا ؟ والغشاش والخداع جبان حتى عند نفسه ، والكذاب المتلون يستحيل عليه أن تكون له آثار جليلة أو تاريخ مجيد .

وقد أنبأنا التاريخ أنه – عليه السلام – كان يسمى بالأمين قبل النبوة ، ولكن ما لهذا الغمر الذى يريد أن يؤدى وظيفته التى يرتزق منها وهذه الحقائق التى لا يعرفها إلا أساتذة علم النفس وكبار علماء الاجتماع .

وأما نزول القرآن على التدريج فهو مما توجبه الحكمة ، فإنه لا يصح فى العقل أن يدعوهم إلى الصلاة والزكاة وبقية أحكام الإسلام إلا بعد أن يقنعهم بوجود الله وعظمته ووحدانيته وصفات كماله وجلاله ، وكيف يصح أن نقول فى مقام المناضلة عن التوحيد وبطلان عبادة الأوثان أن الخمر حرام والميسر من عمل الشيطان ، أليس من قواعد التربية وأصول علم النفس ألا نذكر شيئاً للمتعلمين إلا إذا سمح به استعدادهم وتقاضته قابليتهم؟ وإلا كان الأستاذ خابطاً خبط

(١) سورة الشعراء ، الآيات (٢٢ – ٢٢٢ – ٢٢٣) .

عشواء ، فكيف يليق ذلك بحكمة الحكيم العليم (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(١) . ولكن ماذا نقول للجهلاء الأغبياء . لا نقول لهم إلا ما قال الله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)(٢) . (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)(٣) . (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)(٤) وألفت نظرك بوجه خاص إلى قوله تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)(٥) وإنى أنصح للأستاذ السائل وأمثاله إذا ابتلوا بمثل هذا المخرف المأجور أن يهاجموه فى دينه المحرف الذى لا يستطيع العاقل أن يتصوره فضلا عن أن يصدق به .

وقد قال الإمام ابن حزم : لو لم نر هؤلاء بأعيننا لم نصدق أن فريقاً من النوع الإنسانى ينحط إلى هذه الدركات أو يتفوه بهذه الترهات .

ومن ذا الذى يؤله إنساناً مثله كان يأكل الطعام ويخرجه . . ؟ وليتهم بعد ما ألهوه حافظوا على ذلك ولم يقولوا إن هذا الإله أهين بأفظع الإهانات ثم صلب مع اللصوص والمجرمين فأى إله هذا غير إله

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٣٩ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية ١١ .
(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

أولئك المجانين الذين يجعلون الثلاثة واحدًا ، ويقولون إن الإله رضى أن يشنق نفسه من أجل عبيده ، أما كان أسهل عليه أن يغفر لهم ولا يشنق نفسه . . ولكن الإنسان مجمع العجائب والغرائب ومظهر المتضادات والمتناقضات ، وإذا فسدت فطرته كان أحط من الحيوان ولم يبق له شيء من الإنسانية على الحقيقة :

من كل إنسان إذا خاطبته   لم تلق إلا صورة الإنسان

ولنسق لك حكاية على سبيل الفكاهة ، وقد ذكرها العلامة أحمد ابن المبارك من كبار علماء المالكية ، وهى : أن بنتا من بنات النصارى نظرت إلى القمر فقالت لأبيها من خلق هذا القمر وأمسكه فى علوه ، فقال لها : هذا وأشار إلى الصليب فرفعت الصليب إلى صدرها ثم تركته فسقط على الأرض فقالت لأبيها إذا لم يمكنه أن يمسك نفسه فى هذا القدر الضئيل فكيف يمسك القمر فى سمائه ؟ فبهت أبوها ولم يحر جوابا .

ولذلك كله لا تجد عاقلا من عقلائهم إلا تبرأ من هذه العقيدة غير المعقولة .

وبعد فقد شافه القرآن علماءهم وأكابرهم بأنهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم يجرؤ أحد منهم أن يكذبه فى ذلك .

وليس يخفى عليك أنه ليس من المعقول أن يعرف أنه كاذب فى تلك الدعوى ثم يشافههم بذلك ، وفيهم أمثال عبد الله بن سلام الذى

صار من أكابر المسلمين بعد ما تبين له الحق (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)(1) .

ولا بأس أن نتنزل فنقول : لو كان سياسيا كما يقول هؤلاء المبشرون لما أمكن أن يدعى أنه منصوص عليه فى التوراة والإنجيل وهو يعلم كذب نفسه ، والتوراة والإنجيل بين أيديهم وما كان أهون عليهم إذ ذاك أن يبرزوهما على رءوس الأشهاد . وهل يتصور أن أحدا يعمد إلى أكبر برهان محسوس يثبت كذبه ، وينقض دعواه وينفر متبعيه ، وينصر منتقديه ، فيجعله حجة له ودليلا على صدقه ، اللهم إن هذا غير معقول ولا مقبول . . إلى آخر مالا تسعه هذه العجالة ، ولو تأملت لعلمت أنه خاتم الأنبياء حقا وأعظم الرسل صدقا ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعه كما فى حديث البخارى وغيره .

إنك إذا نظرت فى التوراة لم تجدها معنية إلا بالأمور المادية والسعادة الجسمانية ، وإذا نظرت فى الإنجيل الذى حرفوه لم تجده معنيا إلا بالروحانيات دون الماديات ، فهو منافر كل المنافرة للطباع البشرية حتى قال « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » وما أشبه ذلك بتعاليم بعض أرباب الطرق لدراويشهم ، ومحال أن ترقى بذلك أمة من الأمم . .

(1) سورة الرعد ، الآية ٤٣ .

أما القرآن فيقول : (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[1] ثم يقول : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ)[2] . (وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[3] .

ولذلك ضربت أوربا بهذه التعاليم الكهنوتية عرض الحائط ، ولو لم تفعل ذلك لكانت أذل الأمم على الإطلاق وأحقرها على الإطلاق ، ولكنك تجد القرآن جاء بمصالح الدنيا والآخرة ، وسعادة الأبدان والأرواح وإصلاح الظواهر والبواطن ، كما تلمح ذلك فى بعض ما ذكرناه لك . ولا بأس أن نحيلك على كتبنا : (الجواب المنيف) و (سبيل السعادة) و (وسائل السلام) . ولا أزال أوصى كل من يريد مناظرتهم أن يكون مهاجماً لا مدافعاً ، وسيلقى فى معتقدهم ما يقصم الظهور ويفرى الأوداج . (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)[4] .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .
(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨ .
(٤) سورة الحج الآية ٤٠

محبة الله عز وجل[1]

ذكرنا فى مقال سابق تفسير قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض » إلخ كلمة عن سعة الملك الإلٰهى الذى يبهر العقل ما فيه من عجائب المصنوعات وبدائع المخلوقات :

إن آياتِ ربنا بيِّناتٌ   ما يمارى فيهن إلا الكفورُ

وقد وعدنا القارىء الكريم أن نكتب كلمة تثير محبة الله من القلوب فإنا نرى القرآن قد تعرض عقيب تلك الاية التى ذكر فيها دلائل التوحيد لذكر تلك المحبة حيث يقول :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ)[1] ، وكأنه يشير إلى أن محبة المؤمنين تنبنى على معرفة الآيات والدلائل ، بخلاف محبة غيره فإنها مبنية على تقليد الآباء واتباع الأوهام والأهواء .

ولنخض بك غمار الموضوع فنقول :

بادر لدرك الذى قد فات من عمرك   ولتتخذ زادك التوحيد فى سفرك
أيا مليك الورى يا منتهى أملى   ما أشوق السر والمعنى إلى خبرك
ما ظل لى أمل فى غير مشهدكم   ولا قرأت كتاباً ليس فى سيرك

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثانى — المجلد الثامن — صفر سنة ١٣٥٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

إذا كنت تحب أحداً لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فاحب الله تعالى الذى أتقن كل العوالم ، وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسه : حتى قال (سبنسر) الإنجليزى ما ترجمته : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » .

ويكيفك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفزيولوجيا فطأطأوا له الرءوس ، وعشوا أمامه كما يعشو الخفاش أمام الشموس .

وإن كنت تحب أحداً لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم السموات والأرضين ورب العالمين ، ومدبر الخلق أجمعين ، من أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب أحداً لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه فى باب الفضل والمكارم ، فأحب منبع النعم ومعدن الكرم . وأين كل ما تتخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله ؟ وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة فى الوجود ، وأنه رب الكرم والجود ؟ (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢ .

ولعمر الإنصاف أن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام ، وتخرس فيه الألسن ، فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعمه .

وانظر إن شئت لنعمة الهواء التى يتوقف عليها وجود كل حى إلى آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها وإن شئت فانظر إلى نعمة الضياء أو الماء ، وما أودعه فى الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره ، (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[1] . (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[2] .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل من فى الوجود ، ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود الفيلسوف (لينه) الفزيولوجى الفرنسى الذى كان يدعوه وجدانه فيجيبه ويناجيه شعوره الحى فلا يتغافل عنه — وهو عندى مؤمن لا محالة — قال :

« إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شيء قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا . فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده لا فرق بين أصغر الأشياء وأكبرها . إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشى وتجددها يشعر بجلالته وعظمته . » .

(١) سورة يس ، من الآية ٣٨ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكمالها ، فأحب من أوجدها فى أحسن تقويم ، وشق سمعها وبصرها وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ماتتنوع به لذتك وتتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتك نعماؤه ، وأشرق عليك ضياؤه ، وعذب لك ماؤه ولطف هواؤه وأنعشتك بدائع أكوانه : من رياض غناء ، وصحار فيحاء ، وأثمار شهية ، وألوان بهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب ، من شموس وأقمار ، وأطيار وأزهار ، وليل ونهار .

أما يجب أن نقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات ، والدلائل الناطقات ، والنعم الفائضات ، ماقال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار   وليال خلا لهن نهار
وجبال شوامخ راسيات   وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل   مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا   فى نهار وفى الدجى أقمار
ورياح تهب من كل فج   وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير   جل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله   نفوسا لها هدى واعتبار

أو نقول كما قال غيره مخاطبا نفسه مستحثا لها على العبرة وإطالة الفكرة حيث يقول :

تبصر حيث كان لك التبصر   وفى ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر   تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ماصنع المليك
فأنوار المهيمن ساطعات   وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات   أصول من لجين زاهرات
على أغصانها ذهب سبيك
شموس فى البرية مشرقات   نجوم فى الدياجى لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات   إلى ما لست أدرى طائرات
يطير بها له الجرم السميك
رياض مونقات منعشات   وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرك ناضرات   على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

أو يقول وقد امتلأت نفسه بالوجود الحق ، الذى ظهر فى جميع الأشياء ، وتجلى نوره فى عوالم الأرض والسماء ، وإن غاب عن الأبصار وجل أن يدرك بالأنظار :

ظهر الوجود الحق فى الاشياء   متجلياً جهراً بغير خفاء
إن الوجود عن البصائر غائب   من حيث ما هو ظاهر للرائى
والفيء يكشف أن ثمة شاخصا   متحكما فيه بغير مراء
فرأيته من حيث لم تعلم به   وعلمته فى رتبة الأسماء
والشمس لا تستطيع رؤية ذاتها   لتألق فيها وفرط ضياء

أو يقول ماقال ذلك الرجل الذى رآه ظاهراً فى آثاره ظهور الشمس، وإن تعالى بحقيقته عن العقول :

حسن تراءى فى المرائى ... وبه تحير كل راء
والكائنات جميعها ... موج على صفحات ماء
والأمر أمر واحد ... فيه التقارب والتنائى
والكون عرس زينت ... ذى الارض فيه مع السماء
بكواكب ومواكب ... والنجم خفاق اللواء
والطبل أجسام الملا ... والزمر أرواح الفضاء
وصدا جميع الكائنا ... ت أخى من أشهى الغناء
هو باطن هو ظاهر ... فاحذره من وجه الخفاء
واطلبه من وجه الظهو ... ر تجده فى كل المرائى
شمس وكل الخلق فى ... أنوارها مثل الهباء
لكن إذا أنكرتها أصبحت من ... حمقى الخلائق لامن العقلاء (١)
ياقوم كيف عقولنا ... لاتضمحل من الهباء

أو يقول عندما يرى الاشجار تتهادى فى حلل الأوراق والأزهار معجباً برؤيتها متعجباً من قدرة خالقها :

يا صاحبي تعجبا لملابس ... قد حاكها من لم يمد لها يدا

فقل لى بعيشك هل من الحياء ، والحياء خلق كل كريم ، أن تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإمساء ، وما أوجد لك من بديع الأشياء وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على

(١) هذا البيت لا يتفق مع وزن القصيدة ، فلعله عدل عن العروض والضرب . إلى عروض وضرب آخرين . ولعله كان فى الأصل اضطراب .

مايقول عز وجل : «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً» (١) ثم لا تؤدى شكره ولاتعرف قدره .

إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا ... من فرط لطفك ربى كيف ينساكا

فإن كان لا يؤثر فى نفسك فائض إنعامه ، ومزيد إحسانه ولاماهو عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون، وعظمة لايصفها الواصفون، وعلم لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وحكمة أتقن بها جميع الأشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجلال وصفات الكمال ، وكان لايستولى على نفسك سلطان الحسن الذى تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فإنما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق الذى يجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا بعض سرائره ، ولا تمثل لك أى مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه . وأنى يسع المحدود من لايقبل التحديد . وكيف لايضيق المقيد ممن لايدخل فى سجن التقييد .

إن قلت هذا فإن الحد يحصره ... أو قلت ذا فكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الظرف يطلبه ... والظرف، حق ولكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجوداً لست أدريه ... إلا الذى أنا معنى من معانيه

فطوبى لم شم عرف شذاه أو شام برق سناه ، وهنيئا لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا ، أو نظر إليه ولو شذراً ، فإذا لم يدر ما هو تائق إليه ومتلهف عليه قال :

شيء به فتن الورى وهو الذى ... يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

(١) سورة لقمان ، من الآية ٢٠ .

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى الله، أتدرون لماذا . لأنهم يتوقون إلى إصلاح لا يتناهى وجمال لا يتناهى وكمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع إلى سلامة فطرتك ، وحدق بصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجمال الإلهى الذى تجلى على صفات الموجودات ، واقرأه بين سطور تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله إلى أى حد انتهيت .

ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور ، قوى الإحساس بالجمال ،إلا وقد وصلت إلى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن ،إذ تجدك أحسست بجمال لا يتناهى ، وغرقت فى بحر من الجلال لا يحد ولا يأتى عليه التعبير :

فطوراً فى الجلال على التذاذ   وطوراً فى التذاذ بالجمال

وعند ذلك ينطق لسان حالك منشدا :

عجبت لعاقل فى الناس أضحى   يرى هذا الجمال ولا يهيم

ويترنم بلبل روحك مغردا :

لعمرك كل الحسن من بعض حسنه   وما حسن كل الحسن إلا جماله

فاستجل هذا الحسن رعاك الله فى كل شىء تراه من العلويات أو السفليات :

إن شئت فى فلك أو شئت فى ملك   أو شئت فى مدر أو شئت فى حجر
فالكل ينطق أن الله خالقه   وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهى أظهر ما علمت ، وأظهر ما رأيت ، وأجمل ما وقع عليه البصر ،وأبهى ما وصل إليه النظر ،إلا أثر من آثاره ونور من أنواره قد كتب عليها سطور البهاء والجمال والعزة والجلال ، فنحن نقرأ فيها قدرة تخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالا يذوقه الوجدان ، وإن كان لا يكيفه ، فتمتلئ به النفوس وإن كانت لا تعرفه ،ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : (تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[1] . وحقه وما أكبر حقه ، لو تفرغتَ من الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئا لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عنى كل جارحة   فى كل معنى لطيف رائق بهج
وفى مساقط أنداء الغمام على   بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى   برد الأصائل والأصباح فى البلج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا   أهدى إلىّ سحيرا أطيب الأرج

عظم والله البرهان وامتلا الوجدان ووصل الأمر إلى حد العيان وليس بعد العيان بيان ، ولكن قويت الأنوار فغشيت الأبصار . وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن عظم نفعه ، ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخلد إلى الأرض من الغافلين والجامدين .

خليلى قد طال المقام على القذى   وحال على ذا الحال يا قوم أحوال
عمر زمانى بالأمانى وينقضى   على غير ما أبغى ربيع وشوال

(١) سورة المؤمنون ، من الآية ١٤ .

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت . فإن كنت تحب أحداً لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب فأحب الملأ الأعلى سكان ملكوت الله تعالى فإن فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) [١] .

وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء والهناء ، ولا أمنيته إلا الإطلاق من جميع التقييدات ، والاطلاع على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيت عالمك الأول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسماني الذى لا بد له من الفناء ، فأنست بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصيته التى هو بها إنسان على الحقيقة فيقول : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) [٢] .

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم البهجة والبهاء ، وصرت لا تعرفه ولا تحس به ، وإنه لموطن روحك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها . وأما مطلبها الذاتى وغذاؤها الأصلى فهو الأسرار والأنوار .

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٨٥ .
(٢) سورة الأنعام ، من الآية ١٢٢ .

ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ما هى مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو فى الحقيقة نسيان لنفسها (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) [١] فكأن لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التى أضعفت منها تلك الحاسة العليا ، التى هى مناط لذتها الكبرى ، وشرفها الأعلى وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

(١) سورة الحشر ، من الآية ١٩

حاجة الإنسان إلى الشريعة (١)

وشيء من آيات الله وعظمته

إن النفوس الإنسانية تمرض كما تمرض الأبدان ، بل هى مستعدة لذلك أكثر منها بمقتضى لطافتها وشدة تأثرها بكل ما تراه وتسمعه ، وبقوة انفعالها بأميالها وشهواتها .

وإن أمراضها لأكثر من أمراض البدن على كثرتها . وقد يصل بها المرض إلى حد الموت الروحانى بإبطال خاصة الإنسانية من العلوم والمعارف والأسرار والأنوار ، وإذاً لا ينفعها الإرشاد ، ولا يجديها التعليم ، ولذلك يقول القرآن – يريد النبى عليه السلام – : (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً)(٢) . وقد سمى الجاهل الضال ميتا فقال : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)(٣) ، ويقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)(٤) كما أثبت لها المرض فى آيات كثيرة .

وكل ضلال فى العالم وكل شر على وجه الأرض ليس منشؤه إلا مرضا من أمراض النفوس . وقد أرسل الله الأنبياء – عليهم السلام – أطباء لتلك الأمراض : يعالجونها بأنواع العلاج ، ويرسمون لها

(١) مجلة الأزهر – الجزء الرابع – المجلد الثامن – ربيع الآخر سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة يس ، الآية ٧٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٢٤ .

قانون حفظ الصحة إن كانت موجودة بالحمية عن دنس الاخلاق ورذائل العادات وتعديل الأميال ، ومراقبة النزعات والأهواء وردها إن كانت مفقودة .

ومعلوم أن الإنسان مركب من جزء علوى سماوى ، وجزء سفلى أرضى ، أو نقول من جزء روحانى ، وجزء جسمانى ، وأن الإنسان لايسعى لمطالب الجزء الجسمانى من المطعم والمشرب ، وإتقاء الحر والبرد إلى غير ذلك إلا من حيث أنه حيوان لا إنسان فإن ذلك مشترك بينه وبين غيره من الحيوانات ، وإن كان هو أوسع منها تفننا يستحق أن يسمى به سيد الحيوانات ، وتعلم – رعاك الله – أنه لا قيمة لما تشاركك فيه الحيوانات ، وأن الإنسان لا يكون إنساناً على الحقيقة إلا إذا وجدت فيه خاصة نوعه ، وإلا كان إنسانا بظاهره وصورته لا بباطنه ومعناه . ولذلك يقول القرآن فى حق قوم فسدت فطرتهم : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)(١) .

فلهذا جاءت الشرائع الإلهية ترقيك من حضيض الحيوانية إلى أوج الإنسانية ، وتذيقك شيئاً من حلاوة ذلك العالم الروحانى : عالم البهاء والصفاء ، وتمتعك برياضه المونقة وحياضه المتدفقه وتنزهك فى جمال الملك والملكوت والعظمة والجبروت ، فتنفتح عين بصيرتك لاستطلاع ذلك الجمال الإلهى الذى ظهر على صفحات الموجودات ، وتتجلى بأروع ما يكون فى مرايا تلك المبدعات .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤ .

فتارة تقرأ فى خلال تلك السطور من العزة القعساء والعظمة والكبرياء ما تنشرح له الصدور وتبتهج به النفوس ، وتارة تطالع من حكمته تعالى فى خلقه وأسراره فى أرضه وسمائه ، ما تتحير فيه العقول وتخر لعظمته ساميات الأفكار ، وتارة تجول فى سعة الملك وعظمة الملكوت فتعرف أن أرضنا هذه جزء من ألف ألف جزء وأربعمائة ألف جزء تقريبا بالنسبة للشمس ، وأن الشعرى أكبر من الشمس بأضعاف مضاعفة ، وأن نور الشمس جزء من خمسين جزءا من نور الشعرى ، وأن المشترى يقطع فى الساعة الواحدة ثلاثين ألف ميل ، وزحل يسير فى الساعة ستين ألف ميل ، وأن الالات الحديثة والنظارات المقربة قد أضمحلت وتلاشت فى جنب ذلك الملك العظيم ، والاكتشافات الحديثة – على عظمتها وكبريائها خرت ساجدة تنادى بالعجز والقصور أمام تلك العظمة القاهرة والقدرة الباهرة .

ويعلم الله ما وراء الشعرى من العوالم والنيرات – سبحانك ماعرفناك حق معرفتك ولا يزال استطلاع الأسرار واستفاضة الأنوار ، ومطالعة الجمال غير المتناهى يستولى على قلوب بعض عباد الله المستعدين لذلك ، حتى إنهم ليصلون به إلى حد التوله فى محبة ذلك المبدع العظيم ، والتدله بما يبهرهم من جمال ذلك القادر الحكيم .

ولا يسارعن إلى إنكار ذلك بعض من تراكمت عليه الظلمات وأحاطت به الآفات ، فليس من الإنصاف أن ينكر الإنسان كل مالم يصل إليه ، بحجة أنه لم يصل إليه .

فما أضعف ذلك احتجاجاً ، وأسمجه برهانا ، فكم من أشياء كنا نجهلها غاية الجهل كالميكروبات وغيرها ، ثم تبين أنها عالم لا غاية له (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)(١) . فكيف يكون الجهل دليلا على عدم الوجـود ، ولعل هناك خاصة أخرى باطنية لم تخلق فيك وفى أمثالك .

لعمرك ما هـذا بهزء وإنما حديث غريب من بديع الغرائب

فاعرف قدرك أيها الانسان ، فما أنت إلا مخلوق ضئيل فى مخلوقاته وكائن صغير فى جانب مكوناته . وإذ كنت لست إلا عالما من عوالم هـذه الأرض الكثيرة العدد ، وأرضك – بكل ما فيها – ليست إلا شيئاً يسيراً بجانب الشمس ، وليست الشمس إلا شيئاً يسيرا بجانب الشعرى ، وليس ذلك كله إلا شيئاً يسيرا بجانب بقية العوالم التى لم نعرف لها نهاية ، ولا وقفنا لها على غاية .

وقد جاء فى بعض الكتب الحديثة والمجلات العلمية ، أن أقرب كوكب لنا بعد نظامنا الشمسى يبعد عنا أكثر من ٢٥٠ مليونا من الأميال ، ومن الكواكب ما يكون بعيداً جدا حتى إن النور الذى يقطع فى الثانية الواحدة ١٨٦٣٠٠ ميل يحتاج إلى الآلاف من السنين حتى يجىء من الكوكب إلى أعيننا ، والمنظور بالعين المجردة فى السماء ست آلاف نجمة . منها ثلاثة آلاف ظاهرة وثلاثة آلاف خفية . ويرى بالمنظار المقرب (التلسكوب) مائة مليون من النجوم .

(١) سورة المدثر ، الآية ٣١ .

أليس من المدهش أن نرى كوكبا بأعيننا وضوءه لا يصل إلينا إلا بعد مائة سنة أو أكثر؟ وقد عرفت سرعة سيره وأنه يسير فى الثانية الواحدة ١٨٦٫٣٠٠ ميل ، فتأمل هذه المسافات العظيمة التى لا تستطيع أن تحسبها ، وانظر إلى تلك الكواكب التى لا يعلم عددها إلا الله كيف قدرت ، وبأى طريق خلقت ، وبأى علم نظمت ؟ وهل يعقل أن هذه النظامات العجيبة والآيات البديعة تخلق سدى وتذهب شعاعا ، وتكون باطلا (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[1] .

وقالوا فى محاسن المنظار المقرب (التلسكوب) : إنه يرينا نحو ١٠٠ مليون من النجوم ولكن المنظر الطيفى أظهر ملايين الملايين .
ثم قالوا : إن كثيرا من النجوم ضئيلة النور لفرط بعدها عنا ، فلا قبل لنا برؤيتها حتى بالمقرب. وإن الشعرى اليمانية تبعد عن الشمس مليون ضعف بعدها عنا ، وهى تسير فى الدقيقة ألف ميل ، وإن ثلاثا من بنات نعش (مايا) ، (الكترى) (السيون) يفضحن الشمس ، ويفقنها نوراً ونارا ، الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية بأربعمائة وثمانين ، والثالثة بألف ضعف.

أما (سهيل) فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة ، و (السماك الرامح) أسطع منها بثمانية آلاف مرة .

فعلى الحقيقة ليست الشمس أم نظامنا السيارى ، وما هى إلا نجمة صغيرة بالنسبة لتلك الشموس وكم حسبها الناس أكبر الأجرام السماوية وأسطعها .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١

أما « السماك الرامح » فهو على حد علمنا ، أسرع النجوم سيرا وأشدها تألقا وأكبرها حجما ، تقدر سرعته بثلاثمائة ميل وكسور فى الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس وحجمه ثمانون ضعف حجمها .

أما بعده عنا فتخيله لنفسك عندما تعلم أن نوره لا يصلنا فى بضع دقائق كنور الشمس وهى على بعد ٩٢ مليون و ٥٠٠ ألف ميل منا ، بل فى سنين كثيرة لا تقل عن مئين من السنين .

وأما (الشعرى) فنورها الواصل إلينا بعد سفرة طويلة مقدارها ١٦ سنة ، ضئيل جدا بالنسبة إلى نورها وما هو إلا جزء من ألفى مليون من نورها الحقيقى .

وأن النجمة المعروفة بعدد ١٨٣٠ (غرومبرودج) تسير ١٢٠٠٠ ألف ميل فى الدقيقة و (السماك الرامح) ٢٢٠٠٠ ميل تقريبا فى مثل هذا الوقت القصير .

وهناك نجوم بعيدة عنا جدا بحيث تمر آلاف السنين ولا يكاد يظهر أدنى تغيير فى منظر القبة الزرقاء .

فلنقل ما قال (اللورد أوفيرى) فى كتابه (محاسن الطبيعة) :

(ليكسر الحاسب قامه ، وليضرب التاريخى بيراعه عرض الحائط ، وليقف الذهن كليلا والعقل مخبولا ، وليطلق الخيال فى هذا المجال ، ولا أخاله إلا رائدا مردودا) . ولذلك كله قال بعض فلاسفة الأوربيين من عظمة ذلك الملك : (ياالله ما أعظمك وأجلك

وما أبهر قدرتك وأوسع علمك . ليت شعرى من ذلك المجنون الذى اجترأ فسماك لأول مرة . الله ؟) .

فماذا تكون نسبتك أيها الانسان الشامخ بأنفه ، الجاهل بقدره ، بجانب تلك المخلوقات . وعلام تتبجح كبرًا وتيها وأنت الصغير (وكبير عليك اسم الصغير) أمام عظمة رب الأرض والسموات ؟

وليت شعرى ، بعد هذا ، ما شأن ذلك العرش الذى يصفه القرآن بالعظمة ولم تقف له على عين ولا أثر لا بأبصارنا ولا بنظاراتنا . وناهيك أمر يعظمه القرآن .

الله أكبر هذا البحر قد زخرا   وهيج الريح موجا يقذف الدررا

سبحانك ، ما عرفناك حق معرفتك ، لا نحصى ثناء عليك : أنت كما أثنيت على نفسك .

إن لم ترضوا بحكم الشريعة (١)
فتعالوا نتحاكم إلى العقل

مقدمة :

ليس يخفى على القارئ الكريم ما وصلنا إليه من اختلال الأحوال ، وضياع الأموال ، وانتهاك الحرمات ، واقتراف المنكرات ، وإصلاح الظواهر وفساد البواطن ، وفقد الإخلاص ، وذيوع الأغراض ، واستحكام الأمراض ، والمواطأة على القبائح ، وعدم انفعال النفوس لارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة الغطاء على العقول ، حتى أصبحت تنكر اليقينيات ، ولا تعترف بالبدهيات ، وكأنما انقلبت الرءوس ، وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر ، وفسدت الفطر ، وعميت القلوب ، وأعضل الداء فعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التعبير ، ولم تتسع له أودية التحرير ، فإننا فى عصر أولئك الذين تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، من ذوى الألسنة الثرثارة ، والقلوب الخوارة ، والشهوات القاهرة ، والنفوس الفاجرة ، والأفكار الخيالية ، والنزعات الشيطانية . وما أجدرهم بما قلناه منذ زمن بعيد :

كل شىء نخاف منه الآنا   قد مضى من يراقب الديانا
ليس إلا شقاشق وكلام   نمقوه كى يخدعوا الانسانا
وأمور شكلية ونبوغ   فى رياء يا هول ما قد دهانا
من درى الناس شك فى كل شىء   قد بدا منهم كائنًا من كانا

(١) مجلة الإسلام — السنة السادسة — العدد الثالث عشر — ربيع الآخر — سنة ١٣٥٦ .

وقد جاءتنى هذه الأبيات عفوًا :

لقد ظهرت حـوادث لاتطاق   وقـوم ما لأكثرهم خلاق
فأمـوال تبعثر فى فساد   وكم وسط النهار دم يراق
وكم ظـلم تسربل ثوب عدل   وكم ضغن يغطيه النفـاق
وكم فضل يداس ولا يراعى   وكم جهل يروجـه الرفاق
وكم أدب أضيع وكم فتـاة   لهـا شرف إلى عار تساق
فهل حرية الحيـوان نبغى   ففى كل الأمـور لنا انطلاق
تعـادى الدين لكن تدعيه   وعندك بدره فيه المحـاق

ومما قلناه فى هذا الباب أيضًا :

ألا أخلص لربك كل شىء   فمـا لسواه عهد أو وفاء
بلونا الناس فى عسر ويسر   فـلم يك منهمو إلا البلاء
وقد عرف النساءُ بنقض عهد   فليس لهن منا أصـدقاء
ويكفرن العشير لغير شىء   فما لودادهن يرى بقـاء
ولكن الرجال غـدوا نساء   كلا الصنفين فى هـذا سواء
فلا تركن لهـذا أو لهذى   فأخلاق الجميع هى الهباء
ولو شئنـا توسعنا كثيرًا   وما فيما نعـدده مـراء
تقارض بعضهم أزياء بعض   بأشكال هى الداء العيـاء
نساءٌ كالرجال بلا حيـاء   وشبان كأنهم نسـاء

وقد قيل قديماً :

زمـان كل حب فيه خب   وطعم الخل خل لا يذاق
له سـوق بضاعته نفاق   فنافق فالنفاق له نفاق

وقيل أيضًا :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره   فى قول كعب وفى قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم نحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وليت شعرى إذا قيل هذا فى تلك الأزمنة التى كان يغلب خيرها شرها ، ومصلحتها مفسدتها فما بالك بزماننا الذى أصبح فيه المنكر معروفًا ، والمعروف منكرًا ، قد ائتمن فيه الخائن ، وخون فيه الأمين ، وكذب فيه الصادق ، وصدق فيه الكاذب ، وتكلم فيه الرويبضة (1) وقبع الأكابر فى البيوت ، وألجئوا فيه إلى التزام السكوت ، وعلت فيه ضوضاء العامة ، وخفتت فيه أصوات الخاصة .

وإياك أن تظن هذا تزيدًا فى القول أو مبالغة فى الوصف ، فالأمر وحقك فوق ذلك كله . فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين .

ولنذكر لك قليلًا من كثير ، ولا نحيلك إلا على ما تشاهده بالعيان (وليس بعد العيان بيان) .

الشواهد المحسوسة

ليس بخفى عليك أن حوادث القتل والسرقات والإحراق قد وصلت الآن فى بلادنا المصرية إلى حد أنها ترتكب نهارًا جهارًا ، فإذا وصلت إلى رجال الضبط فقد وصلت « فى كثير من الأحيان » . إلى مغمضى أعينهم عن اللصوص والمجرمين ، ومطبقى أجفانهم على القذى ، ولا بأس

---

(1) الرجل التافه الحقير .

عليهم بعد أن يكتبوا فى محاضرهم ما ينقذ الموقف ويخفى معالم الجريمة أو يحيلها على القضاء والقدر ، فإن لم يمكنهم ذلك أمكن وكلاء النيابة الذين هم أقدر منهم على التخلص من تلك المضايق ، وأبرع فى تطبيق القوانين « بسبب شبهة تنقدح فى نفوسهم » أو تأويل يدور بخيالهم » ولوبواسطة بعض أولئك الذين اتخذوا المجرمين عدة يصولون بها على من شاءوا ، ويصلون بها إلى ما أرادوا من دفع الأخطار عن أنفسهم ، أو جلب الأضرار إلى من سواهم ، فإن لم يفلتوا من أيدى النيابة بتلك الوسائل أمكنهم أن ينفلتوا من يد القضاء الحر بفضل أولئك المحامين المعروفين ، أو نقول بفضل أولئك القضاة الذين لا يأخذون إلا بالبرهان القاطع ، وليت شعرى من أين يجىء ذلك البرهان القاطع مع تشكيك المحامين وإبداء الاحتمالات العقلية التى لا تنقطع ولا تقف عند حد ، مع عدم أخذ القضاة بالقرائن التى يأخذون بها وباقل منها مثلًا فى الاتهام بالحشيش ، فيحكمون على من اتهم به بالسنين ، أما القاتل فقد يبرئونه أو يحكمون عليه نظرًا لهذه الشبهة « وعدم توفر الأدلة » ببضعة أشهر وكأن القاضى غير عائش بيننا ولا محس بما يجرى فى البلاد من الحوادث التى عجت فيها الأرض من دماء الأبرياء ، وصرخت فيها السماء من دعاء المظلومين .

وإن شئت فوجه نظرك وجهة أخرى تجد شرب الخمر قد فعل بالأمة الأفاعيل .

وليس بعيدًا منا ما فعله ذلك المجرم ببنته عندما كان فى سكر يجيزه القانون وتقتضيه المدنية الفاسقة ، وليت شعرى لماذا لا تمنعه

الحكومة الرشيدة المسلمة ولو اقتداء بأمريكا المسيحية عندما منعته لانتشار أضراره وكثرة مفاسده ؟ ..

أفلا تمنعونه أيها الكبراء والوزراء والنواب والشيوخ ولو محافظة على دستوركم الإسلامى الذى يصرح بأن مصر دولة إسلامية ؟ أم أنتم من الذين يقولون مالا يفعلون ؟ ويكتفون بالأسماء دون الحقائق .

فإن لم يكن لديكم وازع من دين ، فليكن لديكم وازع من الإشفاق على أبناء أمتكم ، والخوف عليها من ضياع مصالح الدنيا ، فضلاً عن الدين الذى جعل الخمر أم الخبائث وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السفور والفجور تجدها تدمى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها إلى حد الحيوانات بل أشد وأنكى ، ومن أين للحيوان تفنن الإنسان ، واستعداده الغريب ، ومن المخزيات المبكيات أنا نرى كل يوم من تلك الحوادث ما يندى له جبين الحياء ، ولا نفكر فى شىء يرضى النخوة والرجولة ، ولا نصغى لصراخ الدين أو صوت الضمير ، ولا نلتفت لما توجبه الاداب العامة ولو على سبيل النفاق ؟ .

ومن أعجب العجب أن الآباء لا يمتعضون ، والأزواج لا يتألمون ، والإخوة لا ينطقون . بل نرى من الناس من يدافعون ويحبذون . على الرغم من تلك الحوادث المشاهدة التى تطالعنا بها الجرائد كل يوم .

وما أمر بنات المعارف يوم حفلتها الرسمية من القراء ببعيد .
وقد ذكرت الجرائد أن البنات عندما خرجن من الملعب بعد أن لعبن بالعقول واتين بغير المعقول هجم عليهن الشبان ولسان حالهم يقول .

ونحن بنو الدنيا وهن بناتها   وحظ بنى الدنيا لقاء بناتها

وليت شعرى هل صحة الأجسام التى يعملون لها مقدمة على صحة النفوس التى غفلوا عنها ، وقد قال (شيشرون) أحد الفلاسفة العظام : « من فقد صحة الجسم فهو مريض ، ومن فقد صحة النفس فهو مجنون » .

ولا بأس أن نقول لك : إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانوناً طبيعياً يتبع مقتضيات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانوناً أدبياً يُمليه عليك ضميرك وتؤنبك عليه نفسك — إن كانت طاهرة ومستقيمة — وقانوناً شرعياً يكمل به الإرشاد وتتم به السعادة ، وهو القانون الذى بعث الله به الأنبياء .

وبكل أسف نقول : إننا خالفنا القوانين الثلاثة ، فلم نصغ لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرعنا ، ولا نظرنا لمقتضيات الحقائق ولوازمها ، وإلا فمن ذا الذى يقول إن اختلاط الجنسين وحرية الحركات فى الروحات والغدوات لا تجلب أفظع الويلات وأكبر المحظورات ؟ وهل ذلك التعليم السطحى القليل الضئيل الملتوى المعوج فى البنات والبنين يمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعى الذى هو أعلق شىء بالنفوس ؟ وأكبر ما رأيت وما سمعت سلطاناً على الطبائع البشرية كما يشهد به

العقل والحس والشرع والفلسفة . وما كنا نظن أن أحداً يجادل فى الحسيات أو يمارى فى المشاهدات . ولكن الإنسان هو الإنسان ، إلى آخر ما لا يأتى عليه القول ولا تسمح به الآداب .

أما كان يجب على الحكومة ونواب الأمة وشيوخها أن ينظروا فى تلك المسائل التى ستهوى بالأمة إلى مكان سحيق ، فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمة ، ويحقق مصلحتها ، ويمنع تلك الأوبئة القتالة ، وإلا فما فائدة النيابة عن الأمة وما معنى الحكومة والزعامة . وقد قال — صلى الله عليه وسلم — « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

وأظن أن من الواجب القانونى ألا نسترسل فى هذا الموضوع أكثر من هذا ، ونقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة فى الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم فلنقف عند هذا الحد .

وبعد فشتان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجبولة على الجهل والضعف والهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وبين القوانين التى هى تنزيل من حكيم حميد .

تلك القوانين التى تبيح الحرام ، بل تبيح الكفر العلنى ، وتحمى معتنقيه محافظة على تلك الحرية التى تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندى إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فأنت لا تمنعه محافظة على حريته فيما يريد . فهل تراك أحسنت إليه ؟ تلك القوانين التى تجعل دروس الدين فى المدارس أمراً ثانوياً لا يترتب عليه نجاح ولا سقوط .

فأول ما تغرس فى نفوس النشء بهذا العمل أن الدين فى محل الإهمال ولا ينبغى أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهى طريقة عملية فى التربية ، تترك فى نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين وأوهن عقيدة فيه .

وبهذا ينجلى لك سر تهاون كبرائنا وعظمائنا ومتعلمينا بالدين وأهل الدين :

وليل طال بالأنكاد حتى ... ظننت الليل ليس له نهار
لما لا ، والتقى حلت عراه ... وبان على بنيه الإنكسار
ليبك معى على الدين البواكى ... فقد أضحى مواطنه قفار

والخلاصة أن تعاليم الدين الإسلامى أنفع للعمران ، وأجدى على بنى الإنسان من كل القوانين الوضعية والتعاليم البشرية .

وانظر كيف فعل الدين بالعرب عندما اعتنقوه بصدق وإخلاص ومحبة ، فقد نقلهم من الظلم والوحشية وسفك الدماء ووأد البنات وفعل المنكرات إلى التسابق فى ميادين الخيرات ، واكتساب القربات ، ومراقبة خالق الأرض والسموات ، وبذلك كانوا ملوكاً فى الأرض ملوكاً فى السماء بعد تلك الهمجية التى كانوا بها أحط الأمم على الإطلاق .

ونقول بكل أسف : قد فرطنا فى تعاليم ديننا حتى كدنا معشر المسلمين نكون أول الأمم على الإطلاق يطمع فينا كل طامع ويهزأ بنا كل قوى .

كلمة ختامية للزعماء

أرى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ، وعلى الأمم الإسلامية أن تحيى رابطة الأخوة التى جعلها الله بين المسلمين وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد بالسهر والحمى كما علمهم نبيهم .

ووالله لو اتحدوا هذا الاتحاد لحسبت لهم أوربا ألف حساب ، ولأمكنهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلا عن القوة المعنوية ؛ وكان يمكنهم إذ ذاك إنشاء المعامل والمصانع وإعداد أنواع القوة كلها وجمع الأموال اللازمة لذلك وهم أغنياء والحمد لله وفيهم ممالك مستقلة ، فكانوا يستطيعون العمل سراً وجهراً ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططاً حكيمة ويسنون قوانين معروفة ، إلى آخر مالا نرى الإفاضة فيه ، ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم غيروا الوجهة ولم يقولوا مثلا نحن مصريون قبل كل شىء « وكان الواجب عليهم أن يقولوا نحن مسلمون قبل كل شىء » .

ولو اتحدت آسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم دولة فى الوجود .

أسأل الله أن يصلح شؤوننا كلها وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

الفرق بين الإنسان المادّى (١) والإنسان الرّوحانى

يتجلى لك الفرق جلياً إذا نظرت فى أوصاف كل منهما التى توجبها نزعته وعقيدته ونفسيته . فانظر إلى ما يتحلى به الإنسان الروحانى من تلك الأوصاف الفاضلة كالعزة والرحمة والإيثار والرفعة وعمل الخير ، وإلى ذلك الإنسان الطبيعى الذى يقول فيه (بخنر) : « إنه ليس بذلك الكائن الذى يصفه الأخلاقيون » اغترارًا بما له من الأحكام الجسمانية التى لا ننكرها وغفلة عما فيه من السر الروحانى الذى يرقى به إلى الملأ الأعلى حتى يجلس فى أعلى عليين بين الملائكة المقربين.

وانظر رعاك الله كيف يتسفل ذلك الإنسان بما يصفه الماديون ، وذكره إمامهم (بخنر) كما سمعت ، وإلى أى حضيض ينزل ذلك الكائن الأرضى المسكين الذى ليس فيه شىءٌ سماوى عندهم .

وإن شئت أن تمتلىء عجبا حتى تصفق بيديك من قلب الحقائق فاعجب بعد هذا من قولهم : إن الديانات تتسفل بالإنسان ولا تجعله يستقر على شىء ولا يثق بقوة، بل يكون من أحط المخلوقات وأسفل الكائنات، ثم ينزلونه هم بعد ذلك بصريح القول إلى هوة ليس لها قرار. ثم تفكر بعد ذلك ماذا يكون ذل ذلك الإنسان الذى وصفه بخنر عند ما يريد

(١) مجلة الإسلام — السنة السادسة — العدد الحادى والعشرون — جمادى الأولى — سنة ١٣٥٦

مطلبا من المطالب الشهوانية التى يعتقد أنها لذته التى لا لذة له فى سواها وسعادته التى لا سعادة وراءها .

لاشك أنها تكون هى وكل وسيلة إليها معبوده الوحيد الذى يكون أمامه من أذل الأذلاء وأخس الأخساء متجردا عن معنى الإنسانية إذ ذاك بالكلية «بل قد تجردوا عن ذلك المعنى من أول الأمر ووطنوا نفوسهم عليه ولله الحمد» .

فقارن بين الإنسان المؤمن الذى يعتمد على قوة تخضع لها السموات والأرض ويترفع بنفسه إلى الملأ الأعلى معتقدا أن لاشئ يساويه من هذه العوالم الطينية وأنه من نوع آخر أعلى منها قيمة وأرفع قدرا، وبين ذلك الإنسان الملحد الذى لاشىء أمامه غير قوته المحدودة . ووسائله المعدودة ، وضعفه المستولى عليه ، وقصوره المحيط به الذى يجعله يذل لكل شىء فى الوجود متدهورا إلى أحط دركات الخسة من أجل مايأكل ومايشرب فضلا عما سوى ذلك من الشرور التى تبيد العباد وتخرب البلاد .

يفعل ذلك كله لأجل تحصيل شهوة من شهواته ولذة من لذاته التى لايرى السعادة فى غيرها ، ولايعتقد حسابا ولاعقابا فى الوصول إليها بأية وسيلة من الوسائل ، فأين هذا من ذلك المؤمن الذى أحس بعزة نفسه وشرف روحه وقوة إيمانه بمعبوده الذى يقول للشىء كن فيكون فتاه على جميع المخلوقات تعززا برب الأرض والسموات ثم أنشأ يقول :

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا   سوى مايقول الناس فى وفى جنسى
أتيه على جن البلاد وإنسها   فإن لم أجد شخصا أتيه على نفسى

(ولله العزة ولرسوله [١] وللمؤمنين).

هذا مايقول المؤمن الذى يتيه بما وصل إليه من العزة والحرية والفرح بمولاه الذى علم أنه على كل شيء تدبير ، وأنه أرحم الراحمين ، وأنه هو الذى قال : (وَمَنْ يتوكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُو حَسْبُهُ) [٢] وهو الذى قال : (فَإِنَّ مع الْعُسْرِ يُسْراً . إنَّ مع الْعُسْرِ يُسْراً) [٣] وهو الذى قال : (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) [٤] ثم يقول : (ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وهُوَ الْعزِيزُ الْحَكِيمُ) [٥] ثم يقول فى الحديث القدسى : (اسْتَنْصِرُونِى أَنْصُرْكُمْ) وفى القرآن العزيز : (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَاغَالِبَ لَكُمْ) [٦] الخ .

فقل لى بعيشك إلى أى حد تصل الشجاعة والثبات والعزة والاطمئنان ممن هذا حاله ، ولذلك نرى القرآن قد جعل الشرك سببا للضعف والخور فقال : (سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ) [٧] وقال : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) [٨] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) [٩] .

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨
(٢) سورة الطلاق ، الآية ٣
(٣) سورة الشرح ، الآيتان ٥ ، ٦
(٤) سورة يس ، الآية ٨٣
(٥) سورة فاطر ، الآية ٢
(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠
(٧) سورة آل عمران ، الآية ١٥١
(٨) سورة الأنفال ، الآية ٦٥
(٩) سورة محمد ، الآية ١١

التوحيد [١]

رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الأزهر مناقشة جرت بيننا وبين بعض متعلمى العصر الحاضر لما فيها من الفوائد الجمة والمسائل المهمة .

قال ذلك العصرى :

أريد أن أسألك عن مشكلة التوحيد ، وأحب أن توسع صدرك وتسمح لى أن أقول كل ماعندى ثم تزيل شبهتى ببيان يقبله العقل وينشرح له الصدر ، وإلا فهى شبهة الشبه ومشكلة المشكلات .

فقلت له : هات ماعندك بلا خوف ولا وجل ، وقل لى ماهى مشكلة التوحيد ؟

فقال : مشكلة التوحيد التى لم أجد لها جوابا فى كتاب من الكتب هى أنكم تقولون : إن الله ليس فوق ولاتحت ولافى جهة من الجهات . ومن كان ذلك كان معدوما لاموجودا ، فإن كل موجود لابد أن يتصف بأحد المتقابلات ، ولابد أن يكون فى جهة من الجهات ، ولاترتفع كلها إلا عن المعدوم .

فقلت له : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء ، فإن ماذكرت صحيح فى الماديات لافى غير الماديات « وأكثر العقول لاتعرف إلا أحكام الماديات ولاتكاد تترفع عنها إلى ماوراءها » .

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء السادس — المجلد الثامن — جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦ .

والمتقابلات أو الجهات التى حبسك الوهم فى محيطها ، وظننت أنه لابد من أحدها لكل موجود ، ذلك الحكم فيها مشروط بشرط القابلية لعروض تلك المتقابلات ، فإذا لم توجد القابلية ارتفعت تلك المتقابلات بل كانت مستحيلة .

ولنقرب لك ذلك بمثال واضح :

تعلم أن الجهل والعلم مثلا متقابلان ، ولايمكن أن يوجد إنسان إلا وهو متصف بأحدهما ، ولكنك تجدهما مرتفعين جميعا عن الحجر ، فلايتصف بجهل ولاعلم لعدم القابلية . فكذلك نقول : إن غير المادى ترتفع عنه الجهات كلها لعدم القابلية ، إذ هى من خصائص الماديات المتحيزات .

وأما مالم يكن ماديا متحيزا فيستحيل عليه أن يكون فى جهة . وإذا كانت الفلاسفة تثبت ذلك للجواهر المجردة التى منها الملائكة والنفوس والعقـول عندهم لأن لها أحكاما تضاد أحكام المتحيزات — ومن الذى يعطى الأجسام أحكام الأرواح — فما بالك بالبارى عز وجل الذى هو خالق كل شيء وليس كمثله شيء !

ومن الجهل الفاضح أن يعتقد الإنسان أن كل شيء خاضع لسلطان عقله وأن مالم يدركه بعقله فهو خارج عن دائرة الوجود .

بل نقول : إن مقتضى العقل السليم أن يكون الله منزها عن مشابهة الأشياء ، متعاليا عن إدراك العقول ، وإلا لم يصح أن يكون آلها

(إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا)[1] . فهو محجوب عن العقول كما أنه محجوب عن الأبصار .

وقد قلنا فى بعض ما كتبناه منذ زمان بعيد : (إذا كان الملحد لا يؤمن إلا بإله يقع عليه بصره أو يدركه عقله ، فأنا لا أومن بإله يخضع لسلطان عقلى ، أو يدخل فى دائرة محسوساتى ، أو ألمسه بيدى أو أصل إليه برجلى ، أو يمزقه مدفعى ، أو تعلو إليه طيارتى .. إلخ . إلخ ..

فإن هذا لا يصح أن يكون إلها ، بل يجب أن يكون مخلوقا محتاجا لمن يدبره ويركب أجزاءه ويضعها فى مواضعها المخصوصة ويقوم بحاجاته ويدفع عنه سلطان النواميس التى تجرى على المركبات كلها حتى يتمتع بالوجود ، مع أنك فرضته إلها — هذا خلف)

وانظر ما ذكره القرآن فى وصفه عز وجل : هل تراه منطبقا على الأجسام أو متصورا فيها ؟

يقول عز وجل : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ)[2] .

ويقول : (وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤٢

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٩

مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ)[1] .

ويقول : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[2] .

ويقول : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا)[3] إلى آخر ما يطول ذكره

فهل يتصور عاقل أن من هذه صفاته يكون جسما من الأجسام ، يقاس على أحد من الأنام ، أو يدخل تحت سلطان العقول والأوهام ؟

وهل هذه الصفات العلية تنطبق عليها نواميس الجسمانيات أو أحكام الماديات ؟

ولكن لابد لنا أن نقول : إنه مع هذا التعالى أظهر من الشمس وأوضح من الحس ، فإن كل ذرة من ذرات مخلوقاته آية من آياته ناطقة ببديع حكمته وعظيم قدرته :

وفى كل شىء لـه آيـة   تـدل على أنه الواحـد

(١) سورة يونس ، الآية ٦١
(٢) سورة ق ، الآية ١٦
(٣) سورة المجادلة ، الآية ٧

ولولا ما نؤمن به من قدرته الباهرة لعجبنا كل العجب ممن ينكره وهو أبده البدهيات وأوضح الواضحات (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)[1] .

وهل يصدق عقل أن هناك أثراً بلا مؤثر ، أو نظاما بلا منظم ، أو حكمة بلا حكيم ؟ إن هذا لدى العقل السليم يساوى قولنا : الكل أصغر من الجزء ، والواحد ربع الإثنين . وقد يكون أوضح من ذلك .

فإن الحيوان الأعجم إذا ضرب التفت لينظر الضارب لأنه لايصدق أن هناك أثراً بلا مؤثر ! فمنكر الإله إذا هو أحط رتبة من الحمار !

فسبحان من احتجب بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بعظيم إشراق نوره ! ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته .

ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب ، وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء . ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)[2] . ولا يقدح فى هذا الوضوح جهلك لحقيقته ، فإنك إذا كنت فى مكان مظلم وسمعت صوت رصاصة قوية لم يكن

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣

بجهلك بشخص الضارب مشككا إياك فى وجوده ! ويجدر بنا فى هذا المقام أن ننشد قول القائل :

تبصر حيث كان لك التبصر   وفى ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر   تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
فأنوار المهيمن ساطعـات   وأفكار الخلائق حائـرات
ولكن الأدلة واضحـات   أصول من لجين زاهـرات
على أغصانها ذهب سبيك
شموس فى البرية مشرقات   نجوم فى الدياجى لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات   إلى ما لست أدرى طائرات
يطير له بها الجرم السميك
رياض مونقات منعشات   وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تَسُرُّكَ ناضرات   على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

الخلاصة :

والخلاصة أن هنا شيئين : شئ أوضح من الشمس وهو وجود خالق برأ هذه المخلوقات ودبر الأرضين والسموات ، قام كل شئ فى الوجود برهانا عليه ، وساق أرباب العقول إليه حتى توكلوا عليه وانطرحوا بين يديه (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)(1) وعلموا أنه أقرب

(1) سورة هود ، الآية ١٢٣

إليهم من حبل الوريد ، وأن ما قام على وجوده من الأدلة لا يمكن أن يكون عليه مزيد .(أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)(1) . سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

أما الشئ الثانى فهو معرفة كنهه سبحانه وتعالى ، وهذا أخفى الخفيات ، كما أن الأمر الأول أوضح الواضحات . فاعرف الفرق بين المقامين .

ولا عجب فى هذا فروحك أقرب الأشياء إليك ، وما أعظم إمداده لك وأثرها عليك ! ومع ذلك لا تعرف كنهها بل ولا كنه أفعالها فأنت لا تعرف كيف تدرك ولا كيف تتخيل ولا كيف تذكر ما نسيت ، بل هذا هو شأنك فيما هو أقل من ذلك ، فلست تدرى كيف يمثل الغذاء هذه الأعضاء ، وكيف يصير عينا تبصر ومخاً يدرك ، وأذنا تسمع . إلخ . إلخ . .

فليس لنا من الأشياء إلا ظواهرها التى ندرسها فى مدارسنا ، أو نعرفها بالتحليل والتركيب فى معاملنا . فمعرفة الحقائق على ما هى عليه مما اختص به الحق سبحانه وتعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)(2) .

وعلم الطبيعة معترف بأنه لا يعرف كنه الأشياء ولا أوائلها ولا مصيرها ، وإنما عرف ظواهرها بواسطة التجربة المتكررة . هكذا

(1) سورة إبراهيم ، الآية ١٠
(2) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥

قال المنصفون واعترف المحققون . وإياك أن تصغى لزعانف علم الطبيعة الذين لا يقام لهم وزن بجانب أساطين علم الطبيعة الذين دهشوا من عظمة الخالق العظيم والمبدع الحكيم !

وقد قال باكون : من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شربه عبًّا أوصله إلى الخالق .

وقال سبنسر : ليس المقصود من دراسة علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى عرفها تلامذة المدارس وإنما الغرض الأقصى من علم الطبيعة هو أن نقف على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة .

وقال هرشل وهو من كبار أساتذة علم الطبيعة : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لاحد لقدرته ولا نهاية .

فعلماء طبقات الأرض والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم ، وهو صرح عظمة الله وحده . ولله در القائل :

تـاه الأنـام بسكرهم   فلذاك صاحى القوم عربد
تـالله لا موسى الكليم   ولا المسيح ولا محمد
كـلا ولا جبريل وهو   إلى محل القدس يصعد
علموا ولا النفس البسيطة   لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنك   أوحدى الذات سرمد

فليخسأ الحكماء عن   حرم له الأملاك سجد
من أنت يارسطو ومن   أفلاط قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ   ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفرا   ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه   ولو اهتدى رشداً لأبعد

وربما عدنا للموضوع مرة ثانية . والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه .

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (١)

فلا والله ما فى العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

بلغنى أنه ظهر فى عالم المطبوعات كتاب سخيف يدعو إلى الإلحاد علنًا بكل أنواع الدعاية ، ويقول : إن هناك جماعة منظمة لبث هذه الدعوة ، ولها فروع . وقد أخذ صاحبه يرسله إلى الصحف والمجلات .

وما أدرى كيف يكون ذلك فى عهد حكومة إسلامية دينها الرسمى هو الإسلام ! فإن كان كاتبه مغتراً بحرية الاعتقاد التى كفلها الدستور ، فليعلم أنه أخطأ فى فهم الدستور كما أنه أخطأ فى فهم الدين والعلم .

فإن الدستور كفل له أن يعتقد ما شاء فى خاصة نفسه ، لا أن يدعو الناس إلى الكفر والخروج على دين الدولة الرسمى ، وانتهاك مقدساتها ونشر الفساد وإثارة الفتن التى لا يعلم مدى غايتها إلا الله تعالى ، خصوصا فى مثل تلك العقيدة الفطرية المتأصلة فى النفوس تأصلا لا يزعزعه شىء ، بل هو يأتى على كل شىء .

وأمامك تاريخ العصور والأمم وأقوال الفلاسفة القدماء والمحدثين فى ذلك ، حتى قال ديكارت الفيلسوف الشهير الذى جعل أساس فلسفته الشك ثم انتهى بعد إلى اليقين البالغ ، يقول :

« إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة لا يفترق فى الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا أى مثلث تساوى زاويتين قائمتين ، إذاً فالله موجود » .

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثامن — المجلد الثامن — رجب سنة ١٣٥٦ هـ .

ويقول فى بيان تمجيد الله الذى ملأ قلبه : « إن لفظة الله إن لفظت بها فإنما أعنى بها ذاتاً لا نهاية لها أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شىء وقادرة على كل شىء ، وإنى أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها وناشئة منها » .

ولا بأس أن نعجل بذكر شىء من أقوال فلاسفة أوربا الذين هم أساطين العلم الطبيعى الذى يستند إليه أولئك الزعانف الذين ليسوا فى العير ولا فى النفير ، فإن علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه وافتروه عليه ، كما سنبين ذلك بعد أتم بيان .

وخذ الآن ما قاله أحد الفلاسفة العظام فى الاستدلال على الله ، يقول :

« لو كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك ، فمن أين نشأ للإنسان ، الذى خلق من مواد لا عقل لها ، ذلك العقل والإدراك ، وفاقد الشىء لا يعطيه !

إذاً فلا بد أن يكون فى الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له . ولا مناص لنا من تقرير تلك الحقيقة وهو أنه يوجد فى العالم شىء موجود بذاته أبدى لا يدركه تحول ولا يعتريه تبدل ، لأنا إذا فرضنا أنه كان هناك وقت ليس فيه شىء مطلقا أى لا شىء قائم بغيره ولا شىء قائم بنفسه من القدم لزم ألا يكون غير العدم ، والعدم لا يصلح لإيجاد شىء ، فلابد أن تكون تلك الحقائق الأبدية التى تدرك بالنظر فى الوجود جارية على سنن معينة بلا تحول ولا تبدل هى صادرة من الله » .

ويقول الفيلسوف (ليبتنز) الألمانى :

و« إن الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له مشاعرنا ، وهو من الممكنات ، أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد أو لا يوجد ، وليس فى أحدها شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالى . إذاً يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة ، يجب البحث عنها فى الذات التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأزلية .

(يجب أن تكون هذه العلة عاقلة ، لأن الكون الموجود لما كان ممكنا أى قد يكون ولا يكون وفى الإمكان حدوث دنياوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطة بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من أحداث دنيا جديدة فيه ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولا شيء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التى لها) .

(هذه العلة الحكيمة يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة والرحمة ، ولما كان الوجود كله مرتبطا بعضه ببعض ومفرغا فى قالب واحد فلاسبيل لفرض وجود علة ثانية معها) .

إلى آخر آرائهم الفلسفية التى سنلم بكثير منها ومن غيرها بعد ، إن شاء الله .

وما رأيت أمراً أعجب مما نحن فيه ، فإن الناس يأخذون فى كل صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف على يدى من ليس يحسنها ولا هو مستعد لها ، فترى كل إنسان ملتزما حده غير مدع ولا متبجح . ولكنك تراه فى العلوم العقلية والموضوعات الدينية ينطلق انطلاق الحيوان بلا عقل ولا روية بمقتضى الحرية الممقوتة .

وليعلم أولو الأمر وزعماء الأمم أن فوضى العلم والدين والأخلاق أضر على الناس من فوضى الصنائع والحرف . ولا شيء أسقط للأمم من شيوع الإلحاد فيها ، ولا أدعى لتدهورها من ضياع الأخلاق وعدم فهم الحرية على وجهها الصحيح . وانظر إلى حال الأمة الإسلامية أيام كانت متمسكة بدينها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولم تكن قوالة لا فعالة ، وإلى حالها اليوم وليس لها من العزة والكرامة إلا دعاوى لسانية وأمانى خيالية اكتفوا بها اكتفاء الضعيف بالخيالات والأوهام .

فنسأل الله أن يرشدنا إلى الفهم الصحيح ، والإخلاص الصحيح ، حتى لا نسير فى تكوين الأمة على غير المعقول ، فنبنى الدور الرابع من الحريات المتطرفة قبل الدور الأول من التربية الصحيحة ، واحترام الدين والاداب . وقد قال تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرى كَثِيرًا

مِنْهُم يتولَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْس ما قَدَّمتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سخطَ اللهُ عليْهِم وفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم : (لَمَّا وقَعتْ بنُو إِسْرائِيلَ فِى الْمعاصِى نَهَتْهُمْ عُلَماؤُهُمْ فَلَمْ ينْتَهُوا فَجالَسُوهُمْ فِى مجالِسِهِمْ وآكَلُوهُمْ وشَارَبُوهُمْ ، فَضَرب اللهُ قُلُوب بعْضِهِمْ بِبعْضٍ ، ولَعَنَهُمْ علَى لِسان داوُد وعِيسى بْنِ مرْيم ، وذَلِكِ بِما عصوْا وكَانُوا يعْتَدُونَ) . ويقول عليه السلام : (لَتَأْمُرُنَّ بِالْمعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسلِّطَنَّ اللهُ عليْكُمْ شِرارَكُمْ فَيدْعُوَ خِيارُكُم فَلاَ يُسْتَجابُ لَهُمْ) إلى آخر ما ورد فى الكتاب والسنة ، وهو كثير .

ولنقل اليوم كلمة موجزة فى مقدمة الكلام على هذا الموضوع الذى سنفيض القول فيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، فنقول :

من أنكر وجود الله لم يزد على أن قال عن نفسه إنه مجنون ، فإننا إذا رأينا كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم نستطع أن نقول إنها مكتوبة من غير كاتب . فما بالك بهذا الكون الباهر بسمائه وأرضه ونجومه وأقماره وشموسه وكل عجائبه ! ولكن من عرف أن الإنسان مستعد لكل شىء حتى أفظع أنواع الجنون لم يستغرب ذلك منه .

(١) سورة المائدة ، الآيات ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

وقد قلنا فى كلمتنا السابقة « مشكلة التوحيد » : إن الحمار إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد ضرب بلا ضارب ، فمن تصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ونظام بلا منظم وأشياء متقنة كل الاتقان بلا صانع حكيم ، فهو أجهل من الحمار . ولكننا نتنزل فنسمى هذا الصنف من الناس بحمير البشر . وقد أنشدوا قديما :

قال حمار الحكيم يوما : لو أنصف الدهر كنت أركب
فإننى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

وليس هناك غرابة فى كل ما تراه من الإنسان أو تسمعه عنه ، فقد قرأنا فى تاريخه أن فريقاً من الناس أنكر المحسوسات بالمرة وهم (السوفسطائية) والمحسوسات هى هى وضوحا وجلاء . وقرأنا أن من الناس من قال فى كل شىء : لا أدرى وهم (اللاأدرية) . ومعنى ذلك أنهم غير معترفين بوجود شىء حتى أنفسهم ، وشاكون فى كل شىء حتى فى شكهم .

أما الأولون فجازمون بإنكار المحسوسات وعدم تحققها ويقيمون البرهان على ذلك . ولا أدرى كيف لا يجعلون إقامة البرهان منهم برهانا على وجود الأشياء . ولكن من عرف الإنسان لم يعجب من جهله وتناقضه . وكم فى تاريخ الإنسانية من المضحكات والمبكيات !

ولنتل عليك بعض ما قال الله فيه : يقول الله – عز وجل – مبينا لما جبل عليه : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)[1] فجعله جهولا ولم يجعله جاهلا ، وجعله ظلوما ولم يجعله ظالما (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظِيمٌ)[2].

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٢) سورة لقمان ، الآية ١٣

ويقول : (وَخُلِقَ الْإِنسانُ ضَعِيفاً)[1] . وعندى أن ضعفه العقلى أكبر من ضعفه الجسمى إلا من أيده الله بنور من عنده . ويقول فى حق فريق من الناس : (أُولَئِكَ كَالْأَنْعامِ بلْ هُمْ أَضَلُّ)[2] . ويقول : (وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ منْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عنْ سبيلِ اللهِ ، إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلاَّ يخْرُصُونَ)[3] .

وكيف لا تعجب من جهله وقد وصل من معاداة البرهان ومصادمة العيان إلى حدما قال الله فيه : (ولَوْ فَتَحْنَا علَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يعْرُجُونَ ، لقَالُوا إنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنَا بلْ نَحْنُ قَوْمٌ مسْحُورُونَ)[4] . ويقول فى الآية الأُخرى : (ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إلَيْهِمُ الْملاَئِكَةَ وكَلَّمَهُمُ الْموْتَى وحشَرْنَا علَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)[5] .

فانظر إلى ذلك التصلب فى الجهل والعناد أمام آيات الله وأنبياء الله ، مع استعداده فى الوقت نفسه لأن يضحك عليه بعض المضلين ويلعب به بعض المشعوذين . فكيف لا نقول إن نوع الإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات ! .

وبعد : فإياك أن تظن أن إلحاد الملحدين لضعف فى دلالة الآيات أو قوة فيما لديهم من الشبهات ، كيف وقد وصلت الآيات إلى حد

(١) سورة النساء ، الآية ٢٨
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٦
(٤) سورة الحجر ، الآيتان ١٤ ، ١٥
(٥) سورة الأنعام ، ١١١

الحس ، وصارت أبهى لدى العقلاء من نور الشمس ، وقام عليها ألوف البراهين ، ولا شيء أجلى منها لدى من هو مستعد لأنوار اليقين :

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

(أَمْ خُلِقُوا منْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)[1] .

فليس تلكؤ من تلكأ فيها لشبهة يعتد بها أو يعول عليها ، ولكن لقصور فى استعداده وخلل فى عقله ، ومزيد سلطان الوهم لديه ، وتسلط جميع الآفات النفسية عليه .

وقد قرروا فى الفلسفة أن للوهم سلطاناً قوياً للغاية ، حتى إنه لينازع العقل فى البدهيات ويسلم المقدمات ثم ينازع فى النتيجة . إلى هذا الحد وصل سلطان الوهم على النفوس ، وإلى هذا الحد أثر فى الأدمغة البشرية !

عرفنا ذلك كله فيما قرأناه من الفلسفة ، فلا نستغرب شيئاً من هذا النوع المذبذب الذى هو أعجوبة المخلوقات .

ولكن الواجب أن نحذف هذا الفريق المصاب بأفظع أنواع الجنون من سجل الإنسانية وحساب العقلاء . وإذا التفتنا إليه وجب أن نعتبره عضواً فاسداً يجب بتره وإهماله مع الاحتياط الواجب لصيانة جسم الانسانية من إصابة عدواه التى هى شر من عدوى الطاعون . وأن من

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

الأعضاء الفاسدة ما لا يفرز إلا قيحا وصديدا ، فيجب الابتعاد عنه وعدم القرب منه ، وقد عرفت أن القرآن جعلهم أحط من الحيوان فقال : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)(١) .

فإذا لا غرابة بعد أن علمنا أن الإنسان مستعد لأن يكون أشرف المخلوقات على الإطلاق وأحطها على الإطلاق ، فى أن نرى فريقاً ينكر وجود الله وهو أوضح من حسه وأقرب إليه من نفسه : (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(٢) . ولكنه ليس فيه استعداد لفهم البراهين ولا للتحلى بحلية اليقين ، فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، كما بينه الحكيم العليم . وهذا الفريق جدير بنا أن نسميه حمير البشر كما قلنا .

وقد قال بعض الفلاسفة : (إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان) .

ولعل المقدمة لا تحتاج من البيان إلى أكثر من هذا . وستسمع ما يشفيك ويكفيك إن شاء الله .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (١)

(٢)

أبنا فيما كتبناه قبلا أن منكر وجود الله مصاب بأفظع أنواع الجنون ، وأن الواجب حذفه من سجل الإنسانية ، ويجب أن نتحاماه كما نتحامى المصاب بالجذام ، ولا نغتر بصورته الظاهرية فإنه فى الحقيقة غير إنسان . وقد قال تعالى فى حق أولئك الذين يشبهون الإنسان وليسوا منه فى شىء : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ)(٢) . (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)(٣) .

ولنفِ بما وعدنا به فى مقالنا السابق فنقول :

إن وجود الله ضرورى عند كل عاقل ، فإنك إذا رأيت بناء شامخا على أحسن وضع وأتم نظام ، قد نسقت أشجاره ودبرت أنهاره وهيئت مساكنه على ما تقتضيه الحكمة وتوجبه الحاجة ، فهل يمكنك أن تصدق أن هذا البناء بلا بانٍ ، وذلك النظام بلا منظم ؟ فإذا جوزت أن يوجد بناء بلا بان ونظام بلا منظم خرجت من زمرة العقلاء وسقطت عن رتبة الخطاب والمكالمة .

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثامن – المجلد الثامن – شعبان سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٩٨ .

وقد قلنا إن الحيوان إذا ضرب التفت لأنه لايتصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ، ولكن الإنسان قد يفسد حتى ينحط عن درجة الحيوان ، فيكون فى أسفل سافلين من الانحطاط الذى لايشاركه فيه مخلوق ، وقد خلق مستعداً لذلك كما أبناه فى مقالتنا السابق .

ولو سلك علماء الكلام مسلك القرآن فى الاستدلال على الله تعالى لقربوا الطريق ، وهزوا القلوب بما أودع فى الفطر وغرس فى النفوس حتى التحق بالبدهيات التى لاتحتاج إلا إلى الالتفات إليها وانتباه النفس لها .

وانظر إلى قوله تعالى : (أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)(١) ؛ أدمج كل ما أطالوا به فى قوله : (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهو فى غاية الجلاء ونهاية الوضوح . ويقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)(٢) ويقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(٣) . (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)(٤) . (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ)(٥) (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(٦) . (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)(٧)

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية ١٠ .
(٢) سورة الطور ، الآية ٣٥ .
(٣) سورة الغاشية ، الآيات ١٧ — ٢٠ .
(٤) سورة الطارق ، الآية ٥ .
(٥) سورة الانفطار ، الآية ٨ .
(٦) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .
(٧) سورة النمل ، من الآية ٦٣ .

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ والْأَرْضَ ، وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حدائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(١) .

إلى آخر ماجاء فى القرآن مما يتملك النفوس ، ويستولى على القلوب . وهكذا شأن القرآن الكريم ، لايتعسف فى التعبير ولا يتفلسف فى الاستدلال . وإن شئت فانظرْ فى حججه على البعث وإعادة الخلق مرة أخرى حيث يقول بأوجز عبارة وأوضح قياس : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)(٢) . (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)(٣) . إلى آخر مايبهر العقول ، المشاعر .

ولتعلم أن الاستدلال يختلف باختلاف الناس ، فمنهم من يكفيه أقل شيء لسلامة فطرته وعدم فسادها . ولذلك يروى عن الأئمة وغيرهم شيء كثير من هذا ، حتى إن بعض العارفين لما قيل له : إن الإمام الرازى أقام على وجود الله ألف دليل ، قال : ومتى غاب حتى يستدل عليه ؟ فهذا مشاهد أغناه العيان عن البرهان

ومن ذلك قول الإمام على كرم الله وجهه : (لو كشف عنى الغطاء ماازددت يقينا) ؛

---

(١) سورة النمل ، الآيتان ٦٠ ، ٦١ .
(٢) سورة الأعراف ، من الآية ٢٩ .
(٣) سورة يس ، من الآية ٧٩ .

ومن ذلك قول بعضهم : إن الله قد تجلى لى فى كل شىء ، فليت شعرى كيف يكون تجليه فى القيامة عندما ينكشف الحجاب عن البصائر ! وهل بقى شىء من الظهور حتى يتجلى به هناك ! وقد قيل لبعضهم : بم عرفت الله ؟ فقال : عرفت الله بفسخ العزائم ، وحل العقود .

ومن الإستدلال الظريف قول أبى حنيفة – رضى الله عنه – لمن تكلم معه من الملحدين :

ما تقولون فى رجل يقول لكم : إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال ، قد احتوشتها أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ، وليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شىء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة ، ياسبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟! فأقروا جميعا وقالوا : صدقت .

وسئل – رضى الله عنه – مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس ، فدل ذلك على الصانع .

وقد أشار القرآن إلى هـذا الدليل حيث يقول : (هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [1] .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦ .

ومنها تمسك أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المـذابة وباطنها كالذهب الإبريز ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير ، فلا بد من الفاعل . (أعنى بالقلعة) البيضة ، وبالحيوان (الفرخ) .

ومنها أن هارون الرشيد سأل مالكا – رضى الله عنه – عن ذلك فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات ، وتفاوت اللغات ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) [1] .

وسئل أعرابى عن الدليل فقال : (البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا تدل على الصانع الحكيم العليم القدير) ؟ .

وقال آخر :

عرفته بنحلة ، فأحد طرفيها يعسل ، والاخر يلسع – والعسل مقلوب اللسع .

ويروى أن واحدا قال عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : إنى أتعجب من أمر الشطرنج : فإن رقعته ذراع فى ذراع ، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد .

فقال سيدنا عمر – رضى الله عنه – ؛ هاهنا ما هو أعجب من هذا ، وهو أن مقدار الوجه شبر فى شبر ، ثم إن مواضع الأعضاء

(١) سورة الروم ، من الآية ٢٢ .

التى فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا تتغير البتة ، ثم إنك لا تجد شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة . فما أعظم تلك القدرة والحكمة التى أظهرت فى هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التى لا حد لها

وروى عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب – كرم الله وجهه – أنه قال فى بعض خطبه :

(سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم)

ويقول بعضهم فى الاستدلال على الله :

إن غرائز الفطرة لا تدعو إلى باطل . وقد وجدنا فيها شعوراً لا تميته المميتات ينطق بوجود الخالق : (ولكن الضرر فى أن العوالم السفلية تطلب أن تكيفه لأنها لا تعرف غير المكيف المحدود ويجب أن لا تعرفه لأنه مباين لها كل المباينة وغير متناه وهى متناهية) .

ومنهم من يقول بسعة رزق الغبى دون الذكى ، فإنه ضيق رزقه ؛ إلى آخر الاستدلالات التى لا يأتى عليها العد . ولذلك قالوا : لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق .

ومن ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – لبعضهم : كم لك من إله ؟ فقال لى فى الأرض آلهة كثيرة ، ولى فى السماء إله واحد فقال : من تعده لشدتك ، وتضرع إليه عند النوائب ؟ فقال : إله السماء ، قال : فاعبده ولا تشرك به شيئاً . فاقتنع الرجل وأسلم

ومن ذلك ما قاله جعفر الصادق – رضى الله عنه – لذلك الغريق الذى نجا : هل كنت يائسا من النجاة عندما انكسرت بك السفينة ؟ فقال لا بل كنت أرجو النجاة . فقال له : إن الذى كنت ترجوه فى باطنك لنجاتك ولا تعرفه هو الله المحيط بكل شىء القادر على كل شىء .

فآمن الرجل عندما أيقظ منه ذلك الوجدان وحرك ما كان كامنا فى فطرته . وكم فى الفطرة من كنوز تحتاج إلى من يستثيرها حتى تخرج من الكمون إلى الظهور ، ولكن الناس عنها غافلون بها جاهلون .

ولنختم هذا المقال بقول القائل[1] :

يقولون أين الله أين عجائبه … وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم … ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرىء فى الجو يرسل طرفه … إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده … وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرىء ما سبح الله مرة … إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام عظيمة … ولكن جهل المرء لا شك غالبه

(١) كثير من الشعر غير المعزو الذى فى هذه المقالات هو للمؤلف الشيخ الدجوى – رضى الله عنه – .

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (١)

(٣)

كثرة البراهين على وجود الله

لعلك عرفت مما كتبناه ردا على ذلك الملحد أن وجود الله لدى العقل السليم أوضح الواضحات، فإن الأشياء الثابتة فى الوجود يمكنك أن تقيم عليها دليلا أو دليلين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة، ولكن وجود الحق سبحانه لا تقف الأدلة عليه عند حد، فلا يقال إن له مائة دليل أو ألف دليل أو عشرين ألف دليـل، فإن كل شىء فى الوجود دليل عليه وموصل إليه .

وقد قال أبو العتاهية :

وفى كل شىء له آيـة تدل على أنه الواحـد

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(٢) : إن عليما هنا بمعنى معلوم، فيسكون المعنى : إن الله معلـوم بكل شىء من الأشياء، فإن كل شىء يعطيك العلم به والدلالة عليه . وإذا كان وجوده تعالى أوضح الواضحات، وكانت براهينه قد ملأت الأرضين والسموات فخرجت عن الحد والعد، كان منكر وجوده أعظم المجانين، وأحط المساكين، يرثى له ويبكى عليه، فإن من صادم برهانا واضحا حكمنا عليه بالاختلال والإعتلال، فكيف

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الثامن – رمضان سنة ١٣٥٦ .

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٩ .

من خالف مالا يحصى من البراهين، فضلا عما تنادى به فطرته التى أخمد صوتها وأمات ضميرها ؟

يشكون والإيمان ملء قلوبهم ويبدون ماتلك القلوب تكذبه

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)(١) . (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . ولكن هؤلاء محبوسون فى سجن الماديات قد أحاطت بهم الظلمات، فلا يعرفون إلا المكيفات، ولا يعترفون إلا بالمحسوسات وكان عليهم أن ينكروا أرواحهم فإنها ليست بمحسوسة، ولا يصدقوا عقولهم فإنها ليست بمحسوسة، وكل ما لم يقع عليه الحس عندهم فليس بموجود!.

فلا أدرى كيف يناضلوننا بما لا وجود له عندهم، وكيف يثقون بتلك العقول وهى لا تنتمى إلى المادة بنسب ولا تمت إليها بسبب ! فإن المـادة فى ذاتها بريئة من الحياة فضلا عن العقـل والإدراك، وفاقد الشىء لا يعطيه . فمن أين جاء العقل والإدراك وليس هناك إلا المادة الصماء البكماء العمياء على ما يزعمون ؟

ولقد صدق باكون أحد أساطين علم الطبيعية حيث يقول : من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا، ومن شربه عبا أوصله إلى الخالق .

(١) سورة إبراهيم، من الآية ١٠ .

(٢) سورة الحديد، الآية ٣ .

فهل يصح بعد ما يقول العلم كلمته فى تكوين هذا العالم الفسيح من قوى كهربائية قهرها الله بقوته العالية، فاتخذت ما اتخذت من أشكال وألوان ، وحملت ما حملت من خواص كان لها أثرها فى الحياة العالية نباتها وحيوانها وإنسانها ، هل يصح بعد ذلك كله وبعد نظر الإنسان فى نفسه وما ركب فيه من أعضاء نيط بكل عضو منها وظيفة خاصة « تمت له بها الحياة العالية حتى صار أرقى المخلوقات » ومما فيه من الكريات البيضاء والحمراء ، وما لها من عمل فى جسم الإنسان . وما فيه من غدد أبان العلم الحديث ما لها من آثار وما فيها من أسرار . إلى آخر ما فى هذا الكون الباهر من ليل ونهار وشمس وأقمار ، وأرض وسماء ، وماء وهواء . هل يمكن من ينظر نظرة بسيطة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، أن ينكر قدرة خالقه العظيم ، أو حكمة صانعه الحكيم ؟

انظر إلى وقوف الأرض فى نقطتها المخصوصة ، ولو جعلها بعيدة من الشمس بعدها من بنات نعش مثلا لما انتفعت بضوئها وحرارتها ، وهما ضروريان للنمو والحياة ، ولو جعلها قريبة منها جداً لاحترق كل ما عليها من نبات وحيوان ، ولأصبحت طبقة من طبقات جهنم . فسبحان الحكيم العليم. إلى آخر ما لا يحصيه العد ولا يأتى عليه البيان.

ألا إن طريق الحق قد بانت معالمه واضحة جلية ، وهل بعد الحق إلا الضلال ، وبعد الرشد إلا الخيال !

إنى لأعجب والله كل العجب كيف يسوغ لإنسان فيه ذرة من العقل أن ينكر وجود الله الذى خلق الأكسجين والأيدروجين ثم ألف بينهما بقوته العالية فصير منهما ماء ملأ به ثلاثة أرباع الكرة الأرضية .

وليت شعرى هل يستطيع أحد أن يقدر القوة التى أتت بهذا العمل الذى كان من نتائجه هذه المحيطات الهائلة وهذه السحب التى نراها فيه كل حين وفى كل صقع تنزل وتحيى موات هذا الكون الفسيح !

نى أعجب والله ، لولا إيمانى بالقدرة الباهرة ، كيف تسنى لعقول قوم من بنى آدم أن تقبل إنكار وجود الله وما هو إلا إنكار أنفسهم بل إنكار كل شىء فى الوجود !

أيصح إنكار الله الذى كون الأحياء من الأرض الميتة ، ثم كون الهواء والماء لعلمه أنه لا بد للأحياء منهما ؟

أينكر الله الذى يدبر الأرض فى حركة يومية وسنوية ، وينقل القمر من المشرق للمغرب ، ويمسك الكواكب أن تقع على الأرض . هل فى إمكان العقل تقدير تلك القوة التى فعلت ذلك كله ، وتلك الحكمة التى نظمته على مر الملايين من السنين.

وكأنى بلسان الحضرة الإلهية يقول لأولئك الملحدين ، إننى سخرت لكم الأرض وذللت لكم البقر تحرثون وتزرعون ، فإذا فرغتم منه ورفعتم أيديكم عنه توليته دونكم وأنتم قيام تنظرون ، فمرة آتيه بالحر ومرة بالبرد حتى أبلغه أوان حصاده ، وسخرت لكم الحديد لتحصدوه به ، والريح تذرونه به ، ولو أمسكته عنكم فضلاً عن غيره لتحيرتم وما صنعتم شيئاً . فكيف تكفرون ولا تشكرون!

أنظر إلى ملايين النجوم وما بينها من الأبعاد الشاسعة ، وما لها من الأجرام الكبيرة التى تدهش العقل ، وما قدر لها من الدوران العجيب

أمره الخفى سره ، وما بينها من الاختلاف فى الأضواء والخواص ، تعالى الله عن أن يحيط أحد علمًا بكمالاته ، أو يصل إلى تحديد كنه صفاته .

لعمر العلم إن الأمر لأوضح من الشمس وأظهر من الحس . ولكن الذى يتكلم بغير عقل ولا علم لا يصلح لهدايته أحد ولا ينفع فيه أى برهان (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)(١) .

والإنسان مجمع العجائب والغرائب . فليفر من الميدان خجلا أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى بعد أن أماتوا ضمائرهم وضغطوا على شعورهم حتى ذهب منهم كل وجدان ،فأصبحوا وقد وجب إسقاطهم من سجل نوع الإنسان (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)(٢) .

وما أشبههم بالخفاش الذى لا يستطيع أن يحدق فى نور الشمس لما فى أعصابه من ضعف وفى بصره من خلل ! وإلا فهذه آثار ناطقة بعظمة لا تدركها العقول ولا تصل إليها الأوهام ، ولكن الإنسان كما يبتلى بأفظع الأمراض الحسية كذلك هو قابل لأن يبتلى بأفظع الأمراض العقلية . ولعمرى إن الجاهل يمكنه أن يفحم أكبر فيلسوف من الملحدين بما رآه من حوادث العفاريت المتواترة عند من لا يمكن تكذيبهم ولا الشك فى خبرهم ، وهى تخرق كل نواميس المادة التى عبدوها ولم

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٤ .

يعرفوا شيئًا سواها . ولعلنا نعرض لشىء مما شاهده علماء الاسبترتزم (استحضار الأرواح) وهم من أكبر أساتذة أوربا وعلمائها .

أما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء فلا نعرض لها لعدم إيمان الملحدين بها ، وإن كانت متواترة ، والمتواترات لا سبيل إلى تكذيبها ، ولكن هؤلاء قدسوا نواميس المادة التى عرفوها ، وخرقوا نواميس العقل والمنطق التى جهلوها .

والخلاصة أنه تعالى أظهر من كل شىء لدى العقول، ولكن لما كانت النفوس مجبولة على الجهل لأنها لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تفزع فيما تريد إلا لما علمته من طريق الحواس ، خفى عليها ما لا تحسه ، ولكنها جهلت أن الإله يجب ألا يقاس على ما تعرف من المحسوسات ، وإلا وجب تطبيق النواميس الطبيعية عليه .

ثم نقول باختصار لأولئك الملحدين : هل الموجودات كلها انحصرت فيما تعلمون وصارت قاصرة على ما تحسون ؟ إن كنتم تعتقدون أنه لا موجود إلا ما أحسستم ، ولا شىء فى العلم إلا ما علمتم ، فأنتم أجهل الجهلاء وأحمق الحمقى .

ولنختم هذا المقال بقول من قال يخاطب الحضرة الإلهية :

هوت المشاعر والمدا ... رك عن معارج كبريائك
يا حى يا قيوم قد ... بهر العقول سنا بهائك
أثنى عليك بما علمـ ... ـت فأين علمى من ثنائك
فظهرت بالآثار فالـ ... ـبرهان باد فى جلائك

عجبا خفاؤك من ظهو ... رك أم ظهورك من خفائك
مـا الكون إلا ظلمة ... قبس الأشعة من ضيائك
وجميع مـا فى الكون فا ... ن مستمد من بقـائك
بل كل ما فيـه فقـ ... ـير مستميح من عطائك
مـا فى العـوالم ذرة ... فى جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتهـا إليـ ... ـك بالافتقار إلى غنائك

خدث جلل لا يمكن الصبر عليه (١)

رجاء للحكومة لمصلحة الحكومة

لنرجيء الكلام فى أدلة التوحيد موقتا ، وسنفيض القول فيه بعد . على أن مسألة ثبوت الصانع جلت قدرته كادت من وضوحها أن تخفى ، وأوشكت من مزيد حضورها أن تغيب . ليس لدى منكريها سوى المكافحة بالوهم والخيال ، ومقابلة اليقين بالاحتمال « معارضة الشراب بالسراب » .

وكل من تكلم فى هذه المسألة التى هى أظهر من الشمس وأوضح من الحس بالإنكار ، فقد أحيا جهله ، وأمات عقله ، وقتل وجدانه ، وأخمد إحساسه ، وخنق شعوره . فهى لدى العقلاء من أوضح الواضحات وإن خفيت على أنهام البشر الذين يجب إسقاطهم من سجل الإنسانية وضمهم إلى صفوف البهائم : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدِ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

ولنوجه كلمتنا اليوم لحكومتنا الإسلامية ، وما يجب أن تعرفه من حال الملحدين وتقويضهم لبناء العمران ، وأثر دعايتهم على بنى الإنسان . فما وجدوا فى أمة إلا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ، وصاعقة مجتاحة لخير أممهم ، وصدعاً متفاقماً فى بنية جيلهم ، يميتون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم فى الأرواح بآرائهم ، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم . فما رزئت بهم أمـة ولا منى بشرهم جيل

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء العاشر — المجلد الثامن — شوال سنة ١٣٥٦ هـ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٢ .

إلا انتكث فتله، وسقط عرشه حين تبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها.

وكيف لا وهذه الطائفة الملعونة تحمل فى طيات تعاليمها وثنايا مبادئها الإجرام الخلقى، والتهتك العلنى، والمطاعن الهوجاء فى الديانات، والسخرية الجهرية بخالق الأرض والسموات، ولمز المعتقدات المقدسات.

إن الحكومة تعاقب من يتكلم فى الوزارة بما يمس شرفها، أو ينقص من كرامة أشخاصها، أو يمس القانون والدستور، فما لها لا تهتم هذا الاهتمام، أو شيئاً من هذا الاهتمام، بحماية دين الدولة من طعن الطاعنين وشغب الجاهلين؟! وهل حماية الدستور أعظم فى نفوس الأمة من حماية دينها؟ وهل الطعن فى الدستور آلم لعواطفها وأدمى لقلوبها من إهانة الدين، والكلام فى نبى المسلمين ورب العالمين؟ ولسنا نقول لا تحتفظوا الدستور ولكن نقول: احتفظوا الدين أيضاً كما تحتفظون الدستور الذى تفتخرون بصيانته فليس الدستور أضمن لسعادة الأمة من الدين!

أيها الزعماء العظام والوزراء الفخام: إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم، فإن الملحدين الطاعنين على الأديان ما ظهروا فى أمة من الأمم إلا أفسدوا أخلاقها، وأوقعوا الخلل فى عقولها، وتخطفوا قلوب آحادها بأنواع من الحيل، وألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها، وتفطر بناؤها واغتالتها رذائل الأخلاق: من الأثرة وعبادة الشهوات، والجرأة على ارتكاب الخيانات، ولايزال

الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود، أو تضرب عليها الذلة والصغار، ويخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية.

وانظروا إلى الأمة الإسلامية أيام تمسكها بدينها كيف كان مجدها ورفعتها، ثم انظروا حالها اليوم عندما ظهر فيها الماديون، وكثر فيها الجاهلون الملحدون، وقل فيها المخلصون، إلى آخر مالا يمكننا شرحه فى هذه العجالة.

هل لا تحمون تلك العقائد المقدسة التى يسهل على ذويها أن يبذلوا وجودهم فى سبيلها؟! عقائد هى أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية، وأمضى الأسباب إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والإبداع فى الصنائع. وإنها لأبلغ فى سوق الأمم إلى منازل العلا ومقامات الشرف من كل شىء سواها (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[1].

أما هؤلاء الملحدون الداعون لمحو الأديان فما مقصدهم إلا وضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة. وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى إليه، وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة، وتقلبوا فى مظاهر متعددة، وكلما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها وأنزلوها من علياء مجدها إلى حضيض الذلة والمهانة، حيث يكونون بالحيوان أشبه منهم بالإنسان.

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٩.

ولهذا كله اجتمعت جميع الدول على مطاردة الشيوعيين ، علماً بما تؤول إليه مبادئهم من الفساد الذى تأباه سنن الله فى خليقته ، وتمقته الشرائع السماوية كلها ، ويقضى العقل بمجافاته للحق ومنافرته للصواب .

ولنقل مرة أخرى لزعمائنا وحكامنا : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم .

أما حرية الأديان والمعتقدات التى يستند إليها الجاهلون فمعناها أن كل أحد يعتقد ما شاء ويتدين بما أراد ، لأنه يجرح القلوب ، ويطعن فى العقائد ، ويسفه الأحلام ، وينشر النشرات ، ويؤلف المؤلفات ، ويهيئ الجمعيات والدعايات كما فعل إسماعيل أدهم المعترف بذلك كله فى كتابه . فأين هذا من ذاك يارجال القانون ؟ !

وإن شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون بشيء ، ولا يقولون بحلال ولا حرام ، ولا حساب ولا عقاب ، ولا رب ولا كتاب . بل يظنون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات جده القرد أو الكلب . ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، وإلى أى حد تصل بهم الشرور ، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية والأذواق الوجدانية والمقامات الروحانية .

وبعد : فهذا الدين الذى نطالبكم بحمايته ، ويطالبكم الدستور أيضاً بحمايته ، هو الدين الذى فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس ،

وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير . فالناس فى نظره إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)[1] (لَا فَضْلَ لِعَرَبِىٍّ عَلَى عجمِىٍّ وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى) .

والخلاصة :

أن من أشربت هذه العقيدة عقيدة التوحيد قلبه ، ينبعث بحكمها وينساق بنورها وقوة روحها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية فلا يهبط به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبه ، ثم ينصرف همه لإبراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلى كماله من عالم الكون إلى عالم الظهور ، ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل . ولا يناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة ، متنكباً عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضاً عن أبواب الرشوة ، مترفعاً عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى الذى لا يعرف هؤلاء غيره ، ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وبالقدر الذى ينبغى ، لا يأتى فيه باطلا ، ولا يغفل حقاً عاماً أو خاصاً ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً . ولآخرته كأنه يموت غداً .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

فهذه العقيدة أحكم مرشد، وأهدى قائد للإنسان إلى المدنية المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم .

هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ، إذ لا عقد لها إلا مراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات .

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسالمة ، فإن المسالمة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة . وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متاهة الشقاء وتعاسة الجد ، وترفعه إلى غرف المدينة الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة ، فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق ، وحيل وخداع ، ورشوة واختلاس ، كما نشاهد ذلك فى كثير من مسلمينا الآن ! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال ! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وغشوة عن نور المعرفة !

وإن مسألتنا مسألة نشر ما يثير الفساد ويوجب الأحقاد ، ويحقر دين الدولة الذى يحترمه الدستور وتقدسه الأمة .

لا يردع هؤلاء الطغمة إلا العقاب الصارم الذى يخرس ألسنتهم ويأخذ على أيديهم :

تمادوا فى الضلال بلا متاب ... ولو سمعوا صليل السيف تابوا

ولكننا فى زمان يضيق التعبير عن وصفه وبيان عقلية أهله :

ألا إنها الأيام قد صرن كلها ... عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولا يزال لنا بقية أمل فى القائمين بالأمر ، أن يشفقوا على أمتهم من عبث العابثين وإفساد المفسدين ، وأن يحفظوا الأمانة التى جعلها الله فى أعناقهم للدين والوطن .

نسأل الله أن يرزقنا الرشد والبصيرة ، حتى لا نأتى ما يضحك الثكلى ، ويبكى الحليم ، بمنه وكرمه .

التوسل [١]

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الشيخ يوسف الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله وبعد ؛

عرضت مسائل رأيت أنه لابد من استفتائكم فيها ، وآمل إجابتى على صفحات الإسلام . أما المسائل فأولاها : هل فى الدين من وسيلة ؟ وهل يضر طلب المعونة من نبى أو ولى على أنهما سببان عاديان كسائر الأسباب العادية المخلوقة لله عز وجل ؟ وهل هناك من حاجة إلى الوسيلة ؟ إلى آخر الأسئلة التى نرجو الإجابة عنها فى أعداد مقبلة ثم قال فى آخر خطابه : أرجو الإجابة بإطناب فإننى متشوق إلى تصحيح عقيدتى فى هذه المسائل ولكم منا الشكر ومن الله الأجر .

عبد الرحمن خليل موسى الشريف

طالب بمعهد أسيوط

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد :

فقد جاءنى هذا الخطاب منذ زمان وكنت نسيته ، فلما عرض على مع أوراق أخرى على غير قصد رأيت أن أجيب عنه إجابة مختصرة ، وأرجو أن يكون فيه مقنع وكفاية فأقول وبالله التوفيق :

(١) مجلة الإسلام — السنة السابعة . العدد ١٤ — سنة ١٣٥٧ هـ .

إن التوسل جائز وواقع بأوسع معنى الكلمة ، ولا يجافيه عقل ولا نقل وليس ذلك إلا من قبيل الأسباب والمسببات ، وقد جعل الله الناس على مراتب مختلفة لحكم ساميه ، وأسرار عالية ، فمنهم الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، والعالم والجاهل ، والرئيس والمرؤوس ، والملوك والسوقة ، إلى ما لا يحصى عد ولا يضبط حد .

ولا بد أن يكون لصاحب المرتبة العليا ما ليس لصاحب المرتبة الدنيا « ولا فرق فى ذلك بين أمور الدين والدنيا » فالتجاء الصغير إلى الكبير فى كل ذلك لا شىء فيه . بل هو مراد الحق من خلقه المتفاوتين فى الاستعداد والنعم والمواهب ولذلك خلقهم .

أما الشرك فهو أن تطلب من غير الله على أنه إله مع الله يعطى ويمنع بغير إذنه « ولا يتصور أن يكون ذلك من أحد من المؤمنين » فإن طلبت منه على أنه لا يفعل شيئاً إلا بإذن الله تعالى ، ولا يتصرف إلا بإقداره إياه ، معتقداً أنه ما ملك إلا بتمليكه ، ولا تصرف إلا بإرادته ، لم يكن عليك بأس ولا فى ذلك حرج ، بل هو الواقع الذى جبلت عليه الفطر ، وجاءت به الشرائع والديانات ، وقد أسند الله إحياء الموتى وهو أكبر شىء إلى سيدنا عيسى وكان — عليه السلام — يسنده إلى نفسه فيقول : (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)[١] .

ولا شك أن من استغاث بالولى أو النبى لم يستغث به على أنه شريك لله أو يفعل بغير إذن الله .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٩ .

حتى لو فرضنا أن ذلك لم يكن حاضرًا فى نفسه فهو كامن فيها بمقتضى قوله : (لا إله إلا الله) فهو بمنزلتك إذا رجوت وزيرًا أو أميرًا أن يفعل لك شيئاً غير مستحضر ما يقتضيه التوحيد من كون الله خالق كل شىء وإليه يرجع الأمر كله ، وهذا الوزير أو الأمير لا ملك لنفسه – فضلا عن غيره – نفعاً ولا ضرًّا .

فلا تجعل ذلك منك شركا بوجه من الوجوه تعويلًا على الكامن فى نفسك من انفراده تعالى بالملك والملكوت فى الحقيقة ، وأن الذى ترجوه إنما هو متصرف بتصريف الله تعالى وأن الله هو الذى ملكه ما يتصرف فيه .

ولحكمة ما جعل العباد مراتب محتاجا بعضهم لبعض كما قلنا ، فلماذا تجعل الطالب من الأنبياء والأولياء مشركا ، ولا تجعله مشركا عندما يطلب من الوزير والأمير ، بل من الفاجر والكافر ؟ والمدرك فيهما واحد ، فإن الله لا شريك له فى أمور الدنيا ولا فى أمور الآخرة ، فإما أن تعتبر الظاهر وتجعله شركا فيهما ، وإما أن تعتبر الباطن وتجعل ذلك من باب الأسباب والمسببات التى هى نظام العالم ، وسنة الله فى خلقه على ما شرحناه .

فإن كان لديك من صريح التوحيد ما يميت الأسباب من نظرك بالكلية ويجعلك تلتجىء إلى الله مباشرة بلا توسيط أحد كان لك ذلك « ولكنها مرتبة مخصوصة لقوم مخصوصين » وقد جاء الدين للناس جميعا مراعيا استعدادهم مكتفيا بما تكنه ضمائرهم من التوحيد ، بل عرفنا أن هناك مقربين وغير مقربين وهناك من تجاب دعوته وترجى

شفاعته ومن ليس كذلك . ولهذا كان – صلى الله عليه وسلم – الشفيع الأعظم فى الآخرة ، وبعده الأنبياء والأولياء والعلماء كما جاء فى السنة الصحيحة .

ثم نقول بعد ذلك : إن المتوسل إلى الله بالنبى والولى معترف – بمقتضى توسله – أن المعطى والمانع إنما هو الله تعالى ولكن يقول : إن الولى أو النبى أقرب إلى الله منى ، وله عند الله جاه وحرمة وذلك حق لا نزاع فيه « ولذلك يشفع النبى – صلى الله عليه وسلم – للخلائق يوم القيامة وكذلك الأنبياء والأولياء والصالحون على ما شرحنا » .

وفى إمكان روح الولى أن تدعو له وتطلب من الله قضاء حاجته .

والأرواح عند المسلمين باقية بعد الموت ولها أفعال وأقوال فى البرزخ ، وطالما جاءت فى المنام فأرشدت المسترشدين وأغاثت الملهوفين مما لا يمكننا الخوض فيه الآن لسعة فجاجه ، وتلاطم أمواجه .

وإن شئت فانظر ما كتبناه فى (حياة الأنبياء) بمجلة الأزهر ص ١١٦ من الجزء الثانى من السنة الثالثة ، ومن ذلك كلمة وجيزة بمجلة الإسلام ص ١٤ من العدد ٤٢ من السنة السادسة .

ولا نزال نقول : ما الفرق بين الطلب من الأنبياء وغيرهم من أهل الدنيا ، وهل هناك فرق بين أمور الدنيا وأمور الآخرة ، وبين الأحياء والأموات عند المسلمين الذين يعتقدون بقاء الأرواح وعدم فنائها بمقتضى ما دلت عليه الأحاديث المتواترة فى عذاب القبر ونعيمه وفى حياة الأنبياء .

ويكفيك ما ورد فى حديث الإسراء والمعراج إن كنت لم تطلع على غيره فقد جاء فيه عن موسى وآدم وإبراهيم عليهم السلام ما فيه مقنع وكفاية ، بل جاء فى كلام الفلاسفة الأقدمين من قبل الميلاد المسيحى ما يشفى ويكفى . وقبيح والله بالمؤمن أن ييأس كما يئس الكفار من أصحاب القبور .

وإن شيئا اعترف به الفلاسفة غير المسلمين ووصلوا إليه بعقولهم السليمة قبل إخبار الرسل به ، قبيح على من تزيا بالإسلام وسمع ما جاءت به الرسل أن ينكر ما اعترف به غير المسلمين .

ولنسق لك بعد ذلك كله حديثا صحيحا هو نص فى الموضوع إلا عند من سلب العقل أو حرم نعمة الإنصاف . أخرج النسائى فى سننه ، والترمذى فى صحيحه ، وابن ماجه ، وغيرهم . « أَنَّ أَعْمَى أَتَى إِلَى النَّبِىِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ : إِنِّى أُصِبْتُ فِى بَصَرِى ، فَادْعُ اللهَ لِى فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْ : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ يَا مُحَمَّدُ إِنِّى أَسْتَشْفِعُ بِكَ فِى رَدِّ بَصَرِى اللَّهُمَّ شَفِّعِ النَّبِىَّ فِىَّ وَقَالَ : فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ ، فَرَدَّ اللهُ بَصَرَهُ » .

ولنقتصر اليوم على هذا ونؤخر الجواب عن بقية الأسئلة إلى فرصة أخرى نسأل الله التوفيق والرشد والمعونة بمنه وكرمه .

التوسل (1)

حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الإمام مفتى الأنام ومرجع العلماء الأعلام الشيخ يوسف الدجوى من جماعة كبار علماء الأزهر الشريف حفظه الله تعالى وأدامه آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته – وبعد : فنظرا لثقتنا بفضيلتكم ويقيننا بأنكم مرجع المسلمين جعلنا مولعين ببيانكم للأحكام الدينية وإفتائكم الوضاء للأمور الشرعية ، فأرفع لفضيلتكم السؤال الآتى راجيا التكرم بسرعة الإجابة عليه ولكم الشكر العظيم .

هل التوسل جائز أم غير جائز ؟ وهل هذا الحديث الآتى صحيح يجوز العمل به أم لا ؟ وهو « توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم » تفضلوا بالجواب لازلتم المنهل العذب والينبوع الفياض يُهتدى بهديكم ويُرجع إليكم .

عبد الحفيظ ابراهيم اللازقى

بيروت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

وبعد فقد جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع .

وقد كتبنا فى التوسل بعدة مجلات ، أما اليوم فلا يمكننا أن نكتب فيه إلا كلمة موجزة للغاية فنقول : إن العقل والنقل متفقان على أن

(1) مجلة الإسلام – السنة الثامنة العدد التاسع – سنة ١٣٥٨ هـ .

التوسل جائز ونافع ، أما النقل فيكفى فيه الحديث الثابت عند المحدثين (حتى الشوكانى الذى هو من أئمة ما نعى الوسيلة) وهو حديث عثمان ابن حنيف الذى تشفع فيه ذلك الضرير بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ثم دخل عليهم قبل أن يتفرقوا وقد رُدَّ إليه بصره .

ومانعو الوسيلة لا يخجلون ولا يتورعون من نسبة المسلمين كافة فى عصور الإسلام المختلفة إلى الشرك ، ولو كان التوسل شركا لكان عمر بن الخطاب عندما قال : « اللهم إنا نتوسل إليك بالعباس » مشركا .

ولا أدرى كيف يتصور الإشراك والمتوسل معترف بأن الفاعل هو الله وإنما يتوسل إليه بحبيبه لمزيد قربه ورفعة منزلته ، وهذا مما لا شك فيه ، أو ليدعو له فإنه حىٌّ تعرض عليه أعمالنا ويستغفر لنا كما بينا ذلك أتم بيان فى بعض ما كتبناه .

والعجب أنهم يقيسون المتوسل على عابد الوثن ، ويصرحون أن قبور الأنبياء والأولياء والصالحين أصنام وطواغيت يعبدها المتوسلون ويشركونها مع الله فى العبادة .

وقد أفاض ابن القيم وهو من أئمتهم فى (كتاب الروح) فى عمل الأرواح حتى قال : « إن الروح الكبيرة كروح أبى بكر تهزم جيشا بأسره » وهل يعتقد أحد من المؤمنين أن مع الله إلهًا آخر ، وكيف يكون ذلك مع إقراره بالوحدانية واعتقاده اعتقادا جازما أن الله واحد لا شريك له ، وإذا كان يعتقد أن المتوسل به إنما يدعو له أو يشفع له

كما يشفع لنا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وكما يستغفر لنا الان ، ويرد علينا السلام « بل كما ترد الأموات كلها السلام » فأى ضرر عليه فى ذلك .

بل نقول : لو فرضنا أنه يفعل لنا شيئا بنفسه فإنما يريد أنه يفعله بإذن الله على سبيل التسبب بما أعطاه الله من المواهب التى ليست عندنا كما يفعل الحى ذلك بإذن الله على سبيل التسبب أيضًا .

ونحن نعتقد أن الحياة الروحية البرزخية أقوى من الحياة الروحية المادية ، ولا فرق عندنا بين حياة مادية وحياة روحية وإلا فلماذا يلتجئون إلى المخلوقات فى أمورهم ، فهل اعتقدوا أنهم آلهة مع الله يفعلون بغير إذنه أليست أمور الدنيا والآخرة كلها لله وحده « أم معه آلهة أخرى فى الدنيا دون أمور الآخرة » فإن كان كل طالب من غير الله على أى وجه من الوجوه مشركًا فهم أول المشركين وإن كان لا يكون مشركًا إلا إذا اعتقد أنه يفعل بغير إذن الله فالجميع مؤمنون بأن هذه العقيدة المكفرة ليست عند أحد من المستغيثين بالإنجليز فضلًا عن المستغيثين بأحباب الله فليختاروا لأنفسهم ما شاءوا .

والخلاصة بأن هؤلاء قوم جاهلون مجازفون بتكفير المؤمنين والتكفير شىء عظيم لو كانوا يعلمون .

وقد أثبت الشوكانى التبرك بالآثار فى شرح نيل الأوطار ، ولابن القيم وهما من أئمتهم فى ذلك العجب العجاب ، ولكنهم ماديون بفطرتهم لايؤمنون بعمل الأرواح ولا حياتها على الرغم من التواتر فى ذلك كما يئس الكفار من أصحاب القبور .

ولاننكر أن بعضهم قد قرأ شيئا من اسنة وزاول بعض كتب العلم ولكنه كان كالمريض الذى يأكل ولايهضم فكان الأكل ضررا عليه أو سببا لهلاكه «والعلم كالبحر فمن لايحسن السباحة فلابد أن يغرق »

أما حديث «توسلوا بجاهى » المذكور فى السؤال فمتكلم فيه ولسنا فى حاجة لإثباته على أن حديث عثمان بن حنيف الذى أشرنا إليه يفيد هذا المعنى كل الإفادة ، وفيه أمره – صلى الله عليه وسلم – بأن يقول : «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ وأَتَوجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحمَّدٍ نَبِىِّ الرَّحْمَةِ إِلَى آخِرِه» فماذا بقى بعد تعليمه – صلى الله عليه وسلم – وأمره بعد العمل بذلك فى حياته وبحضرته – صلى الله عليه وسلم –

ولايفوتنا أن نقول : إن القرآن تارة يسند الأفعال إلى أسبابها والقائمين بها ، وتارة يسندها إلى مسبب الأسباب الذى إليه يرجع الأمر كله سبحانه وتعالى ، فتارة يقول : (اللهُ يتوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)(١) وتارة يقول : (قُلْ يَتَوفَّاكُم مَلَكُ الْموْتِ)(٢) ويقول : (الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)(٣) إلى غير ذلك مما لايخفى عليك والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

(١) سورة الزمر ، من الآية ٤٢ .
(٢) سورة السجدة ، من الآية ١١ .
(٣) سورة النحل ، من الآية ٢٨ ، ٣٢ .

الغيرة على الدين (١)
بمناسبة كتاب الدارمى ومافيه من التجسيم

بمناسبة ماهو منظور الآن بين يدى جماعة كبار العلماء من البحث فى كتاب الدارمى المسمى ، «رد الإمام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد » وما صدره الشيخ حامد من تلك المقدمة المجسمة التى تدعو إليه وتحمل على الحرص عليه . رأيت أن أكتب هذه الكلمة لتبيين أمر الكتاب :

إن كتاب الدارمى المذكور هو شر الكتب ولا يجوز نشره بين الناس فإن فيه من العقائد الضالة ماتستهجنه .

ولكن منينا بطائفة ليس لهم شغل فى دروسهم ومساجدهم ومايختارون من الكتب والمطبوعات إلا مايفسد عقائد العامة ويحدث القلق والتفريق .

وقد نشروا قبل ذلك «كتاب العلو للذهبى » مع مايكتبون من تلك المقدمات المرغبة المشوقة على نهج مايفعل المبشرون .

ولست أدرى أذلك لقصد إضعاف العقائد وإفساد القلوب . أم ذلك للجهل المركب والمادية التى غرقوا فيها ولم يعرفوا شيئا سواها .؟

وإنه لمن أول الواجب على العلماء أن يعرفوا الناس ضرر هذه الكتب ولندع هذا وقد كتبنا فيه مرارا . ولنخض غمار الموضوع حتى يعاين كل إنسان الكتاب بنفسه ثم يرجع إلى عقله وحسه .

(١) مجلة الإسلام – السنة العاشرة – العدد ٣٣ – سنة ١٣٦٠ هـ .

مواضع من كتاب الدارمى :

يقول فى «صفحة ٤» ردا على بشر المريسى مانصه : «إنه يجهل مكان واحده» يعنى الله سبحانه وتعالى ويقول (فى (ص٢٠)») : «الحى القيوم يتحرك إذا شاء وينزل ويرتفع إذا شاء ويقبض ويبسط إذا شاء ويقوم ويجلس إذا شاء لأن أمارة مابين الحى والميت التحرك ، كل حى متحرك لامحالة» . هذا نص كتاب الدارمى ، وقد غاب عنه أن ذلك من أحكام الأجسام وهو مستحيل على المنزه الذى ليس كمثله شىء .

ويقول . فى (ص ٢٣) : والله تعالى له حد ولمكانه – أيضا – حد ، وهو على عرشه فوق سمواته ، وهذان حدان اثنان وكل أحد بالله وبمكانه أعلم من الجهمية . وهذا نص كلامه ويتكرر فى الكتاب مرات ، وهو كلام لايدع مجالا لتبرئة قائله من التجسيم . وما التجسيم إلا وثنية صريحة . فتبًّا لمن يحاول هندسة معبوده هكذا بالذراع والباع .

ويقول فى (ص ٢٥) فى آدم –عليه السلام– : خلق آدم بيده مسيسًا ويتكرر هذا أيضا فى الكتاب فتراه يحمل خلقه تعالى لآدم على مزاولة الطين بالجارحة . وهذا جهل فاضح وكفر مكشوف وذوق سخيف لا يرضاه من يزاول الطين من الصناع والفعلة .

ويقول فى (ص ٧٤) : إنه ليقعد على الكرسى فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع .

ويقول فى (ص ٧٩) مخاطباً لبشر المريسى : وأما قولك غير بائن باعتزال ولا بفرجة بينه وبين خلقه فقد كذبت فيه فضللت عن

سواء السبيل بل هو بائن من خلقه فوق عرشه بفرجة كبيرة ، والسموات السبع فيما بينه وبين خلقه الذين فى الأرض .

ويقول فى (ص ٨٠) مامحصله : إن الله تمدح بانه يعلم غيب السموات والأرض وما يكون من نجوى أحد مع أحد إلا يعلمها ثم ينبئنا يوم القيامة بما كان منا ، ولولا أنه بعيد عنا بتلك المسافات لما كان فى ذلك مدح ولاثناء .

ويقول فى (ص ٨٥) : ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم .

ويقول فى (ص ٩١) : إذا غضب الله فاول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش وسرادقات العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة .

ويقول فى (ص ١٠٠) لما قال المريسى : ألا ترى أن من صعد على الجبل لايقال إنه أقرب إلى الله مانصه : يقال لهذا المعارض المدعى مالا علم له به من أنباك إن رأس الجبل ليس بأقرب إلى الله من أسفله .

ويقول عن إسحاق بن المبارك من غير سند : إن رأس المنارة أقرب إلى الله من أسفلها .

ويقول فى (ص ١٢١) : قد أجمعنا واتفقنا على أن الحركة والنزول والمشى والهرولة والاستواء على العرش وإلى السماء قديم .

وهل يقام لمن يتكلم بمثل هذا الكلام وزن . ولا أدرى كيف يتصور أن الحركة قديمة وهى الانتقال من حيز إلى حيز .

ويقول فى (ص ١٤٨) ردا على من قال فى قوله تعالى . (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ)(١) أن المراد مجىء أمره فإن المجىء من مكان إلى مكان صفة المخلوق ، فقال له الدارمى : **إننا نقول لهذا المعارض** المفترى على الله قد فسرت هذه الآية على خلاف ماعنى الله .

ويقول فى (ص ١٨٢) : ويقال لهذا المعارض لجلجت بها حتى صرحت بأن الله ليس على العرش وإنما عليه آلاؤه ونعماؤه .

ثم قال الدارمى : ويلك إذا لم يكن بزعمك على العرش إلا آلاؤه ونعماؤه وأمره فما بال العرش يئط من الآلاء والنعماء وكأنها عندك أعكام الحجارة والصخور والحديد فيئط منها العرش. فانظر إلى جهل هذا الجاهل وقلة ذوقه حتى يرى أن العرش لايئط إلا من ثقل الله تعالى. ونقول له أيضا : كأنه عندك أعكام الحجارة والصخور والحديد مثل ماقلت فى النعماء والآلاء .

ولنختم هذه الفرصة فنقول : إن ابن عساكر له مؤلف خاص فى رد حديث الأطيط وأنه رواية محمد بن اسحاق المدلس الذى لاتقبل عنعنته كما فى حديث الأطيط الذى رواه بالعنعنة . ومن اعتبر حديث الاطيط قال : إن المراد خضوع العرش لله تعالى لاثقل الحق عز وجل كما يقول هؤلاء الاغبياء .

وقد تنعتهم تلك الطائفة التى هى من خميرة البشر كما بيناه فى بعض ماكتبناه تحت هذا العنوان ، إلى غير ذلك وهو كثير .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٠ .

فماذا تكون حال من يرتضى هذا الكتاب أو يوصى به أشد الوصية أو يطبعه للدعوة بما فيه . وإجمال القول : إن هذا هو توحيدهم الذى يدعون إليه ويحرصون عليه .

ولنضم إلى هذا ماهو آية فى قلة ذوقهم وبرهان واضح على عظم جهلهم ، ذلك أن الدارمى يعبر عن « بشر المريسى » « بالمافون » فيعبرون عندما يصلون إلى تلك الكلمة « بالمابون » ويكررون ذلك مرارا عديدة . وإنى أدع لك شرح هذه العقلية وهذا الوجدان وهذه الضمائر ، ولكن لاغرابة فهم من غريب البشر كما قلنا من قبل .

ولنختم كلمتنا هذه بأن كتاب الدارمى الذى هو موضوع اليوم مملوء بصنوف الزيغ والإلحاد ، والواجب على أولى الأمر أن يقوموا فى وجه ناشريه ومحبذيه المعتقدين مافيه ويعاملوهم بما يوجبه عليهم التنزيه غيرة لدين الله ومحافظة على عقائد المسلمين .

أسأل الله أن يتدارك الأمة المصرية بلطفه ويوقظ رؤساءها لما يصلح أمرها فى الدين والدنيا بمنه وكرمه

التفكر أس السعادة (١)

رأيت أن أجعل موضوع اليوم الكلام فى التفكر وفائدته ونتائجه وبيان أن سعادة الدنيا والآخرة لاتكون إلا بالتفكر الصحيح .

ولذلك حث الله عليه وناط الخير كله به فى الآيات العديدة .

وقد قال زين العابدين بن الحسين – رضى الله عنهما – «عجبت أن يرى مخلوقات الله وما فيها من العجائب ثم يشك فيه ، وعجبت لمن يرى النشأة الأولى ثم يشك فى النشأة الآخرة ، وعجبت لمن يرى الدنيا وفناءها ثم يؤثرها على الآخرة مع صفائها وبقائها » أو كما قال .

ورأيت أن سبب ذلك كله هو الغفلة وعدم التفكر ، مع أن الأمر فى غاية الوضوح : فالسموات شاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض شاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها ، وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها : وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

ولاتتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولانبات ولاحيوان ولا فلك ولاكوكب إلا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة . وكل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية

(١) مجلة الأزهر – المجلد الثانى عشر – الصفحة ٦٠٩ .

دال على جلاله وكبريائه وحكمته «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون» (١) .

وقد حث القرآن على التفكر فى هذه الآيات بأبلغ مايكون وأقصى مايتصور ، مثل قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (٢) إلى غير ذلك من الآيات . (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (٣) ومع ذلك فنظرك فيك يكفيك ، ففيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى . وما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . ولايزالون يكتشفون من أسرار ما أودع الإنسان من العجائب حتى الآن وإلى ماشاء الله ، مثل الغدد وأعمالها ومثل المخ ونقطه التى نيط بكل منها وظيفة مخصوصة مما يحير اللب ويهيج القلب .

فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٤) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) (٥) ويقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

(١) سورة يس ، الآية ٨٣ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥ .
(٤) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .
(٥) سورة عبس ، الآيات ١٧ – ٢٠ .

إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)[1] ويقول : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)[2] ويقول : (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)[3] .

وقد رأيت منذ زمان بعيد أن بعض الفلاسفة الأوربيين قال : «يكفينى فى الدلالة على الله تعالى وجود الأنثى بجانب الذكر» وذلك ما أشار إليه القرآن العزيز فى قوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[4] .

فانظر أيدك الله إلى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى ، وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم . وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب

(١) سورة الروم الآية ٢٠

(٢) سورة القيامة ، الآيات ٣٧ — ٣٩ .

(٣) سورة المرسلات الآية ٢٠ .

(٤) سورة الروم ، الآية ٢١ .

والعروق والأعضاء الظاهرة : فدور الرأس وشق السمع ، والبصر ، والأنف ، والفم ، وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ؛ كل واحد على شكل مخصوص ، ومقدار مخصوص ، لعمل مخصوص ؛ ثم كيف ركب كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب العين فى سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ، وهيئة مخصوصة ؛ لو فقدت طبقة منها ؛ أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار .

فلو ذهبنا إلى أن نصف مافى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضت فيها الأعمار .

أدلة القرآن [1]

وأدلة العلماء على وجود الله

رأينا أن نقارن بين ما جاء فى القرآن الشريف من الأدلة وما يذكره العلماء من الاستدلال على وجود الله تعالى ، ليظهر ما بينهما من الفرق ، فنقول :

إن القرآن إذا أراد أن يستدل على شىء سلك أوضح الطرق وأسهل المناهج حتى يريك الأمر محسوساً ، والحجة واضحة جلية ، مع غاية الإيجاز والإعجاز . وانظر إن شئت إلى استدلاله على البعث ورد كلام المنكرين فى قوله تعالى : (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)[2] فأجاب بقوله تعالى : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)[3] فأتى بذلك القياس الجلى أو الأولوى مع الاختصار التام ، ورد ما عسى أن يكون من الشبه فقال : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

وقد قال ابن سينا : « كنت أشتهى أن يطلع ارسطاليس على هذا الاستدلال البديع » . وما أكثر هذا فى القرآن الكريم .

وانظر إن شئت إلى الرد المفحم والاستدلال البالغ على وجود الحق سبحانه وتعالى حيث يقول إلزاما للمنكرين : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ

(١) مجلة الأزهر — المجلد الرابع عشر — الجزء الثانى — سنة ١٣٦٢ .
(٢) سورة يس . الآية ٧٨ .
(٣) سورة يس ، الآية ٧٩ .

شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ)[1] ويقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)[2] ويبين حال أولئك المنكرين بقوله : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)[3] . وما أبدع ما يقول عز وجل : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[4] .

وإن شئت فاستحضر الوجدان ، وتأمل فى هذا البيان الذى يصور الأمر أوضح من الحس ، وأجلى من الشمس فى قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)[5] . ثم ينزه الله تعالى ذاته بما ينطق بألوهيته وعظمته فيقول : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)[6] . ثم يعمد إلى نوع آخر من الأدلة فيقول : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)[7] . وقد أتى فى الآية الأخرى بما هو أوسع من ذلك فقال :

(١) سورة الطور ، الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) سورة الغاشية ، الآيات ١٧ — ٢٠ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٦ وسورة يونس الآية ٦٦ .
(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٤١ .
(٥) سورة يس ، الآيتان ٣٣ — ٣٤ .
(٦) سورة يس ، الآية ٣٦ .
(٧) سورة يس ، الآية ٣٧ .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(١) . ويقول فى بيان القدرة القاهرة والحكمة الباهرة : (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ)(٢) إلى أن يقول : (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٣) . ولا ندرى كيف تجرى ، ولا كيف رتبت ونظمت فى مداراتها بحيث لا يبغى بعضها على بعض إلى آخر ما يبهر العقل ويدهش اللب (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)(٤) .

وما أراد الله بذلك كله إلا أن يلفت نظرك إلى أسرار العوالم ، وما احتوت عليه من أدلة وبراهين لو تأملها الإنسان حق التأمل لأصبح مبهوتاً من تلك القدرة ، ولصار فانيا فى تلك العظمة التى لا تحيط بها العقول فيقول بلسان حاله أو لسان مقاله : سبحانك ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ،وإن شئت فانظر لمثل قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)(٥) . ويقول : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِىٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً

(١) سورة القصص ، الآيتان ٧١ ، ٧٢ .
(٢) سورة يس ، الآيتان ٣٨ — ٣٩ .
(٣) سورة يس ، الآية ٤٠ .
(٤) سورة الزمر ، الآية ٦٧ .
(٥) سورة الانفطار ، الآيات ٦ — ٨ .

فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى)(١) .

ولعمر الحق ، أن من يتأمل فى صورته وتركيبه وأصل خلقته لابد أن يأخذ العجب منه كل مأخذ ، حيث يرى الوظائف مفرقة على الأعضاء ، لكل وظيفة عضو خلق لها وقام بأدائها . كل ذلك فى نطفة قذرة لا يخفى حالها عليك . فانظر إلى وظائف المعدة والأمعاء والكبد والرئتين والفم والعينين والأذنين واليدين والرجلين والمخ والمخيخ ، إلى آخر ما أودعه الله فيك . (وفى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(٢) . وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفينى فى الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل ، ولولا ذلك لخرب العالم » وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(٣) . وقال فيلسوف آخر : « يكفينى فى الدلالة على الله (هدب العين) فضلا عن تركيبها العجيب وطبقاتها البديعة » ، ولله در الغزالى حيث يقول :

قل لمن يفهم عنى ما أقول　　　قصر القول فذا شرح يطول

إلى أن قال :

أنت أكل الخبز لا تعرفه　　　كيف يجرى منك أم كيف تبول

(١) سورة القيامة ، الآيات ٣٦ — ٤٠ .
(٢) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
(٣) سورة الروم ، الآية ٢١ .

وأقسم بحياة العقل وقدسية العلم ، أن أمر السبيلين فى الإنسان لمن أعجب الأشياء التى توجب شكر خالق الأرض والسماء . فسبحان العظيم القدير اللطيف الخبير من إليه يرجع الأمر كله وبيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(١) .

ولقد يكفيك هاتان الآيتان الجليلتان : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٢) . وإن شئت فاقرأ قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)(٣) . فقارن بين ذلك وبين ما يسلكه العلماء من طرق الاستدلال مع الله تعالى من ذكر المطالب السبعة : « زيد ما قام ما انتقل ما انفك » إلى آخر ما تراه فى تلك الكتب ، وإنى أعيذك من تلك التشكيكات التى يذكرونها فى مسألة البعث وإعادة الأجسام غافلين عن جهلهم الكبير وقدرة ربهم العظيم :

(١) سورة الصافات الآيات : ١٨٠ ، ١٨٢
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة يس ، الآيات ٧١ – ٧٣ .

من أنت يارسطو ومن   أفلاط قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ   ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفراش   رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه   ولو اهتدى رشدا لأبعد

أو نقول :

دعوا الدعوى فإن العلم بحر   وما أوتيتمو إلا قليلا

ولنختم كلمتنا هذه بذلك الدعاء النبوى

اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى . وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الجزء الثاني

النبوات

نبوته صلى الله عليه وسلم (١)

معجزاته الحسية

نريد أن نتكلم فى مقالنا هذا عن المعجزات الحسية التى هى من طرق إثبات النبوة على ما ذكرنا فى مقالنا المنشور فى العدد الأول.

وأن خصومنا اليوم فريقان : فريق الماديين الذين وقفوا عند الظواهر ولم يصلوا إلى رتبة التحقيق فى الأشياء حتى فى علم الطبيعة نفسه الذى يدعون أنهم علماؤه وبيدهم لواؤه .

والفريق الثانى : هو شرذمة تنتمى لعلماء الدين ، وما هم منهم فى كثير ولا قليل ، يريدون أن يُعرفوا بالتجديد وعدم الجمود على ما يزعمون فيتظاهرون بأنهم عرفوا ما يقول العصريون ، فتراهم يلهجون بذكر ما يلوكه الماديون على غير علم ولا بصيرة من ذكر النواميس وأنه لا يمكن خرقها ، ويزيدون على ذلك ما لم يحسنوا فهمه من نصوص القرآن الشريف مثل قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ)(٢) فذكر أنها عندالله ولم يقل إنه جاء بها « وستعلم الجواب عن ذلك » .

(١) مجلة الأزهر — العدد السابع — المجلد الأول — رجب سنة ١٣٤٩

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٠

وقد قلدوا فى هذا جهلة المبشرين الذين يرددون ذلك فى جميع كتبهم التى يلبسون بها على ضعفاء العامة ، فهم فى هذه النزعة وهذا الاستدلال مقلدون للمبشرين من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، كما كانوا فى تلك مقلدين لجهلة الطبيعيين حباً فى الظهور وطلباً للشهرة ، فهم غريقون فى التقليد لشر الطوائف من حيث يظنون أنهم مجتهدون أو مجددون .

وهكذا الحركات كلها عندنا فى الشرق معكوسة عكساً سار بنا إلى الاضمحلال الذى جعلنا فى أخريات الأمم أو على حافة العدم .

الفريق الأول

أما الفريق الأول ، وهو فريق الماديين الذين جمدوا على القشور وظنوا أنهم عرفوا كل شىء ووصلوا إلى كل شىء ، فقد أنكروا المعجزات الحسية لأنها تناقض النواميس الطبيعية المقدسة التى لا يجوز خرقها وهى أزلية أبدية على مايزعمون ، دعاوى خيالية لم يعضدها الحس ولا قام عليها البرهان ، ولكنها نزعات نفوس حمقاء وخيالات رءوس طائشة لم تستمد من الوجود ولا استندت إلى البرهان ، وإنما استمدت ن عقول أربابها المنحرفة ، واستندت إلى ما يخيله استعدادهم الناقص ، لأنهم لا يأخذون معلوماتهم إلا مما شاهدوه وألفوه ، وإذا تخيلوا كان خيالهم مرتكزاً على تلك المعلومات التى انتزعوها من الحس ويعجبنى قول بعضهم : « ان الخنفساء لو تخيلت خالقها لتخيلته خنفساء كبيرة » .

وإنا نقول لهم أولاً هل أحطتم بكل النواميس علما ؟ أليس من الجائز بل الواقع أن يكون هناك ناموس أو نواميس لم تحلموا بها ؟

ألم يكن من قبلكم من علماء القرن السابع عشر والثامن عشر يتبجحون تبجحكم ويدعون دعاويكم غير حاسبين للمكتشفات التى اكتشفت بعدهم وما أكثرها حسابا ، بل نقول : ألم يكن الأقدمون يزعمون أن العناصر أربعة وأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة ، وكانوا يحلون بذلك كل شىء فى الوجود .

وما كان يدور بخلدهم أن العناصر تصل إلى السبعين أو الثمانين ، ومن يدرى ما يجىء به المستقبل ؟ فلعلها تصل بعد إلى أكثر من ذلك بكثير ، وما كانوا يظنون أن نظرية الجوهر الفرد ستكون موضع الهزؤ والسخرية فى القرن العشرين وأنه ستحل محلها نظرية الالكترونات الجديدة .

وعلى كل حال فمن ذا يستطيع أن يدعى أنه أحاط علماً بكل نواميس الكون وما فيه ، ولو كان كذلك لبطل الاكتشاف والبحث ووقف تقدم العلم الذى لا آخر له .

ولماذا لا يقولون ما يقول « نيوتن » مكتشف الجاذبية وأحد أساطين العالم فى الفلك : « لسنا إلا كالأطفال فى جزيرة على شاطىء بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من الصدف والقواقع على حين أن الجواهر النفسية فى قعر ذلك البحر » . أو مايقول غيره ممن عرفو قدر العلم : « الفرق بيننا وبين آبائنا أنهم كانوا يعتقدون أنهم علماء ، أما نحن فنعتقد أننا جهلاء » إلى آخر ما اعترف به المنصفون

من أكابر علماء الطبيعة المخلصين الذين ليسوا فيه زعانف ولا مقلدين ولا يريدون أن يغشوا أنفسهم أو يغشوا الناس وربما أفردنا لذلك مقالا خاصاً – إن شاء الله – .

ثم نقول لهم : من أين لكم أن النواميس هو المؤثرة فى هذا العالم وما شاهدتم إلا حدوث بعض الأشياء عقيب بعض ، أفيدل ذلك على التأثير والفاعلية ؟ أم هذه مقارنة أو معاقبة لا غير ؟ أما العلة الصحيحة أو الفاعل الحقيقى فشىء وراء ذلك كله . وما تلك النواميس الا قوانين قد وضعها الخالق فى مخلوقاته لتسير عليها حتى يتم ما أراده منها ، ولا يعقل تقدمها على الأشياء حتى توجدها ، ولا قيامها بنفسها حتى تكون فاعلة فيها . وقد يحسون بذلك فيعبرون بكلمة السنن بدل النواميس ، وستسمع كلام أكابرهم بعد فى مقال آخر ، فما الذى يدريهم أن قوة الفاعل المختار تقف عند ذلك الحد ولا تتعداه مع أنهم يعتقدون أن فى الطبيعة قوى لا تحد ولا تعد .

ويحسن فى هذا المقام أن نورد لك تلك الحادثة التى لو ذكرها أحد الشرقيين لقالوا إنها خرافة . وهاك ما جاء بدائرة المعارف البريطانية :

كريستيان هينسيريس هينيكين

طفل عجيب ولد فى ٦ فبراير سنة ١٧٢١ بمدينة لوبره[1] استطاع الكلام فى سن عشرة أشهر ، ولما بلغ من العمر عاماً واحداً حفظ قصص البنتاتوش[2] عن ظهر قلب ، وفى سن سنتين أتقن التاريخ

(١) مدينة لوبره بشمال ألمانيا بمقاطعة لوبره المتاخمة لهونشتين .
(٢) البنتاتوش اسم للأجزاء الخمسة الأولى من التوراة .

المقدس ، وفى سن ثلاث سنين أجاد معرفة التاريخ والجغرافيا القديم منها والحديث الدينى والدنيوى فضلاً عن تكلم الفرنسية واللاتينية ، وفى سن الرابعة أخذ فى دراسة الدين والتاريخ الكنسى ، وقد هرع الناس أفواجاً إلى لوبره لرؤية هذا الطفل العجيب الذى يباحث فى مختلف العلوم التى درسها . ولكنه مات فى ٢٢ يونية سنة ١٧٢٥ فى سن الرابعة من عمره[1]

فعلى أى شىء ينكرون المعجزات ؟ !! ، وهب أنهم عرفوا شيئاً مما شاهدوه فى تلك الأرض التى هى من أصغر العوالم ، ألم يبق مما لم يعرفوه الشىء الكثير أو الذى لا نهاية له ؟

فإن العوالم لا يدرون لها نهاية «باعترافهم» وقد ذكروا فى سير النور وسرعته – وأنه مع تلك السرعة المدهشة لا يصل إلينا من بعض الكواكب إلا بعد مئات السنين أو ألوف السنين – ما يوجب الدهش الكلى والقبوع التام فى إحدى زوايا تلك الأرض الصغيرة التى هى أقل من جحران الحشرات والديدان بالنسبة لهذا العالم الذى لا يعلمه غير خالقه .

أفلا يجوز بل يجب أن يكون قد فاتهم من العلم ما يناسب حقارتهم المتناهية وعظمة ذلك الكون غير المتناهى على ما يقولون هم أنفسهم .

(١) ويشبه هذا ما ذكر فى جرائدنا المصرية منذ سنتين تقريباً من أن غلاما فى تركيا طلب أن يتزوج ، وبعد فحص الأطباء سمح له بذلك على خلاف القانون التركى . ومما وجدوه فى ذلك الغلام خارقاً للعادة أن قلبه كان فى الجهة اليمنى وكبده كانت بالجهة اليسرى مما حير الأطباء هناك .

على أن علماء الأرواح بأوربة اليوم أصبحوا لا يعبأون بتلك الطنطنة الكاذبة ويثبتون من خوارق العادات ما يقلل من غلوائهم ويقضى على كبريائهم .

وفى أهل الهند من وصلوا بالرياضة إلى خوارق العادات والتفنن فى أنواع المدهشات ، لأن الأرواح الإنسانية كلها مخلوقة من عالم آخر له حكم آخر ، ولا تشبه أحكامه هذا العالم المادى وأن كان بين الأرواح الكاملة والأرواح الناقصة أبعد مما بين السماء والأرض .

وبين المعجزات وتلك الخوارق فروق من وجوه عديدة ، وإنما نريد بهذا عندما نتكلم مع الماديين الذين لا يقولون إلا بالمادة ونواميسها أن نفل من سلاحهم وننسفه من أحلامهم حتى ينتقض بناؤهم من أساسه بقول من يجلونهم ولا يخرجون عليهم .

ولنكتف من الكلام مع هذا الفريق اليوم بهذا . ولنا إليه عودة ثم عودة – إن شاء الله – .

الكلام مع الفريق الثانى

أما الفريق الثانى – وهو فريق المجتهدين من إخواننا المجددين العصريين المتشبهين بالماديين الذين يتذبذبون بين علماء القرن السابع والقرن العشرين وبين نصوص الدين ونزعات الماديين ، فلا إلى هؤلاء – ولا إلى هؤلاء فلنا معهم فى الرد طريق آخر يزيد على ما رددنا به على الماديين .

فنقول لهم وهم ممن يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ! إن كنتم ترون أن النواميس مقدسة لا يجوز خرقها رضاءً بما قال الطبيعيون أو تقليداً لهم فالقرآن الذى تؤمنون به يرد عليكم فى مثل تلك الآيات (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(١) (فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا)(٢) (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)(٣) (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)(٤) (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)(٥) (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)(٦) ويقول لعيسى عليه السلام : (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي)(٧) إلى غير ذلك مما هو معلوم لحضراتكم ، فإن أنكرتموه فقد أنكرتم صريح القرآن .

وإن اعترفتم به وقلتم إن ذلك جائز فى نفسه ولكن لم يقع لنبينا – صلى الله عليه وسلم – وفرقتم بينه وبين الأنبياء – وهو أكبرهم وأعظمهم – على غير معنى معقول ولا نص منقول .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٣
(٢) سورة البقرة ، الآية ٦٠
(٣) سورة النمل ، الآية ٤٠
(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٠٧
(٥) سورة سبأ ، الآية ١٠
(٦) سورة سبأ ، الآية ١٢
(٧) سورة المائدة ، من الآية ١١٠

قلنا لكم : إن معجزاته –صلى الله عليه وسلم– ثابتة بالتواتر الحقيقى أو المعنوى فى مجموعها بل فى كثير من آحادها ، ولا معنى لأن تسلموا ذلك فى حق الأنبياء ثم تتوقفوا فيه بالنسبة لنبينا –صلى الله عليه وسلم– .

وإذا رددتم ما فى صحاح كتب السنة من ذلك بعد اعترافكم بجواز الوقوع وبحصوله للأنبياء السابقين على ما نطق به القرآن وهو فرق لا نعقله .

قلنا لكم إن تلك النزعة توجب عدم الثقة بما رواه أولئك الأكابر ، وذلك يفتح باب فساد كبير وشر مستطير بل يوجب الخروج من الشريعة جمعاء وإبطال كل ما جاء عن الرسول من الأوامر والنواهى ، وهو انفلات من الدين كله .

فإننا إذا طعنا فى البخارى مثلاً ولم نثق بمروياته – وهو أصح الكتب لزم ألا نثق بمن هو أقل منه ، وما وصلتنا الشريعة إلا على يد هؤلاء حتى عدد الركعات وكيفية الصلوات فيكون الدين كله غير موثوق به ، وهى نزعة من شر النزعات وجناية من أكبر الجنايات التى فتح بابها المبشرون ونخشى أن نتممها المجددون المجتهدون العصريون .

وأى فرق بين هؤلاء وبين الباطنية الذين أرادوا أن يخرجوا الناس من دين الله بتأويلاتهم وتشكيكاتهم ، فكلاهما رد الشريعة ، أولئك فى

معناها وهؤلاء فى نصوصها . على أننا لا نأبى طريق سلفنا الصالح من علماء الحديث فى النقد والتمحيص والتعديل والتجريح. ولكن الذى نمقته هو تلك النزعة الحمقاء وذلك الميزان المقلوب الذى لا يحركه سوى النزعات الضالة ولا يرجح إحدى كفتيه غير الأهواء الفاسدة التى يجازف أربابها على غير علم صحيح ولا بصيرة نيرة .

على أن القرآن نفسه أثبت تلك الخوارق له – صلى الله عليه وسلم – فى مثل قوله : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)[1] وقوله : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)[2] وقوله : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)[3] وقوله : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)[4] إلخ إلخ . فلم يبق إلا الاحتمالات السوفسطائية . وستسمع فيها مايكفى المنصف ويخجل المتعسف ، فكيف يتسنى بعد ذلك إنكار الخوارق له – صلى الله عليه وسلم –

والقول بأنه ليس له فيها غير القرآن تمسكاً بما تمسك به المبشرون تلبيساً وتضليلا من مثل قوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)[5] مما ورد فى الآيات المقترحة التى جرت

(١) سورة الاسراء ، الآية ١
(٢) سورة القمر ، الآية ١
(٣) سورة الانفال ، من الآية ١٧
(٤) سورة النجم ، الآيتان ١٤ ، ١٥
(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٥٠

سنة الله فى خلقه أن يهلك من اقترحوها إذا لم يؤمنوا بها ، والله لا يريد ذلك بالأمة المحمدية .

على أن أولئك المقترحين لو أرادوا الإيمان لوجدوا عليه دلائل نيرة وآيات باهرة ولكنهم متعنتون فى كفرهم ، فلا ينفع معهم شىء . وقد قال الله تعالى فى حقهم : (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)[1] فمثل هؤلاء لا تنفعهم الآيات المقترحات وإنما توجب استئصالهم وهلاكهم ، والله لا يريد ذلك ، فعسى أن يؤمنوا أو تؤمن ذريتهم . فلم يبق بعد ذلك إلا المكابرة الممقوتة أو الاحتمالات الفارغة التى تفسد كل معقول ومنقول .

وقد منينا اليوم بمن يبدى من الاحتمالات ما يعقل ومالا يعقل دفاعاً عن نزعاته الخاصة وأهوائه المتغلبة . وكثيراً ما رأينا أرباب تلك النزعات عندما تقام الحجة لا يصغون إليها ولا يعرضونها على العقل والمنطق ، وإنما يفكرون فيما يقاومون به تلك الحجة ويدحضون به ذلك البرهان بمثل تلك الاحتمالات السخيفة . فهذه وجهتهم التى يتوجهون إليها لا معرفة الحق ولا الإذعان له « ومن لا يقنعه إلا أن لا يقتنع فلا سبيل لأن يقتنع » .

ولننقل كلمة عن تلك الاحتمالات الزائفة التى راج سوقها وعز سلطانها بفضل غلبة الأهواء وكثرة الجهلاء ، فنقول :

(١) سورة القمر ، الآية ٢

الاحتمالات وأثرها الممقوت

إننا لو استرسلنا فى الاحتمالات التعصبية لما أمكن أن نصدق بخبر ملك من الملوك ولا نبي من الأنبياء ولا حديث واقعة من الوقائع ، ولبطل التاريخ واختلت المصالح والنظم بناءً على تلك الاحتمالات .

على أن مسألة المعجزات متواترة تواتراً يستحيل معه الاجتماع على الكذب من تلك الألوف المؤلفة شرقاً وغرباً ممن لا يعقل تواطؤهم على الكذب مع تباين أممهم وبلادهم ، ولو فرضنا أن كل واحد منهم ذكر خارقة من الخوارق فهناك أمر مشترك وقع عليه الاجماع من تلك الطوائف كلها ، وهو أنه ظهر على يديه عليه السلام خوارق على الجملة بقطع النظر عن أعيانها ، مع ملاحظة أن كثيراً من المعجزات قد رواها العدول الثقات عن العدول الثقات المجمع على حفظهم وضبطهم وأمانتهم مما لو انفرد بروايته طريق واحد من تلك الطرق الصحيحة لوجب قبوله ، فكيف وقد تعاضدت وتضافرت كلها على شيء واحد حتى بلغت مبلغ التواتر الذى لا يمكن ردُّه ولا الشك فيه كما بينته كتب الصحيح فى دلائل النبوة .

ومن يتتبع الاحتمالات ويسترسل فيها مع الشك فقلما يصل إلى إيمان أو يظفر بإيقان .

وقد أنكر الملحدون وجود الله تعالى بناءً على تلك الاحتمالات وهو جلَّ وعزَّ أصل كل شيء وأظهر من كل شيء ولا يعقل بدونه وجود شيء

وفى الناس فريق يطعن فى المحسوسات وهى هى . ويقول إنها لا تفيد العلم بناءً على أن الحسّ كثيراً ما يغلط ، فانك إذا كنت فى الباخرة رأيت الشاطىء جارياً وترى حبة العنب فى الماء كبيرة . إلى أمثال ذلك من غلط الحسّ ، وفى الناس فريق آخر أنكر وجود كل شيء ، وقال إن الأشياء لا حقيقة لها بل هى خيالات ، وقد تعرض علماؤنا للرد عليهم فى كتب الكلام .

ومنهم من اختلط عليه الأمر وكثرت عليه الاحتمالات فقال فى كل شيء « لا أدرى » ويسمون عندنا باللا أدرية . ولو أُتيح لك أن تطلع على كتب المذاهب والآراء لرأيت أنه قد احتدم الجدال وعظم النزال فى حقيقة العلم وهو المعلوم بذاته الذى يعلم به ما سواه ، ولكنه لما دخلته الاحتمالات ولعبت الوساوس بنفوس الناظرين فيه كثر القيل والقال ، حتى أصبح الناس فيه على طرفى نقيض ، فقائل يقول : هو بدهى لا يحتاج إلى تعريف ، وقائل لا يمكن تعريفه لصعوبته وبعد حقيقته ، وفريق يقول : إنه هو المعلوم بعينه ، فالعلم بالنار هو عين النار ، والعلم بالماء هو عين الماء ، ولكن إذا حلت فى الذهن كان لها أحكام أخرى ، وكذلك الخلاف فى الوجود والموجود ، إلى غير ذلك مما منى به هذا النوع الإنسانى بناءً على هذه الاحتمالات التى أوجبها الاسترسال مع الشكوك والأوهام مما يضحك الثكلى ويبكى الحليم بل مما يسلب العقل الإنسانى خاصته والفطرة البشرية صفاءها :

وقد قال بعض الحكماء : (إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان) وإذاً لا تكون له فطرة سليمة يرجع لها ولا وجدان صحيح يتحاكم إليه .

وإنى أُناشدك الله « وأرجو ألا تسأم » : لو قال لك قائل : أنا لا أثق بخبر من الأخبار لأنه يجوز أن يكون المخبر كاذباً ويجوز أن يكون قد اعتقد خلاف الواقع ويجوز أن يكون قد سها فقال غير ما يريد ، ويجوز أن يكون قد تجوز فأراد غير الحقيقة ، إلى غير ذلك ولا وثوق مع وجود تلك الاحتمالات التى يجوزها العقل ، بل لو قال أنا لا أثق بشيء من تلك القواعد العلمية مثل علم النحو واللغة والصرف وأمثالها لأن نقلتها عن واضعيها رجال معدودون يجوز عليهم الكذب والخطأ والنسيان ، وهكذا نسبة كل قول إلى قائله وكل رأى إلى مرتئيه ، فماذا يكون خطابك إياه ؟ وماذا يكون جوابك له ؟ وهل ترجو لمثل هذا فلاحاً أو تنتظر له صلاحاً ؟ وماذا يكون الحال إذا أجرينا تلك الاحتمالات فى الأمور الحربية والمسائل التجارية والأحوال الإدارية والأنظمة الاجتماعية ؟ بل أسائلك — ولا أحسبك إلا محباً لتحقيق الحق — لو كنت فى حال يقظتك وعلى غاية ما يكون من صحتك وكانت الشمس على أتم ما يكون من ضيائها وبهائها وأنت تراها بعينى رأسك ولا تستطيع أن تحدق النظر فيها لعظيم ما يبهرك منها فجاءك سوفسطائى فقال لك : هل تستطيع أن تقيم دليلاً على صحة ما تدعيه من طلوع الشمس ووجود النهار فأخذت تصيح إنى أراها وأنت تراها وكل الناس ينظرون إليها وهى أظهر من كل دليل يقام عليها ، فأخذ يقول لك يحتمل : أنك نائم

وإن تلك الرؤية منامية وإن اجتماعى بك ومجادلتى إياك وكل ما يحيط بنا من شجر وحجر وماء وضياء كله حلم فى حلم وخيال فى خيال ، محتجًا عليك بأن النائم قد يرى فى منامه أكثر من هذا وهو لا يشك فى نومه أنه حق لا مرية فيه حتى إنه يرى أنه قد رأى مناماً ثم تيقظ ثم قصه على بعض المعبرين ، إلى غير ذلك مما يراه النائمون ولا يشكون فى نومهم أنهم متيقظون[1] فلعل حالك هو حال هذا النائم واعتقادك اعتقاده وأنت فى منام لا يقظة ، يقول لك ذلك كله بغير تهيب ولا خجل .

فقل لى (رعاك الله) ماذا يكون حالك مع هذا السوفسطائى صاحب الترهات وحليف الاحتمالات ، ألا يصعب عليك جدًا إقناعه مع كونك قاطعًا بفساد ما يبديه من هذه الاحتمالات ، ولئن كان العقل يقول بجوازها فالوجدان قاطع بعدمها ؛ ولو اعتمد الناس على التجويزات العقلية فى أمورهم لاختل نظامهم وفسد حالهم ، وكان الحيوان إذ ذاك أقرب إلى الرشد من الإنسان . وقد أشار الله إلى قوم هذا شأنهم بقوله : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)[2] ، فبين أنهم كانوا يدفعون تلك الآية الكبرى التى شاهدوها باحتمال أنه حصل خلل فى أبصارهم أو سحر فى عقولهم .

---

(١) أذكر بهذه المناسبة ما سمعته من بعض أصحابى أنه رأى فى منامه أن بعض الأعزاء عليه قد مات فرثاه بقصيدة غراء مطلعها :

شج قلبى فلم أجد لعزائى غير دمع مزجته بدمائى

(٢) سورة الحجر ، الآيتان ١٤ ، ١٥

وإنه ليقع فى قلبى أن الله خلق أقوامًا ليس فيهم استعداد لليقين ولا خلقت فيهم حاسته عمومًا أو خصوصًا ، فلا يمكنك أن توصلهم إليه مهما بذلت من الوسع وأفرغت من الجهد وكنت كمن يكلف فاقد السمع سماع أصوات المدافع الضخمة أو فاقد البصر رؤية الأضواء المتألقة ولذلك سجل الله عليهم بقاء الشك وعدم الإيقان بقوله : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)[1] ويقول : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)[2] إلى آخر ما ورد فى حقهم . ولله فى خلقه شئون .

ولعلنا نتكلم فى بعض المعجزات على التفصيل بعد — إن شاء الله — .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١١١

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

المعراج [1]

س : هل كان المعراج للرسول عليه الصلاة والسلام بالروح والجسد الشريف أو بالروح فقط ، وإذا كان الأول فما الدليل على ذلك ؟

« مصطفى محمد خضير »

ج : المعراج كان بالروح والجسد جميعًا ، **فإن الله يقول** : (**سُبْحَانَ** الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)[2] ، وقد كان المعراج والإسراء فى ليلة واحدة ، والعبد إنما هو الروح **والجسد** جميعًا ، والذى يصح أن يجعل آية من الآيات ويُمْتَنّ به ذلك **الامتنان** إنما هو الإسراء بالروح والجسد ، وأما رؤيا ذلك فى المنام فبعيد عن **أن** يكون من الآيات أو المعجزات ، ولا معنى لأن تتعلق به الفتنة ، **فإن** من الجائز أن يقع ذلك للعامة فضلًا عن الخاصة .

ولهذا نقول : إن من الأدلة أيضًا قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا **الرُّؤْيَا** الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)[3] على ما يقول **جمهور المفسرين** ، **فإنها** لو كانت رؤيا منامية لم يفتتن بها أحد ، وأى افتتان فى **أن يرى** الإنسان فى منامه أنه ذهب إلى الشام أو إلى الهند وأنه رأى كذا **وكذا** ، ولو كان الأمر على ما يزعم الزاعمون أنها منامية ما كان لإنكار قريش

(١) مجلة الأزهر — العدد التاسع — المجلد الأول — رمضان ١٣٤٩
(٢) سورة الإسراء ، الآية (١)
(٣) سورة الإسراء ، من الآية ٦٠

إياها معنى ولا لسؤالهم رسول الله عن المسجد الأقصى وصفته ، بل عن عير لهم كانت فى طريق الشام للتجارة معنى معقول ، ولم يكن لافتتان بعضهم ورجوعه عن الإيمان سر مفهوم ، فإنى إذا قلت لك « رأيت فى منامى أنى ذهبت إلى الحج ورأيت هناك ما يراه النائم فى منامه » لم يكن من الآيات فى شىء ولا من الاستبعاد والإنكار فى كثير ولا قليل .

فإذن لا يمكن أن تكون مناقشة قريش للنبى — صلى الله عليه وسلم — ولا رجوع من رجع منهم عن إيمانه إلا إذا كانت دعواه عليه السلام أنه ذهب إلى بيت المقدس بجسده لا بروحه فقط ثم عاد إلى مكة قبل طلوع الفجر ، ولذلك كانوا يقولون له : نحن نضرب أكباد الابل إلى الشام شهرًا وأنت تزعم أنك ذهبت إلى بيت المقدس ورجعت إلى مكة فى ليلة واحدة ثم أصبحت بين أظهرنا ؟ !

أما التمسك بأن الرؤيا بالألف لا تكون إلا منامية فهو تمسك واه ، **فإنها** قد تكون لما فى اليقظة أيضًا كالرؤية بالتاء كما حققه العلماء ، على أن جعلها فتنة للناس كاف فى بيان المراد منها ، وإلا فلا معنى **لجعلها** فتنة على ما شرحنا .

وكذلك قوله تعالى فى سورة النجم : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)[1] إلى قوله : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)[1] ، فإن مثل **ذلك لا يقال فيما يكون مناما لدى من عنده أدنى ذوق سليم ؟ ؟**

هذا ومن اطلع على أحاديث الإسراء والمعراج لم يشك فى أن ذلك **كان يقظة لا مناماً** .

(١) سورة النجم ، الآية ١٤ ، ١٧

وأما الكلام على ذلك من حيث إمكانه وعدم مصادمته لشىء من النواميس الطبيعية التى يستندون إليها ويتبجحون بها ، فسنفرد له مقالًا خاصًّا — إن شاء الله تعالى — .

وكثير من الناس من لا يفرق بين الاستبعاد المبنى على عدم الإلف والعادة ، وبين الاستحالة العقلية ، لكونهم لم يرتاضوا بالمنطق وصناعة البرهان ، ولم يزاولوا من العلم إلا ما ضرره أقرب من نفعه ، وخطؤه أدنى من صوابه ، وسنفيض القول فى ذلك بعد فى عدد آخر — إن شاء الله — ويكفى ذلك الآن ، ولنتفرغ لغيره .

كرامات الأولياء

س : هل لنا أن نعتقد أن المدفونين فى الأضرحة أولياء « وأن نصدق ما نسمع من الملأ عن الآيات التى أظهروها فى حياتهم من مدة ٦٠٠ سنة أو أكثر أو أقل » . « وأرجو أن ترسموا لنا حداً يبين لنا الولى وغيره » . وهل للأولياء شفاعة عند الله بمعنى أنهم يقومون بدور رجاء؟ وهل يقبل الله رجاءهم على أنه قال تبارك وتعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[٢] ؟ » .

وجاءنا مثله أيضا .

ج : الولى هو العارف بالله وصفاته ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات وان كانت من المباحات ، هكذا عرفوه ، ولا داعى للاطالة فيه ، ويكفينا قول الله تعالى فى بيان الأولياء (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[٣] .

أو نقول : هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، أو نقول : هم الذين أشار اليهم قوله تعالى : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ)[٤] .

---

(١) مجلة الأزهر — العدد العاشر — المجلد الأول — شوال سنة ١٣٤٩
(٢) سورة ق ، الآية ١٦ (٣) سورة يونس ، الآية ٦٣
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧٧

أما الكرامات فهى جائزة لاشك فيها، وقد تواترت فى المعنى — وان كانت التفاصيل آحادا — كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الصالحين وهى ثابتة بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة كما ستقف عليه . ولاينكرها الا أهل البدع، وليس إنكارهم إياها بعجيب منهم ، فإنهم كما قال بعض العلماء لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم ولم يسمعوا به من رؤسائهم مع اجتهادهم فى العبادات غير عالمين أن المسألة مسألة قلوب لا أبدان وصفاء أرواح لا تعب أشباح، وقوة يقين وتمكين لا شدة مجاهدات وكثرة عبادات «إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» . أخرجه مسلم .

وقد ثبت حديث «إنَّ بُدلاَءَ أُمَّتِى لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِكَثِيرِ صِيامٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَكِنْ بِسلَامَةِ الصُّدُورِ وسخَاوةِ الْأَنْفُسِ» .

وقد جاء فى الحديث المتفق عليه «إِنَّهُ سَيَكُونُ فِى الْأُمَّةِ أَقْوامٌ يَحْقِرُ أَصْحابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ صَلاَتَهُمْ وصِيامَهُمْ فِى جَنْبِ صَلاَتِهِمْ وصِيامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» .

نقول : إن الكرامات منح إلهية يعطيها الله من يشاء ويمنعها من يشاء، ولافرق بين العطايا الحسية والعطايا المعنوية ولا بين الأرزاق الجسمانية التى قال الله فيها : (نَحْنُ قَسَمْنَا بيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحياةِ الدُّنْيا)[1] . ولابين المواهب الروحية التى قال فيها : (يَخْتَصُّ

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٢

بِرَحْمتِهِ من يَشَاءُ)[1] . فسبحان من قسم الحظوظ فى البابين ومنح ماشاء من شاء من الفريقين ، فكما أن الناس متفاوتون فى الصحة الجسمية هم أيضا متفاوتون فى الصحة الروحية، ولذلك تفاوتوا فى الآخرة كما تفاوتوا فى الدنيا أو أشد (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بعْضَهُمْ عَلَى بعْض ولَلْآخِرةُ أَكْبَرُ درجاتٍ وأَكْبرُ تَفْضِيلاً)[2] .

ولنقرب لك الأمر تمام التقريب حتى يكون على طرف الثمام ، فقد كثر فيه القيل والقال جموداً على الرأى وتعصباً للهوى فنقول : إن الفاعل هو الله لا الولى ولا النبى ، ولكنه يكرم من يشاء بما شاء وهو على كل شيء قدير ، فأى مانع من أن يخرق الله العادة إكراماً لبعض عباده الصالحين حياً كان أو ميتا ، فيرزقه رغيفاً فى مفازة أو شربة ماء فى صحراء أو يكرم زائريه ومحبيه ، مثل مافعل بسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضل الطريق ، فتعرض له الأسد فقال له : أنا سفينة مولى رسول الله ،فبصبص له وسار بجانبه يهديه الطريق :

ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأسد فى آجامها تجم

إلى آخر ما ورد عن الصحابة وغيرهم وستسمع شيئاً منه ، وأى قيمة لذلك بجانب ما أعطاهم الله من شرف معرفته ومحبته والقرب منه ، حتى قال فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى : «مَنْ عَادَى لِى وَلِياً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» . إلى أن قال : «وَلَايَزَالُ عَبْدِى

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧٤
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢١

يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ » الخ .

فانظر إلى قوله : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ؛ وإلى قوله كنت سمعه وبصره ، فالى أى حد تكون منزلة ذلك الولى عند الله تعالى حتى يحارب من يعاديه ؛ وكيف يكون بصره الذى استضاء بنور معرفته عز وجل ، وإلى ماذا يصل سمعه الذى له ذلك الشرف الأعلى .

ولاغرو فمعاملة الله تعالى تأتى بالعجائب والغرائب وهو الرحيم الودود ، رزقنا الله الأدب معه والتوكل عليه .

وانظر إلى قوله تعالى : (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[1] وقوله فى الحديث القدسى : «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا » . إلى آخر الحديث . وقوله عز وجل فى الحديث القدسى أيضا «مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى . فَيَقُولُ الْعَبْدُ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ مَرِضَ عَبْدِى فُلَانٌ فَلَمْ تَعُدْهُ وَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ » إلى آخر الحديث .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَايُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » ولم يفرق بين شىء وشىء ، وانى ألفت نظرك إلى تلك المنزلة السامية التى كادت تخرجه من ذل العبودية وجعلته يقسم على الله قسما يستتبع الإجابة . وهذا يشبه قوله تعالى : (لَهُم مَّايَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ)[2] .

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٩٦
(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٤ ،

فهل بعد ذلك التنزل الإلهى والعطف الربانى الذى سمعته يستبعد أن يخرق لهم العادات أو يمن عليهم بماشاء من الكرامات . فلا بدع أن يكون دعاؤهم أقرب إلى الإجابة من دعائك لأن منزلتهم عنده أعظم من منزلتك .

أما قوله : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[1] ، الذى اشتبه على السائل فهو وصفه لا وصفنا ، فانه يعلم مخلوقاته كلها على السواء لاتفاوت بينها فى علمه واحاطته ؛ ولكن هناك تفاوت كبير بين منازل عباده قربا وبعدا بحسب انقيادهم له وإقبالهم عليه ومحبتهم اياه أو انصرافهم عنه وإقبالهم على غيره .

«ولست فى حاجة أن أعرفك أن القرب معنوى والبعد كذلك فإن الله متعال عن قرب المسافات وبعدها » .

ومن ذا يستطيع أن يقول إن للفاسق من القرب وحسن المعاملة من الله ما للصالح المطيع (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)[2] .

ولنذكر لك شيئا مما جاء فى القرآن والسنة مما يفيد الوقوع فضلا عن الامكان فنقول :

١ ـ قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم فى النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، وانه تعالى كان يعصمهم من

(١) سورة ق ، الآية ١٦
(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢١

حر الشمس كما قال : (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ)[1] . إلى أن قال : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)[2] إلى أن قال : (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)[3] .

٢ — قصة مريم وحملها بعيسى عليه السلام من غير أب على ماقصه الله علينا فى الآيات العديدة .

٣ — إثمار الجذع اليابس الذى أمرها الله بهزه وعرفها أنها ستجد منه مالم يكن لها فى حسبان .

٤ — ماقص الله علينا من أن زكريا عليه السلام كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله .

٥ — ماقص الله علينا من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار على يد الخضر الذى علمه الله من لدنه علما على ماهو مبين بالتفصيل فى سورة الكهف ، وهى ثلاث كرامات ، ولكن نسامحك فى أن تعدها واحدة «وليس الخضر نبياً على الصحيح» .

٦ — قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام ، على ما قاله جمهور المفسرين فى قوله تعالى : (قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَٰبِ

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٨

(٣) سورة الكهف ، الآية ٢٥

أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)[1] . فجاء بعرش بلقيس من اليمن قبل ارتداد الطرف .

وأما السنة الصحيحة فقد جاء فيها شيء كثير من هذا :

أولا — قصة جريج العابد .

ثانيا — قصة الغلام الذى تكلم فى المهد .

ثالثا — قصة عباد بن بشر وأسيد بن حضير .

رابعا — قصة أبى بكر مع أضيافه .

خامسا — كرامة خبيب بمكة .

سادسا — كرامة عمر بن الخطاب وهو على منبر المدينة . فهذه ستة براهين من كتب السنة الصحيحة ومثلها من القرآن العزيز ، وماذا يقول القائلون بعد الكتاب والسنة . ولنذكر لك ما أشرنا إليه :

أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِى الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلَاثَةٌ : عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَبِىٌّ فِى زَمَنِ جُرَيْجٍ النَّاسِكِ ، وَصَبِى آخَرُ ، أَمَّا عِيسَى فَقَدْ عَرَفْتُمُوهُ ، وَأَمَّا جُرَيْجٌ فَكَانَ رَجُلاً عَابِداً بِبَنِى إِسَرَائِيلَ وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ فَكَانَ يَوماً يُصَلِّى إِذْ اشْتَاقَتْ إِلِيهِ أُمُّهُ ، فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ : فَقَالَ يَارَبِّ الصَّلاةُ خَيْرٌ أَمْ أُمِّى ثُمَّ صَلَّى ، فَدَعَتْهُ ثَانِيًا فَقَالَ

(١) سورة النحل ، الآية ٤٠

مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ وَكَانَ يُصَلِّي وَيَدَعُهَا ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أُمِّهِ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لاتُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ ، وَكَانَتْ زَانِيَةٌ هُنَاكَ فَقَالَتْ لَهُمْ : أَنَا أَفْتِنُ جُرَيْجًا حَتَّى يَزْنِيَ ، فَأَتَتْهُ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ ، وَكَانَ هُنَاكَ رَاعٍ يَأْوِي بِاللَّيْلِ إِلَى أَصْلِ صَوْمعتِهِ فَلَمَّا أَعْيَاهَا رَاوَدَتْ الرَّاعِيَ عَنْ نَفْسِهَا فَأَتَاهَا فَوَلَدَتْ ثُمَّ قَالَتْ : هَذَا وَلَدِي مِنْ جُرَيْجٍ ، فَأَتَاهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ ، فَصَلَّى وَدَعَا ثُمَّ نَخَسَ الْغُلَامَ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ حينَ قَالَ بيَدِه : يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ ؟ فَقَالَ : الرَّاعِي ، فَنَدِمَ الْقَوْمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِن ذهب أَو فِضَّةٍ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ وَبَنَاهَا كَمَا كَانَتْ ، وَأَمَّا الصَّبِيُّ الآخَرُ فَإِنَّ امْرَأَةً كَانَ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا تُرْضِعُهُ إِذْ مَرَّ بِهَا شَابٌّ جَمِيلٌ ذُو شارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا . فَقَالَ الصَّبِيُّ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، ثُمَّ مَرَّتْ بِهَا امْرَأَةٌ ذَكَرُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ وَزَنَتْ فَقَالَتْ : اللَّهُمَ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هذِهِ ، فَقَالَ الصَّبِيُّ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا . فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّ الشَّابَّ كَانَ جَبَّاراً مِنَ الْجَبَابِرَة فَكَرِهْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ ، وَإِنَّ هَذه قيلَ إِنَّهَا زَنَتْ وَلَمْ تَزْنِ وَقيلَ إِنَّهَا سَرَقَتْ وَلَمْ تَسْرِقْ وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللهُ » .

وأخرج الحاكم وصححه البيهقى وأبو نعيم وابن سعد وهو فى البخارى من غير تسمية الرجلين « أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ وَعَبَّادَ بْنَ بِشر رَضِيَ اللهُ

عَنْهُمَا كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَة حَتَّى ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةٌ وَهِيَ لَيْلَةٌ شَدِيدَةُ الظُّلْمَةِ ، خَرَجَا وَبِيدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَصًا فَأَضَاءَتْ لَهُمَا عَصَا أَحَدِهِمَا فَمَشَيَا فِي ضَوْئِها حَتَّى إِذَا افْتَرَقَتْ بِهِمَا الطَّرِيقُ أَضَاءَتْ لِلْآخَرِ عَصَاهُ فَمَشَى كُلُّ وَاحِد مِنْهُمَا فِي ضَوْءِ عَصَاهُ حَتَّى بَلَغَ أَهْلَهُ » .

وأخرج البخارى « أَنَّ خُبَيْبًا كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ بَنِي الحَارِثِ بِمَكَّةَ » فى قصة طويلة ومنها « أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ كَانَتْ تَقُولُ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ فَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَب وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذ ثَمَرَةٌ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقًا رَزَقَهُ اللهُ » .

وأخرج البخارى أيضًا « إِنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ عِنْدَهُ أَضْيَافٌ فَقَدَّمَ لَهُمْ الطَّعَامَ ، فَكُلَّمَا أَكَلُوا مِنْهُ رَبا مِنْ أَسْفَلِهِ حَتَّى إِذَا شَبِعُوا قَالَ لِامْرَأَتِهِ يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا ؟ قَالَتْ وَقُرَّةِ عَيْنِي لَهِيَ – تَعْنِي الْقَصْعَةَ – أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَأْكُلُوا » إلى آخر القصة .

وقد صح أن عمر بن الخطاب كان له جيش (بنهاوند) من بلاد العجم وكان سارية رضى الله عنه أميرًا عليهم ، وكان للعدو كمين فى أصل الجبل لا يعلم به جيش المسلمين . فنادى عمر وهو على المنبر يخطب الناس يوم الجمعة « يَا سَارِيَةُ : الجَبَلَ الجَبَلَ » فَسَمِعُوا صَوْتَهُ بِنَهَاوَنْد وَنَجَّاهُمْ اللهُ تَعَالَى بِبَرَكَتِهِ ، وفى ذلك كرامتان : الكشف عن حالة الجيش وحال العدو ، ووصول صوته من المدينة إلى نهاوند .

وأخرج الترمذى : أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ ضَرَبَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَسَمِعَ مِنْ دَاخِلِ القَبْرِ رَجُلًا يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ (المُلْكُ) فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ : (هِيَ المَانِعَةُ ، هِيَ المُنْجِيَةُ تُنَجِّي مِنْ عَذَابِ القَبْرِ) إلى غير ذلك وهو كثير .

وقبل الختام لا بد أن نقول إنه لا فرق عندنا بين الحى والميت حيث إن الله هو الفاعل لا الحى ولا الميت ، ولا فرق فى فعله تعالى بين أن يتولاه هـو إكرامًا لوليه من غير أن يكون للولى دخل فيه أو علم به وبين أن يجريه على يديه أو يقوى روحه حتى تفعل مالا يستطيع غيرها كما يقوى بعض الأجسام فيكون له من الأثر ما ليس لغيره ، ولا فرق فى التحقيق بين أن يفعل لك أو يفعل بك فإنه الفاعل على كل حال .

على أن الأرواح بينها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فلا يصح أن تقاس الروح الضعيفة على الروح القوية ولا الروح الحرة على الروح النذلة ، ولكل مرتبة من مراتب الأرواح خصائص تناسب تلك المرتبة .

وللأرواح من القوانين ما يباين قوانين الأجسام ، ولذلك ترى الحاسد يؤثر فى المحسود من بُعْدٍ ، مع أن القوانين المادية تقضى بعدم التأثير إلا إذا حصلت مجاورة أو مماسة .

ثم نقول إن الأرواح إذا صفت صح أن تطّلع على الغيب لأنها من عالم الملكوت .

فأى بُعد بعد هذا فيما ينسب للكاملين من أولياء الله المقربين الذين أرواحهم أكمل الأرواح وأقواها ، ولهم من عناية الله وفيضه ما ليس لغيرهم ؟ ؟

وقبل إلقاء القلم لا بد أن نقول إن كثيرًا من الناس كاذبون فى دعوى الولاية مفترون على الله فيها ولكن هذا لا يضر الموضوع شيئًا ، فكل طائفة فيها الصادق والكاذب سنة الله ولن تجد لسنته تبديلًا .

وقد عرفناك الولى بصفاته الجميلة ونعوته الجليلة ، أما التطبيق فنكله إليك ونلقى تبعته عليك .

ويكفى هذا اليوم وربما عدنا للموضوع مرة أخرى إذا أراد الله .

ذكر قصص الأنبياء في القرآن[1]

(١)

قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[٢] .

يقول تعالى : إنه يقص علينا قصص الأنبياء وما كان منهم وما حصل لهم لنعتبر بما فيها من حكم جليلة ، وفوائد رفيعة ، وتعليمات إلهية ، وإرشادات ربانية ، تنير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة فى الدارين ، بحيث تكون للناس نبراسًا يستضيئون به فى كلتا الحياتين ، وقد قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٣] أى لا يخافون من أمر مستقبل ولا يحزنون على أمر فائت .

فطوبى لمن يتلو القرآن حق تلاوته ، ويتدبر ما فيه حق تدبره ، ولا يهذه[٤] هذ الشعر أو ينثره نثر الدقل ، فمثل هذا نصيبه منه قليل ، وحظه من معين علمه ضئيل ، وأن للقرآن ظهرًا وبطنًا ، وقد اغترف من بحاره العلماء كلٌ على قدر ما آتاه الله ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسراره ما ابتهج به علماء الاجتماع ، ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق :

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثالث ، المجلد الثالث – ربيع الأول ١٣٥١ هـ

(٢) سورة يوسف ، من الآية ١١١

(٣) سورة البقرة ، الآية ٣٨

(٤) الهذ والهذاذ : بفتح الهاء سرعة القراءة ، والدقل : الردئ من التمر أو النخل الذى لا يعرف له جنس . وأصل هذا ما ورد فى حديث ابن مسعود حذيفة فى القراءة (هذا كهذ الشعر ونثرا كنثر الدقل) أى كما يتساقط الرطب اليابس من العذق اذا هز .

ولا غرو فهو الكتاب الذى لا تخلق جدته ، ولا تنقضى عجائبه (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[١] وهو الصراط المستقيم الذى ارتفع به سلف الأمة إلى أوج العز والفخار ؛ فكانوا أرفع الأمم على الإطلاق ، وأعزها على الإطلاق ، بما أفادهم من تعاليم أورثتهم عزة الملوك وطهارة الملائكة (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[٢] فكانوا يخشون الله ولا يخشون أحدًا سواه ، مطهرين من أدناس الدنايا التى تسقط الأمم وتذل الشعوب ، متحابين فيما بينهم على مقتضى ما رسم لهم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[٣] .

فما أشبههم بأهل الجنة فى الجنة ، نزع ما فى صدورهم من غل ، قائلين دائمًا : (وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[٤] مشفقين من أنفسهم ، عالمين أنها أمارة بالسوء ، ذاكرين قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[٥] .

وقد أخبرنا عز وجل أن الناس مختلفون جد الاختلاف فى فهم القرآن على حسب استعدادهم – والإمداد على قدر الاستعداد – فقال : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)[٦]

---

(١) سورة محمد ، الآية ٢٤

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٤) سورة الحشر ، الآية ١٠

(٥) سورة النازعات ، الآية ٤٠

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٦

وقال : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) (١) .

وإن من النفوس ما لا تعرف إلا الشر ولا تفهم إلا الشر ، فهى تقلب كل شىء إليه ، كالإناء الخبيث الذى اتخذ من معدن خبيث ، فإنه يقلب كل ما يوضع فيه من الماء الصافى إلى طبعه الخبيث ، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون .

ولنقص عليك شيئاً مما تضمنته قصة آدم عليه السلام مما ستعلم أنه يكفل سعادة الدنيا والآخرة لمن عرفه وتمسك بما فيه ، وكأن الله يشير إلى ذلك بقوله :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (٢) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم .

ثم نتلو عليك بعد ذلك بعض ما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من حكم جليلة وأسرار نبيلة ، فنقول وبالله التوفيق :

مايؤخذ من قصة آدم عليه السلام من الفوائد والاشارات على طريق الإيجاز :

١ — يوخذ من اعلامكم أيها العقلاء بتلك القصة وجعل الله إياكم خلفاء فى الأرض أن الله تعالى ماعرّفكم أنكم خلفاء عنه الا لتعرفوا

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٤
(٢) سورة يوسف الآية ١١١

مافيكم من الاستعداد العظيم ، حتى تعملوا بمقتضى تلك الخلافة ، فتهيئوا أنفسكم لهذا المنصب الشريف وتحكموا بالعدل ، فلا تفسدوا فى الأرض ، ولا تسفكوا الدماء ، فإن ذلك كان مظنوناً فيكم ، ومترقباً منكم ، فلا تحققوا ذلك الظن .

٢ — يؤخذ من عرض الله تعالى على الملائكة مايريد أن يحدثه فى الأرض ، وما كان منهم معه تعالى من المحاورة والمقاولة أن من الحكمة استخراج ماهو كامن فى النفوس حتى لايكون فيها اعتراض ولا منازعة خفية ، وهو ضرب من سياسة الحاكم مع المحكومين ، وفن من فنون تربيتهم واصلاحهم .

٣ — يؤخذ من محاورة آدم عليه السلام مع الملائكة وعرض الأشياء عليهم وسؤالهم عنها سؤالا يعرفهم أن دعواهم تفوقهم على من عداهم من المخلوقات دعوى غير صحيحة ، أنه لابد من البرهنة على الدعوى ولو كانت من أكبر كبير ، حتى تتملك العقول بالحق لا بالاستبداد الذى تبقى الشبهة فيه كالنار خلل الرماد يوشك أن يكون له ضرام .

٤ — يؤخذ من كونه تعالى علم آدم الأسماء كلها ولم يعلمها الملائكة أننا معشر بنى آدم مستعدون لما هو أعلى من متناول الملائكة ، وليعلم أن الملك ليس له إلا وجهة واحدة ، فليس مستعداً إلا لأن يكون مظهراً لبعض آثار الأسماء الالهية أما الإنسان فهو مستعد لأن يكون مجلى لجميع الآثار وظهور جميع الأسرار ، فهو صالح للمتقابلات ومستعد لجميع المتضادات ، فهو أعلى المظاهر التى تتجلى فيها آثار الأسماء

الإلهية ، وأنوار الصفات الربانية ، وما من شيء فى هذه العوالم السفلية والعلوية على اختلاف أنواعها واتساع أصنافها إلا وفيك نموذج منه ، ولسان فصيح يعبر عنه . ومما ينسب للإمام علىّ كرم الله تعالى وجهه قوله :

دواؤك فيك وما تشعر   وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ولهذا شرح طويل لا يمكننا أن نأتى عليه اليوم .

٥ — نستنبط من قوله تعالى : (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ)[1] ، أنه ينبغى لمن يريد إقامة الحجة على خصمه أن يأتى له بما يفيده اليقين بحيث تمتلىء به نفسه ، حتى يصل الأمر عنده إلى حد المحسوس الذى لامرية فيه .

٦ — يؤخذ من قوله تعالى : (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)[2] أنه يجب الاعتذار لصاحب الحق ، ويتحتم الشكر لصاحب النعمة ، فإنهم ماسجدوا لآدم عليه السلام إلا شكراً لتعليمه إياهم مالم يعلموا ، واعترافاً بفضله عليهم وارتفاع مقامه على مقامهم .

٧ — يؤخذ من قوله تعالى : (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ)[3] أن الكبر أساس المفاسد كلها ، وموجب لاقتراف ما يستلزم الهلاك الأبدى ، ويفوت أعظم السعادات ، ويجلب أكبر الآفات ، ويجر صاحبه إلى رد الحق مهما كان قائله ، ويبين أن الرجوع

(١) سورة البقرة ، الآية ٣١
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١١
(٣) سورة البقرة ، الآية ٣٤

إلى القياس والأنظار العقلية كقول إبليس : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قد يكون سبباً للضلال ، وموجباً لغاية الخبال ، والواجب ترك ذلك مع من يجب طاعته والتسليم له ، وأن ذلك لم ينشأ إلا من عدم الاعتراف لله تعالى بالحكمة والعظمة وسعة العلم ، فضلاً عن كونه قادحا فى المحبة التى تقتضى الإذعان وعدم السؤال .

٨ — ويؤخذ من قوله تعالى : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)[1] أن فيك غريزة من الحرص لا تدع شيئاً إلا أتت عليه ، فإما أن تنسيك أو تطغيك ، مع بيان أن الشيطان لا يتمكن منك إلا بواسطتها ، فيتحتم عليك ملاحظتها وتقويم اعوجاجها ، والاحتراس منها .

٩ — يؤخذ من محاورة الشيطان لآدم وحواء واحتياله عليهما بقوله : (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)[2] ولم يكفه ذلك القول حتى أقسم لهما عليه أنه لمن الناصحين ، ويؤخذ من ذلك كله أن لكم عدواً لا يألو جهداً فى الكيد لكم ، والاحتيال عليكم ، حتى تهلكوا كما هلك ، وقد أقسم ليغوينكم أجمعين ، وليأتينكم من بين أيديكم ومن خلفكم ، وعن أيمانكم وعن شمائلكم (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[3] ولذلك كله ختم الله كتابه العزيز بالاستعاذة

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٦
(٢) سورة الأعراف ، الآية ٢٠
(٣) سورة فاطر ، الآية ٦

من ذلك العدو المبين ، الذى يؤثر فيك من حيث لا تشعر ، ويأتيك من حيث لا تعلم ، ويعرف موضع الضعف منك ، فأمرك أن تستعيذ بربك الملك العظيم ، والإله الذى هو فوق الملوك ، من شر ذلك الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ، فإن من وقى شره فقد وقى الشر كله ونال الخير كله .

ولعل نفسك التى بين جنبيك أول من يدخل فى الموسوس من الناس أو هى المرادة منهم ، فإنها أعدى أعدائك ، وما أرسل الأنبياء جميعاً إلا لتخليص الناس من شر النفس والشيطان ، فهذا هو الغاية القصوى من جميع الشرائع والغرض الأسمى من كل ما جاء به الأنبياء ؛ فالخلوص منهما هو السعادة الكبرى لمن فاز به فى الدنيا والآخرة ؛ فكأنه تعالى أرشدك فى آخر كتابه إلى فذلكة ما فى القرآن كله ، وخلاصة ماتضمنته آياته ، فهو النتيجة المختصرة ، والغاية التى ليس وراءها غاية ، وهو الحقيقة التى ترمى إليها جميع العلوم ، والزبدة التى تمخضت عنها جميع الفهوم ، فهى نتيجة تغنيك عما امتلأت به كتب الأولين والآخرين من علم العلماء وحكمة الحكماء .

هذا ولعله يرشدك إلى أن المراد من الناس قبل كل شئ هو نفسك التى بين جنبيك ، أو أنها تدخل فى الناس دخولاً أولياً . إن الوسوسة تعتمد الخفاء وليس أخفى من وسوسة النفوس فى الصدور ، أما تأثير شياطين الإنس فلا ننكره ، ولكنه بعيد عن معنى الوسوسة بعداً ما ، وإن كان مما يصل إلى القلوب فى لطف وخفاء ، وقد جرت المناسبة لهذا ، ولعله مفيد فى الموضوع أو غير بعيد منه .

١٠ ـ بيان أن من اقترف ذنباً فله طريق إلى الخلاص منه بالتوبة ، والإرشاد إلى ما تداوون به أنفسكم مما عسى أن يكون منكم بمقتضى تلك الغريزة ، وأن الحكمة فى أن تتداركوا الخطأ الذى ربما وقعتم فيه بموجب الجبلة البشرية ، لا فى أن تستسلموا لليأس من روح الله ، فإنه لاييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون .

١١ ـ بيان أن الانتباه بعد الخطأ واليقظة بعد الغفلة ربما كان مسبباً فى بلوغ الدرجات العلا والترقى الباهر ، فإن آدم بعد ماكان منه أدام الملاحظة لجلال ربه والاحتراس من عدوه ومراقبته نفسه ، بعد ماعرف أن هناك عقوبات مقررة وسنناً لاتتبدل ، عرف بها من كمال الآلهية وجلالها وحكمتها وعظمتها مالم يكن يعلمه قبل ، شأن من تربى فى النعمة التى لايتأتى أن تكون معها المعرفة الصحيحة ولا الرجولة التامة ولا الصبر والثبات ولا التطلع إلى الكمال ولا معرفة وجه المخرج من المضايق فالتجربة والمحنة والبلية أكبر المعلمين وأعظم المؤدبين ، ومن لم تهذبه نيران الامتحان لا يثبت أمام حوادث الحدثان ، بل يندرج فى سلك النساء والصبيان .

١٢ ـ بيان أن السعادة والفوز والفلاح والأمن من الخوف ليس له إلا طريق واحد (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[١] واتباع الناس والنفس يضل عن سبيل الله ، فان الإنسان ظلوم جهول (وإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)[٢] فإنهم إنما

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٨

(٢) سورة الانعام ، الآية ١١٦

يتبعون الظن ، والأنبياء أعلم والله أرحم وأحكم (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)[١] .

١٣ – ويؤخذ من القصة بعد ذلك أن من السنن الإلّهية الامتحان ، وهو ضرب من ضروب الترقية ، وفيه أيضا إزالة طغيان النفس التى ترجع بصاحبها إلى غاية النقص بعد غاية الكمال .

وبعد فلتعلم أن الأخلاق الذميمة كلها ترجع إلى الكبر والحسد والحرص ، وسنفصل ذلك ، وهذه الثلاثة التى هى جماع الشرور وأصول المفاسد ومثار الشقاء والبلاء مأخوذة من هذه القصة (قصة آدم عليه السلام)فكأن الحق سبحانه وتعالى يكررها عليك المرة بعد المرة تحريراً لك من هذه الخصال الذميمة ، وتذكيراً إياك بما ينشأ عنها . أما الحرص الداخل فى تكوينك الآخذ بمجامع قلبك وهو فى أصل جبلتك وعنصر من عناصر طينتك فقد نبهك عليه كى تحذره حذرك الأفاعى بما قص عليك من كونه أباح لآدم الجنة كلها إلا شجرة واحدة ، فأبى عليه حرصه الغريزى وتكوينه البشرى أن يدعها ويستغنى عنها بكل ماعداها .

وأما الكبر والحسد وما ترتب عليهما من الطرد الأبدى واللعن السرمدى لإبليس ، فقد بينهما بما قص علينا من قول إبليس : (أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)[٢] وقوله : (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)[٣] إلى آخر ماجاء فى

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١٥٣
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٦٢
(٣) سورة الإسراء ، من الآية ٦١

القصة مما يبين حسده البالغ ، وكبره الذى رد به أمر الله وطعن فى حكمته ، فأصبح من الكافرين ، واستوجب اللعنة إلى يوم الدين .

ويلتحق بذلك ماذكره الله فى قصة ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر إجابة لداعى الحسد ، وامتثالاً لغريزة الحرص اللذين هما سبب كل بلاء ، وأساس كل شقاء .

ولنفصل لك مايتفرع عن تلك الخصال الثلاث من شعبها الكثيرة التى أتت على سعادة الدنيا والآخرة ، ولولاها لكان الناس فى سرور وحبور فى هذه الحياة وتلك الحياة ، ولعلك لاتستطيل القول فنقول :

إن الأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول : الكبر ، والحرص ، والحسد ، فهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبائث والمعاصى . وبيان ذلك أن الكبر من آثاره التى تنشأ عنه عجب المرء برأى نفسه ، والأنفة عن قبول الحق ، وترك الإقرار به ، والتعدى على الغير ، والظلم والجور عند القدرة ، وترك الإنصاف فى المعاملة ، والتهاون فى الواجبات والإعراض عن أداء الحقوق ، والقحة وصلابة الوجه فى دفع الحق ، والفحش والسفاهة فى الخطاب ، والجدال واللجاج فى الخصومات ، والنزق فى العشرة ، والحدة والبطش فى التصرف ، واحتقار الناس والاستطالة عليهم ، والافتخار بما يزعمه من المواهب ، والإنكار لفضل من فضل عليه ، والبغى والعدوان وما شابه ذلك . هذه فروع الكبر ولوازمه .

أما الحرص وهو الخصلة الثانية ، فمن آثاره التى تترتب عليه الطمع الكاذب ، وشدة الرغبة ، والطلب الحثيث ، والعجلة فى السعى ، وتعب البدن ، وعناء النفس ، وكد الروح فى الجمع والادخار ، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر ، والبخل والمنع والشح ، والغش والمكر فى المعاملة ، واللؤم ، وما يتبعها من الشؤم والخذلان ، وقلة الانتفاع بالموجود ، والحرمان من المدخر ، والمضايقة فى المعاملة ، والمناقشة فى الحساب ، وسوء الظن بالأمين ، والتهمة للثقات المؤتمنين ، والخيانة فى الأمانة ، وطلب الحرام ، وهتك الحرم ، وارتكاب الفحشاء والكذب ، وكثرة الحيل فى البيع والشراء ، وقلة النصيحة ، واليمين الكاذبة ، وأقاويل الزور فى أسباب الخصومات ، والعداوة الناشئة من التعدى فى الحدود ، وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأعمال السيئة . هذه فروع الحرص ونتائجه .

أما الخصلة الثالثة وهى الحسد ، فمن آثاره الحقد والغل والدغل ، وهذه تدعو إلى المكاشفة بالعداوة والبغضاء ، والبغى والغضب ، والتعدى والعدوان ، وقساوة القلب وقلة الرحمة ، والفظاظة والغلظة ، والطعن واللغو والفحشاء .

وطالما كانت هذه الخصال سبباً للخصومة والشر والحرب والقتال إن أمكن جهراً ، وإلا كان بالحيل والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب والمداهنة والنفاق والرياء وتشتيت الشمل وقطيعة الرحم والبعد من الإخـوان ومفارقة الأليف

وخراب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن والغم ، وألم القلب وهموم النفس وعذاب الأرواح ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب وخسران الدنيا والاخرة ، نعوذ بالله من ذلك كله .

وبعد فنقول : ذكر علماء الأخلاق أن القوى التى هى منشأ الخير والشر ثلاثة : وهى القوة الغَضَبِيَّة ، والقوة الشهوية ، والقوة العقلية ، فأشير إلى القوة الغضبية بما كان من إبليس ، وإلى القوة الشهوية بما كان من آدم فى قربان الشجرة ، وإلى القوة العقلية بما كان من رجوعه إلى الله وتوبته ، إلى آخر ما أوجب له الاصطفاء والارتقاء ، ويلتحق بذلك تعليمه الأسماء كلها .

أليس من أعجب العجب أن تشتمل هذه القصة على علم الأخلاق بحذافيره إذ هو راجع بكل فروعه إلى هذه القوى الثلاثة كما هو معروف ولنقتصر اليوم على هذا .

ذكر قصص الأنبياء فى القرآن [١]

(٢)

قصة يوسف عليه السلام وما يؤخذ منها

(لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) [٢]

بيّنا فيما كتبناه فى قصة آدم عليه السلام أن الله يريد بما يقصه علينا من قصص الأنبياء أن نعتبر بما فيها من حكم جليلة وفوائد رفيعة وتعليم إلٓهى وإرشاد ربانى، ينير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة فى الدارين ، بحيث يكون للناس نبراسا يستضيئون به فى كلتا الحياتين ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسرار القرآن مما ابتهج به علماء الاجتماع ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق .

والقرآن هو الصراط المستقيم الذى ارتفع به سلف الأمة إلى أوج العز والفخار ، فكانوا أرفع الأمم وأعزها على الإطلاق بما أفادهم من تعاليم أورثتهم عزة الملوك وطهارة الملائكة .

ولنقص عليك اليوم شيئاً مما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من علم جم وحكمة عالية وسنن كونية وأسرار روحانية . ولتعلم أن الناس مختلفون جد الاختلاف فى فهم القرآن على حسب استعدادهم « والإمداد على قدر الاستعداد » وأن من النفوس من لايعرف الا الشر ولا يفهم إلا الشر ، فهى تقلب كل شئ إلى الشر كالإناء الخبيث الذى اتخذ من

(١) مجلة الأزهر — المجلد الثالث — شوال ١٣٥١
(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١

معدن خبيث فإنه يقلب كل مايوضع فيه من الماء الصافى إلى طبعه الخبيث (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [١] وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم ، وكأن الله يشير إلى ذلك بقوله: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم .

فوائد القصة ومايؤخذ منها :

١ – يؤخذ من عموم القصة بالإجمال أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم المثوبات ، وفى ذلك الحث على انتهاج سبيل المتوكلين والاقتداء بزهد الزاهدين ، والدلالة على الانقطاع إلى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد ، كما يؤخذ منها الكشف عن أحوال الخائنين وقبح طرائق الكاذبين ، وابتلاء الخواص بأنواع المحن ، وتبديلها بأنواع الألطاف والمنن ، مع ذكر مايدل على سياسة الملوك وحالهم مع رعيتهم ، إلى غير ذلك.

٢ – يؤخذ من قوله تعالى : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [٢] التنبيه على ماللأرواح الإنسانية من الاستعداد للاطلاع على عالم المغيبات وما يكون فى المستقبل بواسطة مالها من الصفاء الذاتى والفيض القدسى والإلهام الربانى .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ٤

وقد ذكروا أن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات ، فإذا قوى الحال تصير الرؤيا كشفا ، فيكون عليه السلام قد سلك به نحو ماسلك برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ – (قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)(١) :

يؤخذ منه أن الحسد متأصل فى الإنسان ، فهو غريزة لايكاد يخلص منها أحد حتى الصالحون ، وأن الشيطان واقف للإنسان بالمرصاد ، فمتى وجد نفسه تحركت بمقتضى غريزة من غرائز الشر تجده يخب ويضع ويسرع فى كل مايوقد النار ويجلب الدمار .

٤ – ثم نأخذ من القصة وما صنعوه من الكيد الذى تفننوا فيه وما كان بعد ذلك من العاقبة الحميدة ليوسف عليه السلام أن ماأبرمه الله تعالى لابد منه فقد ذهب كيدهم هباء ، وتم له من الرتب القعساء ماجعلهم يخضعون له خجلين معتذرين .

٥ – (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)(٢) يؤخذ منه عظيم احتيال الإنسان على ما يريد ، فأنهم جاءوا عشاء لئلا يظهر أنه تباك كاذب وليس بكاء حقيقيا ، فكانوا أجرأ فى الظلمة على الاعتذار لأبيهم ليوهموه أن ذلك بكاء حقيقى لاتباك ، فانهم لو جاءوا ضحى لافتضحوا . فلنحذر من أفراد نوع الإنسان الذى يتلون تلون الحرباء ، ويتفنن فى أنواع المكر والدهاء .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٦

٦ – يعلمنا قوله تعالى : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)(١) حكاية عن يعقوب عليه السلام أنه يلزم الإنسان السكون تحت مجارى الأقدار سرا وعلنا وإن فدح الخطب وعظم المصاب ، تسليماً لله وثقة بحكمته وخضوعاً لربوبيته .

٧ – (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)(٢) : يؤخذ منه وجوب اليقظة والاحتياط فى خلطة الرجال بالنساء ، ولزوم تنبه السادة لبيوتهم وخدمهم ، وفيه تنبيه على أن الخلطة غير مأمونة ، وأن من النساء من لايحفظن العهود ولو كان لزوجها من النعم عليها مايجعلها فى أكرم منزلة «إنهن يكفرن العشير» .

هذا ويؤخذ من امتناع يوسف عليه السلام وهو شاب له من قوة الشباب ما للشبان ، وأمامه امرأة حسناء مهدت له السبيل ، فغدت تطلبه لنفسها وتلح عليه وهى فى محل السيادة والعز ، وقد استعملت معه كل أنواع الترهيب والترغيب والوعد والوعيد ثم يمتنع منها ويفر هارباً إلى الباب – مايعرفنا مبلغ النفوس الشريفة من الطهر ورفعة الإحساس ، وما تثمره التقوى لذويها من مخافة الله فى الخلوات والجلوات ، ففى القصة حثنا على الاقتداء به عليه السلام ، وإرشادنا إلى الاحتياط فى أمر النساء ، وبيان مكرهن وكيدهن ، ووصول الأمر إلى غايته فيهن مهما كان حالهن .

فلا تحسباً هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨ ، ٨٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٣

وبعد : فمن الآثار السيئة للمدنية قلة الغيرة ، وقد كانت الحضارة فى مصر بالغة حدها ، فكان للنساء فيها شأن وخطر ، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل (نيتوكريس وغيرها) ، وكل أمة تساوى رجالها بنسائها فى جميع الشئون فلابد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولايقمن للرجال وزناً كبيرا ، فهذا من مساوئ المدنيات القديمة والحديثة ، حيث يسود الترف وينغمس أهلها فى الشهوات واللذائذ .

وإنك لتلحظ فى غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير الإسلامية أثرها الخبيث . فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم ، كما هو مشاهد الآن فى أولئك المقلدين للاوربيين بلا عقل ولا بصيرة .

الخلاصة :

وخلاصة المقام أن محبة الرجال للنساء والنساء للرجال أمر غريزى متغلغل فى طبيعة تكوين الفريقين ، لأمر اقتضته حكمة الحكيم العليم : من بقاء النوع ، وسوق كل منهما بذلك السائق القاهر إلى الازدواج ، وتحمل مايترتب على ذلك الازدواج من أثقال يطول شرحها وأعباء ينوء المرء الشديد بحملها ، ولا يكاد يضبط نفسه عند ثوران ذلك الميل الغريزى القوى السلطان إلا من عصم الله وقليل ماهم .

ولهــذا حرمت الشريعة الغراء خلوة الرجــل بالمرأة الأجنبية وسدت هذا الباب سدا محكما ، علماً منه تعالى بما جبلت عليه النفوس (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(١) .

(١) سورة الملك ، الآية ١٤

ومع هذا فلا ننكر أن أفاضل الرجال وفضليات النساء لا يستطيع سلطان ذلك الميل مهما كان قوياً أن يستعبدهم ، فالحكم لدى أرباب الكمال من الجنسين إنما هو للدين والعقل والآداب .

وانظر إلى السيدة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وما كان منها مع ذلك الجبار الذى أراد منها السوء فارتد خاسئاً يكاد يتميز من الغيظ ، وقد وهب لها السيدة هاجر إذعاناً بفضلها وكمالها .

وانظر إلى السيدة مريم حيث تقول : (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)(١) . وقد قالت السيدة هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان : « هذا شىء نستقبحه حلالاً أفنفعله حراما » ؟ فما أرفع ذلك الإحساس وما أرق ذلك الوجدان ! فكلامنا السابق إنما هو فى تقرير قواعد عامة نريد أن يأخذ بها الجمهور الذى ينقاد لسلطان النفوس ويخضع لسيطرة الشهوات .

وأما أولئك الذين تربوا فى حجر الآداب العالية والفضائل السامية وفى حمى الشريعة الغراء من أرباب العقول الكبيرة وذوى النفوس الفاضلة ، فهم فى محل الاستثناء من الرجال والنساء ، وكم من سيدة بذت الرجال ووصلت إلى محل الكمال حتى قيل :

ولو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال

٨ ــ يؤخذ من قوله (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)(٢) أن الإنسان لا يثق إلا بمن كان مراقباً لله عارفاً بالله خائفاً من الله ، وأما سواه فيجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى .

(١) سورة مريم ، الآية ١٨ (٢) سورة يوسف ، الآية ٢٤

٩ – (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ)[١] : يؤخذ منه أنه يجب الفرار من محل الخطر ومواطن الهلكة ، فلا يتريث ولا يقتصر على المدافعة النفسية وإقامة الأدلة النظرية والبراهين المنطقية ، فإن ذلك لا يفيد عند ثوران الشهوة الطبيعية واستحكام الأهواء البشرية ، فلابد من الفرار الحسى وعدم الاقتصار على الحوار النفسى .

١٠ – (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٢] إلى قوله (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)[٣] .

يؤخذ منه شـدة حرصهن على ما يردن من الرجـال واحتيالهن فى هذا الموضوع بكل ضروب الحيلة ، فإنهن إذا ابتلين بالحب أظهرن ما يعجز عنه إبليس ، مع مساعدة الطبيعة للميل إليهن ، وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن ، كما يشير إليه قوله تعالى (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)[٤] ، فما فى العالم فتنة أضر على الرجال من النساء ، فلنعرف ذلك ولنحذر منه .

١١ – (وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)[٥] : يؤخذ منه أن الإنسان قد يصل من المحبة إلى مقام لا يحس فيه بألم ، استغراقاً فى المحبة ، فلنحذر من تلك المحبة التى تصيرنا عبيدا ، ولنجتهد فى محبة الله ورسوله التى تصيرنا ملائكة أطهارا .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٥
(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٥
(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٨
(٤) سورة النساء ، الآية ١
(٥) سورة يوسف ، الآية ٣١

١٢ – (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ)[١] :

يعلمنا سبحانه وتعالى أن طريقة عباد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظيم أمر الله ، والتضحية بكل شيء فى سبيله ، ولو أدّى ذلك إلى السجن والهوان .

وقوله : (وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[٢] يغرس فينا ملكة الرجوع إلى الله فى كل شيء ، موقنين أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين بربهم وإحاطته التى لا يخرج عنها شيء .

١٣ – (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ)[٣] : يؤخذ منه أن أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنة لا تحت ظل العمل والسعى .

١٤ – (يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)[٤] :

دعوة للتوحيد على أتم وجه وأحسن أسلوب ، فعلينا أن نسلك ذلك فى الإرشاد والدعوة وإقامة الأدلة .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٣
(٣) سورة يوسف ، الآية ٣٨
(٤) سورة يوسف ، الآية ٣٩

١٥ – (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ : ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)(١) :

يعلمنا التأنى فى الأمور وعدم العجلة فيها مهما كان أمرها ، فإنه عليه السلام لم يحمله الفرح بطلب خروجه من السجن الذى لبث فيه بضع سنين أن يبادر إلى ذلك قبل أن تظهر براءته على أتم الوجوه حتى لا يكون هناك شك ولا ريبة .

١٦ – (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)(٢) :

إشارة إلى أن النفس بطبعها كثيرة الميل إلى الشهوات ، وقد قال بعضهم : النفس ظلمة كلها وسراجها التوفيق .

١٧ – وبعد : فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى ، وهى امتحان من يريد اصطفاءهم واجتباءهم حتى يخلصهم من وضر النفوس وظلمة الهوى الذى يضل عن سبيل الله وينحرف بهم عنه إلى ماسواه ، فإنه يريد منهم أن يلتجئوا إليه ولا يعولوا إلا عليه ، وقد قال بعض عشاق الجمال الطبيعى :

أبى القلب إلا حب ليلى فبغضت   إلىّ نساء ما لهن ذنوب

فما بالك بأولئك الروحانيين الذين محبتهم أرق وأصفى ، ومحبوبهم أعلى وأسمى ! وقد قالوا : إن النعيم الروحانى يفوق النعيم الجسمانى ، كما أن العذاب الروحانى أشق من العذاب الجسمانى ؛

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٠

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥٣

١٨ – (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)(١) :

يعلمنا أن الإنسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفزع إلى الكبير المتعال ، وألا يعول على شىء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عداه ، كما يشير إليه الإتيان بأداة الحصر ، فكل من انقطع إليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه ، وما أحسن قول بعضهم :

فإن رحالنا حطت رضاء   بحكمك عن حلول وارتحال

وقول الآخر :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة   تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا

١٩ – (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)(٢) : يعطينا درساً من مكارم الأخلاق ، فالكريم إذا قدر عفا والعذر عند كرام الناس مقبول قال بعض المحققين : من نظر إلى الخلق بعين الحق لم يعبأ بما يكون منهم ومن نظر إليهم بغير ذلك أفنى أيامه فى مخاصماتهم ، ألا ترى يوسف – عليه السلام – لما علم مجارى القضاء كيف عذر إخوته وقال : لا تثريب عليكم !

٢٠ – (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا)(٣)

يفيد أن أسرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفاً فيها على تلك

(١) سورة يوسف ، من الآية ٨٦

(٢) سورة يوسف ، من الآية ٩٢

(٣) سورة يوسف ، من الآية ٩٣

النواميس المادية التى قدسها الجاهلون ووقف عندها الجامدون ، وكيف يعلم ذلك أو يفهمه أولئك المتشدقون الواقفون عند الظواهر وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة والأرواح اللطيفة ، فهو يفتح لنا باباً من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

٢١ – (قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)[1] :

الأصفياء تارة يكشف لهم عن اللوح المحفوظ ، وتارة لا يعرفون ما تحت أقدامهم ، وانظر كيف وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة أيام ولم يجد ذلك عندما كان فى الجب وليس بينه وبينه الا ساعة من نهار ، لكن المسألة موقوفة على الإذن الالهى والحكمة الربانية .

٢٢ – (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى)[2] .

يعلمنا أنه ينبغى للداعى إلى الله تعالى أن يكون عارفاً بطريق الهدى وسبيل السعادة ، ونعرف من هذا حال اولئك الجاهلين المتشدقين الذين هم فى ضلالة مدلهمة ومهامه يحار فيها الخرّيت وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وربما عدنا إلى القصة مرة ثانية –إن شاء الله– فإن فيها عبرا وحكما تنفع فى الدين والدنيا ، لما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، وحسن التجاوز عنهم بعد القدرة عليهم ، وغير ذلك مما سمعت وستسمع .

---

(١) سورة يوسف ، من الآية ٩٤ (٢) سورة يوسف ، من الآية ١٠٨

٢٣ –وفيها فوق ذلك كله بيان كثير من الأسرار الروحانية التى لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة : منام يوسف عليه السلام ، ومنام صاحبى السجن ، ومنام الملك ، ومثل وجدان ريح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، وردّ بصر يعقوب بإلقاء القميص على وجهه .

وما أجدرها أن توصف بأنها سورة الروحانيات ، أو سورة الصبر والتقوى . ونرجو أن نوفق لبيان ذلك على ما نحب ويحب القارىء الكريم – إن شاء الله – .

حياة الأنبياء [1]
وحديث «حياتى خير لكم»

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا المحقق الشيخ يوسف الدجوى :

السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فعندنا جماعة متهوسون ينكرون حياة الأنبياء مستندين لقوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [2] كما يردون حديث « حَيَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ ويُحَدَّثُ لَكُمْ ، فَإِذَا مِتُّ كَانَتْ وَفَاتِى خَيْراً لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَىَّ أعمالُكُمْ فَإِنْ وَجَدْتُ خَيْراً حَمَدْتُ اللهَ وَإِنْ وَجدتُ شَرّاً اسْتَغْفَرتُ لَكُمْ »فنرجو من فضيلتكم تحقيق ذلك ولكم مزيد الشكر ، ورجاؤنا أن تفيضوا القول فى هذا الموضوع الخطير فإن الأمر جلل ، أدامك الله سيفاً للدين وقامعاً للملحدين .

عبد الرحمن محمد
مدرس بالمدارس الابتدائية

الجـواب

الأنبياء أحياءٌ فى قبورهم قطعا ، وهم أولى بذلك من الشهداء الذين وَرَدَ فيهم النص القرآنى فى قوله تعالى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرزَقُونَ) [3] بل الحياة ثابتة

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثانى المجلد الثالث — صفر ١٣٥١هـ
(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٠
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩

لجميع من فارق الدنيا ولو كفارا ، كما يدل عليه حديث أهل القليب الذى فى البخارى ، وجاء فى الصحيح أيضاً أن الميت بعد دفنه يسمع قرع نعال المشيعين ، وأن الروح تنادى حامل الجنازة ، وأنه يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان ، ولو سمعه لصعق.

وقد رآى صلى الله عليه وسلم فى ليلة الإسراء والمعراج موسى — عليه السلام — يصلى فى قبره ، كما رآه فى السماء السادسة وقد راجعه مراراً فى أمر الصلاة ، وقد وضع البيهقى رسالة فى حياة الأنبياء . وللسيوطى أيضاً رسالة تسمى : (إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء)

أما قوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتونَ) فمعناه أن روحك ستفارق بدنك وتدخل فى عالم آخر ، فلا تشتغل بتدبير الجسم ، ولا تسرى عليها أحكام هذا العالم ونواميسه ، وإلا فقد ثبتت حياة الأموات كلهم فضلاً عن الأنبياء كما قلنا ، وإن كانت الحياة مقولة بالتشكيك ، وبين درجاتها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله ، وها أنت ذا تشاهد فى هذا العالم من مراتب الحياة المتفاوتة بين أنواع الحيوانات وأصنافها إلى أن تصل إلى أعلاها ما يجعل الأمر لديك فى غاية الجلاء والوضوح .

ولنقص عليك شيئاً من أدلة حياة الأنبياء وكلام العلماء فى ذلك :

أما الكتاب فيكفيك منه الآيات المتعددة فى حياة الشهداء ، والإجماع على أن الأنبياء أرفع درجة من الشهداء . قال ابن حزم فى المحلى بعد ذكره الآيات الواردة فى حياة الشهداء ما نصه : ولا خلاف

بين المسلمين فى أن الأنبياء –عليهم السلام– أرفع قدراً ودرجة ، وأتم فضيلة عند الله عز وجل ، وأعلى كرامة من كل من دونهم ، ومن خالف فى هذا فليس مسلما اه .

وأما السنة ففيها شيء كثير من الأدلة على حياتهم ، فمن ذلك الحديث « الأَنْبِياءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصلونَ » رواه أبو يعلى والبيهقى من طرق متعددة من حديث أنس بن مالك ، قال المناوى فى شرح الجامع الصغير : رجاله ثقات وصححه البيهقى ا ه ومثل ذلك للحافظ السخاوى فى القول البديع ، ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقى فى (حياة الأنبياء) وبها يصير من الصحيح المتفق عليه .

ومنها حديث الإسراء الذى فيه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رأى موسى قائماً يصلى فى قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم . وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرطبي فى (التذكرة) وابن القيم فى (كتاب الروح) والحافظ السيوطى فى غير ما كتاب من كتبه ، على أن أحاديث حياة الأنبياء فى قبورهم متواترة ، قال السيوطى فى (مرقاة الصعود) : تواترت بها الأخبار ، وقال فى (إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء) ما نصه : حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – فى قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علماً قطعياً ، لما قام عندنا من الأدلة فى ذلك ، وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك . ا هـ .

وقال ابن القيم فى (كتاب الروح) نقلا عن أبي عبد الله القرطبي : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس

وفى السماء ، خصوصاً بموسى وقد أخبره بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا ردّ عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة ، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم .

وقد نقل كلام القرطبي هذا أيضاً ، وأورد الشيخ محمد السفاريني الحنبلي فى شرحه لعقيدة أهل السنة ، ونص عبارته : قال أبو عبد الله القرطبي قال شيخنا أحمد بن عمر إن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى غير الأنبياء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء ، خصوصاً بموسى عليه وعليهم السلام ، وقد أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنه من ما مسلم يسلم عليه إلا ردّ عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم . ا هـ .

ويحقق ما ذكره هؤلاء الأئمة من تواتر الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء أن حديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم واستغفاره لأمته ، وسلامه على من يسلم عليه ، ورد من نحو عشرين طريقاً ،

وحديث الإسراء ورد من طريق خمسة وأربعين صحابياً ، وقد نص الحاكم والحافظ السيوطى على أن حديث الإسراء متواتر .

قال بعضهم : لا شك أنه يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم حى على الدوام ، وذلك أنه محال عادة أن يخلوا الوجود كله من واحد يسلم عليه فى ليل أو نهار .

وبعد فنحن نؤمن أنه – صلى الله عليه وسلم – حى يرزق فى قبره ، وأن جسده الشريف لاتأكله الأرض ، والإجماع على هذا ، وزاد بعض العلماء «الشهداء والمؤذنين» وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا أنهم لم تتغير أجسامهم ، والأنبياء أفضل من الشهداء .

أما حديث : « حَيَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ » فهو صحيح محتج به فى هذا المقام وفى غيره بلا مرية . ولننقل لك ما قال المحدثون فيه فتقول : هذا الحديث رواه ابن سعد فى الطبقات من حديث بكر بن عبد الله المزنى مرسلاً بسند صحيح كما نص عليه غير واحد من الحفاظ ، وقال بعضهم : إنه حسن نظراً لإرساله ، وقد نازع بعضهم فى الاحتجاج به من حيث إرساله لا من حيث سنده ، ولكن فاته أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلاً أو موصولاً ولو ضعيفاً صار حجة عند جميع الطوائف من أهل الأصول والفقه والحديث ، كما نص عليه ابن الصلاح فى علوم الحديث والنووى فى التقريب وفى مقدمة شرح مسلم وغيرهما من كتبه وكذا الحافظ ابن حجر فى النخبة والعراقى فى الألفية والسخاوى وشيخ الإسلام زكريا فى شرحهما عليها والسيوطى فى ألفيته وفى شرحه لتقريب النووى .

إذا تقرر هذا عرف أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلاً أو مسنداً صحيحاً أو ضعيفاً كما صرحوا به كان حجة قطعاً . بل اشترط جمع من أهل الحديث والأصول كونه ضعيفاً لتقوم الحجة بالمجموع « المرسل والمسند » وإلا كان المسند الصحيح كافياً فى الاحتجاج .

ولتعلم أن هذا الحديث ورد من طريقين آخرين موصولين : أحدهما إسناده جيد والآخر ضعيف ؛ فالأول من حديث عبد الله بن مسعود أخرجه البزار ونص الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية على أن إسناده جيد ، وكذا الشهاب الخفاجى فى (شرح الشفا) على أن إسناده صحيح ، وكذا نص ملاّ على قارى فى شرح الشفا على أن إسناده صحيح .

والطريق الثانى للحديث المذكور عن أنس بن مالك كما عزاه له السخاوى فى القول البديع ، والسيوطى فى الجامع الصغير ؛ إلا أنه أورده مختصراً ؛ وقال المناوى : إن إسناده ضعيف . فلو لم يرد إلا حديث أنس الضعيف لكان مرسل بكر بن عبد الله المزنى حجة على رأى الجميع بانضمام حديث أنس إليه ، فكيف وقد انضم حديث ابن مسعود الصحيح إليهما ؟ .

بل نقول : عندنا فى الحديث ما هو أكبر من ذلك كله ، وهو أن الحديث متواتر تواترا معنويا لورود معناه من حديث جماعة من الصحابة يبلغ عددهم حد التواتر ، وهم عبد الله بن مسعود ، ولحديثه طرق تزيد على الخمسة ، وأنس بن مالك ولحديثه طرق تزيد على الستة ،

وأبوهريرة ولحديثه طرق تزيد على العشرة ، وعمار بن ياسر وأبو أمامة وعلى بن أبي طالب وابنه الحسن وابن عباس وأبو بكر الصديق وأوس ابن أوس الثقفى وأبو الدرداء وأبو مسعود البدرى الأنصارى وعمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر .

وروى مرسلاً عن جماعة من التابعين ؛ منهم بكر بن عبد الله المزنى والحسن البصرى وخالد بن معدان وابن شهاب الزهرى ويزيد الرقاشى وأيوب السختيانى ، وفى الباب غير المذكورين من الصحابة والتابعين .

وهذا القدر كاف فى إثبات التواتر خصوصاً على رأى من يثبته بسبعة أو عشرة ، وهو الذى رجحه الحافظ السيوطى فى ألفيته حيث قال :

وما رواه عـدد جم يجب … إحالة اجتماعهم على الكذب
فمتواتر وقوم حددوا … بعشرة وهو لدىّ أجود

ومشى عليه فى كتابه (الفوائد المتكاثرة) ومختصره (الأزهار المتناثرة) فحكم بتواتر أحاديث لا تزيد طرقها على العشرة ؛ وهناك من يكتفى فى التواتر بأقل من ذلك كما هو مبين بكتب الأصول وغيرها ، وقد ذكرنا لك ما يزيد على العشرين وقد حكم جماعة من الأقدمين بالتواتر فى الخمسة والأربعة ، ومنهم ابن حزم فى (المحلى) و (الأحكام) والطحاوى فى شرح معانى الآثار ، والقاضى أبو الطيب الطبرى وغيرهم .

أما حديثنا فمتواتر على جميع الاصطلاحات ، لوجود ما يزيد على العشرين فى كل طبقة من طبقات رواته ، ولسنا ندعى تواتر لفظ هذا الحديث بل تواتر معناه ، فإياك وتلبيس المغالطين أو غلط الجاهلين .

ثم نقول بعد هذا : إنه تقرر فى كتب الفقه والأصول والكلام أن منكر المتواتر بعد قيام الحجة عليه يكفر ، فإياك والإنكار أو الإصغاء لأولئك الجاهلين المتفيهقين ، فإنهم على شفا جرف هار .

وقد أطلنا فى هذا المقام ليقتنع أولئك الثرثارون ، أو ليحذرهم الناس ، وليعلموا أنهم على خطر عظيم ، وأنهم من أولئك الدعاة الواقفين على أبواب جهنم ، فمن أجابهم إليها قذفوه فيها ، كما فى الحديث الصحيح . أسأل الله أن يقينا شر الفتنة ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء [1]

جاءنا هذا السؤال من الموقعين أدناه ، ونصه بعد الديباجة :

« الذى نعتقده ونعتقد أن كل موحد صادق يعتقده أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، واليوم وقع فى يدنا (مجلة المنار) فوجدنا صاحبها يقول : إن أجساد الأنبياء تبلى ، ويجتهد فى تضعيف الحديث الوارد فى ذلك ، ولا يجب إعتقاد أن أجساد الأنبياء لا تبلى » ، ويقول : إن هذه المسألة من مسائل الإيمان بعالم الغيب ، فهى اعتقادية ، وما يجب اعتقاده والإيمان به لا يثبت إلا بالنصوص القطعية الرواية والدلالة ، وليس فيها نص ظنى راجح فضلاً عن القاطع ، ويقول : إنها من مسائل المناقب والفضائل التى يقبلون فيها الروايات الظنية ولا يأبون إثباتها بما دونها من الضعاف ، وبهذا النظر قبل بعض ما روى فيها وإن كان معلولا ، إلى أن يقول : إن التسليم بهذه الخرافات وعدم إنكار العلماء لها قد كان فتنة للعقلاء المستقلين ، منفرًا لهم عن الدين ، إلى أن يقول : وقد نبش بعض رجال الحكومة التركية اللادينية الحاضرة بعض قبور الأولياء المعتقدين ، عند العامة أمام الجماهير منهم فأروهم بأعينهم أنه ليس فيها إلا عظام نخرة .

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء السادس — المجلد الثالث — جمادى الآخرة سنة ١٣٥١

هذا ما قال ، فنرجو من فضيلتكم بيان الحق فى ذلك حتى نطمئن على عقيدتنا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الحميد محمد بيومى — أحمد سلمان عثمان التجانى

المدرس بمدرسة الزوامل — مدرس بمدرسة الكفر القديم

فوزى السيد خالد التجانى

مدرس

عبد الرحيم مصطفى التجانى — محمد محمد غالى التجانى وآخرين

مدرس بمدرسة الجوسق الالزامية — مدرس بمدرسة العدلية

الجـواب

أحضرنا المجلة المذكورة فقرأنا ما فيها خاصاً بذلك الموضوع ، وإن نرى قبل كل شىء أن نبين ما فى هذه المجلة من التناقض الذى يدل على الضعف العلمى وعدم الرسوخ فى القوانين المنطقية ، ثم المجازفات الشنيعة التى لا يقدم عليها محتاط لدينه ولا متثبت فى علمه ، فنقول :

قال الشيخ رشيد : إن هذه المسألة من المسائل الاعتقادية التى يجب أن تكون أدلتها قطعية ، ثم قال بعد ذلك : إنها من مسائل الفضائل التى يتساهلون فيها . وكفى بذلك تناقضاً وجهلا .

ثم نقول له ثانياً : إن الاعتقاديات التى يجب فيها القطع هى التى تكون من أصول الدين ، وليست كل مسألة غير عملية يلزم فيها القطع ، بدليل ما ذكرته أنت من أن الفضائل يتساهل فيها ، وليس معنى كون المسألة اعتقادية أن فيها اعتقاداً كما توهمه صاحب المنار ؛ فإن المسائل العملية نعتقد صحتها ووجوبها أو سنيتها . إلخ . ولا نقدم

على شيء من الأمور العملية إلا بعد أن نصدق بأنه شرع الله ورد به خطابه المتعلق بأفعال المكلفين ، وإذا لم نعتقد ذلك لم يكن حكماً شرعياً عندنا .

فإذاً لابد من الاعتقاد فى مسائل الحلال والحرام والفروع العمليه كلها ، كما أن من الاعتقاديات الاعتقاد بأن أبا بكر أفضل الصحابة مثلا ، وأنه أحق بالخلافة منهم ، وأن عمر أفضل من عثمان ، وأن المسجد الحرام أفضل من المسجد الأقصى . إلخ إلخ . . وهذه كلها لا عمل فيها وإنما فيها الاعتقاد ، أفيرى الشيخ أنه لابد فيها من الدليل القاطع كما يقول ، أم يسهل عليه أن نفيده أن الاعتقاديات التى سمع العلماء يقولون فيها : أن دليلها قاطع هى أصول الدين التى لابد منها فى كون الشخص مسلماً ؟ !

والخلاصة أن الاعتقاديات التى يجب أن تكون أدلتها قطعية هى ما يكفر جاحدها لا كل ما فيه اعتقاد ، أو ما ليس فيه عمل كما ظن حضرته ، فلا نطلق الاعتقاديات إلا على ما أوجب الدين اعتقاده وجعله من الأصول لا من الفروع ، والأصول كلها اعتقادية ، فصارت هذه العبارة متعارفة بينهم فى ذلك ، كما لا يخفى على من مارس العلم أو تلقاه عن العلماء .

ثم نقول : كيف يكرر الشيخ أن المسألة ليست قطعية ولا ظنية مع ورود الأحاديث الصحيحة فيها على ما نذكره بعد ، ويصف القائلين بذلك أنهم خرافيون ! وهذه جراءة غريبة ،فإن الأحاديث فى ذلك صحيحة

لا شك فيها ، وقد خرجها الثقات من أئمة الحديث وصححوها كما ستسمع .

أما ما يقوله من أن الأتراك نبشوا قبور الأولياء فوجدوها عظاماً نخرة ، فلا يستدل به إلا من ليس له علم ، ومن أين جاءه أن الولى دفن فى هذه القبور ؟ وهل ثبت عنده ذلك من طريق صحيح وهو يطعن فى الطريق الصحيحة إذا كان فيها فضل الأنبياء وشرفهم ونحو ذلك مما لا يوافق نزعته ، ويصدق كل ما يقال ولو كان أوهى من بيت العنكبوت إذا صادف هوى فى نفسه أو جاء عن الأوربيين ، وإذا يؤول له الآيات القرآنية .

ثم نقول بعد ذلك : ما لنا وللأولياء ؟ وأين هذا من كلام السائل الذى سأل عن الأنبياء الذين وردت فيهم الأحاديث الصحيحة ، لا فى الأولياء الذين يجوز عليهم كل شيء حيث لم يكونوا معصومين ؟ فلو ثبت ما قاله لصح أن نقول : إن الولى قد تغير حاله واقترف من الكبائر ما جعله فى زمرة الفاسقين ، فذلك جائز عليهم ، كما يجوز الغلط فى اعتقاد أنهم أولياء .

ولماذا يذكر ما رآه الكماليون ولا يذكر ما ذكرته الجرائد المصرية فى ظروف كثيرة من ذلك عندما كانت الحكومة تريد أن تنقل بعض الأولياء من أماكنهم لأمر ما ، كأبى نوار – ببنها ، وأحد الصحابة بالعراق ، وقد حضر نقل جثمانه جمهور عظيم وعلى رأسه جلالة الملك فيصل كما ذكرته الجرائد من عهد قريب ! وغير ذلك كثير لا يحضرنى الآن ، ووزارة الأوقاف تعرف كثيراً منه .

وفى (موطأ الامام مالك) وغيره أن معاوية لما أراد أن يجرى النهر الذى يمر فى قبور الشهداء بأحد ، وجدوا عمرو بن الجموح لم يتغير ، وكذلك غيره ، حتى قال بعضهم : لا ينكر بعد هذا منكر . وكان بين غزوة أحد وحفر النهر ست وأربعون سنة ، وفى مثل هذا آثار كثيرة ، فلماذا يعدل عما فى الموطأ وغيره إلى ما روى عن الأتراك ولو كان صحيحاً كما يقول !

الكلام على الحديث :

ورد فى هذا الموضوع أحاديث كثيرة : منها حديث « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » وهو حديث صحيح فى نهاية الصحة لا غبار عليه ، صححه من الأئمة من لا يحصى عددهم ، منهم ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقره الذهبى (صفحة ٢٧٨ جزء أول من المستدرك) ، وصححه أيضًا النووى فى الأذكار ، والحافظ عبد الغنى بن سعيد المقدسى والإمام القرطبى فى التذكرة ، والحافظ ابن يحيى وقال : إنه صحيح محفوظ ينقله العدل عن العدل ، وحسنه ابن العربى المالكى فيما نقله عنه الثعالبى فى العلوم الفاخرة ، وحسنه أيضًا المنذرى فيما نقله عنه السخاوى ، وصدره فى الترغيب والترهيب بعن ، وهى علامة الصحيح والحسن عنده .

ومع تصحيح هؤلاء الحفاظ الأعلام ، وفيهم الذين لا يعرف لهم تساهل فيه كالذهبى والمنذرى ، وابن العربى المالكى ، فإنا نتكلم على الحديث من جهة الصنعة الحديثية فنقول : الحديث أخرجه سعيد ابن منصور ، وابن أبى شيبة وأحمد فى مسنده ، وابن أبى عاصم فى

الصلاة له ، وأبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، والطبرانى فى معجمه ، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم فى صحاحهم ، والبيهقى فى حياة الأنبياء وشعب الإيمان وغيرهما من تصانيفه ، كلهم من طريق حسين بن على الجعفى ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس الثقفى قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ أَيَّامِكُم الْجُمُعَةُ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ . قَالُوا : وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ – يَقُولُونَ بَلِيتَ – قَالَ : إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » .

رجاله كلهم ثقات على شرط الصحيح : أبو الأشعث الصنعانى اسمه شراحيل بن أدة ، روى له مسلم ووثقه العجلى ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر روى له البخارى ومسلم ، ووثقه ابن معين والعجلى ، وابن سعد والنسائى ويعقوب بن سفيان وأبو داود وغيرهم . والحسين بن على الجعفى روى له البخارى ومسلم ، ثقة باتفاق ، قال عثمان بن أبى شيبة : بخ بخ ثقة صدوق ، وبه تم الاسناد ، فإن حسين بن على شيخ جماعة ممن أخرجوا الحديث : فهذا برهان ما حكم به أولئك الحفاظ من الصحة لهذا الحديث .

ثم إن له طريقًا آخر أخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى الدرداء مرفوعًا : « أَكْثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ يَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ وَإِنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إِلَّا عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلَاتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا » .

قَالَ : قُلْتُ : وَبَعْدَ الْمَوْتِ ؟ قَالَ : « وَبَعْدَ الْمَوْتِ ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » . قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب : إسناده جيد ، وكذا قال العلامة السمهودى فى وفاء الوفا (صفحة ٤٠٦ جزء ثانى) وقال السخاوى فى القول البديع والحافظ البوصيرى فى زوائد ابن ماجه : رجاله ثقات ، إلا أن فيه انقطاعاً . قلت : انقطاعه لا يضر ، لأن الحديث الأول الصحيح شاهد له .

وله طريق ثالث عن ابن شهاب مرسلا : « أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِي اللَّيْلَةِ الْغَرَّاءِ وَالْيَوْمِ الْأَزْهَرِ ، وإن الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » أخرجه النميرى والطبرانى كما ذكره السخاوى فى القول البديع . وله طريق رابع أخرجه ابن ماجه من حديث شداد بن أوس بلفظ حديث أوس بن أوس . وله طرق أخرى ذكر الحافظ المنذرى فى اختصار السنن لأبي داود أنه جمعها فى جزء خاص . فلا يرتاب مع هذه الطرق والشواهد فى صحة هذا الحديث إلا متعصب جاهل أو معاند مضل .

ويلتحق بذلك الموضوع ما يحسن أن نتمم به هذا المقام ، وهو حديث : « الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ » رواه أبو يعلى والبيهقى من طرق متعددة من حديث أنس بن مالك ؛ قال المناوى فى شرح الجامع الصغير قال السمهودى : رجاله ثقات ، وصححه البيهقى . انتهى . قلت : والسمهودى ذكر ذلك فى وفاء الوفا (صفحة ٤٠٥ جزء ثانى) ، وسبقه إلى ذلك الحافظ السخاوى فقال فى القول البديع (صفحة ١٢٦) : رجاله ثقات ، وصححه البيهقى .

ولنبين ذلك من طريق الصناعة الحديثة حتى ينقطع لسان كل مكابر ، فنقول : قال أبو يعلى : حدثنا أبو الجهم بن على ، حدثنا يحيى بن أبي بكير ، حدثنا المستلم بن سعيد عن الحجاج بن الأسود عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ » رجاله كلهم ثقات – ثابت : هو البنانى ، لا يسأل عنه لإمامته وجلالته ، ثقة باتفاق ، من رجال البخارى ومسلم . والحجاج بن الأسود قال أحمد : ثقة ، رجل صالح . وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم : صالح الحديث ، وذكر ابن حبان فى الثقات ، ولم يعرفه الذهبى فقال : إنه غير معروف ، ورد ذلك الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان بأنه معروف ، روى عن ثابت وجابر بن زيد وأبي نضرة وجماعة ، وعنه جرير بن حزم وحماد بن سلمة وروح بن عبادة وآخرون : ثم ذكر عن الأئمة توثيقه الذى قدمناه . والراوى عنه مستلم بن سعيد من رجال الأربعة ، قال أحمد : شيخ ثقة ، من أهل واسط قليل الحديث ، وقال النسائى : ليس به بأس ، وذكره ابن حبان فى الثقات . ويحيى بن أبي بكير ثقة ، من رجال البخارى ومسلم ، وثقه ابن معين والعجلى وقال أبو حاتم : صدوق . وقال على بن المدينى : ثقة ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وأبو الجهم روى له البخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم فى صحيحه وذكره ابن حبان فى الثقات .

فحال رجال هذا الإسناد كما ترى : كلهم ثقات ، فهو صحيح على رأى ابن حبان والحاكم وأمثالهما ، حسن على رأى البخارى وأمثاله .

ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقي في حياة الأنبياء، وبها يرتفع إلى درجة الصحيح المتفق عليه ، منها حديث الإسراء الذي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم .

وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرطبي في التذكرة ، وابن القيم في كتاب الروح ، والحافظ السيوطي في غير ما كتاب من كتبه على أن أحاديث حياة الأنبياء في قبورهم متواترة .

وقال ابن القيم في كتاب الروح نقلاً عن أبي عبد الله القرطبي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء خصوصاً بموسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام .

إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون لا نراهم . انتهى .

وقد نقل كلام القرطبي هذا أيضاً وأقره الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في شرحه لعقيدة أهل السنة ، إلى آخر ما كتبناه في حياة الأنبياء بشهر صفر من هذه السنة .

وقد نص الحاكم والحافظ السيوطي على أن حديث الإسراء متواتر أيضاً .

وحديث « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ » ورد من طرق متعددة كما قدمناه ، وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا لم تتغير أجسامهم ، والأنبياء أفضل من الشهداء . اهـ .

فصاحب المنار خرق إجماع المسلمين ، وعارض ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عنه بالدليل القاطع .

مناقشة الشيخ رشيد في عباراته المتهافتة :

وبعد هذا يحسن أن نتلو عليك شيئاً من عباراته لتعلم ما فيها من جهل وتناقض فنقول :

قال تمهيداً لاستنتاجه الفاسد : « إن سنة الله في البشر واحدة في حياتهم وموتهم » .

ونحن نقول له : إن سنة الله في الأنبياء والمرسلين ليست كسنته في غيرهم ، بل سنة الله في الصالحين ليست كسنته في الطالحين ، ولهذا أظهر المعجزات على يد الأنبياء ، والكرامات على يد الصالحين ، وخصهم بخصائص ليست لغيرهم في الحياة وبعد الممات ، وهل من سنة الله أن يسمع من في المدينة من يكون ببلاد فارس ، كما حصل لعمر مع سارية رضي الله عنهما. وهل من سنة الله أن تضيء العصا لصاحبها كما حصل لأسيد بن حضير وعباد بن بشر لما خرجا من عند رسول الله في ليلة مظلمة ، وهو في البخاري وغيره .

بل نقول : وهل من سنة الله الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم الرجوع في ليلة واحدة ، بل العروج إلى السموات العلا

وإلى سدرة المنتهى . إلخ . إلخ ؟ أم هو كلام قائله قائل فاغتر به جاهل ، قياساً على الأعراض البشرية من المرض والقتل والحياة والموت .
إلخ ؟ ولماذا لم يسلموا السحر مع صحة حديثة وهو من الأعراض البشرية ؟ أم يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ؟ وقد قال تعالى فى حق الشهداء ، أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، والأنبياء أفضل من الشهداء بإجماع ، فهل يرى أن كل ميزة للأنبياء والشهداء هى مشتركة بينهم وبين غيرهم تحقيقاً لما قاله من أن سنة الله فى البشر واحدة فى حياتهم ومماتهم ، وإذاً لا تكون ميزة ، فهل يعقلون هذا ؟ !

ثم انظر إلى قول الشيخ رشيد الأمين الثقة بعد ذلك : أنه ورد فى غير الصحاح أن أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض وما أدرى كيف يحل له أن يقول بعد ما سمعته فى تصحيح الحديث ، أن ذلك ورد فى غير الصحاح .

ثم قال حضرته : وأمثل ما ورد فى ذلك حديث أوس بن أوس فى فضل يوم الجمعة الذى فيه أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تُعْرَضُ عَلَيْهِ ، قَالَ أَوْسٌ : قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ ؟ يَعْنِى بَلِيتَ — قالَ : إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ . رواه أحمد فى مسنده وأبو داود والنسائى والبيهقى فى الشعب ، وفى رسالته حياة الأنبياء وغيرهم ، وقد صححه بعضهم وحسنه آخرون ، منهم المنذرى .

هذا كلامه ، فانظر لذكره هؤلاء الأئمة الذين خرجوا الحديث ثم صححوه أو حسنوه ، ثم انظر إلى ما سبق له وإلى ما يذكره من أن الذى تمسك بهذا هم المخرفون !

ثم قال بعد ذلك طاعناً فى الحديث ماخلاصته : أن أبا حاتم جزم بأن فى الحديث علة خفية ، وهى أن راوية حسيناً الجعفى غلط فى اسم جد شيخه عبد الرحمن بن يزيد فسماه جابراً ، وإنما هو تميم ، وابن تميم منكر الحديث ، فالحديث منكر لهذه العلة .

هذا محصل عبارته على تحريف وغلط فيها .

ثم قال : لكن هذه العلة ردها الدار قطنى وقال ، أن سماع حسين من جابر « وصوابه من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر » ثابت ، وإلى هذا جنح الخطيب ، والعلم عند الله تعالى . وهنالك أحاديث أخرى تقويه وتشهد له . أ هـ .

ونقول له : كيف يحل لك بعد ما ذكرت كثيراً من أولئك الأئمة الذين صححوه ، وبعد ما ذكرت أنت أن الدار قطنى رد هذه العلة وقال : أن سماع حسين الجعفى من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثابت ووافقه الخطيب .

نقول : كيف يحل لك بعد ذلك كله أن تجعل القائلين بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء مخرفين ! أفلا تعقل يا أستاذ ما تكتب ؟ أما كان ينبغى لك أن تقول فى المقدمات غير ما قلت ، أو تكتب فى النتيجة غير ما كتبت ؟ ولكن لا غرابة ، فلست من أهل هذا الشأن ، وليس فيك استعداد لأن تكون من أهل المنطق .

وبعد فنقول : أن الدار قطنى أثبت فى هذا الشأن من أبى حاتم ، ولا أدرى كيف يتجه هذا الطعن والحديث فى سنن أبى داود والنسائى وغيرهما ، وفيه التصريح بأن عبد الرحمن هو ابن يزيد بن جابر لا ابن تميم ؟ !

ولنذكر لك شيئاً مما ذكره علماء المصطلح عن أبى حاتم الذى قدمه الشيخ رشيد على أولئك الأئمة الذين صححوا الحديث جميعا : قال فى شرح التقريب :

١ – « أحمد » عن عاصم البلخى : جهله أبو حاتم لأنه لم يخبر حاله ، ووثقه ابن حبان .

٢ – « أبو اليسع » : جهله أبو حاتم وعرفه البخارى .

٣ – « بيان بن عمرو » : جهله أبو حاتم ووثقه المدينى وابن حبان وابن عدى ، وروى عنه البخارى وأبو زرعة وعبد الله بن أبى واصل .

٤ – « الحسين بن الحسن بن يسار » : جهله أبو حاتم ووثقه أحمد وغيره .

٥ – « الحكم بن عبد الله المقبرى » : جهله أبو حاتم ووثقه الذهبى وروى عنه الثقات .

٦ – « عباس بن الحسين القنطرى » : جهله أبو حاتم ووثقه أحمد وابنه وروى عنه البخارى والحسن بن على المعمرى ، وموسى بن هارون الحمال ، وغيرهم .

٧ – « محمد بن الحكم المروزى » : جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وروى عنه البخارى .

وبعد فما أدرى كيف يطعنون فى هذا الحديث بتلك العلة التى لا معنى لها بعد أن صرح حسين الجعفى بأنه راو عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لا عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، وليس من شأنه أن يروى عن الضعاف ، ولا يعقل أن يخفى ذلك عليه ، ولا أن يغلط فى شيخه .

ولنذكر لك شيئاً من ترجمته زيادة على ما تقدم فنقول : هو حسين بن على الجعفى مقرىء الكوفة وعابدها ومحدثها ، وشيخ أحمد وابن راهوية وابن معين وغيرهم ، وثقه العجلى وابن معين وابن حبان وغيرهم ، وكان فى الورع آية ، وقد خرج له الشيخان وأصحاب السنن الأربعة ، فلن يجد المتطلب مغمزاً فيه .

لون آخر :

وقبل إلقاء القلم نتحفك بشىء طريف يدلك على علم الشيخ رشيد وتحريه وسعة اطلاعه ، ونقول : على عقله الكبير وعلمه الغزير :

جاء فى تفسير ابن كثير الذى طبعه الشيخ رشيد هذا الحديث الذى رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِى عَلَى ثَلَاثٍ ؟ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)[1] إلى آخرِ الآياتِ الثَّلاثِ ، ثُمَّ قال : فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ . إلخ . قال الحاكم : صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥١

فعلق عليه الشيخ رشيد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا خمس لا ثلاث .

ولم يبين حضرته فى الحديث علة تقدح فى صحته غير ما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هى الوصايا ، والنبى صلى الله عليه وسلم يريد بها الآيات لا الوصايا ، وقد جاء التصريح بذلك ، فى رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت وفيه : « أَيُّكُمْ يُتَابِعُنِى عَلَى الآيَاتِ الثَّلَاثِ » ثم تلا ، (قُلْ تَعَالَوا) إلى ثلاث آيات .

فانظر إلى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائماً على شفا جرف هار ! وكم له ولأتباعه من أمثال هذه التعليقات الحمقاء . فرحم الله امرأً عرف قدره ، فلم يتعد طوره .

ولعلنا نذكر للقارىء ما يبين خطأه فى المحسوس ، ومقدار أمانته فى النقل بما لا يستطيع أن يمارى فيه . ولعمر الله ما قرأت عدداً من أعداد (المنار) إلا وجدت فيه من الجهل والتناقض وقلة الذوق وسخافة التعبير ما لو أردت أن أكتب فيه لكان كثيراً وخطيراً ، ولكان التعليق على المنار أكثر من المنار ، ولكن نريك نماذج منها على سبيل الفكاهة ، وهى تنبىء عما وراءها .

شق صدره[1] صلى الله عليه وسلم

جاء فى كتب السنة ورواه جميع أرباب السير وأخرجه مسلم فى صحيحه : أَنَّ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةَ الَّتِى أَرْضَعَتِ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَتْ : بَيْنَمَا هُوَ وَأَخُوهُ ـ أَىْ مِنَ الرَّضَاعِ ـ يَوْماً خَلْفَ الْبُيُوتِ يَرْعَيَانِ بَهْماً[2] لَنَا ، إِذْ جَاءَ أَخُوهُ يَشْتَدُّ ـ أَىْ يُسْرِعُ فِى مَشْيِهِ ـ فَقَالَ لِى وَلِأَبِيهِ : أَدْرِكَا أَخِى الْقُرَشِىَّ قَدْ جَاءَ رَجُلَانِ فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّا بَطْنَهُ ، فَخَرَجْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ مُنْتَقَعُ اللَّوْنِ[3] قَالَتْ حَلِيمَةُ : فَاعْتَنَقَهُ أَبُوهُ وَاعْتَنَقْتُهُ ، وَقُلْنَا : أَىْ بُنَىَّ ، مَالَكَ ؟ قَالَ : أَتَانِى رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَانِى ثُمَّ شَقَّا بَطْنِى « أَىْ مَا بَيْنَ مَفْرِقِ صَدْرِهِ إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِهِ كَمَا فِى بَعْضِ الرِّوَايَاتِ » وفى رواية : فَأَقْبَلَا يَبْتَدِرَانِ فَأَضْجَعَانِى فَشَقَّا بَطْنِى فَالْتَمَسَا فِيهِ شَيْئاً فَوَجَدَاهُ فَأَخَذَاهُ فَطَرَحَاهُ . وفى رواية : فَأَخَذَانِى فَشَقَّا بَطْنِى ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِى فَشَقَّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ ، وَقِيلَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ يَاحَبِيبَ اللهِ[4] . قال : ثُمَّ غَسَلَا قَلْبِى حَتَّى أَنْقَيَاهُ وَمَلآهُ حِكْمَةً وَإِيمَاناً ، ثُمَّ قَالَا : إِنَّكَ لَوْ تَدْرِى مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ .

---

(١) مجلة الأزهر الجزء الثانى المجلد الرابع — صفر ١٣٥٢

(٢) البهم : صغار الغنم .

(٣) بنون وقاف مفتوحة كما صرح به صاحب القاموس واقتصر عليه الشامى فى سيرته أو مكسورة كما يفيده المصباح . أى متغير كلون النقع أى الغبار من فزع أو حزن . ومثله مبتقع بالموحدة ومتقع بالميم ، وهو أجود .

(٤) المراد بكونها حظ الشيطان منه أنها مطمعه لأن مثلها من البشر هو محل وسوسته .

وأما رواية مسلم فى صحيحه : فعن أنس رضى الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَهُ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ : هٰذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ ، وَجَاءَ الغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ – يَعْنِى ظِئْرَهُ – فَقَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ .

وروى أبو نعيم فى الدلائل وعبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد مسند أبيه : أَنَّ أَحَدَهُمَا قَالَ لِصَاحِبِهِ : أَخْرِجِ الغِلَّ وَالحَسَدَ مِنْهُ ، فَأَخْرَجَ شِبْهَ العَلَقَةِ فَنَبَذَ بِهِ ثُمَّ قَالَ : أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ قَلْبَهُ ، فَأَدْخَلَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الفِضَّةِ ، ثُمَّ نَقَرَ إِبْهَامِى ، ثُمَّ قَالَ : أَغْدُ ، فَرَجَعْتُ بِمَا لَمْ أَغْدُ بِهِ مِنْ رَحْمَتِى لِلصَّغِيرِ وَرَأْفَتِى بِالكَبِيرِ » .

وقد بلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم أن كسروا رباعيته يوم أحد فلم يدع عليهم بل كان يقول : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وجاءه ملك الجبال وقد أدموا قدميه يريد أن يطبق عليهم الأخشبين (١) فلم يرض صلى الله عليه وسلم بذلك بعد مافعلوا به الأفاعيل ، إلى غير ذلك مما هو معروف . وهذا مما لايكاد يدخل تحت سلطان البشرية بعد ذلك الإيذاء الشديد .

أما استبعاد ذلك فإنما هو من بنات الوهم والوقوف مع المعروف من العادات ، وليس ذلك إلا من قياس الملائكة على الحدادين كما يقولون .

(١) هما جبلا مكة وضواحيها .

على أن الطب قد أتى الآن بالأعاجيب ، وهو فى تقدم باهر ورقى مطرد . وقد قالت الملائكة لامرأة إبراهيم عليه السلام عندما قالت إن هذا لشىء عجيب وقوفا مع العادة : (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ) (١) .

على أنها سنة الله فى الأنبياء : يخرق لهم العادة تمهيداً لما يراد منهم ، وتنبيهاً على أن لهم شأناً غير شأن الكافة ؛ كما حصل لسيدنا عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، وهو المسمى بالإرهاصات فى عرف العلماء .

على أنك إذا حللت نفسية من ينكر أمثال هذه الخوارق وجدت منبع هذا الإنكار وسر ذلك الاستبعاد هو الشك فى قدرة الله تعالى وحصر مقدوراته فيما علمنا من النواميس التى ما عرفناها إلا بالحس والمشاهدة ، ومن يعتقد أن كل شىء راجع إلى ماعلم ومنحصر فيما شاهد ؛ فما أعظم جهله وأقل علمه ! وهو بعد ذلك غير مؤمن بقوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٢) ، ولا بقوله : (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) (٣) ولا بقوله : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٤) إلى غير ذلك ، بل هو جاهل بقدر نفسه وقدر العلم الذى لانهاية له ، فرحم الله امرأ عرف قدره ، فلم يتعد طوره .

أما حكمة خلقه صلى الله عليه وسلم بهذه العلقة السوداء التى هى حظ الشيطان من الإنسان ، فهى أنه بشر فى تكوينه ، وإنسان فى

(١) سورة هود ، الآية ٧٣
(٢) سورة يس ، الآية ٨٢
(٣) سورة الطلاق ، الآية ١٢
(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

خلقته وطبيعته ، وإن كان التفاوت بين أفراد الانسان على مراتب لايحصيها العد ولا يأتى عليها البيان .

وليس هناك نوع من الأنواع تتفاوت أفراده كما تتفاوت أفراد نوع الإنسان ، والكامل من كمله الله تعالى ، .

فأراد الله أن يجعل نبيه صلى الله عليه وسلم أكمل نوع الإنسان ، حتى يتم ما أريد منه من الغايات السامية ؛ فأرسل إليه ملائكته ليطهروه من نقائص البشرية وقابلية الشر والانقياد للشهوات الدنيئة والأهواء المضلة .

وأيضا لو خلق سليما من العلقة السوداء لم يقع الاطلاع على ذلك ، وهو أيضًا أدل على مزيد العناية ، فكان فى ذلك إظهار لكماله الرفيع وإعلان لعناية الله الخاصة به صلى الله عليه وسلم .

ولنرجع إلى الموضوع فنقول :

الخلاصة :

إن الله يريد أن يطهره من عوارض البشرية ،وظلمات الأنانية وسلطان الشهوات وجميع الآفات ، حتى يخلص من رعونات النفوس التى توقع صاحبها فى الإفراط أو التفريط ، ليكون مستعداً للتحلى بمكارم الأخلاق ومراقبة الواحد الخلاق فى كل ما يأتى ويذر .

وقد كان صلى الله عليه وسلم معروفًا بمكارم الأخلاق ، حتى كان يسمى عندهم قبل النبوة بالأمين . وكان يكره ما كانوا عليه من عادات

وعبادات ، وما كان يلهو به الشباب ، كما هو معروف من سيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم .

وقد كان يخلو بغار حراء قبل النبوة ، اعتزالًا لهم وبغضًا لما كانوا عليه من عبادة الأوثان وعدم توحيد الواحد الديان ؛ فإن نفسه الشريفة لا تطيق ذلك ولا تصبر عليه (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ)(١) .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نذكر شيئًا من شمائل هذا الرسول الأعظم الذى طهر الله قلبه وهو طفل من حظ الشيطان تتميمًا للفائدة فنقول :

من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من مصادرها الصحيحة دراسة مدققة ، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة كاملة . لا يقتحم صدره أدنى ريب فى أنه واسطة عقد الكمال ؛ ويتبين حكمة العلى الأعلى سبحانه وتعالى فى اختياره عليه الصلاة والسلام على السابقين واللاحقين ، ووضعه بالمحل الأعلى سيدًا للخلق أجمعين ؛ ويعلم علمًا تسوق إليه البراهين الناصعة وتنطلق به الأدلة القاطعة أن من أراد استقصاء ما أفرغ الله عليه من الكمالات فى أى نحو من أنحاء حياته ؛ فإنما يحاول جمع ما فى البحار من درر ، أو حصر ما فى الفضاء السماوى الذى لا يعلم مداه إلا الله من شموس وكواكب .

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

فأوسع الناس علمًا ، وأفصحهم بيانًا وأبلغهم قلمًا ؛ إذا تكلم عن هذه

(١) سورة النور ، الآية ٣٥

النفس العلية القدسية فى أى نوع من أنواع كمالها ، فإنه واقف دون الغاية ومنبتّ قبل الأمد :

ولكن تؤخذ الأحكام منه   على قدر القرائح والفهوم

ينطق المتواتر من سيرته أنه المثل الأعلى ناشئًا وشابًا وكهلًا ، عزبًا ومتزوجًا ، مفردًا للأزواج أو معددًا لهن . قال النضر بن الحارث لكبراء قريش : « إن محمدًا كان فيكم رصينًا أمينًا صادقًا وهو شاب ، حتى إذا ظهر به الشيب قلتم : إنه كاذب وساحر » !

وهذا يشبه ما جاء فى الحديث الصحيح أن هرقل سأل أبا سفيان : هَلْ كَانَ يَكْذِبُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فقال : لا ، فقال هرقل : مَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَكْذِبَ عَلَى اللهِ . وقد كان يلقب قبل النبوة بالأمين لعظم منزلته عندهم ، وقد حكموه فى أمرهم عندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود عند مابنت قريش الكعبة قبل النبوة ، فكانوا بحكمه راضين مغتبطين .

وأما حاله بعد النبوة فيكفينا فيه قول عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلقه فقالت : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرآنَ[1] (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)[2] إلى آخره . وقول أنس رضى الله عنه ، خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سِنِينَ وأَنَا غُلَامٌ صَغِيرٌ لَا أَكُونُ عَلَى مَا يَشْتَهِى صَاحِبِى ،

(١) وقول السيدة خديجة : والله لا يخزيك الله أبداً ، أنك لتحمل الكل وتصل الرحم وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق الخ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات من ١ — ٣

فَمَا قَالَ لِى أُفٍّ قط ، وَلَا لِشَىْءٍ فَعَلْتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ ؟ وَلَا لِشَىْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ ؟ وَكَانَ إِذَا أَرْسَلَنِى إِلَى الحَاجَةِ فَأَبْطَأْتُ وَلَمْ تُقْضَ فَيُرِيدُ أَهْلُ الْبَيْتِ أَنْ يُعَنِّفُونِى فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، دَعُوهُ لَوْ قُدِّرَ لَكَانَ .

فصل

كان صلى الله عليه وسلم أقوم الخلق بعبادة ربه ، قالت إحدى أمهات المؤمنين : كَانَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُحَدِّثُنَا فَإِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ قَامَ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا ، وكَانَ يَضْطَجِعُ مَعَهُنَّ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ كَادَ قَامَ إِلَى رَبِّهِ فَصَلَّى فَأَطَالَ القِيَامَ والرُكُوعَ والسجُودَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ . فَكَانَ يُقَالُ لَهُ فِى ذَلِكَ فَيَقُولُ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا !

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى فَأَطَالَ السجُودَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ قُبِضَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُمْتُ حَتَّى حَرَّكْتُ إِبْهَامَهُ فَتَحَرَّكَ ، فَرَجَعْتُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِى سُجُودِهِ : أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ[1] لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ وَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ يَا عَائِشَةُ أَوْ يَا حُمَيْرَاءُ : أَظَنَنْتِ أَنَّ النَّبِىَّ قَدْ خَاسَ بِكِ ؟ قُلْتُ : لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ وَلَكِنْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قُبِضْتَ لِطُولِ سُجُودِكَ . « يقال خاس به إذا غدره ولم يوفه حقه » .

(١) ألجأ إليك واعتصم بك من البلاء الذى تصيب به من تشاء من عبادك ، ونظيره قوله تعالى . (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) — سورة التوبة ، الآية ١١٨

وقد بلغ من رفقه أنه كان يتلطف إذا قام من نومه حتى لا يزعج أهله ، ويتوضأ بنفسه لا يوقظها ،ولا الخادم لتتمكن عليه وضوءه .

فصل

كان أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس. حمل إليه صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلًا حتى فرغ منها . قال : وجاءه رجل فقال : ما عندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالًا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه .

كان أبغض الأخلاق إليه الكذب ، كان إذا رأى على أحد من أهل بيته كذبة لم يزل معرضًا عنه حتى يحدث توبة ، كان يجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف ، ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يحقد على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه. كان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدى ، كان يقول: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا . كان لا يشبع صلى الله عليه وسلم من خبز قط ولا لحم إلا على ضفف . قال مالك : سألت رجلًا من أهل البادية : ما الضفف ؟ قال : أن يتناول مع الناس .

كانَ إِذَا دَخَل بيْتَهُ قال : هَلْ عِنْدكُمْ طَعَامٌ ؟ فإن قِيل ، لا ، قَالَ : إنِّى صَائِمٌ ، وإن لَمْ يكُنْ عنْدَهُمْ إلا الخَلُّ ، قَالَ : نِعْم الأُدْمُ الخل . كان يميل الإناء للهرة فتشرب منه .

تتمة

من عجيب أمره صلى الله عليه وسلم أنه أخذ القلوب إلى الله تعالى ، وملأ النفوس رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه ، ومع ذلك رغب فى العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التى ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة .

كما قال للذين خدموا إخوانهم فى السفر فى يوم شديد الحر : أنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يجعل ذلك للصائمين المتعبدين فى ذلك اليوم . وقد ورد موقوفاً أو مرفوعاً : « اعْملْ لدُنْيَاكَ كَأَنَّك تَعِيشُ أَبَداً واعْمَل لآخرتِكَ كَأَنَّك تَمُوتُ غَداً » وقال تعالى : (فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رزْقِهِ)(١) وقال : (فإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وابْتَغوا مِنْ فَضْلِ الله)(٢) .

ولكنه بحكمته البالغة حول كل شيء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شيء عند المسلمين طاعة وعبادة بهذا الطريق ؛ بل أصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ؛ فجمع لنا بذلك بين مصلحة الدنيا والآخرة

---

(١) سورة الدخان ، الآية ١٦
(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

على أتم الوجوه ، وفى الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ودنايا الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له ، إن لم يكن ذلك فى الدنيا كان فى الآخرة . ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه العجالة .

ولنقتصر من ذلك البحر على هذه الدرر التى يطيب بها الحديث وتتعطر بها المجالس :

محمد ما أحلى شمائله ومـا ‌‌ ‌ ألذ حديثاً فيه ذكر محمد
محمد كل الحسن من بعض ‌ ‌ ‌ وماحاز[1] كل الحسن غير محمد

(١) فى الأصل (وماحسن) بدل (وماحاز) .

قصة يوسف عليه السلام وما يؤخذ منها [1]

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [2]

(٣)

كتبنا فى هذه القصة بالعام الماضى ، ولكن لم نستكمل ما فيها من حكم وأسرار . وقد وعدنا القارىء الكريم أن نعود إليها مرة ثانية فشغلتنا الشواغل وكثرة الفتاوى . واليوم ننجز ما وعدنا فنقول ، وقد يكون فيما نقول بعض تكرار مقصود لزيادة الفائدة وتأكيد العائدة :

بينا فى مقالنا السابق أنه يؤخذ من قصة يوسف عليه السلام أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم المثوبات : (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [3] .

وقد صبر يوسف على ما كان من إخوته إذ ألقوه فى غيابة الجب ، وعلى بيعه واستعباده ، وما لاقى بعد ذلك من الفتنة وكيد النساء ، وسجنه بضع سنين ، ثم كان عاقبة ذلك العز والملك والتمكين فى الأرض .

ومثل ذلك ما كان من يعقوب من بثه وحزنه ثم تفويضه إلى الله ففرج الله همه وغمه ، فرد بصره عليه ، وجمعه مع يوسف فى صفاء وبهجة بعد ما كان من حزن طويل (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [4] .

(١) مجلة الأزهر — الجزء الخامس — المجلد الخامس — سنة ١٣٥٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١
(٣) سورة يوسف ، الآية ٩٠
(٤) سورة يوسف ، الآية ٨٧

وفى ذلك الحث على سلوك سبيل المتوكلين ، والدلالة على الانقطاع إلى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد .

كما أن فى القصة الدلالة على أن اصطفاء المصطفين أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساع ولا إرادة مريد ، ولهذا كان ليوسف فى صغره ولم يكن لإخوته فى كبرهم .

وإن من أراد الله به خيراً لم يكن لأحد دفعه ، ومن عصمة الله لم يكن لأحد رميه بسوء ولا قصده بشر ، وأن كيد الشيطان وإغواءه لا يأمن منه أحد حتى الأصفياء ، فينبغى أن نكون منه على حذر .

كما أن فيها الكشف عن أحوال الخائنين ، وقبح طرائق الكاذبين وابتلاء الخواص بأنواع المحن ، وتبديلها بأنواع الألطاف والمنن ، مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك الحكيمة وحالهم مع رعيتهم ، كما كان يوسف عليه السلام .

كما أنه يؤخذ منها أن الحسد متأصل فى الإنسان ، فهو غريزة لا يكاد يخلص منها أحد .

ويؤخذ من القصة أن حب الدنيا والتنافس فيها متغلغل فى طباع البشر تغلغلاً يقطع الأرحام ، ويطغى على الرحمة التى تكون بين ذوى القربى ولو كانوا إخوة .

فعلى العاقل أن يحترس منها ، فإنها رأس كل خطيئة ، وحبها هو الذى أثار الحسد فى نفوس إخوة يوسف ، والحسد هو جماع المفاسد والشرور ، وقد أداهم إلى قطيعة الرحم وعدم الرأفة بالصغير

الذى لا ذنب له ، وترك العهد وخلف الوعد الذى وعدوه الأب ، والهم بارتكاب أكبر الجرائم . ولا غرو فالحسد هو الذى طرد إبليس من رحمة الله وأورثه الشقاء الأبدى والخذلان السرمدى .

ويؤخذ من ذلك أن أبناء العلات لا يكادون يتفقون ولو كانوا أولاد خالة ، أو كان أبوهم من أكابر الأنبياء كما فى هذه القصة .

هذا ويؤخذ من قول يوسف عليه السلام : (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ)[1] أن المعروف يقابل بالمعروف ، والإحسان لا يكافأ إلا بالإحسان فحيث أن العزيز أكرمه لا ينبغى أن يخونه وإن لقى ما لقى فى هذه السبيل، على ما فصل فى القصة .

ويعلمنا قوله تعالى : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)[2] حكاية عن يعقوب عليه السلام ، أنه يلزمنا فيما لا مناص منه السكون تحت مجارى الأقدار سراً وعلنا ، وإن فدح الخطب وعظم المصاب ، تسليما لله وثقة بحكمته وخضوعاً لربوبيته .

كما يؤخذ من قوله تعالى : (لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)[3] إن الإنسان لا يثق إلا بمن كان مراقباً لله ، عارفاً بالله ، خائفاً من الله ، وسواه يجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٨ و ٨٣
(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٤

ويؤخذ من قوله : (السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)(١) أن طريقة عباد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظم أمر الله والتضحية بكل شيء :

وقوله : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)(٢) يغرس فينا ملكة التوحيد بالرجوع إلى الله فى كل شيء موقنين أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين بربهم وإحاطته التى لا يخرج عنها شيء .

ويؤخذ من قوله تعالى : (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)(٣) أن كثيراً من الناس لا تؤثر فيهم العظات ، ولا تفيد فيهم الآيات والبراهين الواضحات ، ولا تنههم الزواجر عما تشير به الأغراض وتسوق إليه الشهوات .

ويؤخذ من قوله تعالى : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)(٤) الإشارة إلى أن النفس بطبعها كثيرة الميل إلى الشهوات والدعوة إلى التورط فى الهلكات . وقد قال بعض العلماء : « النفس ظلمة كلها وإنما سراجها التوفيق ». وقال بعض آخر : « من صحب نفسه صحب العجب والخيلاء ، ومن صحب الصالحين وفق لطاعة الله

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٣
(٣) سورة يوسف ، الآية ٣٥
(٤) سورة يوسف ، الآية ٥٣

والقرب من الله ، ومن صحب أهل الدنيا سلكوا به طريق جهنم ، ومن صحب أهل اللسانة والتشدق بغضوه فى خيار الناس وحببوه فى شرارهم)

ومما ينبغى أن يعرف فى هذا المقام أن الإنسان فى مقام النفس لا يمكنه أن يدرك علوم القلب الإلهامية ، وأسرار الروح الربانية ، على ما فصله العلماء الربانيون (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)(١) .

وليلاحظ بعد هذا أن كل دور من أدوار الإنسان وكل حال من أحواله له علوم تخصه لا يتعداها ما دام فى ذلك الدور . فالإنسان فى دور الصغر مثلاً لا يمكنه أن يدرك الحقائق على ما هى عليه ، وفى حالة الشهوة كذلك ، وهكذا جميع الأدوار والأحوال . فكل إنسان فى سجن مرتبته التى هو فيها ، والحيوان لا يمكنه أن يرتقى إلى رتبة الإنسان .

وحبذا لو كانت التربية بتعليم النشء ما جبل عليه الانسان من الغرائز المهلكة ، وأن الكمال إنما هو فى التخلص منها ، وبيان أن القوة الغضبية إذا هاجت حجبت العقل عن كل فهم ، والبصيرة عن كل خير ، وكذلك القوة الشهوية ، وأن لهما سياسات يجب تعليمها ، وقوانين يتحتم معرفتها ، وإلا كان الإنسان حيواناً أعجم بل وحشاً ضاريا :

ولا أرى للتربية معنى إلا هذا ، وهى الآن على عكس على خط مستقيم ، لأنها مبنية على تقديس النفوس وغرس الأنانية فيها ، وذلك أساس كل شر وجماع كل بلاء . وقد قال بعض الحكماء : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(٢) .

(١) سورة الصافات ، الآية ١٦٤   (٢) سورة ص ، الآية ٢٦

ولابد للعبد من الرجوع إلى الله فى كل شىء حتى يلهمه الرشد فيما يأتى ويذر ، فإن العقل ليس له إلا قبول إفاضة العلم لا إيجاد الاستعداد ورفع الحجاب بينه وبين الحقائق على ما هى عليه . وقد قالوا ، إن العالم هو الذى يعلم ، والحكيم هو الذى يعمل .

وبعد ، فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى وهى امتحان من يريد اصطفاءهم واجتباءهم حتى يخلصهم من وضر النفوس وظلمة الهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وينحرف بصاحبه عنه إلى ما سواه ، فإن الله يريد منهم أن يتماشوا إليه ولا يعولوا إلا عليه :

ويؤخذ من قوله تعالى : (لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)(١) أنه لابد من الأسباب التى اقتضتها الحكمة الإلهية ، ولا بد مع هذا من اعتقاد أنها لا تغنى شيئاً ولا تنافى التوكل .

وقول يعقوب : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)(٢) يعلمنا أن الإنسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفزع إلى الكبير المتعال ، وألا يعول على شىء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عدا ، كما يشير إليه الإتيان بأداة الحصر ، فكل من انقطع إليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه . وما أحسن قول بعضهم فى هذا المقام :

فإن رحالنا حطت رضـاء ... بحكمك عن حلول وارتحال

وقول الآخر :

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة ... تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا

من حط ثقـل حمولـه ... فى بـاب مالكه استراح

(١) سورة يوسف ، الآية ٦٧ (٢) سورة يوسف ، الآية ٨٦

ويؤخذ من قول أولاد يعقوب فى حق أبيهم : (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(١) : أن الجهل قد يصل بصاحبه إلى حد أن يعد أعلم العلماء جاهلا ، وأهدى المهديين ضالا ، وكلما زاد البعد بين المراتب زاد الجهل بها وإنكار ذويها .

ويؤخذ من قوله تعالى : (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا)(٢) أن أسرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفاً فيها على تلك النواميس المادية التى قدسها الجاهلون ، ووقف عندها الجامدون ، وكيف يعلل ذلك أو يفهمه أولئك المتشدقون الواقفون عند الظواهر ، وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة والأرواح اللطيفة . فهو يفتح لنا باباً من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

كما أن قول يعقوب : (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(٣) يعرفنا أن من عباد الله خواص يعرفون من قوانينه وحسن معاملته مع من تصدق عبوديته ما لا يعرفه غيرهم ، فسنن الله كثيرة ، ولا يعرف أكثر الخلق منها إلا النزر اليسير ، وهناك ما اختص به الأنبياء وورثتهم ، وهذا ما جعلهم يتحملون أعظم البلايا ولا يضعفون ، ويحملون جبال الشدائد ولا يتزلزلون .

رزقنا الله ذلك العلم الواسع ، والنور الساطع ، واليقين التام ، حتى لا نعبأ بشدائد الدنيا ، والنار لم تنطفىء لإبراهيم إلا بقوة نوره وسمو

(١) سورة يوسف ، الآية ٨ (٢) سورة يوسف ، الآية ٩٣
(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٦

يقينه ؛ وسلطان الروح أعظم من سلطان المادة (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً). وقد جاء فى حديث أن النار تقول للمؤمن : « جُزْ يامُؤْمِنُ ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِى ».

ويلتحق بذلك ما عرفناه من تلك السورة الشريفة من أن المنامات منها ما هو صادق كمنام يوسف عليه السلام ، وقد صدقه أبوه ، ولم يشك فيما رأى ، ولذلك قال له : (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)[1] وقال : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)[2] إلى آخر الآية ، وفيها منام صاحب السجن ورؤيا الملك للبقرات ، وتأويل ذلك كله ، ففيه الرد على أصحاب النزعة الجديدة الذين لا يعرفون إلا أضغاث الأحلام ، وقد جاء فى الحديث : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ »[3] وورد « الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ »[4].

وإجمال القول أن فى هذه السورة الشريفة كثيراً من الأسرار الروحانية التى لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة كما قلنا ، ومثل وجدان ريح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، ورَدّ بصر يعقوب بإلقاء القميص على وجهه كما شرحنا.

(١) سورة يوسف ، الآية ٥
(٢) سورة يوسف ، الآية ٦
(٣) رواه الشيخان ، وغيرهما .
(٤) رمز له فى زيادة الجامع الصغير « وحديث الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان » رمز له ق د ت.

ولا يفوتنا أن نقول : إن من الآداب التى نستفيدها من القصة أنه قال بعد القدرة : (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)[1] . وقد قالوا : إن من يرجع الأمر إلى الله لا يزال مستريحاً ، ومن اهتم بما يكون من الناس لا يزال فى تعب وعناء ، وقال : (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)[2] ولم يذكر من إحسانه تعالى أنه أخرجه من الجب لئلا يخجل إخوته بذكر ما فعلوا .

فلنتعلم هذه الآداب العالية ، والأخلاق السامية ، كما أنه يمكننا أن نستفيد منها أن الرجل الطيب القلب يقدم حسن الظن ويقبل المعذرة ، ونستفيد منها أيضاً أن تدبير الله لا يحيط به أحد ، وأنه لا يراعى الأهواء والأميال ، ولا يعبأ بألم المتألمين وجزع الجازعين ما دام موصلا إلى غايات سامية ، وعاقبة حميدة فى علم الله تعالى ، فإن قصة بنيامين هى التى كانت السبب فى اجتماعهم بيوسف مسرورين مغتبطين. فعلى العبد أن يسلم لله وإن لم يعرف الحكمة .

يا حاكمى وحكيمى أفعالك الكل حكمة

وإن فى قصة زليخا ويوسف ما ينبه على اقتدار النساء على قلب الحقائق ، والتحيل على إلصاق الإجرام بالبرىء ، وتصوير ذلك بصورة الواجب الذى لابد منه ، والتأثير فى السامع بما يهيج عواطفه ويثير حميته ، وهن أعرف بمواضع الضعف من الرجال ، وأخبر بقرع الوتر الحساس من القلوب .

(١) سورة يوسف ، الآية ٩٢
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

وإن شئت فانظر قولها : (مَا جزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(١) كيف أخرجته هذا المخرج وأتت به على سبيل الخبر المسلم الذى لا ينازع فيه ، وخلطت الحق بالباطل تلبيساً وتغريراً ، فإن من أراد بأهله سوءاً استحق العذاب الأليم كما تقول ولكن أدمجت فى ذلك باطلا ، وهو أن يوسف عليه السلام أراد السوء ، وجعلت ذلك مسلماً غير منازع فيه ، إلى آخر ما يرشدك إليه ذوقك وعلمك ، مع ملاحظة أن زوج المرأة كان فى هذه الحالة مدهوشاً مبهوتاً لما رآه عند الباب مع زوجته ، فهى تفهمه أن الإجرام مفروغ منه ، والتفكير إنما هو فى الجزاء الذى يجب إيقاعه على المجرم .

وبعد : فمن عوارض الحضارة والمدنية قلة الغيرة ، وكانت الحضارة فى مصر بالغة حدها ، فكان للنساء فيها شأن وخطر ، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتوكريس .

وكل أمة تساوى رجالها بنسائها فلا بد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزناً كبيراً ، فهذا من مساوىء المدنيات القديمة والحديثة . وأنك لتلحظ فى غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير الإسلامية أثرها الممقوت ، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم ، كما هو مشاهد الآن فى أولئك المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة .

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٥

خاتمة

رأينا أن نتمم هذا الموضوع بفوائد لها مناسبة بالقصة ، وهى مفيدة فى نفسها أكبر فائدة فنقول :

١ — روى أن يوسف عليه السلام دعا بهذا الدعاء وهو فى الجب ، ففرج الله كربته ، وهو هذا :

يا صريخ المستصرخين ، ويا غوث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين ، قد ترى مكانى وتعلم حالى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب : اجعل لى فرجاً مما أنا فيه .

٢ — يقولون : إن أعظم الناس فراسة ثلاثة : العزيز حيث قال : (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ)(١) ، وبنت شعيب حيث قالت لأبيها فى حق موسى عليه السلام : (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)(٢) ، وأبو بكر حيث استخلف عمر .

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يجعلنا ممن دعا إلى الله على بصيرة ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك بمنه وكرمه .

(١) سورة يوسف ، الآية ٢١
(٢) سورة القصص ، الآية ٢٦

الإسراء والمعراج (١)

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الكبير الشيخ الدجوى :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فعهدنا فريق من أساتذة المدارس ينكرون المعراج ويقولون : ان ذلك غير ممكن . والمتدين منهم الأقرب إلى الاعتدال يقول : إن الإسراء بالروح دون الجسد .

فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع بالبراهين المقنعة حتى ينقطع الجدال والمراء . وها نحن أولاء فى انتظار ما يدبجه يراعك البليغ وبيانك الواسع كما هى عادتك .

واقبل فائق احترامى وإجلالى لشخصك المحبوب .

عبد الرحمن محمد
مدرس بمدرسة شبين

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ، ويسيرون وراء ما تمليه عليهم علمهم القاصر ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ووزن ما جاء عن الرسول بميزان فكره فقلما يؤمن إيماناً صحيحاً . وإذا راقك منه ما يشقشق به فى بعض الأحيان لم تلبث أن يسوءك منه ما يهذى به فى

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الخامس – سنة ١٣٥٣

وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الإنسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلم من صفاتها الذاتية وأعراضها اللازمة .

وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله وبلغته حدود علمه ، فليس مؤمناً بالرسول على الحقيقة ، وإنما هو مؤمن بعقله « لا بالرسول ».

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا عما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه العقول التى لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات ، وما تنتزعه منها من المعقولات الثانية مما هو راجع إليها ومتوقف عليها ، ومقدورات الله لا نهاية لها ، وعوالمه لا حد لها ، ولكل عالم ناموس يخصه .

ومن الغلط البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر . فإذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان مالا يعيش إلا فى الماء ، ومن بعضها ما لو مكث فى البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله الكربون كالانسان ، ومنها ما يقتله الأكسجين ككثير من الحيوانات الدنيا.

ولعلنا كنا لا نصدق بذلك قياساً على أنفسنا لولا مشاهدتنا إياه ، فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم الأخرى التى تحس والتى لا تحس ؟

وإنى لأعجب لهم كيف يتبجحون هذا التبجح ويحكمون فى كل شىء بالأحكام الجازمة اعتماداً على بضع نواميس وصلوا إلى ظواهرها من نواميس هذا الكون التى لا يحصيها إلا الله ولا ندرى كنهها غير مبدعها الذى لا حد لقدرته ولا نهاية لعلمه !

وليت شعرى بعد ذلك كله أى عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع : أهو عقل الأفراد أو عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط إذا اختلفت

العقول ، وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت فيما بين أفراد مثل نوع الإنسان الذى هو مظهر المتناقضات ومجمع العجائب والغرائب ؟ وقد خاطب الله الخلق جميعاً بقوله : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)[١] ويقول فى حق الإنسان : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا)[٢] . ولقد نرى فى تخبطه وتناقضه وارتباكه فى أحواله واضطرابه فى أعماله الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والقصور . فعلام تلك الكبرياء وهو من الضعف بحيث يرثى له ويشفق عليه ؟ !

الموضوع :

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلى ، وقياس الشاهد على الغائب ، وإرجاع ما لم يعلموا إلى ما علموا ، والجاهل لا يعرف قدر نفسه ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فهو فى دائرة العدم (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ)[٣]

ومن الغريب الذى يؤسف له أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول إلى القمر ويفكر فى إعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم ساكن بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب والاكتشاف يأتى بالغرائب . ولكن إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء قامت قيامتهم ، وهدرت شقاشقهم ، وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من خبث وإلحاد .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥
(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢
(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩

وسنتكلم معهم بما يخضعون له إذا سمعوه عن ساداتهم الأوربيين « الذين لم يعلموا علمهم ولا أحسنوا تقليدهم » .

أما الكلام فى الموضوع من الجهة النقلية فأظن أنه لا يعنيهم كثيراً ، ولا يقنعهم لا كثيراً ولا قليلا . ومع هذا فنقول فيه كلمة موجزة من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب للعلم ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة ، ولكنه يؤول ويحرف اغتراراً ببعض الروايات ، إجابة لنزعة عنده وعقيدة لديه لا تبعد كثيراً عن عقيدة الماديين ، وإن كان مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح تمسك ببعض روايات مطعون فيها ، كالرواية عن عائشة التى ردها الحفاظ وقالوا إنها غير صحيحة من وجوه عديدة لا نطيل بها ، وكرواية شريك بن أبى نمر التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه ؛

وليس الغرض إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة يعرفها ذلك الفريق من إخواننا المتفيهقين من الشيوخ . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل ما رآه ، أو يتشوش بكل ما رواه ، بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود والضعيف والصحيح ، ومن يجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ، أو يرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق .

وما أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الاسراء كان بالروح بعد مايقول الله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(١) .

فهاأنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت « بسبحان » المشعر باستعظام ما كان من الأمر والتعجيب منه لجلالته ، وهو لايصح موقعه ولايتناسب وبلاغة القرآن الحكيم الا إذا كان ذلك أمراً غير معهود ولا مقدور لأحد من البشر .

ولو كان هذا الإسراء بالروح فقط لم يكن ثمة مايقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجيب، إذ لاخطورة فى إراءة النبى صلى الله عليه وسلم آيات ربه فى منامه ، فإن هذا أمر عادى يجوز أن يقع لكل أحد ، بل قد يرى الإنسان فى منامه رب العزة الذى هو أكبر من كل شىء ، وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : أن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول : (أسرى) وهو لايقال فى النوم كما قال القاضى عياض ، لأن مايقع فى النوم انما هو تخييل وضرب مثل لاغير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وانما يحسن ذلك إذا أسرى به ليلاً سيراً حسياً على ماهو المعهود المعروف .

ثم يقول : (بعبده) وهو نص قاطع فى الموضوع ، لأن العبد لايطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص بجملته المكون من الروح والجسد ، ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط ، فهم

(١) سورة الإسراء ، الآية ١

لايعرفون من العبد الا الشخص المحسوس المنظور ، كما فى قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى)(١) وقوله : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ)(٢) إلى غير ذلك .

ثم يقول : (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) ويقول فى سورة النجم : (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(٣) .

ولاشك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أسرى به إلى بيت المقدس ، وأنه عرج به إلى السموات العلا بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى ، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وانى أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك أن تنظر معى لقوله : (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مايرى) ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى: أفيسهل عليك أن تسلم أن المراء والجدال كانا فى رؤية منامية؟ وهل يكون فى رؤية الروح وحدها فى المنام جحود ومجادلة؟ وهل لذلك وقع عند القائل أو السامع حتى تذكر فيه تلك الآيات ، وتحصل به تلك الحركات والمجادلات ، ويتنود بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية ، وهل ينكرون على أنفسهم ذلك حتى ينكروه عليه صلى الله عليه وسلم ؟

(١) سورة العلق ، الآية ٩ (٢) سورة الجن ، الآية ١٩

(٣) سورة النجم ، الآيات ١٢–١٨

لاشك أن مناكرتهم ومجادلتهم ماكانت الا لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لامناما ، فهذا هو محل الاستبعاد والاستنكار ، فإنه غير معهود لديهم ، ولامن متناول قدرتهم .

أما منامات الأرواح فيجوز أن تقع لكل أحد حتى المشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَايَرَى) ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم على أن صاحبهم ماضل وما غوى ، ويقول : أنه رأى ولا يليق أن تماروه فيما رآه ، هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) وينوه بأمر هذه الرؤية ويقول إنها عند سدرة المنتهى ويجعلها مرة أخرى لرؤيا منام ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤية جبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح حين رآه صلى الله عليه وسلم بحراء على صورته التى خلقه الله عليها قد سد الأفق ، هل يقولون أن ذلك كان مناماً أيضا ، أم يفرقون بينهما والقرآن لم يفرق وجعل الرؤية فى المرة الأخرى عند سدرة المنتهى كالرؤية الأولى فى الأرض بلا فرق ؟

فهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين فى المنام والأخرى فى اليقظة ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) لروح النبي دون جسده وتغاير بينه وبين ماقبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه صلى الله عيه وسلم لاعلى روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول : إنها رؤيا منامية مع قوله تعالى : (مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) ؟ وهل يقال ذلك فى أحلام النائمين ؟ اللهم إن ذلك لايقال إلا فى أوهام الواهمين .

وهل يقال فى الرؤيا المنامية : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)[١] ؟ ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ؟ فإن كل إنسان يرى بروحه من الكون ما شاء الله أن يرى ، فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ (الرؤيا) دون (الرؤية) فقد رده أهل اللغة واستشهدوا عليه :

* ورؤياك أحلى فى الجفون من الغمض *

على أنه جاء فى القصة ماهو قاطع فى الموضوع : فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بذلك هاج هائجهم وقامت قيامتهم ، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، ومنهم القائل له : لقد كان أمرك أمما «أى قريبا» قبل هذا . حتى ورد أنه إرتد بعض من دخل فى الإسلام . فهل ترى — أيدك الله — أن ذلك كله كان من أجل رؤيا منامية ؟

بل فى القصة ماهو أكثر من هذا ، وهو أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن عيرهم التى كان فيها تجارتهم ، فأجابهم صلى الله عليه وسلم بأنه مر بها ، وقد نَدَّ منها بعير فانكسر ، وأنه مر بعير أخرى قد ضلوا ناقة لهم ، وكان معهم قدح من الماء فشربه صلى الله عليه وسلم. وقد سألوهم عندما قدموا مكة فصدقوا ذلك كله . وفى القصة أكثر من هذا .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦٠

فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح ؟ وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن عيرهم وعن بيت المقدس وأبوابه وكل مايتعلق به إذا كانت الرؤيا منامية؟ وأى علاقة بين رؤيا المنام وبين عيرهم التى تجىء من الشام ، وقد رأى لهم عدة قوافل من تجارهم وأخبرهم عنها ؟

ولانزال نقول : أى معنى لقصة قدح الماء إذا كانت الرؤيا منامية وأظن أن هذا القدر كاف للمنصف . ولو شئنا لأطلنا .

الفريق الأول الذى يتمسك بالشبه العقلية :

يقول هذا الفريق :إنه يستحيل العروج إلى السماء لأن بيننا وبينها كرة نارية كما قرره الفلاسفة الأقدمون . ونقول له: أن ذلك خيال لم يقم عليه برهان ،والفلاسفة العصريون ينفون ذلك بتاتا . فهذا كاف فى إسقاط ذلك الزعم . وستسمع عن ذلك جوابا آخر مشتركا دافعاً للشبه كلها .

ويقول العصريون فى استحالة ذلك ؛ إن الهواء يرتفع عن الأرض مقدار بضعة آلاف من الأمتار ، فإذا وصل الإنسان إلى ذلك الحد لم يمكنه أن يعيش ، لأنه لايجد من الهواء مايتنفس به ، فلابد أن يموت ، وقد وصلوا بطياراتهم إلى مايقرب من ذلك فخرج الدم منهم بهيئة منكرة لفقد الضغط الجوى .

ونقول فى دفع هذه الشبهة : إن ذلك مسلم ولا نمارى فيه ، ولكن هناك قوانين أخرى لايعرفها الماديون ، ومحال أن يصل إليها الطبيعيون ، ذلك أن الأرواح الإنسانية من عالم آخر لاتسرى عليه قوانين هذا

العالم ، فإذا غلبت على الإنسان روحانيته كان الحكم للروح لا للجسد ، فكان السائد عليه هو النواميس الروحانية لا الجسمانية .

ومتى ساد سلطان الروح سلطان البدن كان الحكم للروح لا للبدن ، فيمكنه أن يطوى المسافات البعيدة فى لحظة قصيرة ،ويمكنه أن يرى المغيبات على حد محدود ، ويمكنه أن يخترق الجدران ويقتحم المهالك من غير أن يحصل له ضرر أو يلحقه ألم .

ومن هنا جاءت كرامات الأولياء. وإذا كنا نصدق بذلك فى الجن ، وأرواح النوع الإنسانى أعظم لطافة وأقوى نفوذاً وأشد قرباً من الملأ الأعلى ، فلماذا نستبعد ذلك فى خواص البشر الذين غلبت عليهم الروحانية حتى صاروا كأنهم من الملأ الأعلى ، وبذلك تنخرق لهم العادات ولا تحكم عليهم نواميس المادة ؟

براهين عصرية على ذلك :

وما لنا نذكر كرامات الأولياء أو معجزات الأنبياء ، وبعض العصريين لايقتنعون بذلك ،ولعلهم يعدونه من الخرافات والترهات ؟ فلنسق لك ماهو أقرب إلى إقناعهم وأليق باستعدادهم فنقول :

قد ثبت ثبوتاً لاشك فيه أن المنوم تنويماً مغناطيسياً يسأل عما فى البلاد البعيدة فيجيب عنها بأجوبة صحيحة ، فهل يمكن تعليل ذلك بالتعاليل المادية ؟

وقد قالوا : إن المنوم (بصيغة اسم الفاعل) إذا أمر المنوم « بصيغة اسم المفعول » أن يخوض النار وأفهمه أنها ليست ناراً ، خاضها ولم

نؤثر فيه ، لأنه تحت سلطان الروح فله حكمها ، والأرواح لاتؤثر فيها النيران ولا تحكم عليها هذه النواميس «وسلطان الروح فوق سلطان المادة» .

وقد قالوا : أنهم جاءوا للمنوم بالنوشادر المركز الذى إذا شمه أحد مات لوقته فلم يؤثر فيه أدنى تأثير ، فقام بعض الأطباء ، وقال : أن ذلك غش وخداع ، فأخذ النوشادر المركز وشمه فخر ميتا . وأعاجيب التنويم المغناطيسى أصبحت لمس اليد ورأى العين . وسرها ماذكرنا من أن سلطان الروح فوق سلطان المادة .

وإذا ثبت هذا فلتعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم عند العروج كان على غاية مايكون من الروحانية ، بل كانت روحانية إذ ذاك فوق روحانية جبريل عليه السلام ، ولذلك ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدرة المنتهى وقال له : لو تقدمت أنملة لاحترقت .

فإذا وصل النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الحد الذى يتخلخل فيه الهواء أو ينقطع بالكلية ، وقد غلبت عليه الروحانية من كل جهاته ، لم يكن لذلك تأثير فيه ولا ضرر عليه لما قررناه

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما أصبح معروفاً لا ينكر ، وهو أن بعض الهنود يوضع فى صندوق باختياره أو يدفن فى موضع من الأرض عشرين يوما وثلاثين يوما أو أكثر من ذلك ، ثم يخرج ويعمل له ما يرجعه إلى حسه ولا تفارقه الحياة مع أنه كان لايتنفس أصلا فى تلك المدة ، فكيف مثل ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وهو سيد الروحانية وأفضل الخلق أجمعين ؟

وهذا تنزل يقتضيه الحال وقوانين الجدال ، وإلا فلست أدرى كيف يقيسون عالم الملكوت على عالم الملك ، وأحكام الأرواح على أحكام الأشباح مع أنهم لم يتقنوا علومهم المادية ، وكثيراً ما تخبطوا فيها فنقضوا ما أبرموا . وهو شأن هذا النوع الضعيف منذ خلقه الله إلى أن تقوم الساعة !

ولقد أقام العالم ثمانية عشر قرناً يدين بنظرية « بطليموس » صاحب كتاب « الماجسطى » فى الأرض والشمس وأدورتها ، وغير ذلك من النظريات الفلكية ، حتى جاء دور الانقلاب العلمى فى القرن السادس عشر ونادى العلامتان (كوبرنيق) و (كلبر) الألمانيان والبحاثة (غاليلى) الإيطالى بعكس نظرية السابقين ، وأثبتوا فرضاً مخالفاً لفروضهم ، ثم جاء (اينشتين) فى عصرنا هذا فرد عليهم وقلب نظرياتهم رأساً على عقب . ولا ندرى ماذا يجىء به الغد .

وقد بين ذلك رئيس وزراء انجلترا المسيو بلفور منذ زمان بعيد حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٤ وأطال فى ذلك حتى قضى به على معرفة كنه المادة ، وأن منتهى علمها مبتدأ جهلها ، كما يقول الشاعر العربى :

كأن الحب دائرة بقلبى   فحيث الابتداء الانتهاء

الخلاصة :

والخلاصة أن الإسراء لو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولا استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر .

ويؤكد ذلك مجيء جبريل له بالبراق ، وخبر المعراج ، واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد ، ولقاؤه الأنبياء فيها وترحيبهم به ، وخطبهم فى بيت المقدس ورده عليهم ، وصلاتهم وراءه ، وتعيين محل كل واحد منهم والأخبار عنه بخبر خاص ، وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى فى ذلك ، وقوله : « ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » وأنه وصل إلى سدرة المنتهى . إلى غير ذلك مما جاء فى القصة .

وهل عهد مثل ذلك فى رؤيا المنام ؟ وهل يقال فى رؤيا المنام : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) أو بشأنها هذا التنويه كله ؟ وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة وهى عمود الإسلام فى المنام على حين أن غيرها كان فى اليقظة ؟!

ولست أفهم إلا أن هذا إنكار لقدرة الله ، وإذا فتش عن إيمان ذلك المنكر وجد ضعيفا به خلل وفيه دخل. وما درى ماذا يصنع فى مثل قوله تعالى (قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ « أى عرش بلقيس » قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)(1) وقوله : (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِى اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(2) وقوله : (فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا)(3) إلى غير ذلك من

(١) سورة النحل ، الآية ٤٠
(٢) سورة البقرة ، الآية ٧٣
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٠

الآيات والمعجزات ؟ ! وإن الإيمان بذلك كله سهل لدى من يعتقد أن الله على كل شيء قدير ، وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا .

ولنرجع للموضوع فنقول بالاختصار :

لو كان منامًا لم يكن فيه آية ، مع أن الله يقول : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) ؛ ولو كان المعراج فى النوم عند عائشة رضى الله عنها كما يزعمه بعضهم لما أنكرت رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه . فهى لم تنكرها إلا لفهمها أن ذلك كان يقظة لا مناما ، لأن رؤية المنام لا تنكر من عائشة ولا من غيرها.

وبعد : فقد عرج به صلى الله عليه وسلم ليستبين بذلك العروج أن مقامه فوق مقامات الأنبياء ؛ حيث ارتفع عليهم جميعاً حتى سمع صريف الأقلام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلا على غير ميعاد ولا رياضة سابقة لكمال استعداده صلى الله عليه وسلم ، ليعلم ما بينه وبين غيره من الفرق فى التقريب والاصطفاء .

وكأن العلو الحسى مستتبع للعلو المعنوى. فكلما ارتقى فى درجات السموات وما فوقها كان يرتقى فى درجات الروحانية والاستغراق فى جلال الله وعظمته . ولا غرو فالأماكن لها خصائص ومميزات . وانظر إلى الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات حتى استحقت أن تسمى بيت الله الحرام .

ولتعلم أن قصة الإسراء والمعراج قد وردت عن كثير من الصحابة عد منهم فى المواهب اللدنية ستة وعشرين .

ولنقهر القلم على الوقوف عند هذا الحد ففيه مقنع وكفاية لمن أراد الله هدايته .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، بمنه وكرمه .

الفيلسوف والنبى (١)

جاءنا هذا السؤال من صاحب الإمضاء ، قال بعد الديباجة :
إننا نرى حكما عالية وقوانين صالحة للاجتماع والعمران لفلاسفة اليونان وغيرهم ، ونرى لهم بجانب ذلك معرفة بالله وثناء على الله وقد جاء عن سقراط وأفلاطون وغيرهما شيء كثير من ذلك ، وقد كانوا قبل المسيح ، فلماذا لا نعتبرهم أنبياء ، وقد أسسوا مدينة فاضلة وتلاميذ صالحين ؟

نرجو من فضيلتكم بيان ذلك والإسهاب فيه كما هى عادتكم ، أبقاكم الله للعلم والدين ، وحفظكم الإسلام والمسلمين بمنه وكرمه :

عبد الرحمن محمد
مدرس بالمدارس الابتدائية

الجـواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار ، أعرف خلق الله بالله ، وعلى آله وصحبه أجمعين :

أما بعد : فقد سئلت مثل هذا السؤال منذ زمان بعيد من عظيم من عظماء المصريين ، فأجبته بما اقتنع به إذ ذاك واليوم نذكر لك خلاصة

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثامن — المجلد السادس — شعبان — سنة ١٣٥٤

ذلك الجواب ثم نفيض فى الموضوع إفاضة لا تدع فى النفس شكا ، ولا فى الأمر ريبة ، فنقول وبالله التوفيق :

قلنا لذلك الباشا عندما سألنا عن ذلك : أن هناك فروقًا كثيرة بين النبى والفليسوف ، منها أن الفيلسوف إذا نزلت به نازلة أو سئل عن معضلة ، فزع إلى فكره فشحذه وإلى نفسه فأيقظها ، وإلى معلوماته فاستعرضها ، عسى أن يعثر فيها على حل أو يظفر منها بجواب :

أما النبى فإنه على العكس من ذلك يعمد إلى نفسه فيسكن من حركتها ، وإلى أفكاره فيهدىء من ثورانها ، وإلى حواسه فيقلل من تعلقاتها وبيعدها عن محسوساتها [1] ، ثم ينتظر الوحى من الله والتلقى عن الملأ الأعلى .

فإذا نزل عليه الوحى من عند الله صدع بذلك فى وضوح لا يمازجه تعقيد ، ولا يشوبه التواء عن المقصد ، ولا تحير فى الغاية ، ولا تحيل على إصابة الصواب ولا استعانة بتجربة أو التجاء إلى مقدمات طويلة كثيرا ما تنحرف بالناس أو ينحرف فيها صاحبها عن المنهج القويم والصراط المستقم ، فيعدل به نظره القاصد وضعفه البشرى عن الحق ، وقد يوقعه فى شقاء بالغ من حيث لا يشعر .

(١) اشتهر الآن استعمال المحسات وتخطئة من يعبر بالمحسوسات . وهو خطأ بين كما أوضح ذلك كل الإيضاح صاحب الجاسوس . ولصاحب المخصص ما يفيد ذلك أيضاً (راجع الجاسوس على القاموس) .

فالنبى يروى عن رب المخلوقات المحيط بها ، العالم بأسرارها (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ولم يعشه عنها سواطع أنوار
رأى حكمة قدسية لا يشوبها شوائب أنظار وأدناس وأفكار

فالسبيل المأمونة والجادة الواضحة : إنما هى سبيل الأنبياء ، والمرسلين لا سبيل الفلاسفة التى ترمى بك فى ظلمات الأوهام البشرية ، وشبهات التخيلات النفسية ، على ما ستسمع اليوم ، إن شاء الله .

ثم قلت لذلك العظم : أن الفلاسفة أنفسهم لم يدعوا النبوة ، وربما كانوا غير قائلين بها ، فكيف ندعيها لهم وهم لم يدعوها لأنفسهم

ثم ان للنبوة آيات لابد منها : من صفات ذاتية ، ومعجزات حسية ومعنوية ، ونفوس جاوزت أطار البشرية ، واستقرت فى تلك العوالم القدسية ، فهى لا تعرف غير الله ، ولا تحدث عما سوى الله إلا بما جاءها عن الله ، قد اتسع نظرها ، وتم نورها ، فعلمت من حقائق الأشياء مالا يعلمه غيرها ، وعرفت من جلال الله ما لا يعرفه سواها . إلى آخر ما قلت لذلك الباشا فى ذلك العهد .

ولنبين ذلك الإجمال ، ونذكر لك شيئاً من صفات النبوة وخصائها التى جبل عليها الأنبياء ، فنقول :

إن ما فى ذات النبى نوراً خلقياً فى أصل تكوينه اقتضته درجة روحه الشريفة « وبين الأرواح من التفاوت فى الدرجات واختلاف الاستعدادات ما لا يعلمه إلا الله تعالى » .

وبذلك النور لا يمكن تلك الذات التى خلقت على هـذا الوجه إلا أن تكون على أكمل الفضائل . فهى مثلا تقول الحق وتقدسه ولو كان فيه حتفها وهلاكها ، فإن ذلك من سجيتها وطبيعتها ؛

وقد طلب المشركون منه صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله وراودوه على ذلك بكل حيلة ، فأبى وامتنع ثم نصبوا له العداوة ورموه عن قوس واحدة ، فما زاده ذلك إلا تثبتاً ورسوخاً ، لأن الذات الشريفة مطبوعة على قول الحق لا يتصور منها غيره .

ومن تلك الصفات التى جبل عليها النبى الرحمة بجميع المخلوقات حتى الحيوان الأعجم ، ولذلك جاء صلى الله عليه وسلم فى باب التحذير من القسوة بما تعجب له ، وأبان من جزاء الشفقة على خلق الله ما لا غاية وراءه ، فذكر فى الحديث الصحيح أن امرأة دخلت النار فى هرة عذبتها . وجاء فى الصحاح أيضاً أن رجلا مسرفاً على نفسه وجد كلبا يلهث من العطش فسقاه حتى أرواه فشكر الله له ذلك فغفر له . إلى غير ذلك مما ينبئك عما كانت تمتلىء به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرأفة بجميع المخلوقات .

وهكذا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فهم أبر الناس بالناس وأنفع الناس للناس . وأعظمهم فى ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، حتى أن ما تراه من شدته صلى الله عليه وسلم على الكفار والمشركين فمنشؤه إنما هو رحمته بهم وشفقته عليهم أن تجتالهم الشياطين فتأخذهم عن السعادة الأبدية إلى الشقاء الأبدى ، فيشقون وتشقى بهم الإنسانية

كان حربه صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة حرباً لجند الشيطان الذى يريد أن يسلب الإنسان سعادته . إلى آخر ما لا يسع المقام تفصيله وبيان أسراره .

ومما يجب أن نبينه هنا أن للأنبياء أذواقاً فى الأشياء لا يعرفها إلا الخواص من عباد الله ، فإن أكثر من فى الأرض لا يذوقون إلا الحسيات ، ولا ذوق لهم فى المعنويات وما أودع فى الأشياء من لطائف وأسرار . وقد يقرب إليك ذلك بعض التقريب ما ترى أو تسمع من عشق أرباب النفوس الطاهرة لمعالى الأشياء ، وإيثارهم العلم والمعرفة على كل شىء ، لأنهم يذوقون من ذلك لذة تفوق كل لذة مادية ، وقد قال قائلهم :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى   من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طرباً لحل عويصة   أشهى من النغمات للعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها   نقرى لألقى الرمل عن أوراقى

ولعلك ذقت من هذا شيئاً ، فلا نطيل فيه .

ولا بد لنا فى هذا المقام من أن نشير إلى أن أرواح الأنبياء من طراز آخر فى علمها وقوتها وكل صفاتها ، ولذلك تظهر عليها خوارق العادات ، من كشف المغيبات وظهور الآيات ، مثل ما حصل له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج

ومن ذلك ما يقال إن عيسى عليه السلام كان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (أبيت عند ربى

يطعمني ويسقيني) فهو لا يحس بتلك المؤلمات إلا إذا رجع إلى هذا العالم وسادت عليه أحكامه وقوانينه ، أما ما دام عند ربه فهو أرفع من أن تؤثر فيه تلك النواميس المعروفة ، أو تسيطر عليه هاتيك القوانين المشاهدة . إلى غير ذلك من المعجزات المأثورة ، والخوارق المشهورة .

أما علمهم بحقائق الأشيا وما غيب عنا من أمور الآخرة وما يكون فيها فهو علم يشبه علمنا بالمبصرات بالبصر والمسموعات بالسمع ؛ بل حواسنا قد تخطىء ويقع الغلط والاشتباه فى مدركاتها ، بخلاف علمهم وما ينكشف لبصائرهم من الحقائق والمغيبات .

ثم نلفتك بعد ذلك إلى ما تعرفه من تفاوت الناس فى العلم ؛ وأن ما يكون قطعيًا لبعض الناس يكون ظنيا لبعض آخر ، بل قد ينكره كل الإنكار لبعد ما بينه وبينه حتى لا يتأتى له أن يفهمه أو يسلمه .

وبالجملة فاستعداد الرسول أشرف استعداد ، وتكوينه أجل تكوين ؛ وبهذا كان مهيئًا للرسالة والتلقى عن الملأ الأعلى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)(١) . فليس قلبه كبقية القلوب ، وإنما هو قلب امتلأ بنور الله ، لكونه غارقًا فى عظمة الله ، مفعمًا بجلاله معرضًا عما سواه .

وأين للفلاسفة ذلك النور الذى كان يرى به صلى الله عليه وسلم كما فى الحديث الصحيح – أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، وفيه أنه رأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤

وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو يحفر خندق المدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة حين مات وهو صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فخرج إلى المصلى فصلى عليه ، إلى غير ذلك .

ذلك كله من أجل ما أودع فيه من النور الساطع والاستعداد الرفيع الذى أهله لخرق العادات بطريقة لا يكاد يعرفها الماديون ولا يعقلها غير الروحانيين . وكيف يدركون ببشريتهم الظلمانية أسرار ملكاته النورانية ؟

ولنقرب لك الأمر بعض التقريب فنقول :

إن الروح من عالم آخر له نواميس أخرى يستوى فيها القريب والبعيد والظاهر والخفى . على أننا رأينا فى عالم الماديات من العجائب ما يسهل عليك التصديق بذلك عن بصيرة واقتناع بعد ما ورد فى دينك وشريعتك :

فإن أشعة (رونتجن) تحول الأجسام الكثيفة المعتمة إلى أجسام لطيفة شفافة ، وتظهر ما يتخللها من العظام وغيرها ، وأشعة (اف) التى بواسطتها يمكن كشف المعادن فى باطن الأرض وإحراق البارود فى باطن البواخر ومكامن الحصون .

فما بالك بأشعة الله الذى خلق أشعة رونتجن ، واف ، وعلم الانسان ما لم يعلم ؟

فلا بد أن تعرف أن للأنبياء قوى روحانية اختصوا بها فلا توجد فى غيرهم . ولذلك سمع سليمان عليه السلام كلام النملة ، فما سمعه

إلا بسمع الروح لا بسمع الجسم الطبيعى . « وكيف نستغرب ذلك وعلماء الحيوان الآن يثبتون للنحل وغيره حاسة لا توجد فينا ويذكرون من أفاعيل النمل ما يعجب له الإنسان العاقل ؟ » .

وقد قال يعقوب عليه السلام : إنى لأجد ريح يوسف ، فأحس بها وشمها من مسيرة أيام . فكيف يقاسون على غيرهم فى شىء من الإحساس والعلم والإدراك ؟ ولا غرو فقد قال الله تعالى فى الحديث القدسى فى حق عبده الذى تقرب إليه : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » . . . إلخ .

وإجمال القول أن نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صنف مخالف لسائر النفوس فى قواها الظاهرة والباطنة ، فنعوتهم وصفاتهم التابعة لها يجب أن تكون مخالفة لسائر النعوت والصفات التى فى غيرهم ، ومتى كان الروح الفاعل والجسم القابل فى غاية الكمال كانت الآثار فى غاية القوة والشرف والصفاء .

ولذا قيل إن صفات الأنبياء وقواهم الذاتية من خوارق العادات ، وأنه لو أمكن الناس أن يقفوا على كمال تلك النفوس لما احتاجوا فى التصديق برسالتهم إلى معجزة ، فإن فضيلة الصدق والأمانة مثلا إذا بلغت حد الكمال والإعجاز لا يقع معها كذب أو خيانة .

وقد آمن كثير من الصحابة وغيرهم « حتى من الأوربيين » بمعجزة النعوت غير ملتفتين لتلك الخوارق والمعجزات الظاهرة التى لا يعول عليها فى إيمانه إلا العامة وقد قال قائلهم فى حقه صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت خلائقه تنبيك بالخبر

وقد ذكر فيلسوف الإسلام العلامة ابن خلدون فى مقدمته : إن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى ، فينقطع منحطًّا إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية ، وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية الفكرية ، وهذا فى الأغلب هو من أن الإدراك البشرى الجسمانى إليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم .

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحانى وإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما خلق فيه من الاستعداد فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات ويسرح فى قضايا المشاهدات الباطنة ، وكلها وجدانات لا حدود لها . وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهى الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة فى البرزخ .

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة إلى الملكية من الأفق الأعلى ، ليصير فى لمحة من اللمحات ملكًا بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقه وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة .

وهؤلاء هم الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التى فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة . فإذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقوا من الملأ الأعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية فتنزلوا به إلى قواها لحكمة التبليغ اهـ .

وبهذا كله نعرف سر ما نوجبه لهم في علم التوحيد من أمهات الفضائل : كالأمانة ، والصدق والتبليغ والفطانة وما نحيله عليهم من السفاسف والدنايا التي تجوز على غيرهم .

وبعد : فهنا طريق قريب يعرفك مابين الأنبياء والفلاسفة من الفرق الشاسع والبون البعيد وهو أن تقارن بين ماسمعته عنهم وماسمعته عن الفلاسفة ، ثم تحكم بعد ذلك . فانظر مثلًا إلى مثل ما جاء في القرآن في تقرير علمه تعالى بكل شيء مثل قوله : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)[1] الخ . (ومَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ)[2] إلخ ، (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ)[3] إلخ . ثم لقول الفلاسفة إنه لا يعلم الجزئيات ، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى كتاب كبير .

الفلاسفة :

أما الفلاسفة فليست لهم هذه المراتب العالية ولا ذلك الاستعداد الرفيع الذي يؤهلهم للأخذ من الملأ الأعلى ، فهم يقولون بأفكارهم وعقولهم ، ولهذا قد تجد لهم من الخطأ الشائن والهفوات المزرية ما يسقط الإنسان العادي فضلًا عن الفيلسوف .

ولسنا ننكر أن لهم حكمًا بليغة إلا أن ذلك غير مقصور على من اشتهروا بالفلسفة فكثيرًا ما نجد للمجربين وذوي النفوس الكبيرة في كل عصر ما يوازي حكمة أرسطو وأفلاطون . ولعلماء الأمة المحمدية

(١) سورة الأنعام ، الآية ٥٩
(٢) سورة يونس ، الآية ٦١
(٣) سورة المجادلة ، الآية ٧

وصلحائها من ذلك ما لا تسعه الدفاتر . ولعلنا نورد شيئًا منه ومن كلام الفلاسفة ونقارن بينهما في عدد آخر :

وفلسفة هذا شأنها غير مأمونة ولا معصومة فإنها تعتمد اللباقة في التعبير والإغراب في التفكير ، وبهذا تعد فلسفة ولو كانت مستمدة من منبع الشهوات والأهواء كفلسفة أبيقور وأتباعه . ولعلنا نذكر شيئًا منها بعد .

ولنفكهك الآن بشيء من فكاهاتهم أو ترهاتهم ، فنقول :

شيء من ترهات الفلاسفة وفكاهاتهم :

إن (فيثاغورس) من أكبر فلاسفة اليونان وله أشياء نفيسة ومع هذا فقد كان يقول : « إن ذنب من يقتل الذبابة أو الزنبور أو غيرهما من الهوام ؛ مثل ذنب من يقتل إنسانًا » . ويزعم (انكسفوراس) أن السماء صنعت من حجارة كهذه الحجارة . وسبب ظنه ذلك أنه قد اتفق ذات يوم أن حجرًا سقط من جهة السماء فظن انكسفوراس أن السماء مصنوعة من حجارة ثم أخذ يفكر في علة لبقائها أبد الآباد فقال : « إن دوران الفلك أوجب بقاء تلك الصنعة بلا خلل بحيث لو اختل الدوران لحظة لفسد نظام السموات والأرض » فانظر إلى ذلك الخيال الواسع ومجاراته إلى حيث يريد .

ويذكر عن أرستيب الفيلسوف أن الملك بصق في وجهه يومًا من الأيام ، فعيب عليه في ذلك فقال بفلسفته الحمقاء : « إن الصياد يتحمل مشقة الصيد حتى يبتل بالبحر لصيد سمكة صغيرة ، فكيف لا أتحمل ريق الملك لصيد الحوت الكبير » واتفق أيضًا أنه ترجى

الملك ديلنسى لبعض أصدقائه فرده الملك ولم يقبل رجاءه فخر أرستيب على قدمى الملك وقبلهما ، فاستقبح ذلك بعض من كان فى المجلس فقال أرستيب : « لا لوم فى ذلك علىّ إنما اللوم على الملك حيث وضع أذنيه فى قدميه ؟

ومن كلامه الذى لا أدرى أتستحسنه أم تستقبحه قوله : « إن الحكيم لا ينبغى له أن يلقى بيديه إلى التهلكة لأجل حفظ وطنه فإن الدنيا كلها وطنه فليس من الإنصاف أن يخاطر بنفسه لأجل حماية المجانين »

وأكسينوقراط كان من عادته التى اقتضتها فلسفته تعطير أقدامه فسئل عن ذلك فقال : إن رائحة العطر الذى يوضع فى الرأس تطير فى الهواء بخلاف ما إذا عطرت الأقدام فإن الروائح تصعد إلى الأفق .

وذكروا فى تاريخ الفلاسفة أن أرستيب سافر إلى مدينة قورنته وركب البحر فصادفته ريح عاصفة أحدثت الرعب فيه إلى حد ممقوت إشفاقًا من الهلاك فسخر منه إخوانه فى السفينة ولاموه وقالوا له : كيف نحن مع جهلنا لم يصادف قلوبنا ما صادف قلبك من الفزع والخوف وأنت من عظماء الفلاسفة ؟ فما هذا الوجل وما هذا الاضطراب ؟ فأجابهم بقوله : إن أنفسكم ونفسى ليسوا فى درجة واحدة بل شتان ما بين الذى أخسره وبين ما تخسرون . فانظر إلى تلك الفلسفة المعكوسة التى تشقى صاحبها بلا شفقة ولا رحمة . لا جرم أن الجهل خير من تلك الفلسفة .

ثم انظر بعد ذلك إلى ما جاء به الأنبياء من تعظيم الحياة الأخرى وما فيها من السعادة الأبدية وتحقير هذه الحياة الدنيا حتى جعلها القرآن متاعًا وقتيًا وجعل الآخرة هى دار القرار حقرها صلى الله عليه وسلم حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، إلى آخر ما جاء فى الكتاب والسنة وهو كثير .

ومما يجدر التنبيه عليه أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا فيما جاءوا به من العلم فى غير الأحكام الجزئية التى يقتضيها اختلاف العصور وتباين الاستعداد . أما الفلاسفة فلا يكادون يثبتون على رأى واحد بل يتخالفون ويتناقضون .

وقد كانت فلسفة أرسطو مقدسة عند الأوربيين حتى جاء الفيلسوف (راموس) فنقضها فقتلوه فى وقعة (سان برسلمى سنة ١٥٧٢ م) وهى الواقعة التى قتل فيها كاثوليك فرنسا البروتستانت .

كلمة افلاطون فى أصناف الناس :

ولنختم موضوعنا هذا مما روى عن أفلاطون كبير فلاسفة اليونان ورئيس الحكماء الإشراقيين فنقول : قسم أفلاطون الناس إلى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) الجنود (٣) الصناع وأهل المهن . قال :

أما الأولون فهم المخلوقون للسيادة دون غيرهم ، وسماهم الصنف الذهبى . أما الجنود فهم حراس المملكة ، وأطلق عليهم الصنف الفضى . وأما الصناع فهم المخلوقون للصناعة العمياء ، ودعاهم الصنف الحديدى

أما العبيد فقال عنهم أنهم ماشية الأمة مثلهم كمثل البهائم السائمة فانظر إلى هذا وقارن بينه وبين من أوجب قتل الإنسان إذا قتل الذبابة وما بينهما من التناقض ، فإن أحدهما يحترم كل ذى روح ولو كان من أحقر الأشياء والآخر على العكس من ذلك فى أشرف نوع وأعلاه وهو نوع الإنسان ولهذا كانت الفلسفة فى كل عصر مثار الشكوك والأوهام ومبعث الاختلاف والتنازع حتى قيل :

نهاية أقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال (١)
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

حتى حرم بعضهم النظر فى كتب الفلسفة لأن ضررها أقرب من نفعها وشكها أكثر من يقينها . ثم قارن بعد ذلك كله بين كلام أفلاطون الذى يدعى بأفلاطون الإلهى » والذى أحترمه وأجله وبين ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم من احترام أفراد النوع الإنسانى وعقد المساواة بينهم وبث الديمقراطية الحقة فى الناس جميعاً فلم يجعل لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى وقد جاء فى القرآن الكريم : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ (٢)) وقد سمع صلى الله عليه وسلم أبا ذر يقول لعبده « يا بن السوداء » فنقم عليه ذلك وقال له : « إنك امرؤ فيك جاهلية »

(١) كان بعض أشياخنا يقرأ (العالمين) فى البيت المذكور بكسر اللام لا بفتحها
(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣

فأعتقه أبو ذر وصار من ذلك اليوم يسوى خادمه بنفسه حتى أنه إذا لبس حلة ألبسه مثلها . وقد جاء فى تعظيم سلمان الفارسى وبلال وغيرهما شىء كثير . ومن ينظر فى التاريخ يجد الموالى فى الإسلام قد اعتلوا من المناصب السامية والمنازل العالية مالا يسامى .

ولعلنا نعود لمعالجة هذا الموضوع مرة أخرى إن شاء الله تعالى .

بعض معجزاته عليه الصلاة والسلام(١)

فيها دلالة على كرامته على ربه

عرفت إن أفاضل الكتاب سيكتبون فى الهجرة الشريفة ما يكفى ويشفى وسيفيضون القول فيها بما لا يدع قولا لقائل ، فتركت لهم تلك النواحى كلها التى سيبرزون فيها ويأتون على الغاية منها .

وقد عن لى أن أقف القراء الكرام على شىء من معجزاته صلى الله عليه وسلم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وعلماً إلى علمهم فيزدادوا محبة له ومعرفة بقدره .

وقد أخذنا على أنفسنا إلا نذكر من تلك المعجزات إلا ما جاء فى الأحاديث الصحيحة فأقول وبالله التوفيق :

اخباره بالمغيبات :

فى القرآن من ذلك النوع شىء كثير كقوله تعالى (سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)(٢) وقوله : (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللهِ)(٣) وقوله : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ)(٤) وقوله : (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)(٥) وقوله : (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ

(١) مجلة الإسلام — السنة الخامسة — العدد ١ — المحرم — سنة ١٣٥٥ .
(٢) سورة القمر ، الآية ٤٥ .
(٣) سورة الروم ، الآيات من ٣ — ٥ .
(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ٩٥ .

تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ)(١) وقوله : (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ)(٢) .

إلى غير ذلك مما لا نطيل به فوقع كل ماقال على نحوما قال لم يتغير منه حرف واحد ، ولكنا نريد فى هذه العجالة أن نذكر لك بعض ماجاء فى السنة من أخباره التى جاءت مثل فلق الصبح كما أخبر .

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً » أخرجه مسلم . وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ ، فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى » أخرجه الشيخان. وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « هَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْمَاطٍ ؟(٣) ، قُلْتُ : وَأَنَّى تَكُونُ لَنَا الأَنْمَاطُ ؟ قَالَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فَكَانَتْ كَمَا قَالَ . فَأَنَا أَقُولُ لَهَا (يعنى إمرأته) أَخِّرِى عَنَّا أَنْمَاطَكِ فَتَقُولُ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَتَكُونُ لَكُمْ أَنْمَاطٌ فَأَدَعُهَا » أخرجه الشيخان وأصحاب السنن .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : « قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ مَقَاماً فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِى هَؤُلَاءِ ،

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤ .
(٢) سورة النور ، الآية ٥٥ .
(٣) هى ضرب من البسط له خمل رقيق ، كما فى النهاية .

وإنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ » . أخرجه الشيخان وأبو داود.

وعنه رضى الله عنه قال « أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فَمَا منه شيءٌ إلَّا وَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنْهُ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ مَا يُخْرِجُ أَهْلَ المَدِينَةِ مِنَ المدينةِ » أخرجه مسلم .

وعن عمرو بن أخطب الأنصار رضى الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمًا الفَجْرَ وَصَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتى حَضَرَتِ العَصْرُ فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأَخْبَرَنَا بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا » . أخرجه مسلم .

تكليم الجمادات له صلى الله عليه وسلم :

عن على رضى الله عنه قال : « كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ وَلَا جَبَلٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ . أخرجه الترمذى فى صحيحه .

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إِنَّ بِمَكَّةَ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ لَيَالِيَ بُعِثْتُ ، إِنِّي أَعْرِفُهُ الآنَ » أخرجه مسلم والترمذى فى صحيحه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « جاء أعرابي إِلَى رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَقَالَ بما أَعْرِفُ أَنَّكَ رَسُولُ الله؟ قال أَنْ أَدْعُوَ هَذَا العِذْقَ مِنَ النَّخْلَةِ فَيَشْهَدَ لِي أَنِّي رَسُولُ الله فَدَعَاهُ فَجَعَلَ العِذْقُ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ حَتَّى سَقَطَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهِ عليه وسلم وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ارْجِعْ إِلَى مَوْضِعِكَ فَعَادَ إِلَى مَوْضِعِهِ

والتأم ، فأسلم الأعرابى » أخرجه الترمذى فى صحيحه وعن أنس رضى الله عنه قال « خَطَبَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى جذع فلمّا صَنَعُوا لَهُ المِنْبَرَ فَخَطَبَ عَلَيْهِ حَنَّ الجِذْعُ حَنِينَ النَّاقَةِ فَنَزَلَ صلى الله عليه وسلَّم فَمَسَّهُ فَسَكَنَ » أخرجه الترمذى فى صحيحه .

تكثير الماء والطعام معجزة له صلى الله عليه وسلم:

عن أنس رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحَانَتْ صَلَاةُ العَصْرِ فَالْتَمَسَ النّاسُ الوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَأُتِيَ صلَّى الله عليه وسلَّم بِوَضُوءٍ فَوَضَعَ يَدَهُ فِيهِ وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ ، قال فرأيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ ، فَتَوَضَّأَ النّاسُ عَنْ آخِرِهِمْ » . أخرجه الستة إلا أبا داود .

وعن جابر رضى الله عنه قال « عَطِشَ النّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ فَأَتَوْا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ وَقَالُوا لَيْسَ عِنْدَنَا مَا نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِك ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ المَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ فَتَوَضَّأْنَا وَشَرِبْنَا ، قِيلَ لِجَابِرٍ : كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً » . أخرجه الشيخان .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا . كُنا مع النَّبِيِّ صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي سَفَرٍ فَقَلَّ المَاءُ فَقَالَ : « اطلبوا فضلة من ماءٍ فجاءُوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ ثُمَّ قَالَ : « حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ وَالبَرَكَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى » فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنبع مِنْ بينِ أَصَابِعِهِ ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ » أخرجه البخارى والترمذى والنسائى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قالَ : « كُنَّا مَعَ النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم فى مَسير فَنَفِدَتْ أَزْوادُ القَوْمِ حَتَّى هَمُّوا بِنَحْرِ بَعْضِ إبلِهِم فقالَ عُمرُ رضى اللهُ عنه : يا رسولَ اللهِ لَوْ جَمَعتَ مَا بَقِى مِنْ أَزْوادِ القَوْمِ فَدَعَوْتَ اللهَ عَلَيْهَا ، فَفَعَلَ ، فجاءَ ذُو البُرِّ بِبُرِّهِ ، وذُو التَّمْرِ بتَمْرِه ، وذو النَّوَى بِنَواه ، قيلَ مَا كَانُوا يَصنَعُونَ بالنَّوَى ؟ قالَ كانُوا يمصونَهُ ويشربُون عليه ، فدَعَا عليها حتى مَلأَ القومُ مَزاوِدَهُمْ . ثُمَّ قالَ عندَ ذلك : أشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنِّى رسولُ اللهِ لَا يَلْقَى اللهَ بهما عَبْدٌ غَيْرَ شاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ » أخرجه مسلم .

وعن أبي هريرة فيهما رضى الله عنه قال : « أتيْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم يوماً بِتَمرات فقلتُ يا رسولَ اللهِ ادْعُ فِيهِنَّ بالبَرَكَةِ ، فَضَمهُنَّ ثُمَّ قَالَ : « خُذْهُنَّ فاجْعَلْهُنَّ فى مِزْودِكَ هَذَا ، وكلَّما أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ منهُ شَيْئاً أَدْخِلْ يَدَكَ فيهِ وَخُذْهُ وَلَا تَنْثُرْهُ نثراً » فَفَعَلْتُ فَلَقَدْ حَمَلْتُ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا فى سَبِيلِ اللهِ ، فَكُنَّا نَأْكُلُ منه ونُطْعِمُ حَتَّى كانَ يومَ قُتِلَ عثمانُ رضى الله عنهُ فَسَقَطَ فَحَزِنْتُ عليه » . أخرجه الترمذى فى صحيحه .

اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال أبو جهل : هَلْ يُصَلِّي محمد لربِّه بينَ أظهُرِكم ؟ قالُوا : نَعَمْ . قَالَ واللَّاتِ وَالعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُه يفعلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِه أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فى التُّرَابِ ، ثم إنه أَتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وَهُوَ يُصَلِّي لِيطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ ، قَالَ فَمَا فَجَأَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عقبيْهِ وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ مَالَكَ ؟

قَالَ إِنَّ بَيْنِى وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقاً مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وأجنحة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَو دَنَا لَاخْتَطَفَتْهُ الملائكةُ عُضْواً عُضْواً » فَأَنْزَلَ اللهُ تعالَى : (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)[1] إلى قوله : (كَلَّا لَا تُطِعْهُ واسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) أخرجه مسلم .

وهذا بحر لا ساحل له . وقد ألفت العلماء فى دلائل النبوة كتبا كثيرة فلنقتصر على هذا – ولنفسح المجال لغيرنا – سائلين الله أن يجعله عاماً مباركاً يعلو فيه شأن الإسلام والمسلمين بمنه وكرمه .

---

(١) سورة العلق ، الآية ٦ .

بمناسبة الإسراء والمعراج [1]

من المعلوم أن الله تعالى منزه عن الجهات وعن صفات المخلوقات ، وقد أولع بعض الناس الآن بذكر آيات المتشابهات للعامة التى لا ينبغى أن يتكلم بها إلا فى مجالس الخاصة من العلماء عند الاقتضاء .

ومن ذلك ما ورد فى الإسراء والمعراج . فرأينا أن نكتب كلمة فى ذلك راجين من أولئك المتفيهقين أن يتقوا الله ولا يذكروا للعامة إلا ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، فإنهم لا يعرفون من الأشياء إلا ظواهرها ، فنقول وبالله التوفيق .

يدل على التنزيه فى قصة الإسراء والمعراج وأنه ما كان لقطع المسافات فيما بينه صلى الله عليه وسلم وبين الله تعالى أو لكونه على عرشه كما فى عبارات كثيرة لابن تيمية وابن القيم وأتباعهما دلائل كثيرة نقلية لمن تبصر فضلا عن البرهان العقلى الذى يوجب له التنزيه ونفى التشبيه :

فمن ذلك افتتاح السورة بـ (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى) [2] المقتضى للتنزيه تنبيهاً على عدم تحيزه ونفى اختصاصه بجهة .

الثانى : قوله (أسرى بعبده) فأتى بالباء المفيدة للمصاحبة تنبيها على مصاحبته تعالى له فى حالة إسرائه وأنه ليس نائياً ولا بعيداً عنه

(١) مجلة الإسلام — السنة الخامسة — العدد ٢٩ — رجب — سنة ١٣٥٥ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١ .

فيحتاج فى قربه إلى قطع مسافة مكانية . وقد قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ » .

الثالث : قوله (بعبده) تنبيهاً على أنه على حسب التحقق بخضوع العبودية يكون الترقى إلى حضرة الربوبية لا بقطع المسافات أو كثرة الحركات .

الرابع ، قوله (ليلا) كان لفظ الإسراء مفيدا لذلك تنبيهاً على أن كل ما تضمنه الإسراء كان خارجاً عن العادة فى مثله .

فإنه جعل العلة فيه أن يريه من آياته والإراءة العادية سلطانها النهار فقال : (ليلا) ليعلم أن الرؤية المقصودة ليست عادية بل هى رؤية أريها بنور ربانى سلطان موسمه الليل دون النهار .

الخامس : قوله (من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) تنبيه على أن الإسراء لو كان لضرورة رؤية ربه لكونه مخصوصاً بجهة العلو لم تكن حاجة بالذهاب إلى المسجد الأقصى ولأمكن الترقى من مكة إلى السماء . فدل على أن الإسراء والترقى من مكان إلى مكان لحكمة وراء ما زعم مثبت الجهة من المشبهة وأذيال المشبهة .

وفى ذلك إشارة إلى أن العبد لايصل إلى الله تعالى إلا فرداً تحقيقا لقوله (وَكُلُّهُم آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً) [1] ولا تتحقق له الفردية الا بعد مفارقة الحوادث وتجرده عنها. فهناك يصل إلى حضرته تعا

(١) سورة مريم ، الآية ٩٥ .

وصولا لايشبه وصول الأجسام وقد جاء الكتاب العزيز بالتنبيه على أن حضرة عنديته وراء دوائر السموات والأرض حيث قال تعا : (ومن عنده) فعطف (من عنده) على من فى السموات والأرض والعطف يقتضى المغايرة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لو دلى أحدكم بحبل فى بئر لوقع على الله[1]» فنبه صلى الله عليه وسلم على عدم تحيزه فى السماء وأنه ليس مختصا بجهة .

هذا وإذا أردت مزيد التبصر فى أن الإسراء وعروج الملائكة ورفع عيسى وإدريس صلى الله عليهم وسلم إلى السماء لايدل على أن الله تعالى مخصوص بجهة السماء فاعتبر فرض الحج على العباد إلى البيت الحرام وأمر الله تعالى إلينا بالتوجه إليه من جميع الجهات وجعل سكانه جيران الله تعالى وحجاجه وفده وضيفانه ، والحجر الأسود يمينه ، فماذا تفهم من كون الكعبة بيت الله وكون الحجر الأسود يمينه تبيخ ؟ ...

أظنك لاتعدو به التمثيل وبيان الاعتناء بزائريه الذين جعلهم ضيوفه وطلب منهم تقبيل الحجر ليكون بمنزلة تقبيل يمين الملك .

إلى آخر مالا تسعه هذه العجالة ، ثم انظر إلى مثل قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)[2] . وقد قال (لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)[3] . ولكن إذا كان المقصود بالسياق

(١) كما فى سنن الترمذى . (٢) سورة الزخرف ، الآية ٨٤
(٣) سورة النحل ، الآية ٤١

تحذير أهل الأرض وتفخيم الأمر جاء التعبير بمن فى السماء فإن مظاهره السماوية هى المشاهدة بالبصر وهى أجل وأعظم فى النفوس من مظاهر الأرض .

وأما تنزيل التدبير وعروجه المشار إليه بمثل قوله : (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)[1] فتكون السماء محل التصريف والفعل ، والأرض محل القابلية والانفعال ،فهو كما قال بعض العارفين (عروج روحانى وسر رحمانى وكشف عرفانى) . أسأل الله أن يلهمنا الرشد فى كل شيء وأن يعرفنا أسرار كتابه ولطائف خطابه .

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢

عظمته صلى الله عليه وسلم [1]
ووجوب محبته

(١)

رأينا أن نكتب كلمة فى هذا الموضوع الخطير بمناسبة ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم ، وقد جاءنى هذان البيتان عفواً بهذه المناسبة :

أحبّ رسول الله تحظ بما تشا ... فإن جميع الخير فى ذلك الحب
وكن راضياً بالله مولًى وسيداً ... وأخرج جميع الكائنات من القلب

فنقول : لاشك أنه يأخذ منك العجب كل مأخذ ، ويمضى بك اليقين بعظمته صلى الله عليه وسلم إلى أعلى غاياته ، إذا تأملت فى نظره إلى بواطن الخلق وظاهرهم وتربيتهم بما هيأهم لأعلى الدرجات وأسمى الغايات .

فانظر إلى سياسته العامة والخاصة ، وحسن سيرته مع الجميع ، وما نقل عنه من مكارم الأخلاق ومحاسن التعاليم وأحكام الشرائع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب . إذ هو النبى الأمى الذى جبل على أفضل الغرائز تهيئة له من خالقه عز وجل كى يكون رسولا لجميع الأمم فى جميع الأزمان إلى يوم القيامة .

ولا غرو ؛ فشريعته جاءت بكل مايحتاج إليه نوع الإنسان فى كل عصر وجيل إلى يوم البعث والنشور ، مما كان برهانا ساطعاً على نبوته ، وأنه خاتم المرسلين ، وأن كتابه تنزيل من رب العالمين .

وعندى أن معجزاته المعنوية أكثر وأبهر من معجزاته الحسية لدى أرباب العقل والبصيرة : وقد قال وهب بن منبه : قرأت فى واحد وسبعين كتابا أن النبى صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلًا ، وأفضلهم رأيا . وقد قال جبريل عليه السلام للبراق لما استصعب عليه ليلة الإسراء : (مَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَفْضَلُ مِنْهُ صلى الله عليه وسلم) . ولعمرى أن ذلك لثابت بشهادة العقل والنقل . ومن كرامته على ربه أنه نوه به فى كتب الرسل السابقين والأنبياء المتقدمين (يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1] .

ومن كرامته على ربه أنه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أنهم يؤمنون به وينصرونه إذا أدركوه ، وأكد ذلك غاية التأكيد ، اعتناء وإشادة بشرفه وعظمته فقال : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي . قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)[2] . فانظر إلى هذا التأكيد وهذه العناية العجيبة حيث يقول : (أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي . قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨١

وانظر إلى ثناء الله عليه فى الآيات الأخرى حتى أصبح قرآنا يتلى كى لا يغيب عن الأذهان ، فتراه يقول : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ . حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)(١) . فقد أعطاه فى هذه الآية كما قال بعضهم اسمين من أسمائه تعالى حيث سماه رءوفا رحيما . ويقول : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ونذيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)(٢) . فانظر إلى ذلك الثناء العاطر ، والتنويه الباهر ، وما زاد فى مدح الشمس على أنها سراج . ولا غرو فهو صلى الله عليه وسلم شمس الوجود ، ومظهر الفضل والجود . ويقول فى حق أمته : (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)(٣) .

ثم انظر إلى ما يبهر عقلك ، ويدهش لبك ، ولا يستسيغه إيمانك حيث يقسم تعالى بحياته فيقول له ملاطفًا معظمًا : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)(٤) . ويقول فى بيان صفاته الكريمة وأخلاقه العظيمة : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٥) . وناهيك بأمر يعظمه الله فى علاه ، ويثنى عليه فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويقول له : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ . وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)(٦) .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .
(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٤٣ .
(٤) سورة الحجر الآية ٧٢ .
(٥) سورة القلم الآية ٤ .
(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

ويعلمنا الأدب فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم فيقول : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)(١) . ويقول : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)(٢) .

ولا أدرى مبالغة أكثر من هذا ، حيث كان رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم محبطًا للعمل .

أسأل الله أن يرزقنا الأدب معه كما يحب ويرضى .

ويقول : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)(٣) إلى آخر ما جاء فى الكتاب العزيز من تعظيم قدره والتنويه بذكره ؛ فماذا يمدح المادحون ، وماذا يكتب الكاتبون ؟

إذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

ولله در من قال :

محمد كل الحسن من بعض حسنه ... وما حسن كل الحسن إلا محمد

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يعلمنى حقيقة إلا ربى » أو كما قال .

ولنختم كلمتنا هذه بقول الله تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

---

(١) سورة النور الآية ٦٣
(٢) سورة الحجرات الآية ٢
(٣) سورة النساء الآية ٨٠

كَسادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ. وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ). (١)

فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوبه فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها عليه السلام ، إذ قرع تعالى من كان ما له وولده وأهله أحب إليه من الله ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى : (فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) ، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم بأنهم ممن ضل ولم يهده الله تعالى :

أسأل الله أن يملأ قلوبنا بمحبته ، وأن يجعلنا من خدام شريعته بمنه وكرمه .

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ .

عظمته صلى الله عليه وسلم (١)

وشئ من سيرته الباهرة وآياته الظاهرة

(٢)

تعرف عظمة الرجل بتحليل نفسيته الكبيرة ، وأخلاقه الرفيعة ، ثم بآثاره الخالدة . ولا نجد نفسية أعظم من نفسيته عليه السلام ولا آثارا كآثاره . وكل من تتبع شريف أحواله وما اشتملت عليه سيرة حياته ، وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سياسته ولطف دعوته ، ورفيع حكمته ، وعلمه بمجامع السعادات ، وسوقه إليها بالوسائل المختلفة والطرق العجيبة التى تفوق كل ما جاء فى حكمة الحكماء وسير العلماء ، وما تم له من سياسة الخلق وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب الكريمة والشيم الحميدة ، إلى فنون العلوم المختلفة دون تعليم ولا مدارسة ، ولا مطالعة كتب من تقدم ، ولا الجلوس إلى العلماء والحكماء بل هو نبى أمى لم يعرف شيئا من ذلك .

حتى شرح الله صدره وأبان أمره ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيما ، وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)(٢) . (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثالث — المجلد الثامن ربيع الأول سنة ١٣٥٦
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

مِنْ عِبَادِنَا . وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[١] . (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ)[٢] . (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[٣] .

نقول : كل من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم دراسة مدققة ، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة تامة ، لم يخالجه أقل ريب فى أنه واسطة عقد الكمال ، وأنه سيد الأولين والآخرين ، وأفضل الخلق أجمعين .

على أن من يريد بيان كماله واستقصاء أحواله فإنما يحاول عد ما فى البحر من درر ، أو استقصاء ما فى السماء من نجوم :

فإن فضل رسول الله ليس له … حد فيعرب عنه ناطق بفم

ولنقرب لك ذلك بعض التقريب ، ولنفصله شيئا من التفصيل ، فنقول : إن فيما أتى به من الأوامر الحكيمة التى تكفل مصالح الدنيا والآخرة ، وفى إرشاده إلى ما يكفل سعادة الأبد وراحة المجتمع وصفاء العيش ، وفيما بينه من الحقائق وهدى الخلائق ، وفيما أتى به مما يعرفه العقل جملة ويعجز عنه تفصيلا — ما يعلم به المنصف البصير أنه من العلم والمعرفة والخبرة فى الغاية التى باين بها الخلق ، فكل ما يعلم الناس أنه حق وأنه خير فهو أعلم منهم به . وهو بعد ذلك أنصح الخلق للخلق ، وأبر الناس بالناس ، وأصدقهم فيما يقول ، وأقومهم فيما يفعل .

(١) سورة الشورى ، الآية ٥٢ . (٢) سورة الجمعة ، الآية ٢ .
(٣) سورة الجمعة ، الآية ٤ .

وبعبارة أخرى نقول ، أنه جمع مالم يجتمع لأحد ، ولم يعهد مثله فى السنن الطبيعية لإنسان ، فان من نظر إلى تدبيره الحروب مثلا وعرف أنه أتى فيها بأحسن الخطط ، قال إنه رجل حرب وجه كل همه وفكره لمجالدة الأعداء ورسم خطط الحروب ؛ ومن كان كذلك لايكاد يحسن غير ذلك .

فإذا نظرت إلى زهده وعبادته حتى تورمت قدماه ، وكان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء فى الصلاة ، وكان يطيل السجود حتى تظن عائشة أنه قد مات ، تقول إنه رجل ترك الدنيا وما فيها ، فهو جاهل بها لايحسن تدبيرها ولا العمل لها بوجه من الوجوه ، فضلا عن إعداد الوسائل لقوم جهال متفرقين متوحشين لأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، تغلب ولا تغلب ، وتقهر ولا تُقهر ، مادامت متمسكة بما جاء به .

وإذا نظرت إلى وعظه الذى يأخذ بمجامع القلوب ، قلت إنه لايحسن غير ذلك .

وإذا نظرت إلى حسن تربيته وتعليمه الذى جعل السيدة عائشة تكون من أعلم العلماء ، بحيث تجرؤ على أن تخطىء عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وهم من أكبر الصحابة وأعلمهم ، وقد مات عنها وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وقد صار بفضل هذه التربية الحكيمة وتلك الأساليب العجيبة أبو هريرة أكبر من روينا عنه الشريعة فى أربع سنين .

إذا نظرت إلى ذلك كله قلت إنه من أكبر أساتذة علم النفس ، حيث جاء بتلك النتائج الباهرة التى لم تعرف لأحد من علماء التربية وأساتذة علم الاجتماع حتى الآن .

بل نقول : كان يجيئه الأعرابى فلا يمكث معه إلا قليلا من الزمن حتى يرجع عالما فى نفسه معلما لقومه .

وإذا صادفك التأييد ونظرت إلى ماكان من تأثيره فى الأمة العربية ، رأيت العجب العجاب فقد تبدلت طبائع العرب على اختلاف قبائلهم ونزعاتهم بهدايته صلى الله عليه وسلم ، من الظلم إلى العدل ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفسق الفاحش إلى العدل العظيم الذى لم يبلغه أعظم الفلاسفة ، وقد أسقطوا كلهم أولهم وآخرهم بفضل تعاليمه صلى الله عليه وسلم طلب الثأر ، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له ، صحبة الأخوة المتحابين دون خوف يجمعهم ، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم ، ولا مال يتعجلونه .

وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وليس يغيب عنك أن جمهور أتباعه غرباء من غير قومه ، لم يمنهم بدنيا ولا وعدهم بملك ، بل بايعهم على ألا ينازعوا الأمر أهله ، وأن يوطنوا أنفسهم على الأثرة عليهم ، ولم يفعل ذلك لأقاربه أنفسهم ولا ترك لهم ميراثا يورث عنه . «وهذا لاينكره أحد من الناس» .

وخلاصة القول أنه صلى الله عليه وسلم لم يشغله ظاهر عن باطن ، ولا إصلاح الدنيا عن إصلاح الآخره ، ولا ماهم النفوس والأبدان

عما يمتع الأرواح والأسرار ، ولا موجبات الغضب عن استعمال الحكمة «ولا غرو فهو ينظر فى الأشياء بنظر الله فسيان حربه وسلمه» .

ثم انظر بعد ذلك إلى ماجاء به من مجامع السعادة للفرد والمجتمع ، فتراه أوصاك بخاصتك من أهل بيتك وأقاربك ، ثم أوصاك بجيرانك والأباعد عنك ، ثم على المسلمين وأهل الذمة ، ثم أوصى الرئيس أن يرحم المرءوس . والمرءوس أن يطيع الرئيس .

ومما ينبغى أن نعرفه من حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعمل الشدة فى موضعها والرحمة فى موضعها ، ولكنه متخلق بأخلاق الله القائل : «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» .

إلى غير ذلك مما ينبغى أن يوضع فيه كتاب مخصوص .

وهذه أنظار واسعة لايتأتى فى العادة أن يحيط بها إنسان ، وحكمة عاليه تضع الأشياء فى مواضعها بموازين القسط الدقيقة ، وأكثر الحكماء إن أصابوا التشريع لم يمكنهم استعمال الحكمة ولا القدرة عليها عند التنفيذ والتطبيق ، فقلما يطابق العلم العمل ، وقلما يطابق العمل الصواب ، وقلما يستطيع الإنسان الضغط على نفسه فى ظروف كثيرة ، وقلما ينجو العقل من تلبيس الهوى وجهل النفس وسلطان الشهوة التى تزين القبيح حتى تغطى العقل بغطاء كثيف لايكاد ينفذ منه بَصَره إلى الحقيقة «حبك الشىء يعمى ويصم» .

وإذاً لايستمد العقل إلا من العاطفة ، وتكون هى المسيطرة عليه المملية له ، فلا ينظر إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها . ولديك أرباب العواطف من الأحزاب المختلفة فى الدين والدنيا .

وبالجملة فسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقضى بتصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله حقا ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته عليه السلام لكفى . فإنه صلى الله عليه وسلم نشأ فى بلاد الجهل لايقرأ ولا يكتب ، ولا خرج عن تلك البلاد إلا خرجتين : إحداهما إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ثم رجع ، والأخرى أيضا إلى أول أرض الشام ولم يطل بها البقاء ، بل رجع بشهادة حبر من أحبار أهل الكتاب بنبوته عليه السلام وهو «بحيرا» الراهب ، وحبر آخر وهو «نسطورا» الراهب كما هو معروف .

وناهيك ما وصلت إليه أمته بفضل تلك التربية ، حتى إنها فى أقل من عشر سنين بعد وفاته فتحت أعظم ممالك الأرض إذ ذاك «مملكة الفرس ومملكة الرومان» .

وفى أقل من قرن وصلت من آسيا إلى الهند والصين ، ومن إفريقيا إلى أرض مراكش ثم تخطتها إلى أوربا فأسست بها تلك المملكة الفيحاء «مملكة الأندلس» ، ووصلت إلى برد ومن أرض فرنسا ، إلى غير ذلك مما دهش له التاريخ وعجب له فلاسفة أوربا ، وكل ذلك بفضل تلك التربية النبوية الحكيمة .

وقد قال جوستاف لوبون الفرنسي فى حقهم وهو من أعظم فلاسفة أوربا (أن ملكة الفنون لاتستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال ، وقد شذ العرب فوصلوا إلى الاستقلال فى جيل واحد» . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .

وقد أذكرنى ذلك قول صاحب الهمزية فى أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

ثم نقول بعد ذلك :

أن قوانين العالم المتمدين إلى الآن لم تصل إلى تلك الغايات السامية ، ولا أتت بتلك السعادة المنشودة ، ولا أورثتنا هناء ولا صفاء .

هل يمكننا أن نقول :

إن تلك القوانين وهاتيك المدنيات الفاسقة مازادت العالم إلا شقاء وبلاء .

على أن سبب نهضتهم من كبوتهم واستيقاظهم من نومهم وإنقاذهم من جهالتهم إنما هو علم المسلمين والاحتكاك بهم كما هو معروف من تاريخ الأندلس وتاريخ الكنيسة وتاريخ الحروب الصليبية ،فكانت القرون الوسطى أو القرون المظلمة على مايقولون فى ذلك العهد عندهم لاعندنا ، وإن كان شباننا بكل أسف لايعرفون ذلك لأنهم جهلوا تاريخ آبائهم ونبغوا فيما جاء عن الأجانب فناء فيهم وافتتانا بهم .

فإن مدينتهم لاتعنى الا بالماديات . فمحورها الذى تدور عليه هو المادة ، فمنها يبدءون وإليها ينتهون . أما إصلاح النفوس وسعادة الإنسانية ، وراحة القلوب وهدوء الأفكار ، والتنعم بتلك الإحساسات الشريفة والملكات الفاضلة ، فهم بمعزل عنها ، بل سرت عدواهم إلينا ، فأقفرت نفوسنا من فضائل ديننا وآداب أسلافنا ، ولم تصل أيدينا

إلى مثل دنياهم وقوتهم واتحادهم ونشاطهم ، فأصبحنا مستعبدين وقد كنا السادة وجاهلين وقد كنا العلماء ، وأذلة وقد كنا الأعزاء .

وقد شط بنا القلم ، ولكنها نفثة مصدور ، فنرجع إلى ما كنا فيه فنقول :

إن تشريعه — صلى الله عليه وسلم — لم يصل إليه تشريع إلى الآن وقد مضى عليه أربعة عشر قرنا تقريبا. ذلك التشريع الذى تكفل بإصلاح النفوس والأبدان ، وضمن سعادة الدنيا والآخرة ، وحرم على أبنائه أن يكونوا أذلاء فقال : (وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[1] وقال فى وصفهم أيضا : (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ)[2] . وقال لهم بعد ما سلحهم بتلك الأسلحة وحلاهم بهاتيك المكارم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[3] . وقد قال فى آية أخرى فى وصفهم : (أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً)[4]

وما أبهر هذه الآية فى نفسى فإنها تشير على ما بها من إيجاز إلى مايجب أن تكون عليه الأمة مع أعدائها ، وقد أشير إلى ذلك بقوله : «أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ » ، وإلى مايجب أن يكون قانونها الداخلى بين

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١١٠
(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

أبنائها . وقد أشير إلى ذلك بقوله : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » ، وإلى مايجب أن يكون بينهم وبين الله ، وقد أشير إلى ذلك بقوله ، « تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً »

فماذا بقى بعد هذا أصلح ظواهرهم وبواطنهم ، ثم أرشدهم إلى مايجب أن يعملوا مع أعدائهم ، وما يجب أن يكونوا عليه فيما بينهم ، وما يجب أن يتحلوا به أمام خالقهم . وكم للقرآن من إيجاز وإعجاز !

وقد أذكرنى ذلك قول مديو الفرنسى : «لو وجد المصحف فى فلاة لقلنا إنه كلام الله» . وكم للمنصفين منهم من شهادات لدين الإسلام ونبى الإسلام !

ويلتحق بذلك معجزات طبية وعلمية لا يمكننا أن نشير إليها إلا إشارة وجيزة . فإن الذى حرمه كلحم الخنزير مثلا تبين أن فيه ضرراً كبيراً . فقد عرفوا الآن أن فيه ديدانا كثيرة ، وأنه يولد الدودة الوحيدة . ووراء ذلك شىء كثير كالخمر الذى حرمته أمريكا لما عرفت أضراره الكثيرة (والخمر نكنّى عندنا بأم الخبائث) .

ومن تلك الآيات العلية قول القرآن : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)[1] . وما عرف تلقيح الرياح للأشجار إلا من عهد قريب . وقوله : (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ)[2] . ولم يكن فى ذلك العهد شىء أصغر من الذرة وإن كانت الميكروبات التى عرفناها أخيراً هى أصغر من الذرة .

(١) سورة الحجر ، الآية ٢٢ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٦١ .

وكقوله : (وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)[١] ولم يعرف أن فى النباتات ذكرًا وأنثى إلا منذ عهد قريب : (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)[٢] .

وبعد ، ففى القرآن من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه العجب ، حيث يعبر بالعبارات التى تساير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ فى تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لا لها ، ووجدت هى أكثر انطباقًا على ما قضى به العلم المحص والاكتشاف الجديد ، مما يدهش اللب وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

أفلا يحق له أن يقول بعد ذلك : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[٣] .

وإنى أستحلفك بعلمك وإنصافك أن تنظر فى هذه الآية نظر الباحث المدقق حتى تعلم أن مثل ذلك التحدى لا يجوز أن يكون إلا من الله تعالى العالم بكافة الأشياء وما عليه عباده من القوى والقدر . ولا يتصور أن يقول ذلك مخلوق ولا يتحدى جميع الخلق بمثل هذا عاقل ، فإن العاقل لا يعرض نفسه للهزء والسخرية بتحدى الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٤٩ .
(٢) سورة يس ، الآية ٣٦ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ .

ومن هذا القبيل فى الدلالة على صحة دعوته وصدق رسالته قوله تعالى : (يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ)[١] ، وقوله فى حق أهل الكتاب : (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)[٢] .

وليس يعقل أن يعتقد مثل «عبدالله بن سلام» وهو من أكبر علماء التوراة كذب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ثم يؤمن به ، أو يعتقد نصارى نجران كذبه ثم لا يجيبوه إلى المباهلة ، بل ليس من المعقول أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهانًا على كذبه فيخاطبهم والتوراة بين أيديهم بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوبخهم ويقرعهم ويشافههم بأنهم يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وليس من المتصور أن يجترىء على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، إلى غير ذلك مما ينفرهم غاية التنفير ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم (والكاذب ضعيف حتى عند نفسه) . ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول السفهاء وأكبر الجهلاء ولطمعت فيه أعداؤه ، وما أسرع ما كان ينتقض بناؤه .

إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه :

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا)[٣]

ومن عجيب أمره وبديع حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يأخذ القلوب إلى الله تعالى ، ويملأ النفوس رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .
(٢) سورة البقرة ، ١٤٦ ، الأنعام ٢٠ .
(٣) سورة الزخرف ، الآية ٤٨ .

ومع ذلك يرغب فى العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التى ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة .

كما قال فى حق الذين خدموا إخوانهم فى السفر فى يوم شديد الحر : أنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يجعل ذلك للصائمين المتعبدين فى ذلك اليوم . وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » . وقال تعالى : (فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)(١) وقال عز وجل : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ)(٢) .

ولكنه مع هذا حول كل شىء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شىء عند المسلمين طاعة بفضل هذا التعليم العالى ، وأصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا صلى الله عليه وسلم بذلك بين مصلحة الدنيا ومصلحة الاخرة على أتم الوجوه . وفى الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ، ودنايا الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له إذ لم يكن ذلك فى الدنيا كان فى الآخرة .

(١) سورة الملك ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

وقد أذكرنى هذا قول بعض العلماء : لم يبق بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلاق فاسدة أصلا ، لأنه صلى الله عليه وسلم أبان لنا عن مصارفها كلها : من حرص وحسد ، وشر وبخل وخوف ، وكل صفة مذمومة . فمن أجراها على تلك المصارف عادت كلها مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم .

فإذا صرفت ما فيك من الحرص والطمع إلى اكتساب الدرجات وفعل الطاعات ، وما فيك من الحسد والمنافسة إلى النبوغ فى العلم والحكمة وإحراز الزلفى عند الله تعالى ، وما فيك من الغضب ومحبة الانتقام إلى أعداء الله وبذل الوسع فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وما فيك من شهوة السرف إلى صلة الأرحام وإغاثة الملهوف ومواساة الجيران والإخوان الخ الخ ، كنت شخص الفضل ومثال الكمال ، وعادت هذه الرذائل فضائل ، وتلك المنكرات وسيلة لأعظم الطاعات وعظيم الدرجات .

وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم لمن ركع دون الصف « زَادَكَ اللهُ حِرْصاً وَلَا تَعُدْ » . فعرفك بذلك فضيلة الحرص وأمان مصرفه الذى ينبغى أن يكون فيه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (لَا حَسَدَ إِلَّا فى اثْنَتَيْن رجُلٍ آتَاهُ اللهُ مالا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْخَيْرِ ، وَرَجلٍ آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُه النَّاسَ) . فانظر كيف وجه من فيه غريزة الحسد إلى أى ناحية وصرفه عن بقية النواحى ،

وغريزة الغبطة التى يذكرها العلماء فى شرح هذا الحديث هى بعينها غريزة الحسد ، وإنما غايرتها بصرفها لغير مصرفها ، وتوجيهها إلى غير وجهتها .

هذا وقد حثنا صلى الله عليه وسلم على التزام نقطة الوسط التى هى نقطة الكمال وحذرنا من الانحراف عنها إلى الإفراط أو التفريط يقول القرآن : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)[1] وفيه : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط)[2] (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)[3] ، ويقول صلى الله عليه وسلم « ان الدين متين فأوغل فيه برفق » ويقول : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى » ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه العجالة .

وبعد : فإن الأمم التى يسمونها راقية لم تأتنا فى باب العدل والمساواة والحرية التى يتمدحون بها إلا بدعاوى مجردة وقضايا كاذبة .

وليس العهد ببعيد من تلك الطنطنة التى كانت لشروط الدكتور (ولسن) وما سارت عليه بعد ذلك جمعية الأمم التى تمثل خمسا وسبعين دولة ، وما يعانيه العالم من جراء عدالتها وإنصافها .

فانظر ذلك وقارن بينه وبين ما يقول القرآن : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)[4] :

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٧ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٩ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٣١ .
(٤) سورة النساء الآية ١٣٥

وقوله تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب)[1] وقوله تعالى : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[2] وقوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)[3] ... الخ .

وانظر إلى قصة عمرو بن العاص وولده عندما ضرب رجلا بمصر من السوقة فشكاه لعمر بن الخطاب وقال : إنه ضربنى ، ثم قال : اذهب وأنا ابن الأكرمين . فأعطاه عمر الدرة وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين . فقارن بين هذا وبين ما تراه وتسمعه .

وقد قال جوستاف لوبون : (لم يعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب) كما قدمنا .

ويعجبنى قول غاندى : (ان أوربا اليوم لا تمثل روح الله ولا روح المسيحية ، ولكنها تمثل روح الشيطان ، وإنما يفلح الشيطان أكثر ما يفلح حينما تلوك شفتاه اسم الله ، وأن أوربا اليوم مسيحية بالاسم ، وفى الحقيقة لا إله عندها إلا إله المال) .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .
(٣) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

هذا وقد تعرف أن للفقراء نصيبا من الزكاة يأخذونه من الأغنياء قهرا بسيف الشريعة الإسلامية يقابل هذا أن للأغنياء نصيبا من الربا فى مال الفقراء يأخذونه قهرا بسيف القوانين الأوربية .

فقارن بين الأمرين ، ووازن بين الطريقتين !

ولعمرى أن خروج هذا النبى الكريم الذى أتى بتلك السعادات كلها من تلك البيئة ، وهى على أسوأ الخلال ، معجزة كبرى ، وآية عظمى لدى العظماء والحكماء .

ومن عجيب أمره وشريف خلاله التى خرقت السنن المعروفة ، أنك ترى النفوس تتكبر وتتعاظم بأقل الأشياء ، وتراه صلى الله عليه وسلم مع ذلك كله يتواضع شكرا لله ، ومعرفة بعظمة الله ، واعترافا بفضله عليه . وقد كان يطأطئ رأسه يوم فتح مكة تواضعا لله ، حتى أن رأسه ليكاد يمس رجله ! وكانت العجوز من نساء المدينة تكلمه فى الطريق فيقف لها حتى تقضى ما أرادت منه ، وربما انطلقت به إلى حيث تريد . وكان ذلك من دلائل نبوته عند عدى بن حاتم ، فإن ذلك من شأن الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا (بخلاف الملوك وأهل الدنيا)

آية أخرى هى أعجب من كل ماسمعت :

ومن عجيب أمره الذى يدهش الباحثين أنه يشير إلى الأسرار الغامضة والعلوم العالية بما لا ينفر منه العامة ؛ بل ينتفعون بظواهره وجها من الانتفاع ، ويعرفه الخاصة .

وربما كان خفيا لا يكشف إلا بعد زمن طويل كهذه المسائل التى كشفها العلم حديثا مما أشرنا إلى بعضه ، فوجدناها لا تنافى القرآن

ولا تجافى ما جاء فيه ، بل وجدناه أشار لها إشارة خفية أو ظاهرة ولا نجده فى مسألة من تلك المسائل صرح فيها بنص يقوم الدليل على خلافه .

مع أن كل عالم وفيلسوف إذا أراد أن يبين ما فى نفسه لم يمكنه أن يسلك هذه الطريقة التى تنفع العامة والخاصة جميعاً ، ولا يتسنى له أن يظفر بهذه العبارات التى لا تمجها أذواق العامة ولا تصادمها العلوم الفلسفية ولا المكتشفات المستقبلة .

ومن ذا الذى يكون فرحا بنتائج فكره وولائد عقله ثم لا يفصح عنه إفصاح المبتهجين به المتبجحين بالوصول إليه ، فيكون محصورا فى حدود ضيقة لا يتخطاها بوجه من الوجوه ، اللهم أن هذا هو المعهود فى البشر المعروف فى نوع الإنسان ».

أما ذلك الذى ينطبق على ما يقرره العلم بعد مئات السنين ، وهو فى الوقت نفسه مشتمل على ما ينفع العامة ويفيدهم تطهيرا وتنويرا ، فلا يعقل إلا من العليم الحكيم . ولعمرى أنها لآية كبرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن عجيب أمره أنه نص على أن فى القرآن محكما ومتشابها ، وأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم . وقد أمرنا أن نتمسك بالمحكم ولا نتعرض للمتشابه ، فأدى بذلك حق العلم من جهة ، وحفظنا أن نقع فى الزيغ من جهة أخرى ، وماذا علينا أن نتوسع فى المتشابه أكثر مما قالوا . وبالضرورة لم ينزل ذلك المتشابه

فى القرآن عبثاً ، وحاشاه من العبث (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[١] .

فمن أكبر آيات القرآن أن كان فيه المحكمات والمتشابهات ، لأنه لو جاء على غير هذا الوجه لم يناسب من الأزمان إلا زمنا واحدا ، وقد جاء للأزمان كلها وللناس كلهم .

وقد فتح بذلك فوق هذا كله باب التفكير والتأويل والأخذ والرد ، فارتقوا من العلم إلى أسمى درجة ، ومن المنطق والحجة إلى أرقى مكان ، فكأنه لما أراد أن يعدهم إلى هذه الغاية السامية وتلك الذروة الرفيعة ، كان الأمر على ما ذكرنا .

وكم له من آية فى الحث على الفكر والنظر مما لا نطيل بذكره .

الخلاصة :

والخلاصة أن شريعته صلى الله عليه وسلم تشتمل على دعوة الخواص والعوام ، لأن المراد منها هداية كل منهما وانتفاعه بها على قدر استعداده (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[٢] وهى بعد ذلك بحر لا ساحل له .

ولو جمعنا ما كتبه العلماء فى فقه الشريعة المحمدية ، وما قاله صلى الله عليه وسلم فى الآداب ومكارم الأخلاق ، وما كتبوه فى أصول الفقه وأصول الدين ، وما رووه عنه من أحاديث وما كتبوه فى سيرته

(١) سورة فصلت ، الآية من ٤١ – ٤٢ .
(٢) سورة المجادلة ، الآية ١١ .

وما دونوه فى علم الحديث دراية ورواية ، وما صنفوه ، فيما يتعلق بالقرآن الكريم من تفسير وتأويل وما يلتحق بذلك كله ، لملأ الوهاد والنجاد ، ولناءت به السفن فضلا عن الإبل ، وأظنك تعرف ذلك ولا تنكره .

ولا بأس أن نسوق لك هنا شهادة الفيلسوف برنارد شو الانكليزى فى حقه صلى الله عليه وسلم :

شهادة برنارد شو الانكليزى :

قال الكاتب الكبير برنارد شو :

«كنت فى كل الأحيان ولا زلت أتناول دين محمد فأقدره تقديراً عظيما ، وذلك لروحيته العجيبة وحيويته العظيمة . إنه الدين الوحيد الذى يملك القدرة على هداية الغير وملاءمة الأزمنة ، فهو حرى لأن يكون دين الجميع فى كل دور وطور . ويجب على العالم دون شك أن يقدر ويعلق أهمية عظمى على ذلك .

لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا وملائماً لأوربا فى الوقت الحاضر . أن قساوسة القرون الوسطى إما لجهلهم المطبق وإما لتعصبهم الأعمى قد رسموا الدين الإسلامى بألوان سوداء مظلمة ، وكانوا فى الحقيقة قد تطبعوا على كره محمد ومقت دينه الحنيف ، لأن محمداً كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية . أما أنا فقد درست الدين الإسلامى وشخصية محمد تلك الشخصية العظيمة اللامعة ، فوجدت محمداً بعيداً عما يلحقونه به من التهم . ويجب أن يسمى فى الحقيقة مخلص الإنسانية ومنقذها .

إنى أعتقد أن رجلا مثله لو أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة وكان حاكماً مطلقاً ، لتمكن أن يقود العالم أحسن القيادة ، ولتمكن من تسيير العالم نحو طريق السعادة ، وتمشيته نحو شاطىء العدل والسلام .

إن أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وأنها بادئة فى عشق دينه وفلسفته ، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوربا فى القرون الوسطى . سيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه العالم دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات وفك المشاكل والعقد . إن كثيراً من مواطنى ومن الأوربيين يقدسون تعاليم محمد ،ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول : إن بوادر العصر الإسلامى الأوربى قريبة لا محالة » .

الكلمة الختامية :

وآخر القول أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم ، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه ، وسياسته لأصناف الخلق ، وهدايته إلى ضبطهم ، وتألفه أصناف بنى الإنسان وقوده إياهم إلى طاعته ، مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة ، وبدائع تدابيره فى مصالح الخلق ، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز العلماء عن إدراك دقائقها فى طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس .

بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه ، حتى إن العربى القح كان يراه فيقول : والله ما هذا بوجه كذاب ! فكان يشهد له بالصدق بمجرد مشاهدته ، فكيف من عرف أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده لا سيما وقد علم أنه أمى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط فى طلب العلم فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى .

ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك . فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية . فما أعظم غباوة من ينظر فى أحواله ، ثم فى أقواله ثم فى أفعاله ثم فى أخلاقه ، ثم فى معجزاته ، ثم فى استمرار شرعه إلى الآن ، ثم فى انتشاره فى أقطار العالم ، ثم يمارى بعد ذلك فى صدقه وعلو منصبه الذى لم يصل إليه فيلسوف ولا نبى من أول تاريخ العالم إلى الآن . وأمامك تواريخ العظماء والحكماء فاستعرضها واحداً واحداً ؛

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه فى كل ما ورد وصدر !

ولنجعل آخر كلمتنا هذه الحديث الذى روى عن عائشة رضى الله عنها :

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ القرآن ؛

فانظر إلى مثل قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِم خَاشِعُونَ ، والَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ مُعرِضُونَ. والَّذِينَ هُم لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)[١] . (خُذ الْعَفْوَ وَأْمُر بِالْعُرْفِ وَأَعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ)[٢] .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)[٣] إلخ . (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)[٤] .

(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٥]

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)[٦] . (وَالكَاظِمِينَ الْغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ »[٧] . « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ من نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ)[٨] . (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)[٩] .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١ — ٤ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .
(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٧ .
(٤) سورة الشورى ، الآية ٤٣ .
(٥) سورة النور ، الآية ٢٢ .
(٦) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤ .
(٨) سورة الحجرات الآية ١١ .
(٩) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان عملا بمقتضى الحال ونظراً إلى ضيق المجال ، ولندع القرآن يثنى عليه فى مثل قوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظِيمٍ)[١] . (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)[٢] . (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[٣] . (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[٤] .

إذا الله أثنى بالذى هو أهله — عليه فما مقدار ما تمدح الورى

أسأل الله أن يجعلنا من عارفى قدره ، المتمسكين بسنته ، المتشرفين بعظيم محبته بمنه وكرمه !

---

(١) سورة القلم ، الآية ٤ .
(٢) سورة النساء الآية ١١٣ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

عظمته صلى الله عليه وسلم (١)

ماذا نقول فى بيان عظمته صلى الله عليه وسلم بعد ما أثنى عليه الله عز وجل ثناء لم يثنه على أحد من خلقه ، ولو تتبعت آيات القرآن العزيز التى نوهت بشأنه ، وأبانت فضله ومنزلته عند ربه لرأيت العجب العجاب ولا غرو فهو أعظم خلق الله أثرًا وأبعدهم نظرًا وأعرفهم بعظمة الله وأكثرهم حثاً على التأمل فى آيات الله والتحقق بعبودية الله ، ثم هو بعد ذلك أوضحهم طريقاً وأهداهم سبيلا، إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فهو الرحمة الكبرى لجميع العالمين والمنة العظمى لسائر الخلق أجمعين .

وإن شئت أن تعرف منزلته عند ربه فاقرأ ما قال الله فى كتابه تنويهاً بشأنه وتبييناً لفضله ، حيث يقول : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)(٢) ثم أكد ذلك الميثاق تأكيدًا لا مزيد عليه فقال : (أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)(٣)

(١) مجلة الإسلام — السنة التاسعة — العدد ٧ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .

ثم نظر إلى اقسامه بحياته حيث يقول (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)(١) . ولعمر الحق إن هذا تشريف يأتى عليه البيان ولا تبلغه فصاحة اللسان ولا مقدرة الإنسان ، ثم انظر إلى قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)(٢) .

ثم إلى قوله (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا)(٣) فانظر إلى هذا التأديب والإجلال الذى لا نعرفه لأحد سواه ثم إلى قوله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)(٤) ثم إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)(٥) .

ولا يمكننا فى هذه العجالة أن نبين ما تشير إليه الآية من عظمة ورفعة ، وناهيك بشىء يتولاه الكبير المتعال وملائكته ، الذين هم أكثر العوالم عددًا ، وأكثرهم مددًا ، وإلى آخر ما تمليه عليك إيمانك ويرشدك إليه وجدانك .

(١) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية ٢ .
(٣) سورة النور ، الآية ٦٣ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٦٥ .
(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٥٦ .

ثم ألفت نظرك بعد ذلك إلى تعبير القرآن فى حقه بالرسول والنبى ومناداته كذلك بالرسالة والنبوة فيقول : (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، يا أَيُّهَا النَّبِيُّ) وينادى غيره من الأنبياء فيقول : (يَادَاوُدُ ، يَا إِبرَاهِيمُ ، يَا يَحيَى يَانُوحُ ياصَالِحُ ، إلخ إلخ . وفى غير النداء يقول : (إِنَّ أَولَى النَّاسِ بِإِبرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ)(١) فلم يقل «محمد» . وأما تصريحه باسمه فى بعض الآيات فلحكمة بديعة تخص تلك المقامات ، فماذا يقول القائلون بعد قول الله ؟ وماذا يمدح المادحون بعد كلام الله ؟

إذا الله أثنى بالذى هـو أهله   عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وإجمال القول أنك إذا تصفحت تاريخ البشر من أوله إلى آخره لم تجد فيه فيلسوفاً من الفلاسفة ولا مشرعاً من المشرعين ولا اجتماعياً من كبار علماء النفس ولا قائداً ممن دوخوا العالم إلخ إلخ . مثل محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن ما أتى به من العلوم والمعارف ورسم الخطط لنيل سعادة الدنيا والآخرة ونجاحه فى كل النواحى ، وتكوينه أمة لم ير التاريخ مثلها ولا نعرف لأحد من أبناء آدم فى القديم ولا فى الحديث ، وها نحن نتحدى من يعارضنا فى هذه الدعوى .

وبعد فدع عنك تلك المظاهر المادية ، ووجه نظرك وجهة أخرى إلى ما ألمعنا إليه مما جاء به صلى الله عليه وسلم من الإصلاح الاجتماعى وترقية النفوس والأرواح وبث مكارم الأخلاق وتنعيم القلوب مما لا عين رأت

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٨ .

ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من معرفة الله تعالى ، وبيان عظمته وشرح آياته وشمول إحاطته وسعة علمه وسمو حكمته وشرح ما للمؤمن على المؤمن حتى قال : « لَايُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه » وقال « لَا تَدخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » ولا غرو فقد عقد الأخوة بين جميع المؤمنين على تنائى ديارهم وتباين أصنافهم فقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)(١) .

وَمَازَالَ جبريلُ يُوصيه بالجار حتى ظن أنه سيورثه ، بل جاء بأكثر من ذلك فأخبرنا أن إمرأة دخلت النار من أجل هرة حبستها وإن رجلا دخل الجنة من أجل كلب سقاه ، فقل لى بربك هل ترى شيئاً أحث على العدل وأمنع للظلم وأحض على الرحمة بجميع المخلوقات من هذا .
ولله در من قال :

أنعم بسر شرعة الرسول   من جاء بالتحرير للعقول
أطلقها بمحكم التنزيل   من سجنها وشركها المرذول
فى ظل ظلمها وذل الأسر
حضارة الدنيا غدت مدينة   مدينة لصاحب المدينة
وإننا حين ندين دينه   تنزل فى قلوبنا السكينة
مثل سفينة رست فى البر
فدينه لأهله اطمئنان   ودينه الرحمة والحنان

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

والصفح والرأفة والغفران   والأمن والعزة والإحسان

وأن يعيش المرء حر الفكر

يأمر بالعدل وبالإحسان   ينهى عن الفحشاء والكفران

يدعو إلى عبادة الديان   وقلبه بالوحى والقرآن

أنواره تضىء كل قطر

قد غير الآمر وجه الأرض   وساد بين طولها والعرض

منارة من سنة وفرض   تبقى دواماً والقرون تمضى

مسرعة فى كرها والفر

ولا بأس بعد أن أسلفنا ما تقدم أن تذكر طرفاً من أقوال علماء أوروبا وحكمائها الذين عرضوا لذكر ناحية من نواحى عظمته صلى الله عليه وسلم كقول برنارد شو « لو كان فى العالم رجل كمحمد لحل مشاكله وقاده إلى السعادة والسلام » وقول اللورد هدلى « عجب للأوروبيين يبحثون عن أحسن المآكل والمشارب والمساكن ولا يبحثون عن أحسن الأديان » هذا هو لسان الحق وقول الصدق جرى على ألسنة هؤلاء الحكماء والمفكرين ولا بأس أن ننشد هنا قول من قال :

محمد كل الحسن من بعض حسنه   وما حسن كل الحسن إلا محمد

حياة الأنبياء فى قبورهم (1)

جاءنا هذا الخطاب من حضرة الأستاذ الفاضل صاحب التوقيع وهذا نصه :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العارف بالله سيدى ومولاى الشيخ يوسف الدجوى حفظه الله ونفعنا بعلمه إنه سميع الدعاء .

(أما بعد) فأخبر فضيلتكم بأنه مرسل طى خطابنا هذا قصيدة لسيدى ومولاى الإمام شهاب الدين بن شمس الدين بن على نور الدين ابن حجر الهيتمى الشافعى المكى فأرجو من فضيلتكم الاطلاع على هذه القصيدة وفحصها بكل دقة وخصوصا هذا البيت :

يصلى فى الضريح صلاة خمس   دواما لا يمل ولا يميل

فرجاؤنا من فضيلتكم تعريفنا عن هذه القصيدة وخصوصا البيت المذكور هل ماجاء فيه صحيح أم لا ؟ فإن هنا خلافاً كبيراً بيننا وبين جملة مشايخ بخصوص هذا الموضوع فالرجاء من فضيلتكم سرعة الإفادة بمجلة الإسلام .

ونحن نتضرع إلى الله سبحانه وتعالى صباح مساء بأن يكثر من أمثال فضيلتكم ، وأن ينفع بفضيلتكم العباد والبلاد إنه على كل شئ قدير .

على الزكى

شيخ الطريقة الشاذلية المدنية ببورسعيد

(1) مجلة الإسلام — السنة السادسة — العدد الثالث والأربعون — سنة ١٣٥٦ .

الجـواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد فلنتكلم عن هذا الموضوع كلمة واسعة مقنعة لمن أراد الله هدايته فنقول : الأنبياءُ أحياءٌ في قبورهم قطعا وهم أولى بذلك من الشهداء الذين ورد فيهم النص القرآني في قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)(1) بل الحياة ثابتة لجميع من فارق الدنيا ولو كفارا كما يدل عليه حديث أهل القليب الذى في البخارى وجاء في الصحيح أيضا أن الميت بعد دفنه يسمع قرع نعال المشيعين ، وأن الروح تنادى حامل الجنازة وأنه يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق .

وقد رأى صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج موسى عليه السلام يصلى في قبره ، كما رآه في السماء السادسة وقد راجعه مرارا في أمر الصلاة .

وقد وضع البيهقى رسالة في حياة الأنبياء وللسيوطى أيضا رسالة تسمى (إنباءُ الأذكياءِ بحياة الأنبياء) أما قوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُون)(2) فمعناه ان روحك ستفارق بدنك وتدخل في عالم آخر ، فلا تشتغل بتدبير الجسم ولا تسرى عليها أحكام هذا العالم ونواميسه وإلا فقد ثبتت حياة الأموات كلهم فضلا عن الأنبياء كما قلنا وإن كانت الحياة مقولة بالتشكيك ، وبين درجاتها من التفاوت مالايعلمه إلا الله .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .

وها أنت ذا تشاهد في هذا العالم من مراتب الحياة المتفاوته بين أنواع الحيوانات وأصنافها إلى أن تصل إلى أعلاها مايجعل الأمر لديك في غاية الجلاء والوضوح .

ولنقص عليك شيئاً من أدلة حياة الأنبياء وكلام العلماء في ذلك .

أما الكتاب فيكفيك منه الآيات المتعددة في حياة الشهداء والإجماع على أن الأنبياء أرفع درجة من الشهداء .

قال ابن حزم في المحلى بعد ذكره الايات الواردة في حياة الشهداء مانصه : (ولا خلاف بين المسلمين في أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قدراً ودرجة وأتم فضيلة عند الله عز وجل ، وأعلى كرامة من كل من دونهم ، ومن خالف في هذا فليس مسلماً) . ا هـ .

وأما السنة ففيها شيء كثير من الأدلة على حياتهم فمن ذلك حديث : (الأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ) رواه أبو يعلى والبيهقى من طرق متعددة من حديث أنس بن مالك ، قال المناوى في شرح الجامع الصغير رجاله ثقات وصححه البيهقى اهـ . ومثل ذلك للحافظ السخاوى في القول البديع ، ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقى في حياة الأنبياء ، وبها يصير من الصحيح المتفق عليه .

ومنها حديث الإسراء الذى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائما يصلى في قبره وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم .

وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرطبي في التذكرة وابن القيم في كتاب الروح والحافظ السيوطى في غير ماكتاب من كتبه ، على أن أحاديث حياة الأنبياء في قبورهم متواترة .

قال السيوطى فى (مرقاة الصعود) : تواترت بها الأخبار : وقال فى « إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء » مانصه :

حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا لما قام عندنا من الأدلة فى ذلك وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك ا هـ .

وقال ابن القيم فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبد الله القرطبى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأرض لاتأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء خصوصا بموسى . وقد أخبر بأنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لانراهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم موجودون ولا نراهم . ا هـ .

وقد نقل كلام القرطبى هذا أيضا وأقره الشيخ محمد السفارينى الحنبلى فى شرحه لعقيدة أهل السنة . ونص عبارته : قال أبو عبد الله القرطبى قال شيخنا أحمد بن عمر . إن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال . ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم أو قتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين . وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى . مع أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأرض لاتأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء خصوصا بموسى عليه وعليهم السلام وقد

أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم :أنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لاندركهم وإن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم . ا هـ .

ويحقق ماذكره هؤلاء الأئمة من تواتر الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء أن حديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم واستغفاره لأمته وسلامه على من يسلم عليه ورد من نحو عشرين طريقا ،وحديث الإسراء ورد من طريق خمسة وأربعين صحابيا .

وقد نص الحاكم والحافظ السيوطى على أن حديث الإسراء متواتر قال بعضهم : لاشك أنه يوخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم حى على الدوام وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه فى ليل أو نهار .

وبعد فنحن نؤمن أنه صلى الله عليه وسلم حى يرزق فى قبره وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض . والإجماع على هذا ، وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤذنين .

وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا أنهم لم تتغير أجسامهم . والأنبياء أفضل من الشهداء .

أما حديث «حَيَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ» فهو صحيح محتج به فى هذا المقام وفى غيره بلا مرية . ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه .

هجرته صلى الله عليه وسلم[1]

ماذا نقول فى حادثة الهجرة تلك الحادثة التى لا نجد لها مثيلًا فى الحديث ولا فى القديم ، فمهما قلبت صفحات التاريخ على طوله لا تظفر بحادثة ترتب عليها ما ترتب على الهجرة من الآثار الجليلة والإصلاح الاجتماعى وترقية النفوس والأرواح وبث مكارم الأخلاق وتنعيم القلوب بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من معرفة الله تعالى وبيان عظمته وشرح آياته وشمول إحاطته وسعة علمه وسمو حكمته .

وشرح ما للمومن على المؤمن حتى قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » .

ولا غرو فقد عقد الأخوة بين جميع المؤمنين على تنائى ديارهم وتباين أصنافهم فقال : « إِنَّمَا المؤمنونَ إِخْوَةٌ » وما زال يوصى بالجار حتى ظن أنه سيورثه ، بل جاء بأكثر من ذلك فأخبرنا أن امرأة دخلت النار من أجل هرة حبستها ، وأن أخرى دخلت الجنة من أجل كلب سقته .

فقل لى بربك هل ترى شيئا أحث على العدل وأمنع للظلم وأحض على الرحمة بجميع المخلوقات من هذا ؟ علمتنا هجرته صلى الله عليه وسلم

(١) مجلة الإسلام — السنة الثامنة — سنة ١٣٥٨ .

أن نطلب العز ولا نقيم على الذل (وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[1] علمتنا الهجرة أن نمقت الباطل وأهل الباطل وأن نجاهد فى سبيل الحق بكل ما يمكننا من الوسائل علمتنا أنه يجب علينا فى تلك السبيل أن نضحى بكل مرتخص وغال ، حتى أننا نخرج من الأوطان التى تربينا فيها وأشربنا حبها فى قلوبنا .

وقد قرن الله الخروج من الديار بقتل الأنفس فقال : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)[2] ولا غرو فقد قال عليه السلام : « علو الهمة من الإيمان » وعلمنا أن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها .

علمنا أن نتوكل على الله الذى لا يعجزه شىء ، وأن نتشجع فى الحق حتى لا نخاف فى الله لومة لائم وأن نخشى الله ولا نخشى أحدًا سواه .

علمنا أن نرتقى بأرواحنا إلى الملأ الأعلى ، وأن نحتقر المادة وعشاق المادة .

وأتى فى شرح حقارة الدنيا التى استعبدت الناس وأذلتهم وألهتهم عن ربهم ومالك أمرهم حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم أتى فى ذلك بالعجب العجاب فقال : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الكَافِرَ — مِنْهَا جَرْعَةَ مَاءٍ » وهذا أبلغ شىء فى ذمها وتحقيرها .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٦ .

فهل من مقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أوجب على المؤمنين أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا وأن يكون أميرهم كواحد منهم .

وألزمهم أن يأمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر حتى قال « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُوا خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ » .

وقد وقعنا بكل أسف فى هذا الوعيد الشديد : فأصبحت المنكرات تفعل أمام أعيننا نهارًا جهارًا فلا نحرك لها ساكنًا ولا ينبض منا عرق لأجلها بل أكثر من ذلك اعتقدنا أنها من آثار النهضة الجديدة ومظاهر الحرية السامية . وليت شعرى هل انقلبت الرءوس وانتكست النفوس حتى أصبحنا لا نفرق بين حرية الإنسان وحرية الحيوان ؛ وهل ضاعت مكارم الأخلاق التى بها رقى الأفراد والأمم فوصلنا من الختم على القلوب إلى حد أننا لا نحس بها ولا نفقه لها معنى ولا نعرف لها غاية :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

* * *

وقد جاءنى خطاب من بعض أجلاء اليمن يسألنى عن قوله تعالى : (وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)[1] .

ويقول كيف هذا مع ما نراه من سلطان الكافرين على المسلمين فى أكثر بلاد الإسلام إلى كلام طويل يذيب القلوب ويدمى العيون — ولعله

---

(١) سورة النساء الآية ١٤١ .

لا يخفى عليك ولعلنا نتفوقه فى بعض الظروف إليك — وقد نسى ذلك الفاضل أن ذلك الوعد إنما هو للمؤمنين الذين حققوا إيمانهم واتبعوا نبيهم فقاموا بتعاليمه الحكيمة التى تكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة فإنه جعل ذلك للمؤمنين وتعليق الحكم « بالمشتق » يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق فيكون لهم السلطان الكامل إذ ذاك وبقدر ما ينقص من إيمانهم ينقص من سلطانهم .

ويظهر أننا أصبحنا فى آخر الدرجات وأسفل الدركات ؛ فلهذا كاد يتقلص عنا ظل العزة الإسلامية .

وإن شئت فقارن بين حال المسلمين اليوم وحالهم عندما كانوا متمسكين بدينهم مقتدين بنبيهم ، فقد كانوا أعز الأمم على الإطلاق وأرفعها على الإطلاق وكانوا إذ ذاك أساتيذ العالم كله .

وما ارتقت أوربا ولا نهضت من كبوتها التى كانت فيها إلا بفضل التعاليم التى أخذتها عن المسلمين عندما كانوا بالأندلس ، وقد قالوا إن أول كلية أسست بأوربا هى كلية (قرطبة) وما ماثلها مما أحدثه المسلمون هناك .

وأن أهل أوربا ليقدمون ابن رشد والغزالى وابن خلدون وغيرهم من علمائنا الذين نسينا فضلهم وجهلنا طريقهم فنزلنا إلى أسفل سافلين وعرفهم الأوروبيون فأصبحوا رؤوس الناس وسادة العالم ووصلوا من إذلال المسلمين إلى انتهاك حرمة المسجد الأقصى وهو ثالث المساجد المقدسة وإلى اضطهاد المسلمين على مرأى ومسمع من المسلمين الذين أمرهم الله أن يكونوا جميعا كالبنيان يشد بعضه بعضا كما قلنا .

فقارن بين هذا وبين حال المسمين عندما تغلغلوا فى أوروبا ووصلوا منها إلى (بردو) فى أرض فرنسا إلى آخر ما يمليه عليك تاريخ أسلافك . يا جاهلاً بتاريخ أسلافك .

هذا وإنا نرى الفرصة سانحة لأن نسدى النصح لجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ونرى ذلك فرضاً علينا ونرجو أن يصل صوتنا إلى آذانهم ثم إلى قلوبهم فهو أنجح دواء فيما نراه : نرى أنه يجب على جميع الأمم الإسلامية أن يتضامنوا تضامناً فعلياً وأن يكون لهم مجلس يضم جميع زعماء المسلمين وملوكهم وأن يكون بينهم محالفة عامة وخزينة كبرى يساهم فيها كل بلاد الإسلام على مبادىء وقوانين يضعونها ويتفقون عليها ؛ وتكون مع هذا كل أمة مستقلة فى بلادها تعمل ما شاءت من غير أن يتدخل فى شئونها أحد ممن سواها .

وإنما هذه المحالفة العامة تكون ضد الأجنبي عندما يتحرش بأمة من أمم الإسلام . وبهذا تحفظ عزتهم وتبقى منعتهم ويعود لهم بعض مجدهم السابق .

وفى اعتقادى أنهم لو فعلوا ذلك لحسبت لهم أوروبا ألف حساب وكان يمكنهم إذ ذاك أن يكونوا القوة الحسية فضلاً عن المعنوية ، ففيهم والحمد لله ممالك مستقلة تمام الاستقلال فمن السهل عليهم أن يعملوا فيها المعامل ويتفننوا فيها كما تفننت أوروبا فى المخترعات الجديدة والأسلحة الحديثة ، إلى آخر ما يمكننا أن نتوسع فيه أو نصل إلى خوافيه ، فطوبى لمن يفكر فى ذلك من ملوك المسلمين ثم يدعوهم

جميعاً فى مؤتمر عام تمحص فيه تلك المسائل وتوضح فيه الشروط والمبادىء لتلك الغايات السامية مع استقلال كل واحد منهم فى بلاده كما قلنا : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)[1] وسيذكرهم أهل الأرض والسماء أطيب الذكرى وقد قال القائل :

وما الناس إلا واحد بقبيلة   يعد وألف لا تعد بواحد

أسأل الله أن يرشد المسلمين إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وأن يجمع كلمتهم ويصلح شئونهم جميعاً ولا يكلهم إلى أنفسهم طرفة عين بمنه وكرمه .

(١) سورة الواقعة ، الآية ١٠ – ١١ .

كراماتُ الأولياءِ (١)

جاءنا خطاب من حضرة الفاضل الشيخ عبد الغنى عوض بميت يزيد غربية – من العلماء وإمام وخطيب – عن كثير من أهل تلك الناحية ، يقول فيه إنه يرجو بياناً شافياً وقدراً كافياً من الأدلة التى تثبت كرامات الأولياء ، وما ورد فى ذلك ، ملحاً داعياً ، فرأينا أن نحقق رجاءه سائلين الله أن يتقبل دعاءه .

ولنقتصر على الإشارة الوجيزة إلى ما ورد فى ذلك ، علما بأن الكلام مع أهل العلم الذين يسهل عليهم الاطلاع والمراجعة تغنى فيه الإشارة المختصرة عن العبارة المطولة فنقول وبالله التوفيق :

كرامات الأولياء ثابتة وبالأدلة القطعية التى لامرية فيها وبالتواتر الذى لا ينكره إلا جاهل أو معاند من الضالين المضلين ، فمن ذلك فى القرآن العظيم ما أخبر الله به تعالى عن مريم رضوان الله عليها بقوله عز وجل : (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ) (٢) وكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء كما ذكره المفسرون والآية واضحة فى أن رزقها كان يأتيها من غير الطرق المعروفة .

(١) مجلة الإسلام – السنة الثامنة – العدد التاسع والثلاثون – سنة ١٣٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٧ .

ومنها لبث أهل الكهف فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، ومنها إلهام أم موسى عليه السلام أن تقذفه فى اليم ، ومنها مجئ عرش بلقيس بدعاء آصف بن برخيا . ومنها ما أخبر الله به عن الخضر عليه السلام من الوقائع وهو ليس بنبي عند جمهور العلماء المحققين إلى غير ذلك مما لا نطيل به ويدل له من السنة حديث جريج الراهب الذى كلمه الطفل وهو حديث صحيح أخرجاه فى الصحيحين وحديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ثم انفجرت عنهم وهو حديث متفق على صحته ومنها الحديث المشهور المتفق على صحته وهو فى الصحيحين فى أبى بكر رضى الله عنه مع ضيفه وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات وكذلك ما اشتهر عن أبى بكر رضى الله عنه أنه أخبر أن حمل امرأته أنثى فكان كذلك .

وحديث الصحيحين المتفق على صحته فى عمر رضى الله عنه أنه كان من المحدَّثين – بفتح الدال المشددة – وكذلك ما صح عنه رضى الله عنه أنه قال : (يا سارية الجبل) فى حال خطبته فى يوم الجمعة فبلغ صوته إلى سارية فكان لعمر رضى الله عنه كرامتان إحداهما ما كشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدو ، والثانية بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة .

والحديثان المتفق على صحتهما فى سعد وسعيد رضى الله عنهما فى إجابة دعوة كل واحد منهما .

والحديث الصحيح فى البخارى فى خبيب رضى الله عنه فى قطف العنب الذى وجد فى يده وهو أسير بمكة يأكله فى غير أوان الثمار .

والحديث الصحيح حديث البخارى أيضاً فى أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضى الله عنهما اللذين خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباح فى عصا أحدهما فلما افترق بهما الطريق أضاءت لكل منهما عصاه .

والحديث الصحيح حديث الرجل الذى سمع صوتا فى السحاب يقول : اسق حديقة فلان ، وما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه فى غزوة فحال بينهم وبين الموضع الذى يقصدونه قطعة من البحر فدعا الله باسمه الأعظم ومشوا على الماء .

وكذلك ما اشتهر أن عمران بن حصين كان يسمع تسليم الملائكة عليه حتى اكتوى فانحبس عنه ذلك .

وبالجملة فقد ورد عن السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ العارفين الفقراء الصادقين وسائر الأولياء ، والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين من الكرامات المستفيضات ، الصادرات عن العيان والمشاهدات ما طبق الآفاق وملأ جميع البلاد وعجزت الدفاتر عن اليسير منه حصراً وتعداداً ..

ولو لم يرد فى هذا إلا قوله صلى الله عليه وسلم (رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ) لكان كافيا لكل ذى قلب سليم وفهم مستقيم .

وأما ثبوت الأبدال فيكفى فيه ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن على رضى الله عنه أنه ذكر أهل الشام عنده وهو بالعراق فقالوا العنهم يا أمير المؤمنين ؛ قال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (الأَبْدَالُ بِالشَّامِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلًا يُسْقَى بِهِمُ الغَيْثُ وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الأَعْدَاءِ وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمِ العَذَابُ) رجاله رجال الصحيح غير شريح بن عبيد وهو ثقة . وفى حديث أخرجه ابن أبى الدنيا عن على وفيه أنه قال (يا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لِى قَالَ : لَيْسُوا بِالمُتَنَطِّعِينَ وَلَا بِالمُبْتَدِعِينَ وَلَا بِالمُتَعَمِّقِينَ لَمْ يَنَالُوا مَا نَالُوا بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنْ بِسَخَاءِ الأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ القُلُوبِ وَالنَّصِيحَةِ لِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ) أخرجه الخلال فى كرامات الأولياء .

وفى هذا القدر كفاية ، وللسيوطى رسالة فى ذلك سماها « الخبر الدال على وجود القطب والإبدال » فليرجع إليها من شاء .

اسأل الله أن يحشرنا فى زمرة المصدقين بهم المحبين لهم بمنه وكرمه .

حكم الصلاة الكمالية (١)

جاءنا هذا الخطاب من أحد قراء مجلة الإسلام بمنيا القمح وطلب منا الجواب على صفحاتها ، ونص الخطاب :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا وأستاذنا الشيخ يوسف الدجوى .

بعد تقبيل يديكم الكريمتين نرجو التكرم بإفادتنا فى مجلة الإسلام فى العدد القادم إن شاء الله عما يأتى ، ولفضيلتكم الشكر والثواب :

منذ حوالى الأربعين سنة وأنا أحضر مع إخوانى نختم الصلوات بحضور علماء أعلام بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالصيغة الآتية :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله » وكنا نختم بها فى يوم الجمعة الماضى عقب الصلاة إذ اعترض على ذلك أحد الحاضرين الذى ينكر الصلاة بهذه الصيغة وقال إنها لم ترد عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . لذلك نرجو التكرم بإفادتنا عن الحقيقة . هل وارد بشأنها أحاديث صحيحة وما هى تلك الأحاديث ليقتنع بها منكر الصيغة المذكورة . وإننا لقول فضيلتكم الفصل فى ذلك لمنتظرون والسلام عليكم ورحمة الله .

م . غ أحد قراء مجلة الإسلام بمنيا القمح

(١) مجلة الإسلام — العدد ١١ — ربيع الأول — سنة ١٣٦٠ .

ونقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه عدد كمال الله وكما يليق بكماله أن الإتيان بهذه الصيغة لا بأس بها ، ولا يتوقف جوازها على ورودها عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يلزمنا الله ولا رسوله بصيغة مخصوصة عند ما قال تعالى (صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)(١) وكذلك رسوله عندما قال « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً » إلى آخر مالا نطيل به .

وقد قال الشيخ الصاوى فى (شرح الصلوات الدرديرية) أن هذه الصيغة هى المشهورة عند أهل الطريق بالصيغة الكمالية وهى من أورادهم المهمة التى تقال عقب كل صلاة عشراً ، وتقال فى غير ذلك مائة فأكثر وثوابها لا نهاية له لأن الثواب على قدر المطلوب . وذكر بعضهم أنها بأربعة عشر ألف صلاة ، فلذلك اختارها أهل الطريق .

إلى أن قال ومعنى كونها أنها (عَدَدَ كمال الله) أنها لا نهاية لها ، ومعنى عددها أن الله يحصيها بعلمه ويعلم أنها لا تتناهى ، إلى آخر ما قال .

ومعلوم أن الشيخ الصاوى من أجل علماء المالكية وأعظم فقهائهم ومن أكابر السادة الصوفية الذين جمعوا بين العلم والعمل فهو ممن يدعو إلى الله على بصيرة نيرة وعلم تام . وقد جاء ذكر العدد فى حديث جويرية الصحيح (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ) وجاء (سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ وَعَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ والسَّمَاءِ وَمِلْءَ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٦ .

ما فِى الأَرْضِ والسَّمَاءِ وَعَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ وَمِلْءَ كُل شَيْءٍ وَعَدَدَ مَا أَحْصَاهُ كِتَابُهُ وَمِلْءَ مَا أَحْصَاهُ كِتَابُهُ) . بل التسبيح المشهور (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَاءَ نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ) ، ومعلوم أَن كلمات الله لا نهاية لها . (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى)[1] إلخ .

ولو شئنا لأَطلنا . وعلى كل حال فالشريعة لا تعرف هذا التحجير الذى شغف به بعض الناس ، بل هى طريقة تضاد طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم على خط مستقيم . وما هؤلاء عندى إلا كأَهل الكوفة الذين سأَلوا عبد الله بن عمر عن قتل المحرم الذباب فقال لهم عجبا لكم يا أَهل الكوفة تقتلون الحسين ابن بنت رسول الله (فى جيش يزيد) وتسأَلون عن قتل الذباب .

ولو أنصف هذا الفريق لصرف هذه الجهود إلى تلك المنكرات الفاشية المجمع عليها التى من شأْنها أَن تأْتى على بنيان الأمة من القواعد ، وقد قلت فيهم وفى أَمثالهم :

أَفتتركون المنكرات سبهللا	وتحاسبون على اقتراف الذرة
أَفتصلحون البيت من شرفاته	ما أَنتمو إلا كأَهل الكوفة

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ .

كلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم[1]

رأَينا أَن نذكر للقارىء الكريم بعض ما ذكره العلماء مما يعد برهانا على صدقه وعلو منزلته ، فنقول : قال الإمام أبو محمد على بن أحمد بن حزم : «وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف أحد فى مشرق الأَرض ومغربها أنه عليه السلام أَتى إلى قوم جهل لا يقرون بملك ، ولا يطيعون لأَحد ولا ينقادون لرئيس ، نشأَ على هذا آباؤهم ، وأَجدادهم وأسلافهم منذ مئات من الأَعوام ، قد سرى الفخر والعز والنخوة والكبر والظلم والأَنفة فى طباعهم ، وهم أَعداد عظيمة قد ملؤُا جزيرة العرب وقد صارت طباعهم طباع السباع ، وهم أُلوف الأُلوف ، قبائل وعشائر ، يتعصب بعضهم لبعض .

فدعاهم بلا مال ولا أَتباع ، بل خذله قومه وأَبوا أَن ينحطوا من ذلك العز إلى غرم الزكاة ، ومن الحرية والظلم إلى جرى الأَحكام عليهم ، ومن طول الأَيدى بقتل من أَحبوا إلى القصاص من النفس ، وقطع الأَعضاء ، ومن اللطمة من أَجل من فيهم لأَقل رجل غريب دخل فيهم ، وإلى إسقاط الأَنفة والفخر إلى ضرب الظهور بالسياط والنعال أَن شربوا خمرًا أَو قذفوا إنسانا ، وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا .

(١) مجلة الأزهر — الجزء الأول من المجلد الرابع عشر — سنة ١٣٦٢ .

فانقاد أكثرهم لكل ذلك طوعا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف ما منهم أحد أخذ بغلبة إلا مكة ، وخيبر ، فقط. وما غزا غزوة يقاتل فيها إلا تسمع غزوات بعضها عليه وبعضها له. فصح ضرورة أنهم آمنوا به طوعا وكرها ، وتبدلت طبائعهم بقدرة الله من الظلم إلى العدل ، ومن الجهل إلى العلم ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم الذى لم يبلغه أكابر الفلاسفة ، وأسقطوا كلهم أولهم عن آخرهم طلب الثأر ، وصحب الرجل منهم «قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له» صحبة الأخوة المتحابين ، دون خوف يجمعهم ، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم ، ولا مال يتعجلونه .

وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء . فهل هذا إلا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم ، وقسره عز وجل لطباعهم ، كما قال تعالى : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)(١) .

ثم بقي عليه السلام كذلك بين أظهرهم بلا حارس ، ولا ديوان جند ولا بيت مال محروسًا معصومًا. وهكذا نقلت آياته ومعجزاته ، فأي شيء يصح من أعلام الأنبياء. فأعظم منه مانقل عنه عليه السلام بصحة الطريق إليه وارتفاع دواعي الكذب والعصبية جملة عن أتباعه فيه ، فجمهورهم غرباء من غير قومه ، لم يمنهم بدنيا ، ولا وعدهم بملك . وهذا لاينكره أحد من الناس » .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٣ .

وأيضا فإن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا . فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى وذلك أنه عليه السلام نشأ كما قلنا فى بلاد الجهل لايقرأ ولا يكتب ، ولم يخرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتين : إحداهما إلى الشام ، وهو صبي مع عمه أبي طالب إلى أول أرض الشام ورجع ، والأخرى أيضا إلى أول الشام ، ولم يطل بها البقاء ، ولا فارق قومه قط . ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلها . فلم تتغير نفسه ، ولا حالت سيرته ، إلى أن مات ودرعه مرهونة فى شعير لقوت أهله «أصواع ليست بالكثير » .

ولم يبت قط فى ملكه دينار ولا درهم . وكان يأكل على الأرض ما وجد ، ويؤثر على نفسه. وقتل رجل من أفاضل أصحابه بين أظهر أعدائه من اليهود ، فلم يتسبب إلى أذى أعدائه بذلك ولا توصل بذلك إلى دمائهم ، بل فداه من عند نفسه بمائة ناقة ، وهو فى تلك الحال محتاج إلى بعير واحد يتقوى به. وهذا أمر لاتسمح به نفس ملك من ملوك الأرض وأهل الدنيا من أصحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه. فصح يقينا لاشك فيه أنه إنما كان متبعًا ما أمره به ربه عز وجل . سواء أكان ذلك مضراً به غاية الإضرار أم كان غير مضر به. وهذا عجيب لمن تدبره .

ثم حضرته المنية ، وله عم أخو أبيه هو أحب الناس إليه ، وابن عم هو من أخص الناس به ، وهو أيضاً زوج ابنته التي لا ولد له غيرها ، وله منها ابنان ذكران ، وكلا الرجلين المذكورين عمه وابن عمه ،

عنده من الفضل والدين والسياسة فى الدنيا ، والبأس والحلم وخلال الخير ما يجعل كل واحد منهما حقيقا بسياسة العالم كله ، فلم يحابهما ، وهما من أشد الناس دفاعا عنه ومحبة فيه ، وهو من أحب الناس فيهما ، إذ كان غيرهما متقدماً لهما فى الفضل ، وأن كان بعيد النسب منه ، بل فوض الأمر إليه قاصداً إلى الحق واتباع ما أمر به .

ولم يورث ورثته ابنته ونساءه وعمه ، فلسا واحداً ، وهم كلهم أحب الناس إليه ، وأطوعهم له . وهذه أمور لمن تأملها كافية مغنية فى أنه إنما تصرف بأمر الله تعالى له لا بسيامة ولا بهوى ، ولا مقتضى طبيعة .

فوضح بما ذكرنا ولله الحمد أن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حق ، وأن شريعته التى أتى بها هى التى وضحت براهينها ، واضطرت دلائلها إلى تصديقها ، والقطع على أنها الحق الذى لا حق سواه ، وأنها دين الله تعالى الذى لا دين له فى العالم غيره . والحمد لله رب العالمين .

نبوته صلى الله عليه وسلم (١)

(١)

الكلام فى النبوة فى مقامين :

المقام الأول :

إمكان النبوة وتصوير كيفية الوحى وأنه لا بعد فيه . وبيان أنهم الآن فى أوربة أصبحوا يعترفون به أو بما هو من جنسه .

المقام الثانى :

ثبوت نبوته (صلى الله عليه وسلم) بالبراهين القاطعة :

امكان النبوة :

تعلم أن فى كل شيء من الأشياء وصنعة من الصنائع وعلم من العلوم وخلق من الأخلاق مثلاً أعلى ، لأن الناس فى كل ذلك متفاوتون وليس هناك تفاوت يشبه تفاوت أفراد نوع الإنسان ، حتى أن من فى الدرجة الدنيا يجهل علوم من فى الدرجة العليا تمام الجهل فلا يعرف ذلك إلا بالتوقيف. وربما كان البعد بينهما شاسعاً فلا يعرفه بالتوقيف أيضاً.

وإذا كان ذلك معقولاً فى العلوم والصنائع والسياسات فهو فى باب الفضائل والكمالات وطهارة النفوس وعلو الفطرة ورفعة الاستعداد أوضح وأظهر ، حتى أنك لتجد فى هذا النوع الرجل الغبي الذى لا يفرق بين الحق والباطل ولا يكاد يعرف الضار من النافع ولا المهلك من المنجى

(١) مجلة الأزهر — العدد الأول — الأول — المحرم سنة ١٣٤٩ .

أو تجده شريراً قد تناهى شره فلا يلذ له إلا النقائص والموبقات ، وهؤلاء الشريرون هم عقارب نوع الإنسان ، ومنهم من ينقدح فى نفسه الأمور على غير وجهها ولا يكاد يحكم فيها حكماً صحيحا ، ومنهم الذكى الذى ينظر فى الأمر نظرة صادقة فيعرف بواطنه وخفاياه ويعلم ما سيكون له من أثر وما يترتب عليه من غاية ، ويتفرس فلا تخطىء فراسته وكأنه يرى من وراء حجب الغيب ما قد خفى على غيره ، كما قيل .

الألمعى الذى يظن بك الظـن   كأن قد رأى وقد سمعا

فهذا هو المحدَّث والملهم أو الذكى ، والأولى أن تقول هو الطاهر النفس الصافى الذهن الرفيع الاستعداد القوى الحدس ، فهذه الصفة أو المميزة أو الدرجة التى تعرفونها فى بعض الناس قد تترقى حتى يكون صاحبها مستعدا للتلقى من الملأ الأعلى ، وأهل أوربة لا ينكرون الأخذ عن الأرواح الآن (وسنفيض فى ذلك بعد) فمثل هذا باستعداده الشريف يكاد يعرف جلية الأمر قبل أن ينزل عليه الوحى ، فنفسه الطاهرة كشجرة مباركة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار .

فإذا جاءه الوحى كان نوراً على نور ، والوحى لا ينزل إلا على صاحب الاستعداد الرفيع الذى يحب الفضائل حباً جما ويبغض النقائض بغضاً شديداً لأنه يباينها وتباينه ، فتراه يمقت الظلم والشرك والفساد ويكرهها كراهية ذاتية ، وبالاختصار يحب الحق حباً بالغاً من أعماق قلبه ويكره الباطل كرهاً بليغاً من أعماق قلبه كذلك . فعدله ذاتى ، وشفقته لى خلق الله ذاتية ، ومحبته لمكارم الأخلاق ذاتية ، ومعرفته

بالله آخذة بكل قلبه ومستولية على جميع مشاعره ، لا يشغله عن ذلك شىء ولا يخالجه فيه شك ولا هم ، ولا يعتريه انهزام ولا تردد ولو انفردت سالفته (١) فليس كل إنسان صالحاً للرسالة ولا مستعدا للنبوة ، وإنما المستعد إليها هو الفرد الكامل والمثل الأعلى من ذلك النوع كما قال عز وجل : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٢) .

أما الوحى الذى يجهله كثير من الناس أو لا يكاد يصدق به لعدم تصوره إياه ، حتى قال لى بعض الكبراء : لو انحلت مشكلة الوحى لزالت عقبات كثيرة تعترضنا فى سبيل التصديق بالنبوة ، فإنه لا يمكننا أو لا يمكن أبناء هذا العصر الحاضر أن يصدقوا بما لم يفهموا

* * *

نقول : أما الوحى الذى بلغ من الصعوبة فى بعض العقول هذا المبلغ فأمره واضح إلا عند من يقف مع ما ألف ولا يؤمن إلا بما عرف فأن الوحى عبارة عن إلقاء الملك فى الروع (٣) شيئاً من الأشياء . ومن ذا ينكر الإلهام الذى يقع فى القلوب المستعدة بغير نظر وفكر فى كل الطبقات من أفراد هذا النوع حتى الطبقات الدنيا منها فما هو مستعد له ، فضلاً عن العليا .

وقد أثبت ذلك المناطقة وسموه حدساً ، وقالوا : إن الحدس ليس فيه ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى أمر مجهول كما هو شأن النظريات .

(١) السالفة أعلى العنق أو صفحته وهما سالفتان ، وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت . وفى الحديث (لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .   (٣) الروع : القلب .

ثم نقول من ذا الذى يجعل المعارف الإنسانية كلها قصراً على ما ينتجه الفكر والنظر بعد ما أثبت علماء التنويم المغناطيسى بالأدلة المحسوسة التى يمكن كل إنسان أن يشاهدها أن المنوم بعد أن يبطل حسه وتتخدر أعصابه –تخدراً تاماً فلا يمكنه أن ينظر أو يفكر حتى إنه لا يسمع أصوات المدافع ولا يتأثر بشىء من الأشياء، يأتى فى هذا الحال بما لا يصل إليه فكر ولا نظر، وقد أصبح الجدال فى ذلك جدالاً فى المحسوس فلا حاجة للإطالة فيه والاستدلال عليه بل نقول : من ذا الذى ينكر الرؤيا الصادقة وقد وجدت فى كل أمة وأثبتها علماء كل ملة بعد التجربة والمعاينة، والمقام لا يحتمل كثرة الاستشهاد .

وليس غرضنا فى هذه العجالة أن نلم بكل ما يتطلبه الموضوع فى كل نقطة من نقطه، فإن ذلك يحتاج إلى مقالات عديدة، ولعلنا نوفيها حقها على ما نحب وتحب إن شاء الله، على أن من لا ينفعه القليل لا يفيده الكثير .

ولا بأس أن نقول للمؤمنين بالقرآن : إن سورة يوسف فيها من الرؤيا الصادقة « رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك » وإن شئت فقل : رؤيا صاحبى السجن ، وعلماء الأرواح الآن يثبتون ما هو أكثر من هذا « وإن شئت أفردنا ذلك بمقال ضاف » .

أما الملك الذى ينزل بالوحى ويكلم الأرواح فلا معنى لإنكاره والحكم بعدم وجوده ، فإن الحجة فى ذلك الإنكار إنما هو كون العلم يثبته

« كما يقولون » وهل كل ما لم يصل إليه العلم غير موجود « اللهم إن العلم يكذب ذلك » فقد كنا نجهل الميكروبات منذ زمان قريب ، أفكان جهلنا بها موجباً لعدم وجودها أم كانت موجودة فى الواقع على الرغم من هذا الجهل ، وأى معنى للبحث والتنقيب الذى يتقدم به العلم يوماً فيوماً إذا كان الأمر على ما ظنوا .

ومن ذلك الجاهل الذى يزعم أنه أحاط بكل العوالم وعرف ما فى الوجود .

ألم يقرر العلماء والفلاسفة أن عدم الدليل ليس دليلاً على عدم المدلول ، على أن علماء الاسبرتزم « استحضار الأرواح » الذين اشتغلوا بالمسائل الروحية أثبتوا بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة أن هناك عالماً وراء عالم الطبيعة قد خرق لهم كل نواميس المادة وما قرروه من ذلك ، وقد أصبح ذلك عندهم لمس اليد ورأى العين .

« وستعرف أن علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه وافتروه عليه » وسنبين أن له دائرة خاصة لا يتعداها وأنه هو نفسه يكذب هؤلاء المتفيهقين الجاهلين . فإذا كان ذلك معقولا بل محسوساً فى غير الأنبياء فما بالك بالأنبياء وهم المثل الأعلى لذلك النوع .

هذا وقد ذكر علماؤنا للوحى كيفيات كثيرة ، ولكن نقتصر منها على كيفيتين ذكرهما الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى ، وهما فى غاية الوضوح لكل من يريد الحق لا التعصب والعناد : أحدهما أن يرتفع النبى (صلى الله عليه وسلم) عن المستوى

البشرى إلى المستوى الملكى «وروحه الشريفة مستعدة لذلك تمام الاستعداد ، فإن علاقتها بالملأ الأعلى أكثر وأتم من علاقتها بعالم المحسوسات» .

والروح فى أصل خلقتها مناسبة لخلقة الملك ، وربما كانت أرفع منه قدراً وأعظم منه سرا ، والملك إذ ذاك يكون على حالته الملكية ، ولكن يصح أن يراه الرسول وهو على هذا الحال ، لأنه إنما ينظر إليه ببصر الروح عند تجرده عن الغواشى البدنية ومفارقته للعوالم المادية .

وأما جلساؤه فلا يرونه لأنهم لم يتجردوا من ملابسهم الطبيعية ومحيطاتهم الكونية ، ويقرب هذا بعض التقريب ما نشاهده من أحوال المنوم تنويماً مغناطيسياً فإنه يرى مالا يراه الحاضرون لأن السلطان فيه للروح فهو يرى بحواسها لا بحواس البدن ، وأما حاضروه فالمستولى عليهم هو سلطان الجسم لا سلطان الروح .

ونقربه من وجه آخر فنقول : لا بدع فى تغير الأحكام بتغير الأطوار والأحوال ، حتى تصل إلى حد التباين ، فإن الثلج إذا كان جامداً كان له حكم الجامدات ، فإذا أذبناه بقليل من الحرارة كان له حكم السوائل ، فإذا صيرناه غازاً كان له حكم الغازات . وإذاً فما الذى يستنكر من تغير الأحكام بتغير الأحوال ويكفى هذا لمن أنصف ولم يتعسف .

أما الكيفية الثانية للوحى فهى أن يتنزل الملك من سماء الملكية إلى أرض البشرية ، فيتمثل رجلاً فيكلم النبى بلسان الأشباح

لا بلسان الأرواح ، وفى هذه الحال يراه كل من حضر ويكون النبى على حالته العادية وصفاته البشرية «كما فى حديث الإسلام والإيمان والاحسان» (١)

وقد أعطى الملك القدرة على هذا التمثل ، ولا معنى لأن تنكر ذلك قياسا على ما تعلمه من نفسك فإنك لا تعرف إلا أحكام عالمك ، ومن الغلط البين أو الجهل الشائن أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر . ويحسن بنا أن نقتصر اليوم من هذا المقام على ما ذكرناه لننتقل للمقام الثانى :

ثبوت النبوة

لنا فى إثبات النبوة طرق كثيرة ، وهى فى إجمالها ترجع إلى ثلاثة أشياء :

١ ـ ما جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) من المعجزات .

٢ ـ النظر فى حياته عليه السلام ودراسة سيرته الشريفة وآثاره الجليلة .

٣ ـ القرآن .

وكل واحد من هذه الطرق الثلاثة مترامى الأطراف بعيد الأكناف يحتاج إلى عدة مقالات . ولكن رأينا أن نمر بك اليوم على جميعها لتحيط خبراً بإجمالها ومناحى القول فيها :

(١) محصل ذلك الحديث أن سيدنا جبريل جاء فى صورة أعرابى فجلس أمام النبى (صلى الله عليه وسلم) فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة وأمارتها ، فأجابه عن كل ذلك .

المعجزات

إن المعجزات ثابتة بالتواتر وأن لم يعرفها الجاهلون أو لم يعترف بها الملحدون . وقد نعلم أن أرباب كل فن وصنعة قد يكون عندهم من الأمور المتفق عليها فيما بينهم والتى لا يمكن الشك فيها ، وقد التحقت عندهم بالبدهيات ما لا يعرفه غيرهم ، وقد تعرف الأمة من أحوال بعض رجالها ما يجهله سواها ، وقد يحتف بالرجل أو الخبر قرائن لا تدع للشك فى صدقه مجالاً . فمن عرف مالكاً أو الشافعى أو أبا حنيفة أو ابن حنبل أو البخارى فإنه لا يشك فى صدقهم ولا فيما يروونه ، فما بالك إذا اجتمع من أمثالهم العدد العديد وبلغ الأمر مبلغ التواتر فى آحاد المعجزات أو جملتها .

وبالاختصار فأخباره صلى الله عليه وسلم وما ظهر على يديه أظهر عندنا وأثبت من أخبار (أرسطو) (وأفلاطون) (وجالينوس) (وأقليدس) (وهوميروس) (ولويس الرابع عشر) (ونابليون) (وجان دارك) (ورينان) (وأناتول فرنس) . ونقلة الأخبار الإسلامية أظهر وأكمل وأكثر من نقلة الأخبار عن هؤلاء ، ومن يردها فهو جاهل أو معاند . ولا فرق بين ما يحدثه التواتر من اليقين فى النفوس وبين ما يحدثه الحس من ذلك ، فإن وجود أمريكا « وإن لم نرها » مساو عندنا لأكبر ما نحس به ، اللهم إلا أن تضل

العقول أو تفسد الفطر ، وقد قال الشاعر العربى الذى لم تفسد فطرته ولا انعكست فكرته :

تأوبنى هم من الليل ناصب ... وجاء من الأخبار ما لا يكذب
تظاهرن حتى لم يكن لى ريبة ... ولم يك فيها للنهى متعصب

ومع هذا فلا نسير بك فى هذا الطريق وإن كان لنا فيه مجال واسع « فقد قال الإمام النووى : إن المعجزات ألف ومائتان » .

ولكن عندنا ما يغنى عنه ولعلك أعرف به من هذا ، ولكل قوم طريق هو عليهم أقرب ولهم أجذب ، فنقول :

الطريق الثانى

إن حال الصادق لا يشبه بحال الكاذب فى الأمور الصغيرة فكيف يشبه فى الأمور الكبيرة . الكاذب لا يكون إلا جباناً ، والجبان لا يأتى بجلائل الأعمال وعظائم الأمور .

الكاذب يظهر فى قوله وفعله وحركاته وسكناته ومعاملاته . ومن الأمثال قولهم « تخبر عن مجهوله مرآته [1] » أى يخبر ظاهره عن باطنه . ومما سار سير الأمثال قول القائل : * ضمائر قلب المرء تبدو بوجهه * ويقول الشاعر الجاهلى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(١) المرأى والمرآة : المنظر ، يقال فلان حسن فى مرآه وفى مرآته أى منظره .

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله ، وما كان عليه فى جميع أحواله وسيرته طوال حياته وما أحدثه من الانقلاب **الهائل فى العالم** كله لم يشك فى أمره .

ولا أجد فى هذا المقام أبلغ وأروع مما قاله ذلك الرجل الكبير لامارتين الفرنسى الطائر الصيت الغنى عن التعريف ، قال [1] : (أترون محمداً كان أخا خداع وتدليس وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعد ما وعينا تاريخه ودرسنا حياته فإن الخداع والتدليس والباطل والمين ، كل أولئك من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، كما أن ليس للكذب قوة الصدق .

وإذا كانت قوة الصعود والمرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية ويظهر فى الأفق من القذيفة فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد وتبقى زمناً طويلا ، وتمشى فى الحياة أبداً رخية ، وهى لا ريب فكرة قوية ، صدرت من جنان قوى .

ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، وتروح معقولة يقبلها اللب ، ويعتمدها الذهن .

---

(١) نقل ذلك صاحب مجلة البيان فى عددها الثالث من السنة السابعة ، صحيفة رقم ١٤٠

ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه . فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء مالقيه من عبدة الأوثان وثباته وبقائه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته فى وسط أعدائه وبهرة خصومه فى قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها ، وتقبله سخرية الساخرين ، وهزءه بهزء الهازئين وحميته فى نشر رسالته ، وثباته وتوفره عليها ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل نفيراً من عدوه ، ووثوقه بالنجاح ، وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم ، وأناته وصبره حتى يحرز النصر ، وطماعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة وتأسيس العقيدة لا لفتح الدول وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ، ونجواه التى لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره ونجاح دينه بعد موته .

كل أولئك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضىء فى قلبه . وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة .

الأولى : تدل على من هو الله .

والثانية : تنفى ما ألصق الوثنيون به .

والأولى حطمت آلهة كاذبة ، ونكست معبودات باطلة .

والأخرى فتحت طريقاً جديداً إلى الفكر ، ومهدت سبيلا طريفة للنظر .

فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ، وراد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ومنشيء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد فذلكم هو محمد ، فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيماً فى جميعها غير هذا الرجل ؟

انتهى كلام الرجل العظيم الذى لم يأكل الحقد قلبه ولا الجهل عقله . وحقاً (ليس يدرى العظيم غير العظيم) .

ولنقتصر اليوم من هذا الطريق على هذا ، ولو شئنا لذكرنا من شمائله ورفيع دلائله ما يلتحق بمدركات الحس ويخضع له أساطين علماء النفس ، ولنا إليه عودة إن شاء الله ، فلننتقل بك إلى القرآن .

الطريق الثالث

القرآن

وما أدراك ما القرآن ! وليت شعرى أنعده معجزة واحدة أم نتجاوز به كل عد ونتخطى به كل حد ، فلو نظرت إلى مافيه من العلوم والمعارف وما اشتمل عليه من الحقائق والدقائق لعرفت أنه المعجزة الكبرى والآية العظمى . وقد قال سديو الفرنسى « لو وجدنا القرآن فى فلاة ولم نعرف من جاء به لعلمنا أنه من عند الله » .

وقال الكونت هنرى دى كسترى ماهو مثل هذا أو أعظم منه ؛ وربما نقلنا كلامه فى غير هذه العجالة . ولو نظرت إلى مافيه من الشرائع التى تطهر النفوس وتأخذ الناس إلى السعادة من كل باب وتطلعهم على عظمة الله وجلاله بأبلغ مايكون وأقصى مايتصور وتسن لهم السنن التى عجز عنها أرسطو وأفلاطون لعرفت أنها الآية الباهرة والحجة القاهرة ، خصوصاً من مثل ذلك الأمى الذى لم يتل كتاباً ولا خطه بيمينه .

ولو نظرت إلى فصاحته وبلاغته لاستولى عليك الدهش ولم تستطع أن تكيف ما خالج ضميرك وملأ قلبك ، روح غير معروفه لأنها من السماء لا من الأرض ، وأسلوب أعجز الفصحاء من العرب العرباء فلم يستطيعوا منفردين ولا مجتمعين أن يعارضوه أو يأتوا بسورة من مثله .

ولندع ذلك كله ونتحدث معك اليوم فى ناحية من نواحى إعجازه غير ماسمعت ، وهى إخباره بالمغيبات التى وقعت على نحو ما أخبر ولم يتخلف منها شىء : فمن ذلك قوله (غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ)[1] .

وإنى أستحلفك بحق العلم وشرف الإنصاف أن تنظر فى هذه الآيات نظرة صادقة لترى كيف ذكر ذلك الوعد على سبيل الجزم وكيف

(١) سورة الروم الآيات ٢ — ٦ .

أكده بتلك العبارة البالغة حيث يقول : (وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ) وكيف ذكر أنه يكون فى بضع سنين ، وهل يستطيع الذى يقول من عند نفسه أن يؤكد ويحدد ، وهو إخبار عن أمتين عظيمتين بعيدتين لايدرى حالهما ومآلهما إلا الله تعالى ، خصوصًا فى مثل ذلك العصر وهل ذلك إلا تعرض للخطر وإلقاء بالنفس إلى التهلكة لولا وثوقه بالله عن الله ، ولقد كان فى غنى عن ذلك وأنه لاحزم من أن يخاطر بمستقبله بالإخبار عن مستقبل غيره بهذا التحديد والتأكيد ، حتى جعله فى بضع سنين ثم قال : (وعد الله لايخلف الله وعده)

ولننتقل بك إلى آيات المغيبات الأخرى ولا نطيل القول فيها :

يقول الله تعالى (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ)(١) . وهم يومئذ قليلون ذليلون مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس ، فكانوا بعد ذلك خلفاء وعظماء ، وصدق الله ورسوله : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)(٢) فهزموا وولوا. ويقول فى حق اليهود : (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا)(٣) .

وفى هذا إخبار بثلاثة مغيبات(٤) (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ)(٥) فكانت لهم يوم بدر . (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ

(١) سورة النور ، الآية ٥٥ . (٢) سورة القمر ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١١١ ، ١١٢ .

(٤) الأول لا يضرونهم إلا أذى باللسان فقط ، والثانى أنهم يهزمونهم إذا قاتلوهم ، والثالث أنهم يكونون أذلاء تحت سلطان غيرهم .

(٥) سورة الأنفال ، الآية ٧ .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا)(١) فكان كل ذلك «وقد عبر بإذا التى للتحقق كما هو معروف» (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ)(٢) (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)(٣) (ولن تفعلوا) . فما فعلوا .

ويقول : (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا . . . . . وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا)(٤). ويقول (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)(٥) ويقول : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)(٦) فغلبوا كما أخبر . ويقول : (واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)(٧)

ولو لم يكن هذا كلامًا إلهيا لكان ذكره سفهًا موقعًا له فى الورطات والهلكات ، وقد جاءه أعرابى وهو نائم فاخترط سيفه وقال : من ينجيك منى ، فقال : الله ، فوقع السيف من يد الأعرابى . وقد كان يوم حنين على بغلة لاتصلح للطلب ولا تنفع فى الهرب ، وقد فر عنه أصحابه وهو ينادي بأعلى صوته : (أَنَا النَّبِىُّ لَا كَذِبْ) (أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ) .

(١) سورة النصر ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٤ .

(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٠ ، ٢١ .

(٥) سورة الصف ، الآية ١٣ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٢ .

(٧) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

وقبائل هوازن إذ ذاك بقضها وقضيضها ، فهل يتصور مثل هذا من غير من تكفل الله له بالعصمة من الناس فوثق بكفالته فلم يبال بأحد سواه .

ويقول : (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)[١] ويقول : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[٢] ويقول : (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)[٣] فرده إلى مكة عام الفتح .

ومن ذلك إخباره بما كان للأنبياء السابقين ، وهو أمى نشأ بين أميين كما قال بعد قصة نوح عليه السلام : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)[٤] .

وقال بعد قصة مريم عليها السلام : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)[٥] وقال فى قصة موسى صلى الله عليه وسلم (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)[٦] (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)[٧] .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥١ .
(٢) سورة الحجر ، الآية ٩ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٨٥ .
(٤) سورة هود ، الآية ٤٩ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ٤٤ .
(٦) سورة القصص ، الآية ٤٤ .
(٧) سورة القصص ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

وقال بعد قصة سيدنا يوسف وإخوته : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)[١] .

ولم يمكن أهل الكتاب أن يكذبوه فى شىء من ذلك ، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه ، وكانت هذه الأخبار عندهم مكتومة يتواصون فيما بينهم بكتمانها ، ولذلك يقول لهم الله تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ)[٢] وينعى عليهم كتمانهم ما فى كتبهم .

كما قال : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)[٣]
وكثيراً ما تحدوه بتلك المغيبات فسألوه عن أهل الكهف وعن ذى القرنين ، إلى آخر ما يعرفه العلماء وقد سمعه الجهلاء .

مما يناسب ذلك أن القرآن وهو المتواتر الذى لا شك فى تواتره ذكر معجزات أخرى مثل قوله : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)[٤] (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)[٥] .

وقد امتحنوه صبيحة ليلة الإسراء امتحان المتعنتين ، فلم تهن عزيمته ولا دحضت حجته . إلى غير ذلك مما يطول فيه القول ولا يأتى عليه

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٢ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٥٩ .
(٤) سورة الأنفال ، الآية ١٧ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية ١ .

البيان . وقد قال له الله وهو العليم بحال خلقه : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)[1] .

ولعلك تلحظ بذهنك الثاقب ما فى هذه الآية من تحدى الجن والإنس ومناوأة الجميع وما تشير إليه من يقينه البالغ الذى يستحيل أن يكون من كاذب فيما يدعيه أو مرتاب فيما يقوله ، وما تحتويه من الثقة بالله التى لا يبالى صاحبها بجن ولا إنس ، إلى آخر ما يمليه عليك ذوقك السليم وطبعك المستقيم .

ولنسق لك دليلاً آخر لا يمارى فيه إلا الجاهلون ، ولا يتصاب أمام حجته الناصعة إلا الجامدون. ذلك الدليل القاطع والبرهان الساطع هو قوله تعالى : (يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ)[2] أفتراه وهو من أعقل العقلاء وأسوس العالم باتفاق الجميع وشهادة آثاره التى بهرت العالم يأتى إلى أمره المحتمل فيفضحه وإلى بنائه الذى كاد يكمله فينقضه حيث يعمد إلى كتبهم التى فى بيوتهم — وهم يضنون بها كل الضن على غيرهم — فيخاطب جميعهم قائلاً لهم أنكم تجدوننى فيها بنعتى ونعت أصحابى بل بذكر اسمى وأمتى كما قال : (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)[3] .ويقول على لسان المسيح (وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ)[4] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ . (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .
(٣) سورة الفتح الآية ٢٩ . (٤) سورة الصف ، الآية ٦ .

فلم يستطع أهل الكتابين أن يكذبوه ، وكان من السهل أن يجمعوا الخاصة والعامة ويقفوهم على ما يهدم دعواه هذه الصريحة التى لا تحتمل ولا يستطيع أن يدافع عنها لو كان كاذباً فيها .

فقل لى بعيشك هل يخاطر عاقل يعلن من نفسه الكذب مهما كان أمره هذه المخاطرة التى لا معنى لها ولا داعى إليها ، ثم يسكت اليهود بعد ذلك وهم من ألد أعدائه بل يؤمن الكثير منهم مثل عبد الله بن سلام وأضرابه حتى قال تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ)[1] .

ويقول فى حق قوم من النصارى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ)[2] ويطلبهم للمباهلة فيمتنعون ويقبلون الجزية ولا يباهلون ، ويذكر عنهم جميعاً أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويكرر ذلك بدون خوف ولا وجل ، اللهم إن ذلك غير مقبول ولا معقول .

ولنختم مقالتنا هذا بقول الله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ)[3] .

ولعلك تلحظ ما فى هذه الآية الكريمة التى تعطيك مقاصد الشريعة المحمدية إجمالاً ، فقد بينت للأمة ما يجب عليها مع الخارجين عنها

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٤٣ . (٢) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .
(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

من أعدائها فقالت : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) وما يجب عليها فى داخليتها مع أبنائها فقالت : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) وما يجب عليها فيما بينها وبين الله تعالى فقال : (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان فإنه عميق الغور بعيد المدى ، وليس ذلك إلا إجمالاً يطول تفصيله ويدق تحليله .

ولعلنا نحلى بعض مقالاتنا المقبلة بشذور من فضائله ونماذج من شمائله إن شاء الله .

ما إن مدحت محمداً بمقالتى   لكن مدحت مقالتى بمحمد

نبوته صلى الله عليه وسلم (١)

(٢)

نريد أن نتكلم اليوم فى براهين عقلية ودلائل وجدانية ، وسنتكلم بعد فى معجزاته الحسية ، فنقول :

إن من نظر بعقله السليم ورجع إلى وجدانه الصحيح ، علم أن رفع الأمة العربية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ومن دركات الذل الذى كانت فيه إلى أعلى درجات العز ، وتربيتهم بأحسن التعاليم ، وأخذهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب ، حتى صار الواحد منهم أمة وحده بعد أن كانوا أشبه شىء بالوحوش الضارية ، يأكل قويهم ضعيفهم ويئدون بناتهم ، إلى غير ذلك من الفظائع التى لا تفعلها الحيوانات (٢) ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة فى أقل قليل من الزمن ، ثم ينشر ذلك النور فى كل أنحاء المعمورة ، ذلك كله لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على أن مصدره هو مثال الخير وشخص الكمال ؛ والفضائل لا تفيض من الإنسان على غيره إلا على قدر رسوخه فيها وتوافرها لديه .

إن مرمى الأديان الإلهية كلها إنما هو تخليص أفراد النوع الإنسانى من مخالب الشرور التى أحاطت بهم ، وغرس مكارم الأخلاق فى أعماق

(١) مجلة الأزهر — العدد السادس — المجلد الأول — جمادى الآخرة ١٣٤٩ .

(٢) لا يهولنك ما اشتهر من منع جمع الحيوان وأمثاله بالألف والتاء ، فقد صرح الشهاب شرح الشفاء بجوازه فى كل ما لا يعقل ما لم يكسر .

نفوسهم ومراقبة الله تعالى فى سرهم وعلانيتهم ، فإن ذلك جماع الخير وأساس السعادة . ونبينا صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء فى ذلك كله ، وهو برهان ساطع على نبوته لدى من يطلب البراهين العقلية الوجدانية من ذوى الفطر السليمة والقرائح النيرة ، وأما غيرهم فنحيلهم على البراهين الحسية والخوارق الكونية ، إذ لا يعرفون مقدار الحقائق المعنوية التى يدور عليها فلك السعادة من ارتفاع الإنسان إلى الأفق الملكى وترقية مقام البشر إلى أعلى عليين ومعرفة الله تعالى والكشف عن حقائق الأشياء ورقة الأحساسات وتنعيم الأرواح بما تشرئب إليه من العالم الأعلى ، حتى تم للإنسان المدنية الأرضية والمدنية السماوية .

فلا برهان عند ذوى البصائر أكبر من أعمال مدعى النبوة وصفاته النفسانية وكمالاته الخلقية وآثاره الخارجية التى ترقى الأمم وتسعد الشعوب وتجعلهم ملوكاً فى الأرض ملوكاً فى السماء ، كما كان ذلك فى الأمة الإسلامية حين تمسكها بدينها وشريعتها

ولا شك أن هذه الآثار الجليلة يستحيل أن تكون عن غير قوة سماوية ، وقد رأينا تاريخ الفلاسفة وغيرهم من أرباب القوة البشرية ، فلم نجد فيه ما يماثل هذا أو يقاربه ، فضلاً عن كون النبى صلى الله عليه وسلم قد نشأ بين قبائل العرب المتوحشة وطوائفها الجاهلة مما يكفى دليلاً وحده على أن الأمر ليس عاديا ولا بشريا :

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

إنه لا يتأتى الكذب من مثل تلك النفس الكاملة التى فاض منها الكمال حتى عم العالم شرقاً وغرباً ، وقد بعث صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق .

وإن مثل هذه النفس التى فاض منها الخير حتى عم العالم بأسره يستحيل أن تكون معدناً للشر أو محلاً للكذب على الله تعالى ، والكذب كما تعلم أشد الأخلاق إفساداً للنفوس ودلالة على سقوطها ونقصها ومن المقرر أن فاقد الشىء لا يعطيه ؛ وأن الطباع لابد أن تظهر مقتضياتها طوعاً أو كرها ، وأن نفس كل إنسان تتجلى للبصائر فى أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته ، كما تتجلى الألوان للأبصار على صفحات الوجوه .

وقد قال بعض العرب عندما رأى آثار ذلك الكمال الذى امتلأ به باطنه ففاض على ظاهره : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » ثم آمن به على مقتضى ذلك ، وكان بودى لولا ضيق المقام أن أسهب فى أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم قبل نبوته إلى حيث سمته قريش بالأمين « وما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله كما قال هرقل قيصر الرومان » وأن أقيم الدليل على أنه لم يعرف فى السنن الإلهية أن الله يؤيد الكاذبين فى دعوى النبوة ، بل يستحيل على عدالة الله تعالى وحكمته أن ينصر المبطلين فى ذلك لما يترتب عليه من الضرر العظيم ، وقد قال عيسى عليه السلام « سيظهر

بعدى أنبياء كذبة ، فقيل : فما علامتهم ؟ فقال علامتهم أن الله لا يؤيدهم . وقال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)[1] .

وقد علمت أنه تعالى نصر نبينا عليه السلام بما لم يكن مثله لأحد من المرسلين ، فإن الانقلاب الذى حدث من بعثته صلى الله عليه وسلم لا يعرف له مثل فى تاريخ الأنبياء السابقين ، فمن ظن أن الله نصره وأيده مع كونه مبطلاً كاذباً فقد جهل ما يليق بصفات الله تعالى وسنته فى خلقه ، وأساء الظن بعدالته وحكمته إساءة كبرى .

إن الغاش الكاذب لا يستطيع أن يخفى حاله جميع حياته على كل الناس حتى على أخص أصحابه ، وأنه يستحيل أن لا يزول الستار عن ذلك الغش وتلك المراءاة ، والصدق خاصية لا تكون للرياء أبداً ، فإن الرياء طلاء كاذب لا يلبث أن يذهب بنيران حوادث الأيام ، ولا سيما من له أعداء أشداء وخصماء ألداء ، مثل النبي صلى الله عليه وسلم .

على أن تاريخ أصحابه مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من أساطين الأمة أدل دليل على رفعة حاله وعظم كماله ، فإن النفوس لا تتفق إلا على قدر ما بينها من التناسب ، وأن الطباع تسرق من الطباع ، لا سيما التابع من المتبوع ، وخصوصاً مع المحبة الكاملة ، هذا : مع ماله من الخوارق الحسية التى نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة بل بالتواتر . وسنخوض فيها بعد إن شاء الله .

(١) سورة الحاقة ، الآية ٤٤ — ٤٦ .

ولو أنصف المبشرون الجاهلون المتعنتون لعلموا صدق القرآن الذى يكرر فى الايات العديدة قوله : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)[1] ويقول مخبراً عنهم : (يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ)[2] ويقول مخاطباً لهم (تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ[3] فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[4] ثم لم ينبسوا ببنت شفة « وما أقوى الصادق وأضعف الكاذب » .

وكان ذلك من البراهين عند منصفيهم فآمن كثير من أكابرهم وأحبارهم ، مثل عبد الله بن سلام وأضرابه .

وليس يعقل أن يعتقد مثل ابن سلام — وهو من علماء التوراة كذب النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك ثم يؤمن به أو يعتقد نصارى نجران كذبه ثم لا يجيبوه إلى المباهلة ، بل ليس من المعقول كما قلنا فى مقالنا السابق أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهاناً على كذبه فيخاطبهم والتوراة بين أيديهم — بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوبخهم ويقرعهم ويشافههم بأنهم يجدونه فيها وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ولا من المتصور أن يجترىء على ذلك وهو يعلم كذب نفسه مما ينفرهم منه غاية التنفير ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم . « والكاذب ضعيف حتى عند نفسه »

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٦ وسورة الأنعام ، الآية ٢٠ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .
(٣) الابتهال هو التضرع وقد روى أن أحبارهم قالوا لهم : تعلمون نبوته وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا فوادعوا الرجل وانصرفوا ففعلوا ذلك وجمعوا له الجزية .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٦١ .

وهو إذا لم يكن نبياً فى زعمهم فهو أكبر سياسى باعترافهم ، ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول السفهاء وأكبر الجهلاء ولطمعت فيه أعداؤه وما أسرع ما كان ينتقض بناؤه .

وقد ذكرنا فى العدد الأول من هذه المجلة من آيات الإخبار بالغيب مالا يدع ريبة لمرتاب مثل قوله تعالى : (غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(١) ولفتنا نظرك إلى مافى هذه الآية من الجزم الذى يستحيل أن يكون من كاذب ، وإلى تقليل المدة وتحديدها فى قوله (فِى بِضْعِ سِنِينَ) وإلى تأكيد ذلك فى قوله (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) وكذا قوله (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) مما يستحيل أن يكون من عند نفسه أو بنات حدسه ، ولا يتصور أن تصدر هذه المبالغة وصاحبها ليس على يقين من أمره ولا مستند فيه إلى وحى من ربه إلا من أحمق الحمقى الذى لا يستطيع أن يسوس نفسه فضلاً عن أن يسوس أمة دهش لها التاريخ . وقد راهن أبو بكر رضى الله عنه أبى بن خلف على مائة قلوص (٢) وأخذ القلائص من ورثته عندما نصرت الروم على فارس .

وبعد فمن نظر فى أحواله صلى الله عليه وسلم وجده غريقاً فى بحر التوحيد ناظراً إلى الله تعالى فى كل شىء ، قد امتزج خوفه من الله

(١) سورة الروم ، الآيات ٢ – ٦ . (٢) القلوص : الناقة الشابة .

ومراقبته إياه بلحمه ودمه مما يستحيل أن يكون من رجل تلعب به الشهوات أو تحيط به الظلمات .

فإذا صادفك الرشد وبحثت فى أحواله عليه السلام وجدته رجاعاً إلى الله فى كل شىء « شأن الأنبياء والمرسلين » فكان يقول إذا جاءه أمر يحبه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ » وإذا جاءه أمر يكرهه قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ » وإن أراد أمراً قال « اللَّهُمَّ خِرْ لِى وَاخْتَرْ لِى » وإن أراد سفراً إلى قوم قال « اللَّهُمَّ بِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَجُولُ » وإن أراد نوماً قال « اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ وَضَعْتُ جَنْبِى وَبِاسْمِكَ أَرْفَعُهُ » وإن استيقظ قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » وإن لبس ثوباً جديداً قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى رَزَقَنِى مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِى حَيَاتِى » وإن أكل قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ » وإن شرب قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَعَلَ الْمَاءَ عَذْباً فُرَاتاً بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحاً أُجَاجاً بِذُنُوبِنَا » وإذا أفطر قال « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَعَانَنِى فَصُمْتُ وَرَزَقَنِى فَأَفْطَرْتُ » وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » وإذا هب من نومه ليلاً قال « رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَاهْدِ لِلسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ » وإذا خاف قوماً قال « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِى نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ » وإذا خرج من بيته قال « بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ

أنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَذِل أو أُذَل أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمْ أوْ أجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » وإذا رأى الهلال قال « هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْد ، آمَنْتُ بالَّذِى خَلَقَكَ » وإذا رفع بصره إلى السماء قال « يَامُصَرِّفَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِى عَلَى طَاعَتِكَ » وإذا حلف قال « والَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ » . وإذا عصفت الريح قال « اللَّهُمَّ إنِّى أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَافِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلتْ بِهِ » .

وهكذا فى شأنه كله كان غريقاً فى النظر إلى الله والاستمداد من الله والالتجاء إلى الله . لا يرى لنفسه ولا لغيره حولاً ولا قوة ولذلك كان يقول إذا أصابه هم « حَسْبِيَ الخَالِقُ مِنَ المَخْلُوقِينَ ، حَسْبِى الرَّازِقُ مِنَ المَرْزُوقِينَ ، حَسْبِيَ الَّذِى هُوَ حَسْبِى ، حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » .

ولنختم هذه الكلمة بكلام جليل فى هذا الموضوع للكونت هنرى دى كسترى الفرنسى ، وهو يشتمل على أحد عشر وجهاً يشهد بها الذوق السليم والطبع المستقيم ، قال :

(١) لسنا نحتاج فى إثبات صدق النبى محمد إلى أكثر من إثبات أنه كان موقناً فى نفسه بصدق رسالته ، وما الغرض من رسالته إلا إقامة عبادة إله واحد مقام عبادة الأوثان التى كانت عليها قبيلته فى ابتداء ظهوره .

(٢) لما كانت نفس ذلك النبى مفطورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب فى وجدانه حتى صار عقيدة لم تصل إليها نفس قبله ، وهو ذلك الاعتقاد المتين الذى أحدث انقلاباً كلياً فى النوع البشرى .

(٣) كان محمد « عليه الصلاة والسلام » لا يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مراراً نبيا أميا ، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ، فلم يقرأ كتاباً ولم يسترشد فى دينه بمرشد متقدم عليه .

(٤) لقد نعلم أنه مرت به متاعب كثيرة وقاسى آلاماً نفسية كبرى لأن الله خلقه ذا نفس تمحضت للدين ، من أجل ذلك احتاج للعزلة عن الناس لكى يهرب من الأوثان ومن مذهب تعدد الآلهة ، وكان هذان المذهبان أشبه بإبرة فى جسمه صلوات الله عليه ؛ ولكى ينفرد بما أُنزل عليه من توحيد الله اعتكف فى غار حراء .

(٥) العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات (القرآن) عن رجل أمى ، وهى آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها ، وفاضت عين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب سورة (مريم) وماجاء فى (يحيى) فلما كان اليوم الثانى أشار عليه بتلاوة مافى القرآن عن المسيح ففعل . واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه ، ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر : إن الفرق بين ماسمعنا به منك الآن وبين ماتقوله ديانتنا عنه لايزيد عن سمك هذا القضيب ، وأقول : قد قوى ذلك القضيب فمنع الحبشة من الإسلام وجعلها مسيحية إلى الآن .

(٦) من الصعب أن يظن الإنسان أن الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير ، كيف وهى فصاحة تصدر بغير ضعف أبداً ، وتتجدد

رفيعة معجزة يقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء فهى إلّهية .

(٧) أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته ، وهذا القرآن لايزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التى لايقدر أحد على فك طلاسمها ولن يسير سرها المكنون إلا من صدق بأنه منزل من عند الله ، سواء توصلنا إلى معرفة الوحى وحقيقته أم لا .

(٨) لاينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل ، لأن النبوة من حيث هى عبارة عن قيام رجل من الناس بأمر ربه ، وأن يعتقد أن ما يقوله من عند ربه حق فمحمد « صلى الله عليه وسلم » يعتقد أن روحاً من الله استولت على لبه فلم يعد يعتقد أن له فكراً خاصاً بل إنه أوتيه من عند ربه ، واختفت فى نظره ذاتيته . ومن الصعب أن تقف على معرفة سماعه للصوت الإلّهى هل كان فى الحلم أو فى غيبته عن عالم التصورات . والصدق حاصل على كل حال.

(٩) كانت الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعض الوثنيين أن به جنة ،وهو ظن باطل لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اختلال فى الجسم ولا أدنى ضعف فى القوة المادية ، وليس فى الناس من عرف الناس جميع أحواله فى حياته كلها مثل النبى محمد « صلى الله عليه وسلم » فقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض فى لحيته ، ولو أنه كان مريضاً لما خفى مرضه « ولا أمكن أن تكون له تلك الآثار الباهرة » فليست حالة محمد فى انفعالاته وتأثيراته حالة ذى جنة .

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين للكتاب . نعم نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة فى بعض مواضع إلا أن سببه ميسور المعرفة ، إذ لاعجب إذا تشابهت تلك الكتب فى بعض المواضع خصوصاً إذا لاحظنا أن القرآن جاء متمماً كما جاء النبى خاتما لا سيما ونفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بنى إسرائيل ، وكان يعبد الله الذى يعبدونه ، فلا عجب إذا تشابهت ألفاظ التصرفات وتجانست أصوات الدعاة .

(١٠) ماكان محمد يميل إلى الزخارف ، ولم يكن مستكبراً ولا شحيحاً ، بل كان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ، ويجلس على التراب ، وكان قنوعاً ، خرج من هذه الدار ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى عمره ، ولم تكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشما ، قد احتقر المال ، وقد بلغ من السلطان منتهاه ولم يكن له من علامة الملك سوى قضيب .

(١١) أتى محمد صلى الله عليه وسلم فهدم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ، ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد . وإيمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام لم تفتر حميته فقد انتهى كما بدأ. لم يرغب طول حياته فى المال بل كان كلما جمع إليه شيء منه أنفقه فى الصدقات ، ولقد أعطى عائشة زوجته مالاً يسيراً لتحفظه ، فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته ، فلما وزع عليهم قال

الآن استراح قلبي لأني كنت أخشى أن ألاقي ربي وأن أملك هذا المال) ولقد خطب في أمته قائلاً : أيها الذين يسمعون قولي إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتي ، وإن كنت سلبت أحداً ماله فدونه مالي وهو في حل من غضبي فإن الغل بعيد عن قلبي ؛

انتهى كلام هذا المنصف الكبير . ولنقتصر اليوم على هذا ولنا إليه عودة إن شاء الله ؛

—— ——

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
مهندس/ رجاء الهادي محمد عناره

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨١/٢١٦٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١١٤ ١٢ ص ١٩٨٠-٢-٥٠٠

UNIV. LEIDEN BIBL.